«سلسلة الروايات اليابانية»

غيوم تائهة

فوميكو هاياشي



ترجمة:
هالة دروج

فوميكو هاياشي

غيــوم تائهــة

ترجمة: هالة درّوج

مراجعة: د. خالد المصري

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

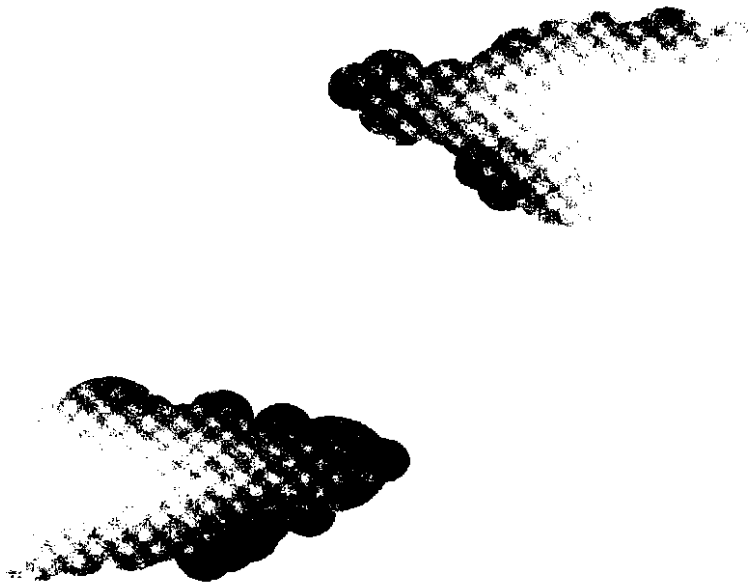
PL829.A8 U5512 2011
Hayashi, Fumiko, 1904-1951
[Ukigumo]
غيوم تائهة / فوميكو هاياشي؛ الترجمة إلى العربية هالة دروج؛ عن الترجمة الإنجليزية للكاتب لين دنلوب؛ مراجعة خالد المصري. -ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص 367 ؛ 14×21سم.
ترجمة كتاب: Ukigumo
العنوان بالإنجليزية: Floating clouds
تدمك: 978-9948-01-979-4
1. القصص اليابانية -- القرن العشرون -- المترجمات إلى العربية.
2. القصص العربية -- القرن العشرون -- المترجمات من اليابانية. أ. دروج، هالة. ب. مصري، خالد.
ج. Dunlop, Lane. د. العنوان.

غيوم تائهة
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الياباني:
Original title: Ukigumo
Written by Fumiko Hayashi
Originally published in Japan by Rokko Shuppan, Tokyo, 1951.

Based on the English translated edition, Floating Clouds published by Columbia University Press in 2006, translated by Lane Dunlop.

www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 171 6576 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



غيــوم تائهــة

مقدمة المترجمة

يصف النقاد رواية «غيوم تائهة» بأنها من أروع ما قدمته الكاتبة فوميكو هاياشي (1904–1951) للأدب الياباني والعالمي. تجري أحداث الرواية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية التي هُزمت فيها اليابان وخسرت معظم الأراضي التي كانت تحت سيطرتها في كوريا وتايوان وجزر ريوكيو وساخالين ومنشوريا وغيرها، وظلت أراضيها تقتصر على جزرها الرئيسية الأربع فقط. تصور الرواية عودة اليابانيين من الأراضي التي كانوا يستعمرونها إلى وطنهم الأم، وتجسد حالات اليأس والإحباط والتخبط النفسي التي عاناها الشعب الياباني في تلك الفترة.

وتسرد أحداث الرواية مجريات حياة البطلة التي تدعى كودا يوكيكو، وعلاقة الحب التي جمعتها مع توميوكا، وهو موظف سابق في وزارة الزراعة والغابة التقته في أثناء عملها في مستعمرة الهند الصينية موظفة طباعة لدى الجيش. وتسلسل الرواية جميع التقلبات في حياة يوكيكو بدءاً بمعاناتها الفقر والاستغلال الجنسي على يد أحد أقاربها في فترة مراهقتها، ثم تمتعها بحياة الرغد وسط الطبيعة الخلابة في مناطق مستعمرة الهند الصينية وعلاقة الحب الدافئة مع توميوكا، ومن ثم المشقات والصعوبات التي مرت بها في أثناء ترحيلها من مكان عملها في دالات بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية.

تعود يوكيكو إلى اليابان وتشعر بالصدمة جرّاء التغيرات التي شهدتها الحياة على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية كافة، وتتطرق الرواية إلى وصف المعركة التي تخوضها البطلة بعد ذلك على كل الجبهات، إذ

تجد صعوبة في إيجاد عمل لإعالة نفسها وتواجه نوبات مد وجزر في علاقتها مع توميوكا الذي عاد إلى زوجته، ليجد نفسه محبطاً وعاجزاً عن أداء التزاماته في ظل الأعباء الكثيرة التي وجدها بانتظاره.

تتميز الرواية بأسلوب أدبي رفيع، وبتصويرها الواضح للمشاعر والأحاسيس الإنسانية، وبالوصف المسهب للمناطق التي تجري فيها الأحداث وبالأخص مناطق الهند الصينية حيث تقدم الكاتبة تفاصيل كل ما فيها من أشجار وأعشاب وتجمعات سكنية، كما تقدم لمحة عن مناخها وأنماط الحياة فيها وعادات سكانها وطبائعهم. ويُردُّ هذا الأمر إلى معرفة الكاتبة الواسعة بمعظم هذه المناطق من خلال الجولات التي قامت بها بوصفها مراسلة صحفية معتمدة إبان الحرب.

نشرت الرواية لأول مرة في العام 1951 وقام المخرج الياباني المعروف ميكيو ناروزي بتحويلها إلى فيلم فيما بعد.

هالة درّوج

مقدمة

لين دنلوب

«قدري أن أكون متجولة ليس لي موطن أصلي. والدي من مدينة إيو في شيكوكو، كان يعمل بائعاً متجولاً، يبيع المواد المجففة. أما والدتي فكانت تعمل خادمة في فندق بالقرب من الينابيع الحارة في ساكوراجيما في كيوشو. وقد أجبرت على ترك بلدتها لأنها تزوجت برجل غريب، وجاء الزوجان ليستقرا في مكان يسمى شيمونوسكي في مقاطعة ياماجوشي، وهناك ولدت أنا».

فوميكو هاياشي (مذكرات متشردة Diary of a Vagabond, 1928)

ولدت فوميكو هاياشي في اليوم الأخير من العام 1904 في الطابق الثاني لمحل سمكري في منطقة شيمونوسكي التابعة لتاناكا شو، وكان والدها مياتا ستارو في الثانية والعشرين من عمره ووالدتها هاياشي كيكو في السادسة والثلاثين من عمرها. جاء زواج كيكو من ستارو عقب زواجين سابقين لها أنجبت في خلالهما ثلاثة أطفال، صبيين وبنتاً، ثم اضطرت لمغادرة ساكوراجيما بعد زواجها بهذا الرجل الغريب بسبب الانتقادات الحادة التي كانت تسود وسط الطبقات الدنيا من المجتمع الياباني في تلك الحقبة. دام زواجهما ست سنوات فقط، ففي العام 1910 ارتبط مياتا ستارو بفتاة جيشا من أماكوسا بعد أن حقق نجاحاً في عمله في تجارة البضائع المجففة. وفي أحد الأيام المثلجة، هربت كيكو وابنتها فوميكو من المنزل، ثم تزوجت الأم ثانية في العام نفسه من رجل يصغرها بعشرين عاماً ويدعى ساواي كيسابورو، وهو الابن الأكبر لمزارع من مقاطعة أوكاياما. في ربيع

ذلك العام التحقت فوميكو بمدرسة ابتدائية في ناغاساكي، وكانت تلك المدرسة الأولى من بين أكثر من عشر مدارس انتقلت إليها في خلال فترة ترحال عائلتها للعمل باعةً متجولين في حقول الفحم في شمال كيوشو. تعتبر هاياشي هذه الفترة من الفترات السعيدة في حياتها فقد كتبت في «مذكرات متشردة» تقول: «كنت طفلة مفعمة بالحياة في تلك الفترة... كان يسرني أن تمتدح أمي عملي الجيد بائعةً متجولةً».

كانت فوميكو تستعير الكتب من المكتبة المحلية وتقرأها بشغف عندما كانت توكل إليها مهمة العناية بالمنزل في خلال فترة انشغال والديها ببيع البضائع في الخارج. ثم اضطرتها الظروف العائلية الصعبة للانتقال وهي في العاشرة من عمرها إلى منزل جدتها في ساكوراجيما، وهناك كانت تقوم بأعمال الطهي وتتعرض للمعاملة السيئة على يد أختها الكبرى.

عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها، التحقت فوميكو بالمدرسة الثانوية للبنات في أونوميشي، وعملت في نوبات ليلية بمصنع لصناعة خيوط القنب وفي خدمة المنازل في خلال العطل من أجل تسديد نفقات الدراسة. لم يكن لديها أي أصدقاء مقربين في المدرسة، بل كانت تعتكف في المكتبة لقراءة مختارات عشوائية من الأدب المحلي والأجنبي. في الثامنة عشرة بدأت تكتب قصص الأطفال، وفي مارس من العام 1922 غادرت إلى طوكيو بصحبة أوكانو غونيشي، وهو طالب في جامعة ميجي أحبته من أيام المدرسة الثانوية وكان يمارس عدة أعمال، منها حراسة الأحذية في أحد الحمامات العمومية. تبعتها عائلتها إلى طوكيو وافتتحت هناك في البداية كشكاً ليلياً في هيبيا، ومن ثم في كاجورا وناروكو ودوجين. وكانت فوميكو تتناوب مع والدتها على العناية بالمحل.

في العام 1923 وجه أوكانو صفعة قوية لفوميكو عندما حنث بوعده بالزواج بها بعد أن تخرج من جامعة ميجي وعاد إلى مسقط رأسه في إنوشيما مدعياً بأن ذلك كان بسبب معارضة أهله. في سبتمبر من ذاك العام حدث زلزال كانتو العظيم، قامت فوميكو بزيارة عائلتها في جونيسو للتأكد من أن الجميع بخير. ثم

ركبت سفينةً لشحن الساكي كانت تبحر من شيبورا إلى أوساكا لزيارة أصدقائها في منطقة كانساي. بعد عودتها إلى طوكيو تنقلت فوميكو بين عدة أعمال منها ممرضة متدربة في مستشفى توليد وموظفة في شركة تجارية إلى جانب القيام بأعمال غريبة في المنزل. منذ تلك السنة بدأت بالاحتفاظ بمذكراتها التي نشرتها لاحقاً تحت عنوان «مذكرات متشردة».

في العام 1924 عملت فوميكو خادمة وعاملة مصنع وبائعة ونادلة وكاتبة رسائل خارج مكتب اعتقال محلي، وأصبحت بذلك قادرة على كسب ما يكفي من المال لتغطية نفقات عيشها ولإرسال بعضه إلى أسرتها التي عادت إلى أونوميشي. كما باعت العديد من قصص الأطفال والقصائد إلى عدة مجلات. التقت مصادفة مع مجموعة من الشعراء الذين كانوا يترددون إلى مطعم في ساكانا ماشي في هونجو، وانتقلت للعيش مع أحدهم، كان يدعى تانابي لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر قبل أن تعلم بأنه كان على علاقة حب مع إحدى الممثلات.

قامت فوميكو مرة بزيارة الكاتب أونو كوجي (1891–1961) وسألته عن أساليب كتابة القصة، فنصحها بأن تكتب بنفس الأسلوب الذي تتحدث به، وقد تأثرت كثيراً بهذا الرأي المذهل ببساطته. كما تلقت في خلال تلك الفترة المساعدة المادية من الكاتب توكودا شوسي (1871–1943).

في العام 1925 بلغت هاياشي عامها الحادي والعشرين وكانت تعمل نادلة في أحد مقاهي شينجوكو وتزوجت من الشاعر نومورا يوشيا الذي عرف قيمة موهبتها الأدبية، لكنهما انفصلا بعد عام فانتقلت للعيش في غرفة استأجرتها فوق دكان بائع ساكي في هونجو مع كاتبة من الطبقة البروليتارية تدعى هيراباياشي تايكو. في ديسمبر من ذلك العام تزوجت هاياشي من الرسام تيزوكا ريوكوبن.

وفي أكتوبر من العام 1928 اقترح الكاتب الشهير ميكامي أوتوكيشي نشر مذكرات هاياشي التي تحمل عنوان «مذكرات متشردة» في اثنتين وعشرين حلقة في مجلة «فنون المرأة» التي كانت ترأس تحريرها زوجته هاسيجاوا شيجوري، وقد حظيت المذكرات بالكثير من التعليقات والانتقادات الإيجابية. ترددت

هاياشي في خلال هذا العام كثيراً إلى مكتبة أونو وانكبت على القراءة والمطالعة بنهم. وهناك صورة في مقدمة نسخة شينشوشا الخاصة لأعمالها (1961) تظهر فيها فوميكو في هذه الفترة وهي تجلس إلى مكتبها تحرك الفحم في الموقد وتتأمل بحماس نصّاً أمامها.

في صيف 1929، أرسلت شركة كايزوشا ممثلاً لها لطلب نص من هاياشي، فأعطته الجزء الأول من «مذكرات متشردة» الذي نشر في يوليو 1930 ثم تلاه الجزء الثاني في نوفمبر من العام نفسه والثالث في يناير 1931. وحققت الأجزاء الثلاثة من المذكرات أعلى المبيعات حيث بيع نحو 600 ألف نسخة منها خلال عامين. ومن الواضح أن القراء قد انجذبوا إلى النفسية البسيطة الطيبة والتفاؤل الذي تميزت به كتابتها في وجه الظروف الكئيبة المحبطة. رغم ما تظهره الكاتبة أحياناً من عواطف وشفقة ويأس إلا أنها أخفت وراء ذلك قوة وعزيمة لامستا قلوب الكثير من الناس الذين يعانون الوحدة، كما قال الناقد توجايري هاجيمي. واحتفلت هاياشي بنجاحها من خلال رحلة لمدة شهرين قامت بها إلى الصين في خريف 1930 وسددت نفقاتها من مبلغ أتعابها. في الخريف التالي قامت برحلة برية عبر سيبيريا إلى أوروبا، واستقرت بباريس بشكل أساسي حيث استمتعت بالحياة الثقافية وقضت أوقاتها بالكتابة. في يناير 1932 سافرت إلى لندن على متن مركب لصيد سمك الرنكة وظلت هناك مدة شهر تقريباً، ثم عادت إلى فرنسا وأصيبت بالعشى الليلي المؤقت وذلك بسبب إرهاق العمل وسوء التغذية. في مايو بدأت هاياشي رحلة عودتها الطويلة إلى اليابان على متن سفينة بريد يابانية، وتوقفت في نابولي التي أعجبتها كثيراً وشنغهاي.

في سبتمبر 1935 نشرت هاياشي في مجلة شوكورون الأدبية قصتها «المحار» (Oysters)، وهي قصة قصيرة تتناول حياة الطبقة الاجتماعية الدنيا. ويثير عنوان القصة الغرابة والحيرة قليلاً لأنه ليس هناك أي ذكر للمحار في النص، لكن من المحتمل أنه استخدم للإشارة إلى الشخصيات الضعيفة غير المؤثرة مثل شوكيشي وتاما بطلي الرواية حيث يبتلعها المجتمع ويتخلص منها بسهولة مثل المحار.

عندما خيم شبح الحرب على منطقة شرق آسيا، اعتمدت هاياشي مراسلة حرب خاصة لصحيفة مينيشي في ديسمبر 1937 في خلال فترة سقوط نانكينغ، ثم أرسلت في سبتمبز من العام التالي إلى شنغهاي من قبل مكتب الإعلام في وزارة الداخلية ضمن فريق من الكتاب (وحدة القلم) للحاق بالجيش الياباني في الصين. وقامت بزيارة مستشفى عسكري لاحقاً بمبادرة خاصة منها وركبت شاحنة تابعة للصحيفة ودخلت إلى مدينة هانكو بعد أن سقطت. في أكتوبر عادت هاياشي إلى اليابان جواً وأخذت تتحدث في كبرى المدن والبلدات عما رأته في الجبهة. وواصلت على مدى عشر سنوات نشر الكثير من القصائد والروايات والقصص القصيرة.

في سبتمبر 1941، أرسلت هاياشي مع الكاتبة ساتا إينكو والكاتب أوساراجي جيرو (الذي ترجمت روايته «العودة إلى الوطن» Homecoming إلى الإنجليزية وكانت أول رواية يابانية تنشر بالإنجليزية بعد الحرب) لزيارة الجيوش في منشوريا.

في السنة التالية، وبوصفها عضواً في فريق جمع المعلومات، أرسلت هاياشي إلى المناطق التي احتلها اليابانيون في سنغافورا والهند الصينية وجاوه وبورنيو وظلت على اتصال بأرض تلك المناطق وشعوبها لأكثر من ثمانية أشهر تقريباً، وقد استقت من تلك التجربة روايتها «غيوم تائهة» Floating Clouds التي تتحدث عن فترة ما بعد الحرب ورواية «ألماس بورنيو» Borneo Diamond التي تتناول حكاية فتيات الهوى في بحار الجنوب.

في ديسمبر 1943، تبنت هاياشي طفلاً حديث الولادة يدعى تاي، وفي أبريل من العام التالي غادرت طوكيو هرباً بالطفل من ظروف المجاعة بصحبة أمها المسنة التي هجرها والدها من أجل امرأة شابة، وانتقلت إلى مدينة كادوما الغنية بينابيع المياه الحارة في مقاطعة ناغانو وهناك عادت لكتابة قصص الأطفال التي كانت تقرأها بصوت مرتفع لأطفال المدينة.

عادت إلى طوكيو في أكتوبر 1945 وفي يونيو من العام التالي نشرت رواية «ألماس

بورنيو» تلتها في يناير 1947 قصة «أسماك القوبيون النهرية» River Gobies، ثم في نوفمبر 1948 قصة «زهرة الأقحوان المتأخرة» A Late Chrysanthemum التي تتناول حكاية فتاة جيشا مسنة تخوض حرباً شجاعة ضد آثار الشيخوخة وابتعاد العشاق والمعجبين عنها سوى واحد يواصل الظهور لابتزاز المال منها والتي فازت بجائزة أدب المرأة بعد نشرها ببضعة أشهر. نشرت رواية «الرماد» Ashes في فبراير 1949، و«لحم البقر» Beef و«طوكيو» في أبريل 1949، وأخيراً «العنقاء معصوبة العينين» Blindfold Phonenix في مارس 1950. تقدم هذه القصص تفاصيل عن المشقات والصعوبات وظروف الحرمان التي عاناها اليابانيون العاديون خلال السنوات الخمس التي أعقبت الحرب والتي تتناقض تماماً مع ظروف الوفرة والغنى التي تسود اليابان حالياً.

في شتاء العام 1949—1950 أصيبت هاياشي بالالتهاب الرئوي وبدأت تعاني من تقهقر تدريجي في صحتها إلى أن توفيت في العام التالي. نشرت رواية «غيوم تائهة» على شكل سلسلة حلقات من نوفمبر 1949 ولغاية أغسطس 1951، وهي تحكي قصة امرأة تخلص لحبيبها منذ بداية لقاءاتهما العاطفية في الهند الصينية المحتلة وفي خلال فترة الكآبة والحرمان التي أعقبت عودتهما إلى اليابان بعد هزيمتها في الحرب، وتصور بالمقابل جحود الحبيب ومحاولاته لهجرها وما عانته من آلام بسبب ذلك إلى أن تقضي نحبها في نهاية الرواية.

دون شك، تعد رواية «غيوم تائهة» أهم رواية كتبتها هاياشي، فعلى الرغم من أنها لا تتناول السيرة الذاتية للكاتبة، إلا أن فيها من شخصيتها وحياتها أكثر حتى مما تتضمنه «مذكرات متشردة». تتضمن مؤلفات هاياشي الأخرى التي تتخذ الطابع الخيالي بعض الجوانب من تجاربها، أما رواية «غيوم تائهة» فتتناول حياتها كاملة بأسلوب أدبي رفيع مما جعلها إحدى أروع الروايات اليابانية في القرن العشرين.

في 28 يونيو 1951، وبينما كانت هاياشي تكتب تفاصيل جولة في محلات المواد الغذائية أكلت كمية قليلة من السردين، ثم عادت إلى المنزل في الساعة

التاسعة والنصف مساءً، وفي غضون ساعة ونصف بدأت تعاني مرضاً شديداً، وأخذت تحاول إفراغ معدتها بمساعدة زوجها، لكنها توفيت فوراً بسبب ذبحة قلبية. وأقيمت مراسم جنازتها في منزلها في الأول من يوليو وشارك فيها الكاتب ياسوناري كاواباتا، الفائز بجائزة نوبل ومؤلف رواية «بلد الثلج» (1947)، كما تدفق الكثير من المعجبين بأدبها من المناطق البعيدة ليقفوا خارج منزلها تعبيراً عن احترامهم وحزنهم وللشهادة على الأثر العميق الذي تركته أعمالها في نفوسهم. وعلى الرغم من الثروة التي جمعتها في سنواتها الأخيرة من كتاباتها، إلا أن هاياشي ظلت ابنة الشعب.

وقُبيل نهاية قصة «أسماك القوبيون النهرية» ثمَّة فقرة تقول:

شعرت شيوكو بالوحدة، ولم تستطع تحمل هذا الشعور، فخرجت من الباب الخلفي. كانت السماء ما بين الغائمة والصافية، وأشعة الشمس اللطيفة في ذلك اليوم الربيعي تسطع على مياه النهر. نزلت إلى حافة النهر وهي تشعر بأنها ظلت تُلاحق حتى مخبئها الأخير. لم يكن بوسعها فعل شيء، دمدمت في نفسها «سوف أموت». فعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تموت، إلا أن قلبها كان يقول ذلك. كان جسدها الواثق بقوته يقول «سأحيا»، لكن قلبها المتعب مثل طفل خائف ظل يناديها «سأموت».

وصف تاميا توراهيكو المؤرخ المختص بحياة اليابان الشعبية في فترة ما قبل مرحلة الثراء الحالية هذا النص بأنه لم يعرف أي نص مثيل يعبر بعمق وتأثير عن الألم الذي يعانيه الإنسان لمواصلة الحياة، ليس فقط ألم شيوكو بل ألم آلاف ومئات الآلاف من اليابانيين العاديين.

هناك القليل مما يمكن تحليله حول أعمال هاياشي، طبعاً باستثناء الصنعة البديعة في كتابتها. فأعمالها ستظل خالدة لأنها تلامس مشاعر القراء وعواطفهم وذكرياتهم. في أواخر حياتها قالت هاياشي إنَّها لا تتوقع لأعمالها أن تخلد بعدها، لكن توقعاتها أثبتت خطأها بعد مرور ما يزيد عن خمسين عاماً. وستظل ذكرى هاياشي وأعمالها خالدة إلى الأبد في الأدب الياباني.

خارج الفندق القريب من ينابيع المياه الحارة في ساكوراجيما بكيوشو حيث عملت والدة هاياشي في خدمة الغرف، تركت هاياشي بصمة أدبية في قصيدة كتبتها على قصاصة ورق ملون لصاحبة مطعم طلبت منها عينة من خطها وقالت فيها:

«حياة الورود قصيرة

الأشياء المريرة هي فقط الوافرة».

ربما تستطيع هذه الكلمات الحكيمة التي خطتها في لحظة صفاء أن تحفظ ذكرى فترة عطاء فوميكو هاياشي التي كانت قصيرة في مداها لكنها مثمرة في حصيلتها.

1

أرادت كودا يوكيكو أن تستقل القطار الذي يصل في وقت متأخر من الليل، لذا أمضت يومها تتجول في مدينة تسوروجا[1] بعد مغادرتها مركز الترحيل الذي أمضت فيه الأيام الثلاثة الأخيرة برفقة نحو ستين امرأة كن قد عدن إلى اليابان من الخارج وخضعن للفحوص الطبية على مدى عدة أيام. بالقرب من مخازن الجمارك، وجدت يوكيكو منزلاً يضم متجراً صغيراً وبعض الغرف للإيجار، وهناك حصلت على غرفة وتمكنت من تمديد بدنها على الأرضية المغطاة بحصير التاتامي[2] لأول مرة منذ زمن طويل.

كان أصحاب المنزل المستأجر قد تكرموا وسخنوا ماء الحمام لها. يبدو أن المكان لم يستقبل إلا عدداً قليلاً من الزوار، فمن الواضح أنهم لم يغيروا الماء العكر المشبع بدهون الأجسام البشرية. لكن حتى ذلك الماء بدا مناسباً بالنسبة إلى يوكيكو بعد رحلتها البحرية الطويلة. كما أثارت قطرات المطر الثلجي التي كانت تضرب زجاج النافذة المتسخ في نفسها موجات من المشاعر والعواطف. كانت الرياح

(1) تسوروجا: مدينة تقع في جنوب محافظة فوكوي في اليابان.

(2) التاتامي: حصيرة يابانية تقليدية تمتاز بالخفة وسرعة الطي، وهي مصنوعة من قاعدة سميكة من القش وتستخدم في البيوت اليابانية منذ حوالي 600 عام، ويتم تحديد مقياس الغرف بالإشارة إلى عدد التاتامي.

تهب في الخارج، ففتحت يوكيكو النافذة وحبست أنفاسها ونظرت إلى السماء المغطاة بالغيوم. بدت تلك السماء مختلفة، غير أنها سماء بلادها التي لم ترها منذ زمن طويل.

مدت يوكيكو ذراعيها على جانبي حوض الاستحمام بيضوي الشكل، وفوجئت من جديد لرؤية الندبة السميكة التي برزت مثل دودة على ذراعها اليسرى إثر تعرضها لجرح سيف، وأخذت تسكب الماء عليها بيديها المكورتين، ثم تاهت فجأة في ذكريات الماضي السعيدة، لكنها كانت تدرك تماماً أن الحياة من الآن فصاعداً ستكون صراعاً دائماً من أجل البقاء.

أخذت يوكيكو تمرر المنشفة المتسخة ببطء على جسدها وهي تتأمل كم تصبح الحياة مملة وكيف يبدو كل ما فيها مضجراً عندما يفقد المرء فرصته. لم تستطع أن تصدق أنها قامت فعلاً بغسل جسمها، حتى في ذلك الحمام الداكن الوسخ. سرت برودة الرياح التي كانت تهب من النافذة في جسدها، فشعرت بتغير الفصول، إذ لم تكن قد أحست بمداعبة الرياح الباردة لبشرتها منذ زمن طويل. غادرت يوكيكو الحمام وعادت إلى غرفتها لتجد فراشها ممدوداً على حصيرة التاتامي ذات اللون البني المحمر والنار مضرمة في موقد هيباتشي[1] صغير وضع داخل صندوق خشبي. إلى جانب الموقد كانت هناك صينية فيها زبدية مملوءة بحبات الكرّات مع الخل. أمسكت يوكيكو بإبريق الألمنيوم الذي بدأ يهتز وهو يغلي وأعدت لنفسها كوبا من الشاي، ثم أخذت تحشو فمها من الجانبين بإحدى قطع الكرّات وأكلتها بنهم. سمعت عبر الرواق خارج الباب الورقي المنزلق أصوات نزيلتين أو ثلاث في الغرفة المجاورة التي لا يفصلها عنها سوى لوح منزلق رقيق، أصغت يوكيكو بانتباه شديد، فميزت الأصوات، وعرفت أن هؤلاء النسوة هن من فتيات الجيشا[2] الكثيرات اللواتي كن معها على السفينة.

(1) هيباتشي هو الموقد الياباني التقليدي الذي كان يستخدم للتدفئة ويتكون من وعاء دائري أو أسطواني أو مكعب الشكل مفتوح من الأعلى ومصنوع من مادة مقاومة للحرارة يوضع فيه الفحم المحترق.

(2) الجيشا: فتيات يمارسن مهنة يابانية تقليدية تهتم بتسلية الزبائن من خلال أداء أنواع مختلفة من الفنون ويتميزن بالجمال والمهارة في الرقص وعزف الموسيقى وحلو الحديث.

قالت إحداهن: «حسن أننا عدنا. لكن الأهم من العودة إلى اليابان، علي التفكير بنفسي»، وأردفت أخرى: «إن الطقس بارد جداً وهذا يثير الإحباط. لست مستعدة للشتاء، ولا أعرف ماذا سأفعل بشأن الملابس من الآن فصاعداً». وعلى الرغم من هذه الكلمات، سادت أجواء المرح بينهن، وكانت أصوات الضحك تتخلل حديثهن، فتساءلت يوكيكو عن السبب وراء كل ذاك الضحك.

لم يكن لدى يوكيكو ما تفعله، لذا تمددت على فراشها وتوقفت عن التفكير لفترة، فبدأت حالتها النفسية تتدهور، وانتابها شعور بالاكتئاب. لم تهدأ الضجة في الغرفة المجاورة، وشعرت بمتعة في إقحام جسدها الدافئ بعد الاستحمام وسط برودة الفراش القديم ورطوبته. لاتزال تنتظرها رحلة طويلة، لكن هذه المرة بواسطة القطار. بدأت يوكيكو تفقد الاهتمام بفكرة لقاء أقاربها، وتساءلت إذا ما كان من الأفضل لها أن تذهب مباشرة إلى طوكيو للبحث عن توميوكا الذي غادر هاي فونغ[1] في شهر أيار على وعد بأنه سيسبقها ليعد كل الترتيبات وينتظر قدومها. لكن بعد عودتها إلى اليابان، ومواجهة كل هذه الرياح الباردة، بات من الصعب على يوكيكو أن تصدق تلك الوعود، وما كان أمامها من وسيلة سوى انتظار اللقاء معه حتى تتحقق من صدقه. حالما رست السفينة في اليابان أرسلت يوكيكو برقية إلى عنوان توميوكا، وأمضت بعد ذلك ثلاثة أيام في مركز الترحيل لإجراء الفحوص الطبية كغيرها من ركاب السفينة، ثم غادر الجميع في نفس الوقت منطلقين نحو أنحاء مختلفة من البلاد. لم تتلق أي رد من توميوكا خلال الأيام الثلاثة تلك، لكنها تقبلت الواقع بعض الشيء لاعتقادها أن رد توميوكا ما كان ليغير شيئاً في وضعها الراهن. غفت يوكيكو لفترة ثم استيقظت وأدركت أنها لم تنم لفترة طويلة. لقد أُشعل ضوء الغرفة وأصبح الباب الورقي معتماً. كانت نزيلات الغرفة المجاورة يتناولن الطعام. عندها أحست يوكيكو بالجوع، فسحبت حقيبة ظهرها من تحت الوسادة، وأخرجت المؤن التي وُزِّعت عليهم على متن السفينة، وتضمنت أربع سجائر من نوع كاميل ومحارم ورقية

(1) هاي فونغ مدينة تقع في شمال فيتنام على بعد 100 كيلومتر من العاصمة هانوي.

وخبزاً مجففاً ومسحوق حساء ولحم معلب وبطاطا، وُضِعت جميعها مرتبة في صندوق صغير بني اللون. أخذت يوكيكو قطعة من الشوكولا، وتمددت على بطنها وقضمت قليلاً منها، لكن طعمها لم يكن لذيذاً على الإطلاق.

ساور يوكيكو شعور جميل عندما تراءت أمام عينيها المغلقتين مياه خليج دوسون[1] بلونها الأصفر المائل إلى الحمرة.. تلك المنارة البيضاء على رأس دوسون الممتد في البحر.. تلك الغابات الكثيفة الغناء على جزيرة هوندو. اعتقدت يوكيكو أنها لن ترى هذه المناظر ثانية، لذا وقفت على سطح السفينة وركزت نظرها عليها حتى تحفر صورها في وجدانها، ثم سرعان ما بدأت ألوان ذلك المشهد الغريب تتلاشى، وأصبح تذكره الآن يتطلب جهداً. لعل نزيلات الغرفة المجاورة سيغادرن في قطار منتصف الليل، ويبدو أنهن قد انتهين من تناول الطعام وسددن مبلغ الفاتورة لصاحبة المنزل. أفرغت يوكيكو ظرفاً من مسحوق الحساء في كوب، وسكبت فوقه بعض الماء المغلي، وشربته وهي تصغي لضجة النسوة في الخارج، ثم أكلت ما تبقى من حبات الكرّات. وسرعان ما سارت النزيلات في الرواق خلف صاحبة المنزل مرددات بصوت واحد: «نقدّر ما بذلت من جهد». استمعت يوكيكو إلى أصواتهن وراقها أن هؤلاء النسوة أيضاً عائدات إلى أنحاء مختلفة من البلاد. فقد عملت فتيات الجيشا[2]، حسبما سمعت يوكيكو على متن السفينة، في مطاعم في فنوم بنه وفق عقود لمدة عامين. وعلى الرغم من أن إطلاق اسم فتيات الجيشا عليهن قد يبدو مصطلحاً مؤدباً ولطيفاً، إلا أنهن في الواقع لسن سوى فتيات هوى يؤتى بهن لتسلية الجنود. إضافة إلى بعض الممرضات وموظفات الطباعة والأعمال المكتبية العاملات لدى الجيش، كانت معظم النساء اللواتي تجمعن في مركز الاستقبال في هاي فونغ من فتيات الهوى، ومنهن عدد مدهش من فتيات الهوى اليابانيات اللواتي جئن من قرى الهند الصينية

(1) دوسون: منطقة تابعة لمدينة هاي فونغ في شمال فيتنام.

(2) الجيشا: هي فتاة يابانية تُدرب منذ الصغر على كل التقاليد والفنون اليابانية،، تتعلمها حتى تتقنها، فنون الرقص، الغناء، تقديم الشاي، تسلية الزبائن بالحديث في بيوتات الشاي.

ومدنها[1]. كانت كودو يوكيكو تعمل موظفة طباعة في مركز أبحاث باستور والمزرعة التابعة له وسط المسافة بين دالات[2] ودولان والمخصصة لزراعة أشجار الكينا التي تستخرج منها مادة الكينين المستخدمة في علاج الملاريا.

في خريف العام 1943 وصلت يوكيكو إلى دالات التي تقع على ارتفاع ألف وستمائة متر فوق سطح البحر وتترواح درجات الحرارة فيها بين متوسطة تصل إلى خمس وعشرون درجة مئوية ومنخفضة جداً لا تتجاوز ست درجات. كانت دالات مكاناً ممتعاً جداً للعيش، ربما يكون ذلك بسبب ارتفاعها عن سطح البحر، تكثر فيها مزارع الشاي التي يديرها الفرنسيون. وقد بدت النغمات الجميلة للكلمات الفرنسية التي يتردد صداها في أجواء المرتفعات الصافية غريبة جداً بالنسبة إلى يوكيكو.

فكرت يوكيكو فجأة في كتابة رسالة إلى توميوكا. لم تكن تعلم ما تقول فيها، إلا أنها ظنت أن مشاعرها ستتبلّر وتتضح في أثناء الكتابة، ولهذه الغاية اشترت ورق رسائل وظرفاً من الصبي الذي يعمل في المتجر. فقد شعرت بتحسن في نفسيتها وتخلصت قليلاً من حالة اليأس والفراغ العاطفي التي كانت تنتابها في مركز الترحيل في هاي فونغ لمجرد إحساسها بأنها موجودة بنفس البلد الذي يقيم فيه توميوكا.

(1) الهند الصينية: هي منطقة في جنوب شرق آسيا تقع شرق الهند وجنوب الصين وهي متأثرة بكلا الثقافتين ومن هنا جاء اسمها. تشمل الهند الصينية أراضي فيتنام وكمبوديا ولاووس وتايلند.

(2) دالات: مدينة في جنوب فيتنام تقع على ارتفاع 1600 متر عن سطح البحر.

2

غيرت يوكيكو رأيها، وقررت الذهاب مباشرة إلى طوكيو لزيارة إيبا والبقاء في منزله إلى أن تتمكن من لقاء توميوكا، هذا إذا كان المنزل قد نجا من القصف والتدمير. على الرغم من ما تحمله من ذكريات سيئة عن إيبا، إلا أنه لم يكن لديها مكان آخر تلجأ إليه. فهي لم ترسل أي رسالة إلى شيزوكا، وهكذا فإن عائلتها لم تكن تتوقع حضورها.

غادرت يوكيكو تسوروجا على متن قطار انطلق في وقت متأخر من الليل. وعلى الرصيف لمحت رجلين كانا معها في السفينة، لكنها ابتعدت عنهما عن قصد، واستقلت عربة في مؤخرة القطار. تدافع الناس على الرصيف وتدفقوا إلى القطار عبر النوافذ. شعرت يوكيكو بأنها غريبة لا تنتمي إلى ذلك المكان. فالناس يرمقونها بنظرات من زوايا أعينهم، وكان من الواضح أنها قادمة من الجنوب وليس لديها ملابس شتوية. أخذت الحشود تدفع يوكيكو وهي تنظر في الوجوه المحيطة بها وترى فيها وجوه الهزيمة. ربما لأن الوقت كان متأخراً بدت جميع الوجوه جامدة، شاحبة ومرهقة. تجمع المسافرون داخل عربة ضيقة دون إبداء أي مقاومة أو احتجاج. كانت تلك أشبه ما تكون برحلات نقل العبيد. بدأت يوكيكو تنزعج تدريجياً من ملامح تلك الوجوه. ما الذي حدث لليابان؟ لم يعد

هناك أي وجود لوجوه أولئك الجنود الذين أرسلوا في الماضي حاملين موجات من الرايات الخفاقة. حتى الجبال والأنهار التي تراها في الظلام عبر نوافذ القطار كانت تمثل مؤشرات ملموسة على ما أصاب البلاد من تعب وإرهاق.

وصل القطار إلى طوكيو في مساء اليوم التالي، وغادرته يوكيكو في شيناجوا. كان الجو ماطراً. ومن رصيف السكة الحديدية في العاصمة كان من الممكن مشاهدة النافذة الخلفية لقاعة رقص تظهر من خلالها رؤوس فرق ثنائية من الراقصين تتحرك وتدور وسط أجواء من الإضاءة الخافتة. انسابت ألحان الجاز عبر رذاذ المطر اللامع. وقفت يوكيكو ترتعد من البرد وهي تنظر إلى قاعة الرقص المبنية فوق جرف عال، فيما وقف في آخر الرصيف المكتظ بالناس المحاطين بهالة من البؤس اثنان من عناصر الشرطة العسكرية طويلا القامة يرتديان خوذتين بلون أبيض لامع. ارتاحت أعصاب يوكيكو المتوترة لدى سماعها موسيقى الجاز، وبدأت تشعر برغبة في ترك كل شيء للظروف، لكن في الوقت ذاته كان قلبها مفعماً بالخوف والقلق على الطريقة التي ستعيل فيها نفسها. حمل معظم الناس المتجمعين على رصيف محطة القطار حقائب ظهر على أكتافهم، فيما ظهرت بين الحين والآخر امرأة تنزل السلم وهي تضع أحمر شفاه غامقاً وتسير مع رجل غريب يداً بيد. كانت يوكيكو تحدق بالمرأة المبهرجة كما لو أنها تنظر إلى شيء مميز.. لقد تلاشت حياة طوكيو القديمة كلياً.

كان ذلك آخر قطار ليلي.. نزلت يوكيكو عند ساجينوميا على خط سيبو، وعبرت خطوط السكك الحديدية، ومشت في طريق عريض إلى أن وصلت إلى مبنى محطة توليد الطاقة الذي تتذكره جيداً. في أثناء ذلك مرت بها ثلاث نساء مسرعات الخطى تحت المطر ترفع كل منهن ياقة معطفها الطويل وتلف حول وجنتيها قطعة من القماش المزخرف.

قالت إحداهن: «لقد ودعته اليوم في يوكوهاما، قد تكون لديه زوجة في وطنه، لكن الناس يعيشون اللحظة، وأعتقد أن هذا منصف... لكنه عرفني على أحد أصدقائه، وقد استغربت جداً أن يحاول لفت نظر حبيبته إلى صديق له..

نحن اليابانيين نجد صعوبة في فهم ذلك».

فأجابت الأخرى: «أليس من الأفضل أن تجري الأمور بهذه الطريقة؟ على الأقل عندما تفترقان تعرفين أنك لن ترينه ثانية، وهكذا تغيرين مشاعرك. وكذلك يحتمل أن يعود الرجل الذي أحبه أنا أيضاً إلى وطنه قريباً، وسيكون من المزعج أن أضطر للذهاب إلى القاعدة العسكرية في أستوجي، لذا بدأت أفكر في البحث عن شخص آخر».

أسرعت يوكيكو في أعقاب أولئك النسوة المفعمات بالحيوية وهن يتحدثن بأصوات عالية يسهل سماعها، وتساءلت في أثناء إصغائها لحديثهن «هل تغيرت اليابان إلى هذا الحد؟» أثار هذا التساؤل شعوراً غريباً لديها.

وصلت النساء الثلاث إلى صندوق بريد، ثم انعطفن نحو اليمين. كانت يوكيكو عندها مبللة ومرهقة جداً. بدت الأشياء في هذه المنطقة تماماً كما كانت عليه قبل أن تغادر إلى الجنوب. انعطفت نحو اليسار عند لوحة إعلانية للقابلة القانونية هوسوكاوا، وكان منزل عائلة إيبا عند الباب الثاني في نهاية الزقاق الضيق. من المؤكد أن الجميع سيذهلون لرؤية حالتها البائسة. وقفت يوكيكو أمام البوابة الحجرية للحظة تحاول تحسين مظهرها تحت ضوء مصباح الشارع الخافت. كان البلل قد أصاب شعرها وكتفيها، وبدت في مظهر مريع. عندما قرعت يوكيكو الجرس، شعرت وكأن الفترة التي قضتها في الهند الصينية كانت مجرد حلم. كان هناك ضوء قادم نحو الباب الزجاجي للمدخل، ثم ظهر فجأة خيال شخص كبير عند مدخل الطابق الأرضي. بدأ قلب يوكيكو يخفق بسرعة.. إنه خيال رجل.. لكنه ليس إيبا.

«من الطارق؟»

«أنا يوكيكو».

«يوكيكو؟ من يوكيكو؟»

«كودا يوكيكو. كنت في مستعمرة الهند الصينية الفرنسية».

«فهمت.. من هو الشخص الذي تودين رؤيته؟»

«هل إيبا سوجيو هنا؟»

«آه، السيد إيبا؟ لم يعد من منطقة الإخلاء بعد».

فتح الرجل الباب ببطء مبدياً انزعاجاً شديداً. كان لايزال في ثياب نومه، وبدت دهشته واضحة لرؤية امرأة شابة تقف عند باب بيته وهي مبللة كلياً بالمطر تحمل حقيبة على كتفها ولا ترتدي معطفاً.

قالت يوكيكو: «أنا قريبة إيبا، وقد عدت لتوي اليوم».

«أوه، ادخلي أرجوك. عندما أصبح الوضع خطيراً هنا قرر السيد إيبا أن يغادر إلى الريف، فذهب إلى شيزوكا قبل ثلاث سنوات».

«هل تعني أنه قد غادر هذا المنزل بشكل كامل؟»

«لا، أنا أعيش هنا مكانه. لكن أمتعته قد وصلت مؤخراً، لذا فإننا نتوقع عودته».

عند سماع أصواتهما، خرجت زوجة الرجل إلى مدخل المنزل تحمل طفلاً بين ذراعيها. أخبرت يوكيكو الرجل وزوجته عن ظروف عودتها من مستعمرة الهند الصينية الفرنسية. من الواضح أن هناك بين الرجل وإيبا مشكلة ما حول أمر يتعلق بالمنزل، فالرجل لم يبد سعيداً لرؤية أحد أقارب إيبا، ولكنه كان لطيفاً بما يكفي لدعوة زائرته للدخول إلى غرفة المعيشة بعد تلميحه إلى البرودة التي سادت مدخل المنزل.

شعرت يوكيكو بخفة في جسدها الذي بدا وكأنه يعوم، فهي لم تحظ بأي شيء تأكله أو تشربه على متن القطار بعد كرة الأرز التي أُعدت خصيصاً لها في الفندق في تسوروجا. في أثناء عبورها الرواق المؤدي إلى غرفة المعيشة ارتطمت بماكينة خياطة. كانت تلك نفس الغرفة ذات الحصائر الست التي تعوَّد إيبا أن ينام فيها، ولكنها امتلأت بأكوام الأمتعة الموضوعة في أقفاص ورزم ارتخت تحتها حصائر التاتامي على الرغم من قوتها ومتانتها. ربما تكون الزوجة قد أشفقت على يوكيكو عندما علمت بأنها عائدة من الهند الصينية، لذا أعدت لها بعض الشاي وقدمت لها البطاطا الحلوة المجففة. كان الرجل في نحو الأربعين من العمر، يتميز ببنية

ضخمة وفظاظة جندي سابق، في حين كانت زوجته شاحبة وممتلئة البنية قليلاً، وعندما تبتسم تظهر على وجهها المليء بالنمش غمازتان ساحرتان.

في تلك الليلة استعارت يوكيكو فوتوناً[1] ولحافاً وتمكنت من بسط فراشها في مكان ضيق وسط أكوام أمتعة إيبا، ثم أخرجت علبتين من المؤن من حقيبتها وقدمتهما هديةً لزوجة الرجل.

دخلت يوكيكو بين الفرشة واللحاف، وبينما كانت تستلقي هناك دست إصبعها داخل صندوق أمتعة ملفوف بالقش، لكنها لم تتمكن من معرفة ما في داخله لأنه كان محكم الإغلاق. قال الرجل وزوجته إنهما يتوقعان عودة إيبا إلى طوكيو بحلول نهاية العام، وأضافت الزوجة أنه قد طلب منهما أن يخليا له غرفتين، لكنهما احتارا أي غرفتين يتعيّن عليهما إخلاؤهما. لقد أقام الزوجان مع عائلتهما المكونة من ستة أفراد في هذا المنزل، ودافعا عنه بالروح في أثناء الغارات الجوية، ثم طُلب منها فجأة إخلاء المنزل. شعرت الزوجة بالظلم إذ لم يكن لديهم أي مكان آخر يقصدونه. لكن بالمقابل لا يستطيع إيبا العيش في الريف إلى أمد غير محدود، لا بد وأنه قد بدأ يفقد صبره. وتستطيع يوكيكو أن تتخيل مشاعر أفراد أسرة إيبا التي دفعتهم للإسراع بإرسال أمتعتهم مبكراً. من الواضح أنهم كانوا جميعاً في حالة صحية جيدة. من جانبها شعرت يوكيكو بشيء من الإحباط وخيبة الأمل.

(1) الفوتون هي الفرشة أو السرير الأرضي التقليدي الذي يستخدمه اليابانيون، وهو مستو ومفرغ من الهواء ومحشو بالقطن أو القطن الصوفي الاصطناعي.

3

جاءت كودا يوكيكو إلى مدينة دالات في مستعمرة الهند الصينية الفرنسية في النصف الثاني من شهر أكتوبر 1943. وكانت موظفات الطباعة المكلفات بالعمل في فريق المهندس موجي الذي كان يعمل لدى وزارة الزراعة والغابات قد وصلن أولاً إلى هاي فونغ في فيتنام. ثم أرسل موجي كموفد من قبل الجيش لتفقد أوضاع الغابات في مستعمرة الهند الصينية الفرنسية، فاستعان بموظفات طباعة يعملن في نفس الوزارة وخصص واحدة لكل مسؤول في المجموعة. كانت هناك خمس متقدمات، ويوكيكو واحدة منهن.

بعد الوصول إلى هاي فونغ على متن سفينة مستشفى، استمرت الرحلة إلى هانوي بواسطة سيارات عسكرية، إذ تعيّن على ثلاث موظفات العمل هناك. أما كودا يوكيكو فأُرسلت للعمل في دالات الواقعة في المناطق الجبلية، في حين حصلت الموظفة الأخيرة، وتدعى شينونوي هاروكو، على عمل في سايغون[1]. كانت كودا يوكيكو الأقل حظاً بينهن، وقد يكون السبب في ذلك مظهرها العادي غير المتميز. فقد كان لونها شاحباً وعيناها صغيرتين لا تتماشيان مع جبهتها العريضة، ليس في ملامحها المفتقرة إلى الفتنة والمشوبة بالحزن دوماً ما يلفت نظر

(1) سايغون هي أكبر مدن فيتنام وتقع في الجنوب واسمها الحالي هوشي منه.

الآخرين. بدت يوكيكو في الصورة الملصقة على بطاقة هويتها العسكرية أكبر سناً من أعوامها الحادية والعشرين. الشيء الوحيد المميز فيها أنها كانت تبدو جميلة في الملابس ذات الياقات البيضاء، وما عدا ذلك تبدو عليها جميع الملابس سيان مهما حاولت التأنق. كانت شينونوي هاروكو التي حصلت على عمل في سايغون هي الأجمل بين الموظفات الخمس، إذ بدت ملامحها تشبه ملامح ممثلة شهيرة في ذلك الوقت، أما وجود شابات مثل كودا يوكيكو فلم يكن يلفت انتباه أحد.

غادر أفراد الفريق هانوي في سيارتين عسكريتين عبر تانوا وفوكي وأمضوا ليلتهم الأولى في غرف حجزوها في فندق جراند هوتيل في فينه[1] التي تقع في القسم الجنوبي من مستعمرة الهند الصينية الفرنسية على بعد 350 كيلومتراً من هانوي. خيم الدخان الأسود الذي خلفته حرائق الأشجار على الهضاب والحقول على طول الطريق، فيما تصاعدت سحب الدخان الأصفر في بعض المناطق التي استمر فيها اشتعال الحرائق. لم يكن هناك ما يمكن رؤيته سوى مزارع أشجار الصنوبر والبولوفنية[2]. أثارت تنهدات شينونوي هاروكو العميقة التي ربما تكون قد جاءت نتيجة متابعة مناظر الغابة الممتدة إلى ما لانهاية جواً من الكآبة. شعرت يوكيكو بأن الرحلة الطويلة وغير المألوفة قد أنهكتها تماماً. بعد مغادرة تانوا، انطلقت السيارة مسرعة على الطريق الطويل في عتمة الشفق. وعندما باتت على مقربة من فينه، ظهرت من الظلام أسراب من الفراشات وأخذت تحوم حولها. لقد جذبتها أضواء السيارة فانطلقت أعداد لا حصر لها منها مثل قصاصات ورق متناثرة نحو الطريق المضاء.

وتردد فوق سطح الماء صدى صوت البحارة الأناميين[3] وهم يتساءلون: «هل هناك قناة إلى يسار الفندق؟» وقفت السيارتان في مكان يضج بصوت

(1) مدينة تقع في النصف الشمالي من فيتنام.

(2) نوع من الأشجار صينية المنشأ.

(3) نسبة إلى أنام، وكان الاسم يطلق على المحمية الفرنسية التي تضم المناطق الوسطى من فيتنام.

نقيق الضفادع وتحيط به أشجار نخيل القوفل[1] وأشجار الحرير البورمية، وأُرشد الركاب إلى غرفهم. أقامت شينونوي هاروكو وكودا يوكيكو في غرفة مرتبة في الطابق السفلي تطل على ما كان بالفعل قناة مائية.

فتحت هاروكو النافذة وسمعت صوت المياه في القناة. ألقت الفتاتان حقيبتيهما المتواضعتين جنباً إلى جنب على الطاولة التي وضع عليها مصباح ذو غطاء برتقالي. كانت تصاميم الورود الزهرية في ورق الجدران والملاءات الزرقاء الناعمة على السرير المزدوج مرتبة وجذابة توحي بالذوق الفرنسي، بدت أجواء الغرفة وكأنها من عالم الأحلام والخيال بالنسبة إلى الفتاتين اللتين تعوّدتا ظروف الفقر والتقشف التي سادت اليابان إبان الحرب.

ارتاحت الفتاتان ثم توجهتا نحو غرفة الطعام لتناول وجبة عشاء متأخر، وعندها تقدم منهما جندي يضع على ذراعه شارة الشرطة العسكرية وطلب منهما إبراز هويتيهما. لم تكن رؤية الفتاتين اليابانيتين أمراً عادياً بالنسبة إلى الشرطي الشاب، فقد أثارتا لديه ذكريات الوطن. في تلك الليلة شعرت يوكيكو وهاروكو بصعوبة في النوم. فعلى الرغم من أن الطقس كان بارداً قليلاً عند مغادرتهما اليابان، إلا أنه بدأ يتغير فجأة نحو أجواء الصيف في خلال التوجه جنوباً من هاي فونغ وهانوي وتانوا. لم تجد الفتاتان للنوم سبيلاً، وذلك فقط لأنهما لم تتعوّدا النوم على فراش ناعم ومريح، هذا بالإضافة طبعاً إلى نقيق الضفادع المزعج الذي ظل يطن في آذانهما طوال الليل مثل صدى نغمات جيتار ثلاثي الأوتار.

ذكريات منزل إيبا.. حفلات وداع الأصدقاء.. الأيام المحمومة إبان حملات التطعيم في المقرات العسكرية قبل مغادرتها طوكيو.. كل تلك الذكريات مرت كأوهام في مخيلة يوكيكو التي استغربت أن يؤول بها المصير إلى مستعمرة الهند الصينية الفرنسية، فهي لم تتخيل أبداً أن تقوم بمثل هذا الأمر.

كان إيبا سوجيو الأخ الأصغر لإيبا كيوتارو، زوج أخت يوكيكو الكبرى، وكان له زوجة وطفل. بعد تخرجها في مدرسة الإناث في شيزوكا، لجأت يوكيكو

(1) نوع من أشجار النخيل تكون أوراقها كبيرة وثمارها برتقالية اللون وبيضوية الشكل.

إلى إيبا سوجيو لكونه الوحيد بين أقاربها الذي يمتلك منزلاً في طوكيو، وعاشت في منزله في خلال فترة التحاقها بمدرسة الطباعة في كاندا. وكان سوجيو يعمل في دائرة شؤون الموظفين في إحدى شركات التأمين وقد عرف بسمعته كرجل محترم، لكنه قام باغتصاب يوكيكو خلال الأسبوع الأول لوصولها. ففي إحدى الليالي، آوت يوكيكو إلى فراشها في غرفة الخادمة التي تتسع لثلاث حصائر، وقد جفا النوم عينيها، وبينما هي بين النوم واليقظة سمعت حركة سوجيو يتوجه نحو المطبخ لشرب كأس من الماء. ثم سرعان ما فُتح الباب الورقي لغرفة الخادمة، وكانت يوكيكو تصغي وكأنها في حلم. أُغلق الباب بهدوء من جديد، فسمعت خطوات تتقدم خلسة على حصائر التاتامي، وحط جسم رجل فوقها وأخذ يضغط بقوة على صدرها. ذُهلت يوكيكو وفتحت عينيها في الظلام الحالك، كانت هناك رائحة جلد، ثم تفوه سوجيو بصوت خافت بكلمات مبهمة لم تفهمها، وأقحم ساقه الخشنة داخل الفراش. في بادئ الأمر فكرت يوكيكو في أن تصرخ، لكن شيئاً ما بداخلها منعها من ذلك، فشدت جسمها والتزمت الصمت.

بعد ما حدث تلك الليلة، شعرت يوكيكو بأنها لم تعد قادرة على النظر في وجه ماساكو، زوجة سوجيو. ولكن عند حلول الليل، كانت تفقد صبرها لإدراكها أن سوجيو سيأتي إليها، وكان في كل مرة يحشو فمها بمنديل. استغربت يوكيكو أن يتجاهل سوجيو زوجته الجميلة والذكية ليظهر هذه الشهوة العنيفة تجاه امرأة عادية مثلها.

عاشت يوكيكو مع عائلة إيبا لثلاث سنوات، ثم حصلت على عمل في وزارة الزراعة والغابات بعد تخرجها من مدرسة الطباعة. لم تكن لدى ماساكو أي فكرة عما كان يحدث بين يوكيكو وسوجيو، فكانت أحياناً تأخذ طفلها وتذهب لقضاء بضعة أيام في منزل والديها في يوكوهاما. في تلك الليالي كان سوجيو يأوي إلى الفراش مبكراً ثم يستدعي يوكيكو التي لم يكن باستطاعتها فعل شيء سوى الامتثال لرغباته. لم يتحدث سوجيو عن المستقبل قط، بل كان يعامل يوكيكو كمومس. ولهذا، ورغبة منها في الابتعاد عن هذا الانحلال الأخلاقي،

عقدت عزمها على السفر إلى الهند الصينية، لكنها لم تخبر عائلة إيبا أو والدتها في شيزوكا أو أي من أشقائها وشقيقاتها إلى حين تأكدت تماماً من إمكانية ذلك. وعندما بات أمر رحيلها مؤكداً، أبلغت أقاربها وعائلة إيبا بالأمر، وتلقى سوجيو النبأ دون أن يطرأ على تعابير وجهه أي تغيير.

شعرت يوكيكو بالإهانة لما أبداه سوجيو من رد فعل سلبي وغير متوقع، لكنها في الوقت نفسه شعرت بالارتياح لاعتقادها أن مغادرتها منزل عائلة إيبا ستغرز سهماً في قلب سوجيو. وكذلك بدأت تساورها بعض مشاعر العداء تجاه ماساكو التي كانت تتفوه بين الحين والآخر بعبارات من قبيل «بدأ التجهم يظهر عليك فجأة هذه الأيام يا آنسة يوكي، علينا تزويجك فوراً». فتلك العبارات يمكن أن تؤخذ إما على سبيل المزاح أو على سبيل السخرية. عندما سمع سوجيو بأن يوكيكو ستغادر إلى الهند الصينية في غضون يومين أو ثلاثة، اشترى لها حقيبة وبعض الأدوية والملابس الداخلية. خجلت يوكيكو من قيام سوجيو بشراء هذه الحاجيات لها، وكذلك استغربت ماساكو من قلق سوجيو على يوكيكو ولم تبد تقبلها له.

4

عند الفجر حلمت يوكيكو بسوجيو. ربما يكون ذلك بسبب حنينها الشديد لدفء جسد آخر بعد أن أمضت كل تلك الرحلة بمفردها تساورها مشاعر وحدة بدت وكأنها تهوي بها إلى الجحيم. انتابتها رغبة قوية في العودة إلى اليابان على الرغم من المسافة البعيدة التي قطعتها. لم تستطع التوقف عن التفكير بصوت أنفاس سوجيو ولهاثه وهو يحشو المنديل في فمها. ظلت يوكيكو لفترة طويلة تعتقد أنها تكره سوجيو، ولكنها فجأة شعرت بانه قريب من قلبها في مكانها البعيد هذا، وظنت أن شعورها على هذا النحو كان غريباً جداً. من المؤكد أن سوجيو يشتاق إليها أيضاً، إلا أنه كان قليل الكلام، ولم يتفوه بأي كلمة زائدة على الرغم من أن علاقتهما استمرت ثلاث سنوات ولم تنقطع حتى يوم رحيلها. لكن لماذا لم تثمر هذه العلاقة عن ولادة طفل؟ ففي خلال تلك السنوات الثلاث أنجبت ماساكو طفلاً آخر.

لم تعد يوكيكو قادرة على تحمل تلك الذكريات الطويلة والمتشابكة. لذا نهضت بهدوء، وفتحت الباب الزجاجي، وخرجت إلى الشرفة حيث كانت القناة تلمع أمام عينيها تماماً تحيط بها أشجار الحرير البورمية وتصدح في أرجائها تغاريد الطيور الصغيرة، وقد طفت على سطح مياهها المغطاة بضباب خفيف

بعض السفن القادمة من أنام. انحنت يوكيكو فوق حافة الشرفة الحجرية لتنعم بمداعبة نسيم الصباح. كان شعورها لا يوصف، لم تكن تتوقع أن مثل هذه البلاد الحالمة موجودة أصلاً. أصغت يوكيكو إلى غناء العصافير ورمت بنظرها إلى القناة فشاهدت سرباً من السنونو يمر بالقرب منها. كانت مياه البحر العكرة في هاي فونغ تمثّل حداً تحولت كل الأشياء بعده إلى مسافات فارغة. ولم تكن يوكيكو تعرف الكثير عن الحياة التي تنتظرها.

تناول الجميع فطورهم مبكراً واستقلوا السيارات وغادروا باتجاه هيو، العاصمة القديمة لجنوب الهند الصينية الفرنسية. تصاعدت وسط أشجار المطاط الهندي التي كانت تحيط بالطريق سحابات الدخان من مواقد الطهي المنتشرة خارج الأكواخ المبنية من عيدان القصب والممتدة على طول القناة. شقت سيارة السيتروين الصفراء طريقها مسرعة على طريق المستعمرة العريض وكانت عجلاتها تنغرز في الإسفلت مصدرة صوتاً حفيفاً. تحدث الرجال عن مدينة فنه المهمة نسبياً، تلك الواقعة في شمال أنام والتي يبلغ عدد سكانها خمسة وعشرين ألف نسمة. وصلت السيارة إلى مكان يتفرع فيها الطريق الاستعماري السريع إلى طريقين يؤدي أحدهما إلى المناطق الجبلية في لاوس. وكانت سحب الدخان تتصاعد بين الحين والآخر من الغابات الممتدة على الجانب الأيمن للطريق. تابع الجميع رحلتهم متجهين نحو مدينة هيو، وبعد فترة وصلوا إلى منطقة غابات واسعة. عندها بدأ يلوح في الأفق ضوء شاحب.. إنه ضوء الفجر. ومع بزوغ الشمس أصبح الجو جافاً تماماً، وبانت تحت السماء العالية ملامح الصيف في المنظر الطبيعي الرائع.

أمضى الجميع ليلتهم الثانية في مدينة هيو التي كانت نقطة تمركز الكثير من الجنود اليابانيين، وأقاموا في فندق جراند هوتيل الذي يطل على نهر هيو العريض ويقع بالقرب من جسر كليمنكو. لم تصدق يوكيكو أن اليابانيين قد احتلوا مكاناً مثل هذا، وشعرت بأنهم قد حققوا إنجازاً كبيراً وأن الحظ قد حالفهم كثيراً بوصولهم إلى هذه المنطقة، لكنها لم تكن متفائلة كثيراً بتوقعاتها حول قدرتهم

على المحافظة على خزينة الكنوز هذه. لم يكن هناك من شيء تفعله سوى ما يفعله الآخرون، أي مواصلة السفر والتمايل مع حركة السيارة المسرعة دون تكبد عناء الكثير من التفكير. كان الفقر واضحاً على الجنود اليابانيين هناك، فقد بدوا جنوداً قادمين من بلاد غير متحضرة وهم يرتدون بزات عسكرية ليست على مقاساتهم مطلقاً ويعتمرون خوذات قتال مثبتة بإحكام على رؤوسهم الكبيرة. في حين كانت أشكال المارة من الأناميين، أو الفرنسيين أحياناً، تتناغم تماماً مع البيئة المحيطة بهم. وكذلك خيمت على منطقة التجار الصينيين أجواء الثقافة والحضارة، فيما اصطفت على جانبي الشوارع في وسط المدينة أشجار الكافور النضرة والمتألقة ببراعمها المتفتحة تنفض حبوب اللقاح مثل غبار ذهبي يلمع تحت وهج أشعة شمس الصباح. في محيط القصر المبني من القرميد الأحمر انهمكت طالبات المدرسة الأناميات بلعب كرة القدم وهن يرتدين جوارب ذات مربعات. لم يكن ذاك منظراً مألوفاً بالنسبة إلى يوكيكو. اكتظ المتنزه القريب من النهر بأشجار النار[1] وشجيرات القنا[2] المزهرة، فيما عبقت المدينة برائحة السمك التي تفوح من مياه النهر الغزيرة الصفراء.

تصرف المسافرون السبعة بحرية وراحة، فقد أضفى عليهم السفر تحت سماء غريبة جواً من التحرر والانطلاق. في هانوي انضم إلى السيارة التي كانت تستقلها الفتيات رجل أكبر سناً يدعى سيا يعمل في شركة المناجم. اعتاد سيا أن يجلس دائماً إلى جانب شينونوي هاروكا وأخذ يضغط بجسمه المتعرق عمداً على كتفها وركبتها ويروي بوقاحة حكايات قذرة. كانت يوكيكو تفضل الحصول على عمل في مدينة جميلة، لذا شعرت بالحسد تجاه شينونوي هاروكا، فقد سمعت بأن سايغون تشبه باريس إلى حد كبير لدرجة أنها تدعى «باريس الصغيرة». لكن جميع الأمور قد تقررت، ولم يكن بالإمكان فعل أي شيء. أدركت يوكيكو تماماً أن نوع العمل الذي تحصل عليه أي فتاة يعتمد على جمالها أو قبحها. كان من

(1) شجيرات دائمة الخضرة لها أزهار صفراء غامقة.

(2) أعشاب استوائية عريضة الأوراق.

الصعب على يوكيكو أن تعرف أنها ستقوم بعمل روتيني في دالات، وهو مكان يقع وسط الجبال ولم تسمع به من قبل. وقد شعرت بالإحباط وهي تفكر في أن عليها أن تعمل هناك عاماً كاملاً، إذ ليس هناك ما هو أسوأ بالنسبة إلى صبية شابة من أن تشعر بأنها عادية جداً.

تذكرت يوكيكو أن سوجيو سألها مازحاً قبل مغادرتها طوكيو إذا كانت ستدعوهم جميعاً إلى الهند الصينية في حال وجدت فيها المكان المناسب كي تخلصهم على الأقل من ظروف القمع التي يعانون منها في وطنهم، وتخيلت أن سوجيو قد يقرر ترك شركة التأمين ويتطوع للذهاب إلى الهند الصينية.

قضى الجميع ليلة واحدة في هيو، ثم استقلوا القطار المتجه إلى سايغون من المحطة القريبة من شاطئ البحر. كانت عربات القطار ضيقة وجذابة، وتوافرت في عربات الدرجة الثانية تسهيلات مريحة على غير ما هو متوقع، فاحتوت كل منها على أريكة وطاولة ومروحة صغيرة تدور باستمرار لتحرك الهواء، وكان هناك إلى جانب المقصورة دش للاستحمام. وهكذا كان سفر القطار أكثر راحة من سفر السيارة. بعد أن طلب المسافرون القهوة، جاءهم بها صبي أنامي في فناجين عميقة بدت مثل أواني الزهور. وهنا انفردت يوكيكو، ولأول مرة، بشينونوي هاروكا، وأقامتا في نفس المقصورة بمفردهما. كان القطار يهتز بشدة، وعندها اتضح أن تلك الاهتزازات هي السبب في استخدام تلك الفناجين الشبيهة بآنية الزهور. انذهلت يوكيكو وهاروكا من الغبار الرملي الذي كان يهب من مكان ما، تماماً كما كان الحال في أثناء السفر بالسيارة. وعلى الرغم من توافر أسباب الراحة في المقصورات، إلا أن القطار لم يكن نظيفاً بسبب ما يسوده من أجواء الغبار الأصفر. كانت هاروكا ترتدي جوارب حريرية وحذاء حديث الطراز ذا كعب مطاطي، لكن كيف ومتى تدبرت أمر الحصول على هذه الأشياء؟ كما ساورت يوكيكو الحيرة منذ لحظة صعودهم إلى القطار من العطر الجميل الذي كانت تضعه هاروكا. أما هي فقد سيطرت عليها مشاعر الهزيمة والبؤس وهي ترتدي بنطالها الذي خيط من زيها المدرسي الصوفي الأزرق والذي اتسخ بعض

الشيء في أثناء الرحلة وحذاءها الأسود القذر الذي تورمت داخله أصابع قدميها. قالت يوكيكو وهي تنظر بحسد إلى هاروكا وتبرجها: «أنت محظوظة لأنك ستذهبين إلى سايغون يا آنسة شينونوي».

«أوه؟ لن أحكم إذا كان ذاك المكان جيداً أو سيئاً إلى حين الوصول إليه. لكن أليست مزرعة الكينا في معهد باستور ممتازة؟ هناك يدرس الطلاب اللغتين الفرنسية والأنامية معاً. إنها مكان راق، أليس كذلك؟ هذا ما أظنّه، يبدو أنها مكان جيد».

كانت يوكيكو تدرك تماماً أن هاروكا تتصرف بلطف في محاولة لمواساتها.

«لكنني سمعت أنه قلما يوجد أناس هناك. سأشعر بالوحدة لأنني سأبتعد عنكم جميعاً بعد أن قضيت معكم أوقاتاً صعبة لأذهب إلى الجبال حيث لا أعرف أحداً. سأشعر بالوحدة العميقة والملل».

انطلق القطار مسرعاً قاطعاً الهضاب والوديان إلى أن وصل إلى سايغون ليلاً.

5

شعرت يوكيكو بالإرهاق التام، ربما لأنها لم تكن معتادة على هذا النوع من السفر، وعانت يومياً من عدة نوبات حمى لم تعرف أسبابها. كان عليهم قضاء خمسة أيام في سايغون لإتمام الإجراءات العسكرية التي تحتاج إلى فترة طويلة من الزمن، وهكذا لم تتوافر لهم الفرصة لاكتشاف المدينة. في سايغون أقام الجميع، ولأول مرة منذ أن كانوا في هاي فونغ، في مقر عسكري تابع للجيش يتناسب مع مكاناتهم المتواضعة. في اليوم الرابع، رحلت شينونوي هاروكا برفقة رجل يعمل في قسم المخابرات العسكرية إلى المساكن المتوافرة في مكان عملها. اتضح أن المكان الذي تقيم فيه يوكيكو مع الآخرين هو منزل خاص بتاجر صيني جردت غرفه الفارغة من جميع التحف ولم يعد فيها سوى فرش مطوية، وقد أُوكلت الأعباء الكثيرة فيه إلى امرأتين أناميتين. تضمنت المجموعة المتوجهة إلى دالات المهندسيِن موجي وكوروي بالإضافة إلى سايا الكبير في السن ويوكيكو، وكانوا جميعاً يجلسون معاً دائماً في زاوية غرفة الطعام التي احتوت ثلاث طاولات من خشب الصندل مرتبة في صف واحد وعُلِّقت على جدرانها عدة خرائط كبيرة غير متقنة الرسم. توافد بعض الناس على هذه الغرفة للقيام ببعض الأعمال أو لتناول وجباتهم في الأرجاء الأخرى منها. ففي غرفة الطعام هذه، وبكل ما

تشهده من لقاء ووداع، كان الزوار يتغيرون، إلا شخصاً واحداً تعوَّد الجلوس في مقعد جميل بالقرب من النافذة بمفرده وقضاء مدة دقيقة ومحددة كما لو أنه في مهمة رسمية مختومة بختم. وفجأة لاحظت يوكيكو وجود ذاك الرجل ذي البشرة السوداء والشعر الكَثّ الذي دأب على قراءة كتاب أو صحيفة حتى في أثناء تناوله الطعام. نظرت إلى جانب وجهه الطويل والنحيل في أثناء انهماكه في القراءة فبدت تعابيره بلا حياة.. كما لو أنها تعابير رجل ميت. ظنت يوكيكو أن ذاك الرجل الذي يرتدي قميصاً بأكمام قصيرة وبنطالاً غامقاً قد جاء من أنام. كان في كل مساء يعود من مكان ما إلى غرفة الطعام الخاوية، فيضع أمامه زجاجة ويسكي ويبدأ بالشرب. اضطرت يوكيكو للذهاب إلى غرفة الطعام بين الحين والآخر لإحضار الثلج بسبب الحمى التي أصابتها، وكانت دائماً تجد هذا الرجل جالساً هناك يحتسي الشراب رافعاً ركبتيه بطريقة غير لائقة. لم يكن يعر أي انتباه لقدوم يوكيكو، بل كان يتناول شرابه ويلقي بنظره بعيداً كما لو أنه مستمتع بعزلته.

كان المنزل قريباً من شارع في منطقة التجار الصينيين تنتشر إلى جانبيه المطاعم والحانات والمقاهي، والمكان مفعم بالحياة ليلاً بسبب أصوات أجهزة الغرامافون والمذياع، إلى جانب ما تحمله الرياح معها أحياناً من مقاطع أغاني الحرب الوطنية اليابانية مثل أغنية «أبي، لقد كُنْتَ شجاعاً». لقد أسرت هذه الأغنية بالتحديد اهتمام يوكيكو لحظة تناولها الدواء في إحدى زوايا الغرفة، فشعرت برغبة في التحدث إلى الرجل الذي كان يشرب، دون أن تعرف سبباً لذلك. انتابها شعور بالمغامرة، واعتقدت أن جميع الرجال يتصرفون بنفس طريقة سوجيو. شعرت بأن الرجل، ولكونهما في بلاد غريبة، لن يمانع في أن تتحدث إليه حتى دون أن تقدِّم نفسها. تعمدت يوكيكو أن تمسك بإحدى الصحف اليابانية المبعثرة في الغرفة وبدأت تتفحصها. أبدى الرجل نوعاً من اللامبالاة وسوء التصرف بعدم ملاحظة أي شيء من حوله، وواصل قراءة كتابه وتناول شرابه إلى أن بدأت مسحة من اللون الأحمر تغطي بشرته. ولفتت ذراعاه الطويلتان الممتدتان من كمي القميص الأبيض القصيرين انتباه يوكيكو التي خمَّنت أنه في الرابعة

والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره.

لم تستطع يوكيكو أن تبعد هذا الرجل من تفكيرها وهي مستلقية وحيدة في فراشها، وظنّت بأنها ستفارقه دون حتى أن تعرف اسمه أو مكان عمله.

في اليوم الخامس كانت هناك شاحنة متوجهة إلى دالات، فاستعدت يوكيكو والآخرون لمغادرة سايغون والسفر من جديد.

في قديم الزمان كانت سايغون تسمى «بري نوكورو» أي «مدينة الأشجار»، وهو اسم أطلقه عليها شعب الخمير[1]، وبالفعل كانت شوارع سايغون محاطة بأشجار اليو[2] الشاهقة. تحت الأشجار، تسابقت بقية دراجات التاكسي التي كانت تستخدم في طوكيو مثل حشرات تزحف على الرصيف الإسفلتي الأملس. وفي شارع كاشينا المزدحم، كان الأطفال الفرنسيون يرتدون ملابس المدرسة الزرقاء ويلعبون تحت أشجار التمر الهندي المغطاة بثمار تشبه الإجاص أضفت على المكان أجواء المتنزهات والحدائق، في حين تنقل الباعة الأناميون والصينيون في الشوارع النظيفة، وقد أثارت ألوان ملابسهم الدهشة في نفس يوكيكو مقارنة بالألوان الداكنة الرتيبة التي يرتديها اليابانيون. مرة أخرى شعرت يوكيكو بالحسد حيال شينونوي هاروكو، فقد غارت من شكلها الجميل الذي أتاح لها فرصة التواجد في مدينة جميلة مثل هذه. تحت ظلال أوراق الأشجار الكثيفة التي حجبت أشعة الشمس تجول الجنود اليابانيون بدوريات حراسة، وبدوا كأنهم يفتقرون إلى دعم أي بلد أو مؤسسة عسكرية. كانوا يتمشون في الشوارع ضمن مجموعات صغيرة، أو بالأحرى، كانوا يجوبونها كما لو أنهم مهجّرون هناك. بدت وجوه رفاق يوكيكو بائسة ومتسخة، ربما كان ذلك بسبب التعب الذي أصابهم جراء السفر الطويل. أحست يوكيكو بمرارة الوحدة، وشعرت بأنها تحولت إلى عاملة غير مؤهلة تعمل بنظام المياومة دون أي احترام لذاتها، لذا تاقت إلى العودة إلى اليابان، لم تعد تبال بطبيعة مدينة دالات، بل اشتاقت إلى

(1) يقطن شعب الخمير في مناطق جنوب شرق آسيا وخصوصاً في كمبوديا.

(2) شجر يعرف بخشبة المقاوم للعفن.

مرافقة الناس، إذ كانت واثقة بأنها لن تتمكن من العيش وحيدة في جبال دالات.

أما الطاعن في السن سيا، وبعد أن حُرم من شينونوي هاروكا، حوَّل انتباهه نحو يوكيكو ببساطة، فتوجه نحوها وقلب يده نحو الأعلى وقال: «تبدين مكتئبة جداً، دعينا نتفاءل قليلاً. أينما توجهنا، سيكون هناك جيش ياباني، ليس هناك ما نقلق بشأنه. إلى جانب ذلك، ستترتب عليك مسؤوليات كثيرة جداً بوصفك المرأة اليابانية الوحيدة هناك. ستعملين يداً بيد مع الجيش الإمبراطوري، أليس ذلك....؟»

6

عندما وصلوا إلى قرية تدعى برينه، على بعد ستين كيلومتراً من دالات، بدأت الطريق المتعرجة تتجه صعوداً على سفح جبل رانبين الطويل. عملت محركات السيارة بجهد في أثناء مسيرها على الطريق الصاعد المتعرج. فعلى الرغم من حلول الظلام كان يطل عليهم بين الحين والآخر من وسط ظلال الأشجار الممتدة إلى جانب الطريق طاووس أبيض فيثير دهشة الجميع.

اجتاح ضباب المساء أجواء الجبل، وانتشرت هنا وهناك صفوف من أشجار الكرز المزهرة التي أخذت تلامس الشاحنة في أثناء السير. وانتشرت في الغابة ذات الأروقة مبانٍ على طراز الفلل، أحيط بعضها بالكثير من نباتات اليوغنفيلية المتعرشة التي تشبه في ألوانها نباتات الفاوانيا، في حين نمت حول ملاعب التنس في بعضها الآخر شجيرات الميموزا[1] ذات الأزهار الذهبية التي فاح منها عبق شذى رقيق ونادر وانبعث نحو الشاحنة في أثناء مرورها وجعل يوكيكو تسترسل في أحلامها. شعرت بأن لا مثيل لهذه المدينة الجبلية التي تدعى سايغون، «مدينة الأشجار»، بسموها ورفعتها. كانت عاملات المزارع الأناميات يتوقفن للسماح للشاحنة بالمرور وعلى رؤوسهن قبعات ثلاثية الزوايا مصنوعة من نبات السعد

(1) الميموزا، أو المستحية، نبتة تتميز أوراقها بحساسية بالغة فما إن يلمسها المرء حتى تنغلق على نفسها.

يحاولن موازنة الأحمال على أطراف قضبان يلقينها فوق أكتافهن.

سيطرت مدينة دالات المرتفعة التي يحدها جبل رانبين من الخلف والبحيرة من الأمام على مخيلة يوكيكو واهتمامها وبدت لها مثل السراب.

عندما دخلت الشاحنة حديقة المبنى ذي الجدران البيضاء والذي قيل إنه كان مخفر شرطة المدينة، رأت يوكيكو علم اليابان مرفوعاً عالياً فوق سارية وسط الحديقة، وقد ثبتت على البوابة الحجرية لوحة جديدة كتب عليها «مكتب الغابات المحلي»، ووضعت إلى الأسفل منها لوحات كتبت عليها نفس العبارة باللغتين الأنامية والفرنسية بالحبر الهندي وبأحرف أصغر. التقى أعضاء الفريق في غرفة الاستقبال المطلة على البحيرة بالسيد ماكيتا كيزو رئيس المكتب، وتقرر أن تعمل يوكيكو هنا في الوقت الحالي، فأرشدتها خادمة أنامية إلى غرفتها في نهاية الرواق في الطابق الثاني. لم تكن الغرفة مطلة على البحيرة أو المدينة، لكنها استطاعت أن ترى من نافذتها الشمالية جبل رانبين قريباً وأشجار البوغنفيلية المكللة بالزهور وكلباً أبيض كثيف الفراء يثب مرحاً حول المرج.

وأخيراً وصلت الرحلة الطويلة إلى نهايتها، وتمكنت يوكيكو من الاستقرار في غرفة خاصة ولدت لديها إحساساً جميلاً بالانتعاش، وبالأخص لأنه لم يكن هناك أية سجادة تغطي الأرضية الخشبية، بل مجرد هيكل سرير بسيط لم تعرف من أين أتوا به وخزانة مطلية وضيقة من الطراز الغربي بدت غريبة لا تلائم جو الغرفة المعتم. كانت الطيور الصغيرة تغرد بضجيج باحثة عن مجثم لها في أجواء الغسق المظلم. غادر موجي سيا والآخرون في سيارة ماكيتا إلى فندق رانبين، وهو الفندق الوحيد من الدرجة الأولى في المدينة. كان ماكيتا قصير القامة قوي البنية في الأربعينيات من عمره. ويقال إنه بدأ العمل في مكتب غابات توتوري، ثم انتقل من هناك للعمل في وزارة الزراعة والغابات، وأُرسل بعد ذلك في نهاية العام 1942 إلى الهند الصينية كموظف مدني في الجيش. وكان معه أربعة موظفين، ولكنهم خرجوا جميعهم في رحلات بحثية. كما كان هناك مترجمان من سكان أنام، وموظف غابات حكومي وموظفة مكتب من أصل عرقي مختلط.

كانت يوكيكو تعبة جداً، ولم تشعر بأنها بحالة تسمح لها بتلبية دعوة الآخرين لها لتناول العشاء في فندق رانبين، فتمددت على السرير، ولكنها ظلت تحس باهتزاز القطار وبأن هناك شيئاً ما يضغط على أذنيها. أرادت أن تغط بنوم عميق، وحاولت أن تغفو، لكن أصوات ضجيج الغابة، مثل صوت أزيز زير الحصاد، ظلت عالية، وظلت رائحة طلاء الخزانة تخترق أنفها.

في تلك الأمسية، تكرمت خادمة أنامية بإعداد وجبة يابانية تناولتها يوكيكو بمفردها في غرفة الطعام الواسعة التي توسطها موقد مبني على شكل تشكيل صخري ووُضع بجانب بابها بيانو أسود لامع. جلست يوكيكو إلى الطاولة وأمامها إناء زجاجي تطفو فيه زهور البوغينفيلية. عندما وضعت يديها على غطاء الطاولة الأبيض المنشّى شعرت بأن يديها تبدوان أكثر اتساخاً من يدي الخادمة الأنامية. استغربت يوكيكو شكل طبق الحساء وفطيرة السمك الحمراء الغامقة التي تشبه السجق. وضعت الخادمة، التي كانت تتحدث القليل من اليابانية المكسرة، مسحة من المسحوق على وجهها وقرطاً أزرق في أذنيها. وعلى الرغم من أنها قد تجاوزت الثلاثين من عمرها، إلا أن عينيها مازالتا جميلتين، وكان وجهها ناعماً بلون ورق البرسيمون[1] الأسمر وجبينها عريضاً. وعلى زجاج النافذة الكبير، تجمعت مجموعات كبيرة من الفراشات البيضاء. عندما أنهت يوكيكو تناول طعامها، سمعت هدير محرك سيارة تدخل إلى الساحة الأمامية، فتساءلت إذا كان ماكيتا قد عاد، ولكنها كانت متأكدة من أن الوقت مازال مبكراً لعودته. أنصتت بعناية، وخرجت الخادمة وقالت بصوت ناعم: «مساء الخير»، وهي تتجه نحو مدخل الحديقة. ثم سمعت يوكيكو صوت رجل ومزيجاً مضطرباً من أصوات الأحاديث والخطى. وفجأة دخل رجل طويل إلى غرفة الطعام، إنه نفس الرجل الذي رأته يقرأ في غرفة الطعام في سايغون. دخل الرجل غرفة الطعام بخطوات مدوية، وأبدى بعض الدهشة لرؤية يوكيكو، فرمقها بنظرة تنم عن معرفته بها، وعاد مسرعاً إلى الرواق.

(1) شجر من فصيلة الأبنوسية.

أنهت يوكيكو تناول طعامها، لكن الخادمة لم تعد إلى غرفة الطعام. قبل ذلك احمرَّ لون يوكيكو قليلاً وردت على تحية الرجل الذي غادر الغرفة بكل بساطة. شعرت يوكيكو بالاستياء لعدم وجود أي مؤشر على عودته. وفجأة أحست بشعور مؤلم وعاد إليها ذاك الشعور بالإرهاق الشديد، فتسللت بانزعاج من غرفة الطعام، وصعدت إلى غرفتها. وقفت تحدق بصورتها في مرآة الخزانة، ووضعت طبقات من أحمر الشفاه وبعض المساحيق على وجهها، ومشطت شعرها، ثم نزلت مسرعة إلى غرفة الطعام من جديد. ولكنها كانت خاوية هادئة لا يشوبها إلا صوت ضربات أجنحة الفراشات المهتاجة على زجاج النافذة. بعد قليل أحضرت لها الخادمة القهوة، ثم تركت الغرفة من جديد. انتظرت يوكيكو طويلاً، لكن الرجل لم يعد، فشعرت بشيء من الإحباط وعادت إلى غرفتها. بعد ذلك سمعت صوت أحدهم يصعد السلم العريض، فأنصتت إلى الباب، وعندما تلاشى الصوت نزلت إلى الطابق السفلي. وبسبب ضجرها رفعت يوكيكو غطاء البيانو، وعزفت بأصابع يد واحدة لحن «أغنية شاطئ البحر» التي كانت تعزفها كثيراً وهي طفلة. ثم نظرت إلى الإطار الزجاجي المعلق على الجدار وفي داخله مخطط توضيحي يبين إحصائيات الغابات وموضوع ضمن إطار زجاجي، وأخذت تطالع المعلومات حول أنواع الأشجار، مثل أشجار صنوبر كاشا وصنوبر ميروكوشي وأشجار اليو والبلوط وبلوط كوري. وعندها شعرت لأول مرة بأنها وحيدة في هذا المكان البعيد. لم يكن هناك ما يبشر بحضور أحد إلى غرفة الطعام، لذا خرجت يوكيكو إلى الحديقة حيث كانت النجوم تشع بأضوائها في أرجاء السماء. داعب نسيم الليل الصافي الجزء السفلي من ثوب يوكيكو المصنوع من البوبلين الحريري، وكان عبق الزهور يهل من كل مكان. ثم جاء صوت امرأة من جهة الممر وهي تقول «مساء الخير». كانت الغيوم تسبح في السماء حاجبة النجوم خلفها. لم يكن هناك إمكانية لرؤية البحيرة. عادت يوكيكو إلى غرفتها، وانحنت فوق حافة النافذة. بعد قليل رن جرس الهاتف كثيراً في الطابق السفلي، ثم حدثت ضجة في الأسفل، وسمعت يوكيكو أصوات ضحكات رجال، لا بد أن ماكيتا قد عاد.

7

عند الفجر استلقت يوكيكو تصغي إلى صوت نسيم الجبال يهب عبر أشجار الصنوبر، وكانت قد حلمت قبل دقيقة بأنها تلعب التنس مع نفس الرجل على مرج أخضر واسع. كان حلماً جميلاً، ولكنها لم تستطع تذكر كامل تفاصيله. على أية حال سيغادر الرجل المكان قريباً. وشعرت يوكيكو بسعادة لتفكيرها بهذه الفرصة التي أتاحت لقاء شخصين صادف وأن التقيا معاً لمرتين تحت سقف واحد، وكأن الرياح قد ساقتهما إلى نفس المكان. بعد ذلك تبرجت بعناية واختارت ثوباً بسيطاً من الحرير الأبيض، ثم نزلت إلى غرفة الطعام حيث وجدت الرجل وماكيتا يجلسان بالقرب من النافذة الكبيرة المفتوحة يشربان القهوة. التفت ماكيتا إلى يوكيكو وابتسم لها، لكن الرجل الآخر لم يعرها أي انتباه، وظل يضع قدميه على حافة النافذة وينظر إلى البحيرة المغطاة بالضباب. كان من الواضح أنه تعمد التمسك بسلوكه غير اللائق، وبدا لها ذاك مثل عناد طالب في المدرسة الثانوية.

«كيف حالك؟ تعالي إلى هنا يا آنسة كودا. لقد كانت رحلة طويلة، لا بد أنك منهكة. أخبرني توميوكا بأنكما أقمتما في نفس المكان في سايغون».

نظرت يوكيكو بانزعاج نحو الرجل الذي خاطبه ماكيتا بصوت منخفض قائلاً: «ستعمل يوكيكو هنا موظفةَ طباعة في الوقت الحالي، ثم سنرسلها إلى معهد

باستور بعد نحو ستة أشهر».

عندها التفت الرجل نحو يوكيكو وقال لها على سبيل التحية: «أنا توميوكا».

«ماذا؟ أهذه أول مرة تتقابلان فيها؟ اعتقدت أنكما قد تعارفتما قبلاً. هذا توميوكا كينغو. إنه أيضاً من المكتب الرئيسي، وقد تم نقله من بورنيو منذ نحو ثلاثة أشهر. إن وجود امرأة يابانية هنا يعد أمراً غريباً بالنسبة لنا، لذا عليك الاعتياد على تعليقات الناس عليك لكونك اليابانية الوحيدة هنا».

جلست يوكيكو على أريكة جلدية بعيدة بعض الشيء. في الليلة السابقة كان سيا يتحدث في بهو الفندق، وقال أن يوكيكو شابة بسيطة غير متكلفة، ولذا فمن المحتمل أن تكون جيدة في العمل، بينما توقع أن تسبب المرأة الجميلة التي تدعى شينونوي، والتي بقيت في سايغون، المشاكل. ولكن عند رؤيتها عن قرب، لم تبد يوكيكو بسيطة وغير متكلفة بقدر ما تحدث عنها سيا، فهي جذابة على الرغم من أنها لا تجعد شعرها بشكل دائم، كما تفعل معظم النساء. أهم ما في الأمر أنها كانت متواضعة. كان من الممكن أن يثير منظر ساقيها العاريتين السمينتين البارزتين بوقار من حافة ثوبها الضحك والسخرية في اليابان ومن المحتمل أن يشبهها باللفت، لكن لهذا المنظر قيمة كبيرة هنا، إذ أنه يعيد ذكريات حصائر التاتامي والأبواب الورقية المنزلقة. وكانت كتفاها المنحدرتان وبشرة عنقها البيضاء الصافية تثير لدى المرء الفخر لانتمائه إلى نفس الدماء، بل تولد فيه الرغبة في الصلاة. وعلى الرغم من جبينها العريض قليلاً، إلا أنها بدت أكثر جمالاً من الخادمة نيو. وكان من الجيد أيضاً أنها لا ترتدي نظارات سداسية الشكل مثل ماري موظفة المكتب. لم يصدق ماكيتا أن الحظ قد حالفه وجعل هذه الشابة اليابانية تقطع مسافات طويلة لتأتي إلى هذه الجبال. لم يكن يحترم كثيراً النساء اللواتي يسافرن إلى الخارج من قبل، ولكن كودا يوكيكو تركت لديه انطباعاً جيداً واستثنائياً. أُعجب ماكيتا بمهارة يوكيكو بوضع مساحيق التجميل، وفرح لأنها لم تكن من النوع الذي تحدث عنه سيا. على الطاولة الكبيرة كانت هناك باقة من أزهار القنا. تحدث ماكيتا إلى توميوكا بمزاج هادئ عن بعض الأمور الفنية،

في حين كانت يوكيكو شاردة تنظر نحو النافذة المضيئة، وقد انتابها مزيج من المشاعر المختلفة في آن واحد.

أخذ توميوكا يدخن سيجارة وهو يضع يديه خلف الكرسي ويرجع رأسه إلى الخلف ليلقيه على وسادة الكرسي. كان يرتدي بزة صيفية بنية اللون عليها بعض التجعيدات وساعة يد ذات شريط رفيع من البلاستيك الجميل الذي يشبه الزجاج وفيها عقرب ثوانٍ أحمر اللون يدور حول أرقامها السوداء. من المؤكد أن توميوكا قد حلق رقبته حديثاً حيث اتضح اللون الشاحب للجزء الخلفي منها. رن الجرس حالاً في غرفة الطعام، فخرج ماكيتا أولاً، ثم تلاه توميوكا وبعده يوكيكو. في وسط غطاء الطاولة الأبيض كان هناك إناء زجاجي وضعت فيه الأزهار البيضاء والبنفسجية. بدأت خدمة الطعام بتقديم حساء الميسو بالتوفو في آنية ألمنيوم حمراء، ثم تلته الأطباق الشهية مثل البيض المقلي والسمك المملح الواحد تلو الآخر. جلست يوكيكو بجانب توميوكا مقابل ماكيتا. أما موجي وسيا وكوروي، الذين كانوا يقيمون أيضاً في الفندق، فلم يأتوا إلى المكتب بعد. كانت مروحة السقف تصدر صوت احتكاك مزعج. تحدث ماكيتا إلى يوكيكو وهو يشرق حسائه وقال: «يقولون أن الحياة في الوطن باتت صعبة جداً. لا بد أن هذا المكان يبدو مثل جنة بالنسبة لك».

وبما أن يوكيكو لم تنعم بهذا النوع من الحياة من قبل، فقد كان المكان بالنسبة لها أكثر من جنة، لكنه أثار فيها في الوقت ذاته شعوراً بالفراغ وعدم الارتياح، فقد أحست كما لو أنها تسطو على منزل رجل ثري.

أخذ توميوكا يتحدث بين الحين والآخر عن أمور مثل الأبحاث التي تجريها وزارة الزراعة والغابات في سايغون، وانتقد طريقة اليابانيين المتسلطة في التعامل مع رؤساء الأقسام الفرنسيين في مكاتب الغابات الفرنسية.

وأضاف ماكيتا مقاطعاً أنه لم يكن من اللائق أن يتبختر المسؤولون اليابانيون في أماكن مثل فندق الكونتيننتال في حين يعاني وطنهم من الفقر الشديد، وأنه من الخطأ تحويل فندق كبير كهذا إلى مقر لمستودع إمدادات حتى في ظل الاحتلال،

وقال: «أليس من المؤكد أن يثير هذا الاستيلاء الطائش من الجيش الياباني عداء الطرف الآخر؟ لكن على الرغم من ذلك نحن محظوظون. بغض النظر عما يخطط له الجيش، سنظل بخير طالما أننا نؤدي واجبنا بالعناية بالغابات. على كل حال يجب أن نكون شاكرين لما نحن فيه».

بقي توميوكا في سايغون لمدة عشرة أيام لإجراء أبحاث حول وقود الفحم في مختبرات الوزارة الكائنة في شارع روسو. تناول توميوكا الخبز على الفطور، وأمسكت يوكيكو بطبق الزبدة لتمرره له، فنظر إلى يدها، وبدا له منظر يد الشابة اليابانية المكتنزة رائعاً، حيث وجدها ناعمة وجميلة يغطيها شعر ناعم مثل شعر الأطفال.

تحدث تاميوكا بسرعة وقال: «كنت أفكر في الذهاب إلى رانهان خلال أربعة أو خمسة أيام للاطلاع على عملهم على الإسمنت المدعم بالخيزران. فقد أرسل لي السيد كانو بعض المعلومات عن مشروعهم المتعلق بزراعة الأشجار لإنتاج الفحم النباتي. هل رأيتموه من قبل؟ فكرة السيارات التي تعمل بالفحم النباتي ليست سيئة أيضاً. عندما كنت في الوطن، سمعت أنهم يتحولون إلى السيارات التي تعمل بالفحم، إننا نعمل على هذا منذ زمن هنا. هل لك بإلقاء نظرة على تقرير كانو؟ كنت أفكر أيضاً في الذهاب إلى مركز الأبحاث في ترانجبوم للقاء كانو».

بعد ذلك غادر توميوكا الغرفة متوجهاً نحو الردهة قبل الآخرين. قالت يوكيكو «يا له من رجل غريب!»، وسمحت لزلة لسانها دون قصد أن تصل إلى مسامع ماكيتا الذي أجاب: «إنه رجل غريب الأطوار، ولكن لديه في نفس الوقت مشاعر وأحاسيس عميقة. فهو يكتب كل ثلاثة أيام رسالة لزوجته. أتمنى لو أستطيع أن أفعل ذلك. لديه حس عالٍ بالمسؤولية، وعندما يتولى القيام بأمر ما، فإنه ينجزه بشكل صحيح».

شعرت يوكيكو وكأنها تلقت صفعة عندما علمت بأنه يكتب رسالة لزوجته كل ثلاثة أيام.

8

في مساء اليوم الثاني، غادر ماكيتا إلى سايغون وفنوم بنه في رحلة عمل طارئة تستمر لمدة عشرة أيام، وصادف أن العجوز سيا كان سيعود أدراجه هو الآخر، وهكذا سافر الاثنان معاً في نفس الشاحنة. وكذلك انطلق موجي وكوروي يصحبهما مترجم أنامي لإجراء مسح لمنطقتهما، ولم يبق في المكان سوى توميوكا ويوكيكو. كانت غرفة توميوكا هي الأفضل حيث كانت موجهة نحو الشرق وتقع في منتصف الرواق بالطابق الثاني. شعرت يوكيكو بقنوط تجاه توميوكا، وساورها الفضول حيال ذاك الرجل الذي يكتب لزوجته رسالة كل ثلاثة أيام. واقتصرت علاقتها به على إلقاء التحية بعفوية بالقول «صباح الخير» أو «مرحباً» أو ما شابه ذلك من عبارات كلما التقته في غرفة الطعام. اعتمد توميوكا في كل ما يحتاجه من أعمال طباعة على ماري، التي اعتادت أن تقصد غرفة الطعام كلما شعرت بإرهاق العمل لتعزف على البيانو الذي تميز بصوته الجميل، ربما بسبب أجواء المرتفعات. لم تستطع يوكيكو تمييز النغمات والألحان، لكنها كانت تستمتع بها أحياناً. واتضح أن توميوكا أيضاً يحب الموسيقى، حيث كان هو الآخر يجلس إلى مكتبه ويستمع إليها بارتياح. بدت ماري، بسبب النظارة التي ترتديها، أكبر من سنها الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين، وقيل إنها ابنة

عائلة حسنة السمعة. عند النظر إليها من الخلف كانت تبدو جميلة وأنيقة بساقيها الرشيقتين والتناسق اللافت بين خصرها ووركها وهي ترتدي دائماً جوارب كحلية وحذاءً أبيض اللون. كان شعرها القصير الكثيف ذو اللون البني المائل إلى الحمرة ينسدل بتموجاته الخفيفة إلى الأمام والخلف. لم تستطع يوكيكو مقارنة نفسها بماري، إذ لم يكن لديها إنجازات تذكر. أما ماري فلديها مهارات العمل بسرعة وكفاءة، وتتحدث جيداً اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية. كانت يوكيكو تتساءل أحياناً عن سبب إرسال فتاة مثلها لا تجيد سوى طباعة النصوص على آلة طابعة بأحرف يابانية إلى هذه المرتفعات النائية في الهند الصينية، لكنها ما تلبث أن تواسي نفسها بتخيل أن المعلومات التي تطبعها قد تستخدم في وثائق سرية هامة.. وهكذا أمضت يوكيكو أوقات فراغها.

تأجلت رحلة توميوكا بسبب سفر ماكيتا المفاجئ. لكن في اليوم الخامس عاد كانو كيوجيرو فجأة من ترانجبوم إلى دالات بصحبة مساعد من أنام، فدخل المكتب، وسرعان ما تورد لونه عندما رأى كودا يوكيكو هناك. تولى توميوكا تقديم كل منهما للآخر، ثم سحب كانو كرسياً وبدأ يتحدث إلى توميوكا عن العمل، وكان واضحاً أنه شاب جاد يكرس جل طاقته للعمل.

«ألا تستطيع البقاء لفترة».

«أنا أعاني دائماً من الإسهال، ولا أشعر أنني بحالة صحية جيدة. لقد شعرت بشيء من الحنين إلى حضارة دالات، ما كنت أظن أنك ستعود إلى هنا يا سيد توميوكا».

بعد حديث دام طويلاً، طلب الرجلان من الخادمة إحضار القهوة. من الواضح أنهما صديقان مقربان، لكن كانو بدا أصغر سناً من توميوكا، وتميز ببشرة فاتحة وقامة قصيرة نسبياً. كان يرتدي قميصاً أزرقَ مفتوح الياقة وبنطالاً أبيضَ قصيراً على الطراز الغربي، وبدت عليه رشاقة الرياضيين. وعلى الرغم من بنيته القوية لاحت في عينيه مسحة من التوتر والجبن أوحت بمعاناته من نقطة ضعف نفسية فيه تحد من قدرته على تحمل نظرات الآخرين.

سادت أجواء من الحيوية والنشاط في غرفة الطعام لفترة العشاء. قبل تقديم الطعام فتح توميوكا زجاجة نبيذ أبيض اشتراها في سايغون، وحصلت يوكيكو على كأس منها.

«هل أنت من شيبا يا آنسة كودا؟»، هكذا وجه توميوكا المعروف بقلة كلامه حديثه فجأة إلى يوكيكو، وسألها إذا كانت قد جاءت من المنطقة الريفية المحيطة بطوكيو، والتي يعتبرها سكان المدينة متخلفة قديمة الطراز. يبدو أنه فعل ذلك تحت تأثير الخمر.

«لا، أنا لست من شيبا. أنت رجل فظ»..

«أو، حقاً؟ ظننتك من طراز أهل شيبا. من أين أنت؟»

«من طوكيو».

«من طوكيو؟ أنت تكذبين. أهل طوكيو لا يبدون مثلك. إذا كنت من طوكيو، فلا بد أنك من مكان قريب من شيبا، مثل كاتسوشيكا، أو ربما يوتسوجي».

«أوه. هذا فظيع».

ازدادت يوكيكو تجهماً، فقرر كانو التدخل وقال: «يمتلك توميوكا ألذع وأسوأ لسان في العالم. أرجوك لا تبالي بما يقول. هذه مجرد واحدة من عاداته السيئة».

«أهكذا إذا؟ أنت من طوكيو، أليس كذلك؟ لهجتك لا توحي بشخص يدعي أنه ولد وترعرع في طوكيو. كم عمرك يا آنسة كودا؟»

«كبيرة بما فيه الكفاية».

«أربعة وعشرون؟ خمسة وعشرون؟»

«لا، قد لا يوحي شكلي بعمري، ولكنني لم أتجاوز الثانية والعشرين بعد. أنت فظيع».

«الثانية والعشرون، أليس كذلك؟ حسن، يقال إن النساء اللواتي يبدون أكبر قليلاً من أعمارهن ذكيات. من الغباء أن ترغب المرأة في أن تبدو أصغر سناً».

أمسك توميوكا هذه المرة بزجاجة كوانترو[1] وفتح سدادتها الفيلينية. تخرّج توميوكا وكانو في نفس كلية الزراعة، وكانا مولعين جداً بالأدب، فقد أُعجب الأول بتولوستوي[2]، فيما عشق الثاني أدب الروائي سوسيكي[3] والكاتب الإنساني موشانوكوجي[4]. ثم حظي كانو بفرصة عمل في أبحاث الغابات في الهند الصينية بمساعدة توميوكا والبروفيسور الشهير ياسوناجا.

قال كانو: «دعونا نشرب نخباً بصحة كودا يوكيكو التي تحملت عناء السفر لكل هذه المسافة لتصل إلى دالات من أجل أداء واجبها المهني»، ثم دفع كأسه نحو يوكيكو التي كانت تذرف الدموع متمنية لو استطاعت الدفاع عن نفسها. عندها أصبح توميوكا ثملاً جداً، فنظر إلى عيني يوكيكو البراقتين ورأى فيهما جمالاً غريباً.. إنه نفس البريق الذي يراه أحياناً في عيني زوجته. ارتبك من هذا الأمر الغامض الذي لم يستطع إدراك معناه وشرب زجاجة الكوانترو جرعة واحدة. حركت يوكيكو كرسيها بهدوء وغادرت الغرفة.. كانت أجواء الليل بديعة في الخارج، لذا لم تذهب يوكيكو إلى غرفتها في الطابق الثاني، بل تمشت على الممر العريض الذي تلألأت عليه قطرات ندى المساء، وتابعت جولتها دون أي هدف معين.

«انظر، لقد جعلتها ترحل».

صعد كانو إلى غرفة يوكيكو في الطابق العلوي وقرع الباب، لكن ما من مجيب. لم يكن الباب موصداً وسرعان ما انفتح عندما حرك القبضة، فنظر إلى الداخل وشاهد تحت ضوء المصباح المسلط على السرير زوجاً من السراويل الداخلية السوداء من النوع الذي ترتديه طالبات المدارس. وقف كانو قرب الباب للحظة، ثم عاد إلى غرفة الطعام، لكن صورة السروالين الأسودين ظلت تلازم مخيلته.

---

(1) نوع من المشروبات الكحولية الفرنسية بنكهة البرتقال.

(2) ليو تولوستوي هو كاتب روسي من أشهر رواياته «آنا كرنينا» و«الحرب والسلام».

(3) ناتسومي سوسيكي (1867– 1916) كاتب ياباني من أشهر رواياته «بوتشان» و«عامل المنجم».

(4) موشانوكوجي سانشيو (1885–1976) روائي ياباني من معارضي النزعة الطبيعية.

لم يتردد توميوكا في التعبير عما كان يجول في ذهنه وقال: «إنها من النوع العنيد والمغرور، أليس كذلك؟»

أيقن كانو أن يوكيكو قد خرجت بالتأكيد، وأراد بشدة أن يذهب للبحث عنها، ثم سأل توميوكا:

«ألا تبدو مثل الممثلة مياكي كونيكو؟»

«لا أعرف. كل ما أعرفه أنه ليس من المناسب لشابة مثلها أن تأتي إلى مكان كهذا».

«حسن، إنك تفكر بعقلية قديمة جداً. في رأيي إن دالات اليوم أفضل مما كانت عليه من قبل».

«كودا يوكيكو ليست من النوع الذي يلائمك يا كانو».

سكب كانو المزيد من الكوانترو لنفسه وأخذ يحدق بعينين حمراوين في شفرات مروحة السقف المتوقفة، فيما رفع توميوكا قدميه على حافة النافذة الزجاجية ومدد جسمه على الكرسي إلى الخلف بحالة من الملل القاتل، وتنهد وقال:

«أتساءل إلى متى سنبقى هنا، فنحن لا نستطيع تحقيق الانتصار»، وتابع في الوقت الذي كان فيه كانو يرمقه بنظرة تساؤل: «على الأقل هذا ما يقولونه في سايغون. طبعاً هذا الكلام بيننا فقط، لكنني أظنّ أنه بحلول الربيع القادم سوف نعرف المزيد».

«من الصعب عليك الحصول على أية أخبار عندما تكون منفياً في مناطق داخلية مثل هذه. هل هناك من مؤشرات على ذلك؟ هل هناك أية أخبار؟»

«يقول الناس إننا لن ننتصر. هذا كل شيء».

«حقاً؟ أنا أعتقد أن كل الأمور على ما يرام. ما الذي تفعله البحرية اليابانية؟»

«حسن، ربما تكون لديهم خطة... لكن يبدو أنهم لم يحصلوا على نتائج بعد».

نهض كانو وتوجه نحو الباب ليضغط على زر تشغيل المروحة وصورة السروالين السوداوين لاتزال تشغله. بدأت شفرات المروحة تدور محدثة صوت حفيف منخفض وتياراً من الهواء حرّك الأزهار الموضوعة على الطاولة.

9

مر الوقت ولم تعد يوكيكو. أثار هواء المروحة النعاس لدى توميوكا فغفا، وعندها أطفأ كانو المروحة، وغادر غرفة الطعام بهدوء ونزل للبحث عنها. انبعثت صيحة غراب من وسط الظلام الكثيف الذي خيم بين صف من أشجار الكرز التي أزهرت مبكراً.. كان الجو رطباً، والحركة متوقفة تماماً.. وكان هناك وميض ضوء خفيف وسط الأشجار.. وبعد مكتب الغابات مباشرة يوجد منزل هزيل الشكل مبني على طراز فلل التجار الصينيين حوله حديقة نمت فيها الأعشاب وتفتحت من بعض نباتاتها التي تشبه ورود البحار الجنوبية أزهار صغيرة.. من الواضح أن أحداً لم يقطن ذاك المنزل منذ وقت طويل. سمع كانو شخصاً ما يردد أغنية وراء السياج.. إنها أغنية يابانية، فأدرك حينها أنها يوكيكو. ذهب إلى خلف السور فرأى يوكيكو تجلس على مقعد خشبي مريح ذي ظهر مائل وتغني وسط ضجيج أصوات الحشرات التي تملأ المكان. علمت يوكيكو بمجيء كانو فتوقفت عن الغناء ووقفت تحدق في الظلام.

سألها كانو: «ما الأمر؟ هل أنت غاضبة؟»

«لا شيء».

«أرجوك أن تعودي. ليس جيداً أن تعرضي نفسك لندى الليل. وهنا يمكنك

أيضاً أن تصابي بالمرض من مجرد لدغة بعوضة».

«سأعود لاحقاً».

«توميوكا إنسان طيب، لكن لسانه حاد، وأظن أن أعصابه متوترة أيضاً».

وضع كانو يده على كتف يوكيكو، وأحس ببشرتها الأنثوية الناعمة تحت ثوبها الحريري الرقيق، فثارت غرائزه، وشعر بصعوبة في السيطرة على نفسه، خصوصاً وأنه ربما يكون قد ثمل بعد أن شرب عدة كؤوس. حاول لمرتين أو ثلاث الإمساك بجسدها الناعم فوق كتفيها، لكنها ابتعدت عنه. لم تستطع يوكيكو التخلص من الضيق الذي كان يطبق على صدرها، فتولدت داخلها روح التمرد ورغبة غريزية في جعل توميوكا ذي اللسان الحاد والجارح يتذوق طعم المعاناة. لم تكن تبالي أبداً بهذا الرجل شاحب اللون. تسمرت بمكانها بصمت، ثم جاء كانو مرة أخرى بسماجة واقترب منها، ثم سمعا صوتاً خافتاً لمحركات سيارات قادمة باتجاه الفندق. تساءل كانو إذا ما كان انجذابه نحو يوكيكو جسدياً فقط، خصوصاً وأنه وصل إلى هذا المكان اليوم فقط. ولكنه شعر بأن تلك قد تكون فرصته الوحيدة معها، لذا اقترب منها ثانية، فنظرت إليه بحزم بعينين براقتين. كان نسيم الليل عبقاً برائحة الزهور وأوراق النباتات.

«لتعلم يا سيد كانو أنني تطوعت للمجيء إلى هنا بسبب الظروف السيئة التي تسود بلادي. هل تدرك ما أعنيه؟ أنا شابة، كيف لي أن أواصل حياتي يومياً وسط ظروف الحرب، وأن أصدق كذلك الأحاديث حول «الموت المشرف لمئة مليون»؟ لم آت إلى هذه البلاد للتسلية، بل أردت أن أهرب إلى مكان ما، ثم يأتي السيد توميوكا ليمطرني بوابل من التعليقات القذرة. بالطبع إن ذلك يزعجني. نحن الثلاثة يابانيون. لم أستسغ سؤاله لي إذا ما كنت من كاتسوشيكا أو يوتسوجي. واجهت الصعوبات بكل أنواعها حتى وصلت إلى هذه المرحلة، لأجد نفسي عرضة للسخرية والتهكم»...

بدأت يوكيكو تتحدث بنبرة عالية ومشاعر قوية، ولكنه تجاهلها ونظر إلى عينيها اللامعتين، وأخذ يحاول تخيل نوع الحياة التي تركتها بعد أن قالت إنها

جاءت إلى هنا هرباً من ظروف الحياة القاسية. وقف كانو مقابل يوكيكو وأمسك بذراعيها وقال: «تعلمين أن توميوكا ثمل».

«توقف عن هذا! أنت ثمل أيضاً يا كانو، أنا لست من هذا النوع»..

أبدت يوكيكو تمنعاً وهي تتحدث، ثم أغلقت عينيها، لكنها لم تحاول إبعاد يدي كانو، فأدارت رأسها بعيداً بحركة غريزية. بعد ذلك مباشرة، سُمع صوت ينادي من جهة الطريق: «مرحباً يا سيد كانو!» كان ذاك توميوكا، فهمس كانو ليوكيكو بصوت منخفض: «أرجوك إلحقي بي»، ثم شق طريقه بين العشب وذهب باتجاه الطريق. انزعج توميوكا فجأة عندما رأى كانو يخرج من بين العشب بهدوء. لم يقدم كانو أي تفسير، بل حاول ببساطة السير بنفس سرعة توميوكا على الطرقات الزلقة في أجواء الليل الباردة، وعاد معه إلى المكتب وهو يشعر تماماً باستيائه.

قال توميوكا متثائباً: «سيهطل الثلج في الوطن قريباً جداً»، ثم أردف: «آه، أود أن أعود إلى هناك، ولو لمرة واحدة فقط. أريد أن أعود إلى وطني».

استرجع كانو كلمات يوكيكو بأن قساوة العيش هي التي أبعدتها عن اليابان، ولم يُجِب.

أشعل توميوكا سيجارة وسأل: «هل كودا يوكيكو غاضبة؟»

«نعم إنها غاضبة».

«أو، حقاً؟»

«إنها شابة لطيفة».

«شابة لطيفة، أليس كذلك؟ هل هي فتاة نبيلة؟»

«إنها فتاة طيبة. لقد مرت بوقت صعب».

ظنّ كانو أن الوقت مناسب ليخبر توميوكا عن شعوره تجاه يوكيكو. لكن توميوكا ظل لفترة يسير بصمت يدخن سيجارته.

«أليس لديك حبيبة في الوطن؟»

«حسن، بالتأكيد، أظن أن لدي واحدة».

«حسن».

عند منعطف الطريق، نظر كانو من حوله بحثاً عن يوكيكو، لكنها لم تكن موجودة أسفل السفح.

«هاي، أتود أن تأخذ السيارة إلى فومون لصيد السمك؟»

كان صيد السمك شغل توميوكا الشاغل. توجد في المنطقة أربعة شلالات، لكنه غالباً ما يذهب إلى فومون. لم يكن كانو يرغب في الذهاب لصيد السمك، بل يفضل أن يرى الناس خصوصاً وأنه وصل لتوه إلى هنا بعد رحلة طويلة. لقد فرح بالطبع لرؤية توميوكا بعد فترة طويلة، لكنه فوجئ ببردة فعله القوية تجاه يوكيكو، ولم يستطع فعل أي شيء حيال الشعور الذي انتابه عندما دخل إلى غرفتها. لم يجب كانو على سؤال توميوكا، بل أصدر صفرة سريعة من النوع الذي يستخدم لاستدعاء كلب، فجاءه صوت نباح خفيف من جهة مظلة السيارات.

«حسناً فعل ماكيتا. فبعد كل هذا الوقت هنا ستبدو له سايغون وفنوم بنه واحات جميلة».

«نعم».

«هل مررت بأي تجربة ممتعة في سايغون يا توميوكا؟»

«لا أعرف. هل تظنّ أن هناك أي شيء ممتع؟»

«لكن لا بد أنك كنت مستمتعاً».

«أنت أيضاً عليك بكل حال أن تذهب لزيارة سايغون قبل أن تعود إلى ترانجبوم، فذلك سيفيد في تجديد نشاطك».

«سايغون؟ لم أذهب إلى هناك منذ زمن بعيد».

لم يكن كانو يبالي بسايغون على الإطلاق، إذ لم يستطع أن ينسى بريق عيني يوكيكو الذي رآه تحت ضوء النجوم. كان يتوق للتحدث إليها ثانية ليبعد عنها ذاك الشعور بالوحدة، وبدا أن نسيم الليل العليل قد ساهم في تهدئته بعض الشيء، وبدأ يشعر بالأسف على الطريقة الفظة التي عاملها بها من قبل. فكر بما قالته يوكيكو حول أن قدومها إلى هنا لم يكن في سبيل التسلية، فقد تركت تلك الكلمات وقعاً في نفسه. العيش هنا أفضل من الخدمة كجندي. تألم كانو

من كلماتها التي لامست لديه فجأة جرحاً قديماً بدأ يندمل، واسترجع للحظة ظروف الحرب الكئيبة عندما ذهب مجنداً من شركة أكابين إنجينيرز للمشاركة في احتلال نانكينغ. ومرت أمام عينيه ذكريات تلك الليلة التي أقدم فيها على تسليل إحدى النساء على قارب في إحدى البحيرات، وتذكر كيف شعر بمتعة في سلوك التسلل والهروب السريع. بدت تفاصيل تلك اللحظات واضحة مثل خطوط لوحة مرسومة.

10

كان توميوكا يشعر بالضجر، لذا ودع كانو خارج غرفة الطعام، وتمنى له ليلة سعيدة، وأسرع إلى الطابق العلوي، وكانت عقارب ساعته المضيئة تشير إلى ما بعد الحادية عشرة. عندما دخل غرفته، كانت الخادمة نيو تطوي الغسيل وتضعه على الأرفف وترتب الغرفة بحركاتها البطيئة المعتادة. انتاب توميوكا شعور فظيع بالعزلة وهو يراقب نيو تقوم بعملها، لذا هبط السلم الخلفي وتوجه إلى غرفة العينات، فأشعل الضوء وجلس في كرسي مصنوع من عوارض خشبية، وأخذ ينظر إلى عينات الأخشاب الجافة المرتبة في صندوق العرض. لم يعد السبب الذي أحضره إلى هذا المكان الغريب واضحاً، حتى بالنسبة له.

فكر في كتابة رسالة لزوجته كونيكو بعد أن انقطع عنها لبعض الوقت. ففي خلال رحلته إلى سايغون لم يتواصل مع أي شخص في وطنه لأكثر من عشرة أيام. شعر بأن زوجته هي الوحيدة التي يمكن أن يشكو لها شعوره العميق بالوحدة. تراءت له صورتها كالحلم، لقد كانت بالتأكيد تواجه الكثير من المشكلات والصعوبات القاسية في اليابان بمفردها. أراد أن يخبرها أنه اشترى لها من سايغون أحمر شفاه من نوع ميشيل ومسحوق تجميل وأنه سيجد طريقة مناسبة ليرسلهما لها.

شعر توميوكا بجفاف في حلقه، فغادر غرفة العينات وعاد إلى غرفة الطعام، حيث وجد كانو هناك على وشك أن يشرب كأساً مما تبقى من الكوانترو.

«هل عادت الآنسة كودا؟»

«نعم، لقد عادت، وذهبت إلى غرفتها».

تناول توميوكا كأساً من الماء وأقفل عائداً إلى الطابق الثاني. كانت نيو قد غادرت غرفته حينها، فأقفل الباب واستلقى على ظهره فوق السرير، صرَّت النوابض قليلاً وهي تتخذ وضعيتها تحت ثقله. نظر إلى الكرة الزجاجية الخشنة المحيطة بالضوء المعلق بالسقف، وأحس بقلبه ساكناً بعد أن ألقت الوحدة بظلالها عليه، وبدت فكرة الكتابة لزوجته عبئاً لا يمكنه التخلص منه. نهض من السرير واستبدل ثيابه بثياب نوم صفراء كانت نيو قد غسلتها وكوتها بعناية. كان هناك شيء ما يثير الحزن في كثرة اهتمامها.

دفع توميوكا البطانية ومدد جسمه على الملاءات، وسمع صوت صرير باب غرفة الطعام وهو ينفتح في الطابق الأول وصوت خطوات كانو يصعد السلم ببطء، فدمدم قائلاً: «إنه كانو، إنه كانو». لقد ذكَّره قوام كودا يوكيكو الرشيق بزوجته كونيكو قليلاً. الأهم من ذلك أن قلبه لايزال منشغلاً باكتشافه الغريب بأن المرأتين تتشابهان أحياناً بنفس بريق العينين. في هذا المكان النائي ذكرته كودا يوكيكو بحقيقة أن هناك توليفة من الكلمات وأنماط الحياة التي لا يألفها إلا أبناء العرق الواحد.

أدرك توميوكا بأن كانو يعاني من مشكلة في النوم، إذ استطا ع أن يسمع ضجته في الغرفة المجاورة وهو يجر الكرسي على الأرض ويفتح باب الخزانة. وكذلك لم يتمكن توميوكا من النوم أيضاً، وتذكر بأنه نسي إطفاء ضوء غرفة العينات، فنهض ثانية وخرج إلى الممر، ووصل إلى غرفة العينات ليجد نيو تقف عند بابها مرتدية ثوب حمام أزرق.

قال تاميوكا باللغة الأنامية: «جئت إلى هنا لأنني نسيت أن أطفئ الضوء».

ردت نيو وهي تمسك بثوب الحمام المغلق أمامها: «وأنا جئت لأطفئ الضوء

أيضاً»، ثم وقفت على أطراف أصابع قدميها ومدت جسمها إلى أن وصلت إلى مفتاح الضوء على الجدار. أمسك توميوكا بنيو بثبات عندما اصطدمت به، وكانت على وشك أن تقول شيئاً، لكن توميوكا سارع وقبّلها قبلة طويلة، ثم ترك المرأة النحيفة تقف مستندة إلى الجدار. صعد توميوكا السلم الخلفي، وكان لديه انطباع بأن نيو ضحكت عليه، فسار ببطء متعمد عائداً نحو غرفته.

كانت تلك الليلة هادئة.

ظلت أشجار الصنوبر صامتة ولم ينبعث من بين أغصانها صوت صفير الرياح. استرجع توميوكا صورة الغابات التي جابها في بورنيو الجنوبية[1] بحثاً عن صنوبر الميروكوشي، وأخذت صور أوراق الصنوبر الإبرية الحادة البائسة وشكل أشجار صنوبر الميركوشي التي تشبه المكنسة تروح وتجيء في مخيلته الواحدة تلو الأخرى. وأثار دهشته امتداد كميات هائلة من نباتات مائية تشبه نباتات الهايكينثوس[2] على عرض النهر الأصفر الموحل. هل كان ذلك مجرد حلم واختفى؟ النباتات لا تنمو بشكل جيد إلا عند زراعتها في التربة التي تلائمها، والحقيقة أن أشجار الأرز الياباني التي زرعت في حديقة مكتب الغابات هنا في دالات لم تكن تنمو بشكل جيد أبداً. وفي محاولة لإسقاط هذه الملاحظة على جوانب أخرى، فكر توميوكا أنه تماماً كما أن النباتات تتأصل بعمق في تربتها الأصلية، فإن المبدأ ذاته ينطبق على الناس وعلى الاختلافات العرقية. أظهرت اللوحة أن أشجار صنوبر الميركوشي تمتد على مساحة 35 ألف هيكتار. كيف يمكن لخبير غابات ياباني أن يدرك بمفرده إحصائيات هذه الأرض الغريبة التي اقتحمها؟ كيف يأملون أن يتمكنوا من بيع أشجار الميركوشي العظيمة هذه بجذوعها البديعة الشكل وأخشابها الناعمة إلى أنحاء أخرى من العالم؟ أليس اليابانيون مجرد لصوص أخذوا يعبثون فجأة بكنوز جمعتها الشعوب الأخرى على مدى قرون من الزمن؟ كيف سيتمكن اليابانيون من إدارة كل هذه الغابات الخلابة؟ إن قلوب الناس تظل حرة على الدوام..

(1) جزيرة بورنيو تقع في أرخبيل الملايو وهي مقسمة بين أندونيسيا وماليزيا وبروناي.

(2) نوع من النباتات المزهرة موطنه منطقة شرق المتوسط وتكون أزهاره بنفسجية اللون.

وهكذا أخذت الأفكار العشوائية المضطربة تغزو فكر توميوكا فأجفلت النوم عن عينيه.

أطفأ توميوكا ضوء الغرفة، وفي تلك اللحظة سمع صوت باب غرفة كانو يُفتح خلسة ووقع خطى شخص ينزل السلم. بالتأكيد لم يكن...، أبعد توميوكا تلك الفكرة عن ذهنه، وأنصت. بعد برهة جاءه صوت لحن موسيقي يُعزف على البيانو في غرفة الطعام، وكان أشبه بصوت تساقط قطرات الماء في بئر عميقة. وظن توميوكا أن حياة التعفف والتقشف التي يعيشها كانو خلال رحلاته البحثية في الجبال لابد وأن تؤدي به إلى الجنون. دفن رأسه في الوسادة، وانتابه فجأة شعور بالاشمئزاز عندما تذكر قبلته السرية لنيو. كان هو وكانو يعشقان شيئاً ما، لكنه ليس الحب. كلاهما افتقد معنى الألفة التي عاشاها في اليابان، وأصبحت حالتهما شبيهة بحالة شجر الأرز الياباني الذي زُرع في مرتفعات دالات وبدأ يذبل. قال توميوكا في نفسه: «إننا نأخذ الكثير جداً من شمس البحار الجنوبية تلك».

11

استيقظ توميوكا على صوت ماري تلقي تحية الصباح على أحدهم أسفل السلم. رفع رأسه الثقيل عن الوسادة، ونظر إلى ساعة يده فوجدها تشير إلى تمام التاسعة، وقال وهو ينهض ببطء في سريره ويدخن سيجارة: «إذاً أصبحت الساعة التاسعة». شعر كأن شيئاً يدق في رأسه. ماذا عليه أن يفعل؟ لم تكن لديه أي رغبة في التحرك من مكانه، فكل شيء كان مبهماً من حوله. سمع صوت تغريد الطيور، ففتح النافذة ببطء، وأنعم النظر في التناغم الرائع بمنظر السماء الصافية التي تعلو الجبال والخضرة المنتشرة في كل مكان، واستمتع بالهواء البارد المنعش. وشاهد نيو تقف وسط حوض كبير من الزهور في زاوية الحديقة مرتدية ثوباً بلون الخاكي اللامع. كان توميوكا ينزعج من الطريقة التي تظهر فيها النساء دوماً بصحة جيدة غير مرهقات، وحار في فهم نفسية نيو التي حاولت أن تكبت ضحكتها إثر قبلتهما الطويلة. مدد جسده بالكامل للحظة، ثم استلقى من جديد على السرير، وأحس بأنه ليس هناك أي جدوى على الإطلاق في التحرك.

في طريقه إلى الحمام لغسل وجهه، طرق توميوكا باب غرفة كانو، فلم يجبه أحد. وضع يده على القبضة فانفتح الباب بسهولة. عندها وجد النافذة مفتوحة على مصراعيها، ورأى كانو مستلقياً على سريره ووجهه إلى الأسفل مرتدياً ثياباً

داخلية بنية مخططة وفاغراً فمه يصدر منه بين الحين والآخر صوت شخير يشبه قرقرة المياه في مواسير الصرف الصحي. كانت ثياب كانو مرمية على الأرض وبدا جسمه أبيضَ ناعماً مثل بيضة مقشرة، فظنه توميوكا ميتاً، لذا هزه بعنف من كتفه البارد محاولاً إيقاظه. فتح كانو عينيه المحمرتين بتكاسل وبدت نظراته غير متوازنة. تركه توميوكا على تلك الحالة وذهب لأخذ حمام بارد. لقد حل الصباح الآن ورحلت أشباح الليلة الماضية مع بزوغ الفجر وكأن شيئاً لم يحدث، أليس كذلك؟ لف توميوكا جسمه بمنشفة الحمام، وقفز بنشاط وهو يصعد السلم، ثم ارتدى سترة بيضاء مكوية بعناية وبنطالاً طويلاً من قماش الجبردين البني، وبدأ يقوم بالمهمة التي يكرهها وهي حلاقة ذقنه أمام المرآة. فاحت رائحة القهوة الذكية إلى الطابق الثاني، وبدأ جرس الكنيسة يقرع.

نزل توميوكا إلى غرفة الطعام، ووجد كودا يوكيكو تتناول فطورها بمفردها بالقرب من النافذة فحياها قائلاً: «صباح الخير». كانت عيناها منتفختين ومحمرتين. ابتسمت يوكيكو رداً على تحيته، وأحرجته بلطف تعبيرها، فاستدار غاضباً وذهب إلى طاولته. كان صوت ماري وهي منهمكة بأعمال الطباعة في المكتب مسموعاً. أحضرت له نيو الفطور وقدمت له القهوة والخبز المحمص، وبدت عندها امرأة مختلفة ذات وجه جامد كوجه بوذا.

في أثناء تناول فطوره، شعر توميوكا بأنه لم يكن على ما يرام وأنه بحاجة لقضاء بعض الوقت في الغابة، فقرر أن يذهب في نزهة إلى مانكين التي تقع على بعد أربعة كيلومترات، حيث يوجد هناك مكتب فرعي لمراقبة الغابات بالقرب من منطقة المقبرة الملكية الخاصة بملوك أنام. كما أن هناك الكثير من طواحين الهواء الكبيرة والصغيرة في قرى دالات. سار توميوكا صامتاً على طول الطريق الجبلي المتعرج وهو يصغي إلى صوت أزيز تقطيع جذوع الأشجار الذي يصم الآذان. إلى جانب الطريق كانت أيكات أشجار الصنوبر والسنديان بكل أنواعها تحجب شمس الصباح بأوراقها المتشابكة، فيما بانت السماء الزرقاء في الأماكن التي اقتطعت فيها أشجار الغابة. سمع توميوكا فجأة صوت خطى خلفه، فتلفت حوله

ورأى كودا يوكيكو تسرع وراءه وتنورتها البيضاء تتراقص من حولها. ظن أن عينيه تخدعانه، فتوقف، ثم اقتربت منه يوكيكو مقطوعة الأنفاس.

«ما الأمر؟»

«ما العمل الذي علي القيام به اليوم؟»

«هل تقصدين العمل؟»

«نعم».

«ماذا عن كانو؟»

«لايزال نائماً».

كان توميوكا متأكداً من وجود موظف غابات أنامي في المنطقة، لكنه ظنَّ أن يوكيكو لن تستطيع التفاهم معه إذ لم يمض وقت طويل على وصولها.

«ألم يترك ماكيتا أي تعليمات قبل مغادرته؟»

«لا، لم يقل شيئاً».

سار الاثنان على الطريق نحو مانكين، ولم ينبس أي منهما ببنت شفة، وأخذت تمر بهما بين الحين والآخر سيارة أو شاحنة عسكرية، وكان الجنود اليابانيون يستديرون للنظر إلى المرأة اليابانية التي لم يكن منظرها مألوفاً. تعمدت يوكيكو السير على بعد مسافة خلف توميوكا. ظل توميوكا صامتاً، ثم قطعت يوكيكو الصمت أخيراً وسألته للمرة الثانية بصوت منخفض: «ماذا يجب عليّ أن أفعل؟» تلفت توميوكا حوله ببطء، وقال بنبرة فيها شيء من الغضب: «بعد مسافة من هنا توجد قبور ملوك أنام، فما رأيك بالتنزه؟»

سار توميوكا بخطوات كبيرة جداً مرتدياً حذاء مريحاً ذا نعل مطاطي وحاملاً خوذته بيده، فيما انتعلت يوكيكو حذاءها الذي اشترته في سايغون بسعر معقول. لم تستطع أن تتكهن إذا كان توميوكا طيباً أم لا، فقد بدا من الخلف وكأنه في مزاج سيئ للغاية.

تفرع الطريق ودخل الاثنان في ممر ضيق، وهنا أبطأ توميوكا خطواته وسرعان ما أصبحا يسيران جنباً إلى جنب. أدركت يوكيكو أنه تعمد السير بخطوات كبيرة

من قبل بسبب السيارات العسكرية التي كانت تمر بهما. فجأة قطع توميوكا صمته وقال: «أعرف أنك كنت غاضبة ليلة الأمس».

«ماذا؟»

«أخبرني كانو بأنك كنت غاضبة حقاً مني؟»

«نعم، في الحقيقة شعرت بالألم».

ارتدى توميوكا خوذته الخفيفة المغطاة بالقماش، ومد يده إلى حقيبة وضعها عند خصره، فأخرج منها رسماً بيانياً للأحراج وفتحه في أثناء مسيرهما معاً. كان الضوء ينعكس من الرسم البياني الأبيض إلى وجهه، فأخرج من جيب صدريته نظارة شمسية وردية اللون ووضعها على عينيه فتحول لون الرسم البياني فجأة إلى وردي. بدأ هديل حمام الجبل يُسمع في الغابات القريبة، وتسللت أشعة الشمس الساطعة إلى الممر هنا وهناك عبر الفتحات الضيقة التي تخللت سقف الغابة. حرص توميوكا على مراقبة ما حوله بكثير من الحذر بسبب ما كان يشعر به من إحراج لسيره مع امرأة يابانية، فمازالت عادات اليابان وتقاليده تلقي بظلالها على تفكيره التقليدي، حتى على بعد كل هذه المسافة.

12

انتابهما إحساس بالحرية وهما يمشيان معاً هكذا عبر الغابة لا يحيط بهما سوى أيكات كثيفة من الأشجار النفضية العملاقة النادرة دائمة الخضرة. أثارت طريقة مشيهما صامتين شعوراً خانقاً. كانت الأجواء محملة بغبار الطلع اللزج الحلو، والطائرات تعبر السماء غير مرئية. كانت منطقة المقبرة الملكية محاطة بالأراضي المشجرة، ونمت في الغابات أشجار صنوبر الكاشا والصنوبر الصيني الأسود الشاهقة. وعند نهاية هذه الأحراج امتدت منطقة مساحتها اثنا عشر أو ثلاثة عشر هيكتاراً مخصصة لصنوبر الكاشا، وانتشرت في تلك المنطقة منازل صغيرة مزودة بمواقد فحم خارجية.

لم تنم يوكيكو جيداً ليلة أمس، لذا أحست بالتعب وقطع المشي أنفاسها وجعلها تشعر بوخز مؤلم في ظهرها، فتوقفت لأخذ نفس عميق، وملأت رئتيها بالهواء البارد المنعش. لم تعر أي انتباه لما يحيط بها، بل كان قلبها منجذباً دائماً وأبداً إلى طول قامة توميوكا الذي كان يسير أمامها. تابعت السير يخالجها شعور جميل وفريد أثار لديها الرغبة في أن تزداد تقرباً منه، ودفعها ذلك الشعور الرائع إلى التصنع وادعاء الكآبة، فأخذت، كلما نظر توميوكا نحوها، ترسم على وجهها مسحة من الأسى تعبر عن وحدة امرأة مشردة من وطنها. وتحت ذاك القناع

كانت يوكيكو تشعر بالإثارة في نفسها. ندت عنها تنهيدة ثقيلة فالتفت إليها توميوكا وقال:

«لا بد وأنك متعبة».

«نعم».

«إن المشي مسافةَ اثني عشر كيلومتراً خلال نصف يوم لا تعني شيئاً بالنسبة لي. فأنا لا أشعر بالتعب مهما مشيت في الغابة. كما أنني أنام جيداً في الليل».

«بالمناسبة، هل سيبقى كانو لفترة طويلة هنا؟»

«نعم، ربما يقضي فترة من الزمن هنا».

«لدي شعور سيئ حياله».

«لماذا؟ أبسبب سلوكه الفظ؟»

«ليلة أمس كان ثملاً. لقد أخافني».

واصل توميوكا سيره بهدوء، وأخذ يفكر في القلق الذي انتابه الليلة السابقة متسائلاً إذا ما كان لذلك صلة بما قالته يوكيكو، وفجأة شعر بشيء من الكراهية تجاه كانو، ثم توقف للحظة حتى تستطيع يوكيكو التي كانت تسير على مقربة منه في الخلف أن تلحق به. عندما وصلت إليه أمسك بكتفها وعانقها تحت إحدى أشجار الصنوبر الصيني السوداء القائمة. والغريب أن يوكيكو تصرفت بطبيعية تجاه الموقف، فتسارعت أنفاسها ووضعت وجهها على صدر توميوكا الذي أبعد رأسه قليلاً حتى يتمكن من أن ينظر عن كثب إلى شفتيها المكتنزتين. لقد فاجأه الشعور الجميل بعناق امرأة من نفس عرقه تشاركه نفس طريقة الحديث تقريباً، وأحس بفرق كبير عن قبلته لنيو في الليلة السابقة. شعر بقدر من الحرية في النظر إلى وجه يوكيكو المتورد الذي بدا، وهي تغلق عينيها، شبيهاً جداً بوجه زوجته. احتضن توميوكا رأس يوكيكو بين يديه، لكن عواطفه سرحت بعيداً لمسافة آلاف الأميال وولدت لديه رغبات مختلفة تماماً، وشعر بأن قدرته على تبادل حب شريف مع امرأة قد ضعفت هنا في الجنوب. وبينما كان يقبّل يوكيكو، لازمه شعور بأنه قد استبدل الغابة الواسعة بقفص صغير وضيق. استمر في تقبيلها لفترة طويلة، فيما

كانت يوكيكو تبدي توقاً شديداً وتغرز أظافرها في كتفه. لكن عواطف توميوكا بدأت تخبو. عندها ظهر وسط الغابة طاووس بري أبيض ثم اختفى ثانية.

سار الاثنان لفترة بين الأشجار والقرى والمزارع الواسعة، ولم يعودا إلى المكتب إلا بعد الظهيرة بزمن طويل. توجه توميوكا مباشرة إلى غرفته، فأخذ منشفة وذهب للاستحمام. نظرت يوكيكو في أرجاء المكتب، فوجدت كانو يجلس بمفرده منهمكاً بالكتابة على طاولة بالقرب من النافذة. وكانت الآلة الطابعة مغطاة، مما يعني أن ماري قد أنهت عملها وغادرت إلى المنزل. لم تكن المروحة تعمل، لذا ساد الغرفة جو حار وخانق. تابع كانو تحريك قلمه على الورقة دون حتى أن ينظر إلى يوكيكو.

صعدت يوكيكو إلى غرفتها، فوجدت الباب مفتوحاً وساورها شك بأن أحدهم قد عبث فيها. دققت النظر إلى السرير والطاولة، ولاحظت وجود انحناء عميق على السرير كما لو أن شخصاً قد جلس عليه، فأثار ذلك استياءها كثيراً. أقفلت الباب واستلقت بهدوء على السرير، لكنها لم تشعر بالارتياح. لم تر من النافذة شيئاً سوى السماء الزرقاء، وانتابها شعور بالفراغ. من المؤكد أن الأوضاع في اليابان غير مريحة، فشبح الحرب يطارد الجميع من مكان إلى آخر. أما هنا فالوضع مختلف، حيث يعاني المرء من عزلة ثقيلة كحجر الرحى، ووحدة تأكله من الداخل. ارتسمت على شفتيها بين الحين والآخر ابتسامة، لم تفسر يوكيكو ما حدث على أنه عربون حب، لكنها أحست بسعادة لمجرد التفكير بأنها قد فازت بقلب رجل، فعلاقتها مع إيبا مختلفة جداً وليست على نفس القدر من الأهمية. كانت هناك هالة من السحر تحيط بتوميوكا الذي بدا دائماً على وشك فقدان السيطرة على عواطفه. شعرت يوكيكو أن ذلك هو الحب في أشد حالاته وأن دموعها ستنهمر غزيرة كمياه نهر. لقد انهزم هذا الرجل الذي كان يتظاهر بالبرودة، وتبين أنه ليس بارداً على الإطلاق، وهذا ما رفع من معنويات يوكيكو التي أحست بسعادة لتغلبها بسهولة على رجل ساخر حاد اللسان مخلص لزوجته، وفرحت لأنها تمكنت أخيراً من قهر برودته. وشعرت بأن القوة التي أظهرتها

برفضها الاستسلام لعاطفة كانو في الليلة الماضية قد أكسبتها السعادة التي تشعر بها اليوم، فانتابها شعور بالرضا وغطت بنوم هادئ.

استحم توميوكا وارتدى ثياباً نظيفة، ثم توجه إلى غرفة الطعام حيث كان كانو يجلس ساكناً في كرسي خشبي قبالة الشرفة. أمسك توميوكا بكتاب الموسوعة النباتية لشافيلييه، وجلس في كرسي بالقرب من كانو، وأخذ يتأمل جبل رانبين الذي يقع أمامهما مباشرة ومياه البحيرة المتلألئة عند أسفل سفحه. كان المروحة تصدر صوت صرير وهي تدور في الغرفة الفارغة خلفهما. أحضرت لهما نيو بعض الجعة الباردة وطبقاً من شرائح لحم البط البارد بناء على طلب توميوكا الذي التفت إلى كانو وسأله: «ما رأيك ببعض الشراب؟» ذهب كانو بتكاسل لإحضار كأس، وفرح توميوكا للطفه وقبوله بهدوء تناول الجعة معه. جلسا يحتسيان الجعة وينظران إلى المناظر الطبيعية في الخارج، حيث زقزقة العصافير تملأ المكان وألوان الجبال تتغير تدريجياً مع اختلاف ميلان أشعة الشمس.. كانت كل تلك جبال وبحيرات وسماء بلاد غربية، بلاد استطاع الفرنسيون أن يستوعبوها بسهولة وهدوء. كان هناك تجاهل ورفض شديد لحقيقة أن تفكير اليابانيين الضيق وغير المتزن لن ينجح هنا. فتوميوكا وكل رفاقه اليابانيين، وعلى الرغم من كبريائهم وتعجرفهم، ليسوا إلا غزاة صغاراً. ظل منظر البحيرة يسيطر على مخيلة توميوكا الذي استغرب كثيراً كيف أقدم الغرباء على التمركز في هذا المكان دون التفكير فيما إذا كانت لديهم القدرة على ذلك أم لا. لم يكن الأمر سوى خدعة رخيصة سيدركونها قريباً. كان اليابانيون يتحركون بسرعة وانشغال كجيوش من النمل على أرض شعب آخر لم يعرهم أحد فيها اهتماماً، وساعدهم ذكاؤهم في تبني سلوك عملي في التقدم إلى هذا الحد، وأخذوا يقطعون أعداداً كبيرة من أشجار صنوبر الكوشا التي بلغت الخمسين أو الستين عاماً من عمرها دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عما سيفعلونه بها. لقد اقتصر علمهم على تقديم الإحصائيات، ولا شيء غير الإحصائيات، إلى الجيش، فتاهوا وسط الأرقام. استخدم اليابانيون أفراد قبيلة موي لنقل الأخشاب عبر نهر دانيمو أو بواسطة القطار، لكن توميوكا

رأى أن هذه المهمة لم تكن تسير على ما يرام، فالإحصائيات هي وحدها التي تنقل من مكتب إلى آخر، أما الأخشاب فقد تكدست في سيارات الشحن، فيما تراكمت الكبيرة منها، مثل صنوبر كاشا والأوبوريكاسوتو والصنوبر الصيني الأسود، على ضفاف النهر تلفظ النسغ من نهاياتها المقطوعة حديثاً. استمر الجيش باستغلال أبناء قبيلة الموي البسطاء السُّذج وعاملهم معاملة العبيد.

شرب توميوكا الجعة وأخذ يقرأ في الموسوعة التي تضمنت الأبحاث التي أجريت على منتجات الهند الصينية ونباتاتها، والتي قام بجمعها على مدى عقود العالمان الفرنسيان كريفو وشيفالييه اللذان عاشا هنا لسنوات طويلة. بدت هذه الأبحاث العلمية الخالدة صعبة جداً على إدراك توميوكا، لكنها مهمة جداً لكسب المعرفة حول غابات الهند الصينية.

بدا كانو مرتاحاً وأقل غضباً من ذي قبل، ثم تحدث فجأة وقال بصوت عالٍ:

«هل الآنسة كودا نائمة؟»

«لا أعرف».

«اصطحبتها إلى مانكين في وقت سابق اليوم، أليس كذلك؟»

«لا، لا، هي التي تبعتني، فاصطحبتها لأريها بعض المناظر فقط».

«أنا أحبها، وأعتقد أنه يجب أن تعلم ذلك».

«أوه؟»

«أنا لا أتشكى، لكن قبل قليل جاء ضابط من شركة المهندسين وسألني من تكون تلك المرأة اليابانية التي تسير بلطف ودلع مع توميوكا، فاعتقدت أنك تسرعت بتصرفك».

«أصبحت المسألة أكثر تعقيداً مما هي عليه. كنا نمشي فقط. أهو الملازم الثاني من قسم النقل من قال ذلك؟»

«لقد ذهبت إلى مانكين بنفسي، وبحثت في جميع أرجائها ولم أجد فيها أحداً».

أدار توميوكا عينيه خلسة نحو البحيرة، وفكر فيما كان سيفعله كانو إذا عرف

بأنه قد سلك عمداً الطريق المؤدي إلى الغابات، وقد أثارت هذه الفكرة البرودة في دمائه، وقال بعفوية:

«يسارع الجميع لإبداء تقديرهم لوجود امرأة هنا».

«حسن، لكنني فوجئت بمدى سرعتك أنت. لم يكن من العدل أن تذهب إلى مانكين بصحبة كودا في أثناء نومي. أنت تعرف أنه عندما تكون بصحبة امرأة، فإن أجواء لحظة واحدة يمكن أن تقرر كل شيء. أنا لا أستطيع حتى أن أثق بك يا توميوكا، على الرغم من أنك تبدو فظاً دائماً».

«هي التي تبعتني. فقد غادر رئيس القسم دون أن يترك أي تعليمات، وأنت كنت نائماً، لذا جاءت لتسألني عما عليها فعله. وهكذا اعتقدت أنها فكرة جيدة أن نقوم بنزهة فأخذتها بجولة. هذا كل ما في الأمر. لم نحدد موعداً خاصاً للذهاب إلى هناك أو للقيام بأي شيء من هذا القبيل».

«حسن، لا بأس بذلك إذاً. أنا أحبها، وهي مسألة وقت فقط حتى آتي لأرتبط بها».

ابتسم كانو ابتسامة خجولة وسكب المزيد من الجعة في كأسيهما. شعر توميوكا بإرهاق أكثر من ذي قبل، فأشعل سيجارة وأخذ يفكر بأن الوقت قد فات، لكنه استدرك لاحقاً بأنه ربما لم يفت. واصل توميوكا لقاءاته ليلاً مع نيو بشكل يومي حتى يوم رحيله إلى سايغون، وهذا ما أبعد عنه ذلك الشعور بالرغبة المفرطة الذي بدا واضحاً على كانو. كانت علاقته الحميمة مع نيو أيضاً مجرد علاقة عابرة، فهو يعتقد أن قلبه غير قادر على منح مشاعر الحب لأي امرأة غير زوجته كونيكو. يبدو أن ماكيتا كان على علم بما يحدث بين توميوكا ونيو، لكنه لم يكن من النوع الذي يبلغ عن سوء تصرف مرؤوسيه إذا كان ذلك من شأنه أن يعطي انطباعاً سيئاً عن أسلوبه في الإدارة. وقد استغل توميوكا سياسة عدم التدخل التي انتهجها ماكيتا.

بعد ذلك بدأت الشمس تغيب خلف جبال رانبين محاطة بهالة من الضوء البرتقالي، وأخذت التموجات الخفيفة تتلألأ على سطح البحيرة مثل إبر ذهبية،

وفاحت من مؤخرة غرفة الطعام رائحة تسخين الزيت. وقد جعلت تلك الأمسية الجميلة الرجلين يغرقان في التفكير.

قال كانو: «المكان هنا هادئ. لكن من المؤكد أن الأوضاع في الوطن صعبة. أعرف أن الوقوع في الحب نوع من الترف».

«هل تعتقد أننا سننتصر في هذه الحرب؟»

«بالتأكيد سننتصر. على كل حال قطعنا شوطاً كبيراً، والهزيمة أمر مستبعد. لا يمكننا حتى التفكير بأننا قد قطعنا كل هذه المسافة لنخسر. أنا لا أفكر بالهزيمة، لكنك وماكيتا غير مطمئنين. وإن سارت الأمور من السيئ إلى الأسوأ سأطعن نفسي أينما وجدت».

«لا تستطيع أن تطعن نفسك هكذا ببساطة. كما أنني لا أفكر بالهزيمة أيضاً، ولكن هناك احتمال كما تعلم. لا أحب أن أتطرق لهذا الموضوع وأحاول تجنبه قدر الإمكان، لكن الأخبار التي سمعتها ليست جيدة بمجملها. يشعر الناس هنا بحساسية تجاه ما يحدث. إننا نتقدم بالقوة حسب الطريقة اليابانية المعتادة، لكن ليس لدينا ذهب أوفضة أو عربة مجنحة. لقد بدأت جميع شعارات القوة اليابانية تضعف، وبدأت الشمس تغيب علينا قبل أن ننجز عملنا. نحن تائهون، لكننا لانزال نهيج بعجرفة، ونفكر بجميع أنواع الخطط لنقاتل بكفاءة أفضل دون أن تكون لدينا المقدرة على تنفيذها. وهكذا فإننا أشبه بمن يحمّل القرد سيفاً».

«لا تقل أموراً كهذه. ليس هناك من طريقة لتنبؤ النصر أو الهزيمة في هذه المرحلة. في أسوأ الأحوال هناك دائماً «الموت المشرف لمائة مليون. .. سيكون الموت جيداً».

رد توميوكا بغضب: «هذا تفكير غير مسؤول»، ثم نهض وتوجه إلى الحمام. وما إن غادر غرفة الطعام حتى جاءت إليها كودا يوكيكو وهي ترتدي ثوباً من قماش الجنهام[1] ذا مربعات حمراء وتربط شعرها بشريطة زرقاء رفيعة. لقد بدت مرتاحة جداً. التفت إليها كانو مندهشاً ونظر إليها لفترة طويلة، ثم قال: «لم

(1) قماش قطني مخطط

تتناولي شيئاً على الغداء، أليس كذلك؟ لا بد أنك جائعة»، وقدم لها كرسياً. جلست يوكيكو باحتشام في الكرسي القريب من كرسي كانو، ووضعت ساقيها العاريتين الواحدة فوق الأخرى. تحت أشعة الشمس الذهبية بدا وجهها متورداً وشعرها متألقاً، ولمعت شفتاها ببريق أحمر مثل الدم، وفاح من حولها عبق عطر ياباني أثار لدى كانو الشعور بالحنين، فتوقف للحظة متسائلاً عن تلك الرائحة، ثم ظن أنها رائحة زيت الكاميليا. أخرج كانو ظرفاً كبيراً من جيبه، ووضعه في حضن يوكيكو، وقال: «انظري إليه لاحقاً من فضلك»، فأخذته ولفته بسرعة بمنديل أبيض.

عاد توميوكا من الحمام بخطوات ثقيلة، وتعمد ألا يرمق يوكيكو حتى بنظرة، بل أخذ يحدق لفترة في الشمس متظاهراً بانبهاره بمنظرها. أحضر كانو الجعة وكأساً من غرفة الطعام وسكب فيه بعض الجعة وقدمه ليوكيكو. ساد صمت حذر بين الثلاثة للحظات، ثم نهض توميوكا من كرسيه وغادر الغرفة بهدوء حاملاً معه كتاب شيفالييه الثقيل، واعتبر كانو ذلك تصرفاً لبقاً من قبل توميوكا.

13

هطل المطر بغزارة، وبات صوته وهو يتدفق على الحواف الناتئة قوياً كهدير شلال ماء. عادت يوكيكو إلى الواقع وبسبب ذلك لم تستطع النوم. راحت ذكريات الهند الصينية بألوانها الساطعة ومشاهدها تظهر وتختفي في مخيلتها مثل رسومات على زجاج فانوس دوار. كان الوقت متأخراً ليلاً والجو قارساً. وشعرت يوكيكو بالبرد وهي متدثرة ببطانية واحدة فقط. لقد تكيفت مع تعب جسمها وثقله، فاستلقت مفتوحة العينين تحدق في الظلام، ولم تستطع مقاومة إحساسها بالوحدة وهي تصغي إلى صوت المطر الغزير. شعرت يوكيكو بسعادة لأن إيبا لم يكن في المنزل، لم يكن ذلك استعادة لذكريات الماضي، ولكنها كانت سعيدة لمرور أربع سنوات على تلك الأحداث التي عاشتها مع إيبا، وها هي تأوي إلى فراشها الآن في مكان لا يعرفها فيه أحد، ولا حتى بالشكل. لقد مرت يوكيكو بهذه التجربة من قبل في الهند الصينية. لم تقابل يوكيكو شينونوي هاروكو في مركز الترحيل في هاي فونغ، كما لم تقابل أي أحد على معرفة بظروف هاروكو. قبل نهاية الحرب، قامت الشرطة العسكرية بنقل كانو إلى سايغون، أما توميوكا الذي بقي هناك حتى النهاية، فقد تمكن، لحسن حظه، من العودة إلى اليابان في مايو قبل يوكيكو. لم تعرف كيف تغيرت مشاعر توميوكا منذ مايو، لكنها أيقنت

أن الأمور ستحل بمجرد أن يلتقيا، وكانت هذه الثقة نابعة من راحة بالها.

في صباح اليوم التالي توقف المطر، واندحرت رطوبة الأجواء أمام صفاء سماء الشتاء، ونضجت الثمار المجعدة على شجرة البرسيمون في الحديقة الضيقة المدمرة. لقد كبرت تلك الشجرة، فأدركت يوكيكو أن السنوات قد مرت بالفعل. دعت زوجة الرجل الذي يقيم في المنزل يوكيكو إلى طاولة الفطور، ورحبت بها معتذرة من أن ليس لديهم من الطعام سوى أرز الشعير الأسود. اتضح أن الزوج قد غادر المنزل منذ مطلع النهار إذ قالت الزوجة إنه ذهب إلى ناغانو لشراء التفاح. فهو من ناغانو، وكان قد بدأ مؤخراً يتاجر بالتفاح، لكنه الآن يفكر في الذهاب إلى شيزوكا لشراء الملح ونقله إلى ناغانو لبيعه هناك ومن ثم إحضار الميسو[1] إلى طوكيو، فالجميع يدركون أن جميع ضوابط سوق الفاكهة سوف تنهار عاجلاً أم آجلاً.

«لو كان على علاقة جيدة بإيبا لطلب مساعدته في الحصول على الملح، ولكنه، ولسبب ما، لا يتحدث بالخير عن إيبا. هل تعرفين أي مكان يمكنه شراء الملح منه؟»

لم تكن يوكيكو على أي معرفة بهذا الأمر. جلس مع المرأة إلى طاولة الطعام صبي في الثامنة وفتاة في السابعة وصبي آخر في الثالثة وطفل صغير. كان شقيق الزوج يقيم معهم أيضاً، لكن المرأة أخبرت يوكيكو بأن الشقيقين قد ذهبا اليوم لشراء التفاح.

كانت يوكيكو تحاول العمل في أي مجال، لكنها أرادت أن تقرر ما الذي ستفعله بعد لقائها بتوميوكا. وكانت المرأة من اللطف بحيث أخبرتها أنه بإمكانها الإقامة في المنزل حالياً طالما أنها لا تمانع بالبقاء في الغرفة التي تخزن فيها أمتعة إيبا، وقبلت يوكيكو العرض شاكرة.

لم يكن واضحاً في تلك المرحلة إن كان بوسع يوكيكو العودة إلى عملها السابق أم لا، وهي لم تكن راغبة كثيراً في العودة إليه. بعد الفطور، ذهبت لاستخدام

(1) نوع من البهارات اليابانية التقليدية

الهاتف في مركز قريب لتوزيع شراب الساكي[1] حسبما أرشدتها المرأة، واتصلت بمكتب توميوكا في وزارة الزراعة والغابات، لكن المرأة التي ردت على اتصالها أخبرتها بأن توميوكا قد استقال من عمله في الوزارة. حينها قررت يوكيكو أن تذهب للقاء توميوكا في العنوان الذي يقيم فيه في أوساكي الشمالية، وانطلقت بذاك الاتجاه. نزلت في محطة ميجورو، وسارت بمحاذاة منطقة الحفريات الخاصة بسكة الحديد حيث كانت القطارات تسير في الأسفل، وأخذت تسأل المارة عن الطريق في أثناء سيرها. مرت بقصر الأمير فوشيني، وسارت عبر المنطقة السكنية المحترقة تحدق بأرقام المنازل. بدت الأحياء من القطار مثل منطقة آثار وأطلال، وكان الدمار قد حل فعلاً بكامل أرجاء المنطقة القديمة المجاورة تقريباً. وأخيراً عرفت المنزل الذي كتب عليه رقم شارع توميوكا، ووقفت أمام الباب ينتابها إحساس غريب بالخجل. عُلقت على الباب لوحة تحمل اسم توميوكا ولوحتان لأناس من الواضح أنهم يشاركونه السكن. كانت جميع أجزاء نوافذ المنزل المتهالك مثبتة بشريط لاصق رفيع، وعلى السور العريض المدمر توكأت نبتة خيزران اقتلعها المطر من أرضها. لم تشأ يوكيكو أن تقابل زوجة توميوكا وجهاً لوجه، لكنها لم تتلق رداً على برقيتها، وكذلك لم تستطع مكالمته هاتفياً، لذا لم يكن أمامها من خيار سوى القدوم لزيارته. وهكذا استجمعت قواها، وفتحت الباب المشبك، ونادت على ساكني المنزل معلنة قدومها بصفتها مبعوثة من قبل الوزارة. جاءت نحو الباب امرأة جميلة المظهر في حوالي الخمسين من عمرها وطلبت منها الانتظار، ثم فجأة ظهر في ممر المدخل توميوكا بقامته الطويلة مرتدياً الكيمونو[2]، ولم يبد أي استغراب لرؤيتها. انتعل توميوكا حذاءً وخرج، ومشى صامتاً تتبعه يوكيكو. تجاوز الاثنان عدداً من زوايا الأزقة الصغيرة، ثم خرجا إلى شارع عريض منعزل ينتشر فيه الدمار. وعندها التفت توميوكا لأول مرة نحوها وقال:

---

(1) شراب كحولي ياباني

(2) الثوب الياباني التقليدي.

«تبدين بحالة جيدة».

«هل استلمت برقيتي؟»

«نعم».

«لماذا لم ترد عليها؟»

«ظننت أنك ستأتين إلى طوكيو بكل الأحوال».

«إذاً توقفت عن العمل، أليس كذلك؟»

«توقفت في يوليو».

«ماذا تفعل حالياً؟»

«أساعد والدي في عمله».

«هل كانت تلك المرأة التي رأيتها عند الباب والدتك؟»

«نعم».

«اعتقدت كذلك، فقد لاحظت الشبه».

«أين تقيمين؟»

«مع أقارب لي في ساجينوميا».

«هل يمكنك الانتظار هنا للحظة؟»

«أجل، سأنتظرك».

قال توميوكا إنه سيعود بعد أن يرتدي ثياب الخروج، فرجع في نفس الطريق الذي قدما منه. شعرت يوكيكو بشيء غريب حيال توميوكا وهي تنظر إليه من الخلف مرتدياً ذاك الكيمونو الأزرق ذي النقوش البيضاء، فقد بدا رجلاً مختلفاً، وجلست على ما تبقى من السياج الحجري الذي لحق به الكثير من الدمار، وانتظرت هناك. كانت الرياح باردة، وكان شكلها وهي ترتدي بنطالاً صوفياً أسود وسترة استعارتها من المرأة التي تعيش في منزل إيبا متوافقاً تماماً مع تلك البيئة المقفرة. أدركت يوكيكو للتو فقط أن زيارتها كانت خطيرة، فاحمر وجهها غيظاً.

عاد توميوكا بعد نحو نصف ساعة مرتدياً ملابس غربية الطراز ومعطفاً شتوياً

قديماً ورثاً. كان يبدو منهكاً وأكبر سناً ونحيفاً جداً.

لم يشعر توميوكا بشيء على الإطلاق وهو ينظر إلى يوكيكو تجلس على الجدار المهدَّم، ولم تكن لديه الرغبة في إعادة إحياء حلم دالات في هذه البيئة المختلفة تماماً وسط كل هذه الأطلال، فقرر أن ينهي الأمر، وسار نحو يوكيكو وهو يكبت مشاعر الانزعاج، وقال بشكل عفوي مرة أخرى:

«تبدين بحالة جيدة».

«نعم، لقد عدت على أمل وحيد بلقائك، فلا بد أن أكون بخير».

وفي محاولة للتأكيد على كلماتها كانت يوكيكو تنظر بثبات إلى توميوكا كأنها مفتونة به. ابتسم توميوكا قليلاً، لكنه لم يرد عليها. ودون شك لم تدرك يوكيكو التي عادت مؤخراً أن فراقهما بات نتيجة محتمة. أما توميوكا، ومنذ أن قرأ برقيتها، لم يعد مرتاحاً لعلاقتهما، ولكن، مع ذلك، عليه أن يلتزم بمسؤوليته على الأقل، فقد كان قلقاً أن يظهر بمظهر الوغد. لكن الآن، وبعد لقائه يوكيكو، لم يعد هناك من داعٍ للقلق، إذ شعر فجأة بأن لديه القوة بأن ينفصل عنها بنزاهة بعد هذه الأمسية، فسألها: «إلى أين سنذهب؟» لكنه أدرك بسرعة أنه من غير المحتمل أن تعرف يوكيكو أي مكان هنا. تذكر أنه سمع أنهم يقومون حالياً بافتتاح بعض الفنادق الصغيرة في إيكيبوكورو، لذا توجه إلى ذاك الجزء من المدينة حيث وجد عدداً من الفنادق المبنية من أخشاب الأشجار اليافعة وأسواق ومطاعم وسط منازل تبنى هنا وهناك بشكل عشوائي. وقد ساهمت فوضى التطوير السريع الذي تشهده المنطقة في جعلها مكاناً مثالياً لاصطحاب امرأة في مواعيد غرامية سرية. فتح توميوكا الباب الأمامي لنزل خشبي صغير عليه لوحة كتب عليها كلمة «فندق»، ودخل فوجد هناك امرأة شاحبة الوجه ذات شعر أشعث تقف في المدخل تمضغ قطعة صغيرة من العلكة وترتدي حذاءً لم تربطه جيداً. همت تلك المرأة بالخروج، فارتطمت بعضادة الباب. شعرت يوكيكو بالقشعريرة تسري في بدنها.

نزل توميوكا ويوكيكو في غرفة في الطابق الثاني فوق السوق تتسع لأربع حصائر ونصف تركت فيها حروق السجائر ثقوباً عديدة هنا وهناك. كانت الغرفة

خالية تماماً من الكوات المزخرفة أو أي شيء من هذا القبيل، فيما طليت الجدران باللون الأخضر وشابتها الكثير من الخدوش. في زاوية الغرفة وضعت كومة من الفرش المتسخة ولحف حمراء اللون تعلوها وسائد من قماش الكاليكو[1] دون أكياسها، وبدت مصفرة من آثار زيوت الشعر.

أخرج توميوكا بعض النقود، وطلب حساء فطائر اللحم وبعض الساكي. في تلك الغرفة الخاوية من كل شيء، حتى من طاولة وموقد، شعر الاثنان بالتحرر من كل القيود، فجلس توميوكا متكئاً على الجدار طاوياً ساقيه الطويلتين ومحيطاً ركبتيه بذراعيه، فيما أسندت يوكيكو كوعيها إلى اللحف، وأخذت تحك جسمها بقوة من فوق ملابسها.

«لم أدرك أن الأمور قد تغيرت كثيراً إلى هذا الحد».

«لقد خسرنا الحرب، فكيف يمكن للأمور ألا تتغير؟»

«أعتقد ذلك. لكن على الرغم من ذلك كنت أتوق كثيراً إلى رؤيتك. إنك تتصرف ببرود. ألا تشعر بالتعاطف مع شخص عائد إلى وطنه؟»

«لا تتفوهي بالسخافات. لست الوحيدة التي تعرضت للترحيل، فأنا نفسي عشت نفس التجربة، وهناك الكثير من أمثالنا أيضاً».

كانت يوكيكو تتحدث وكأنها الوحيدة التي مرت بهذه التجربة المميزة، وأثارت اتهاماتها وطريقتها الدرامية في الحديث انزعاج توميوكا الذي لم يستطع الاعتياد على حميميتها. أما يوكيكو فكانت تنتظر من توميوكا أن يظهر عاطفة قوية من أي نوع، ولم تستطع أن تدرك سبب تصرفه برسمية وتحفظ كأول مرة التقيا فيها على الرغم من أنهما أصبحا بمفردهما تماماً. هل كانت العاطفة التي نشأت بينهما مجرد وهم؟ دفعت يوكيكو نفسها على الأرض باتجاه توميوكا، وأسندت ذقنها على ركبتيه.

«لماذا تتصرف وكأنك لا تعرفني».

«ماذا؟»

---

(1) نوع من الأقمشة القطنية.

«ألا تحبني؟»

«ما هذا الذي تقولينه؟ أنتن– معشر النساء– تنظرن إلى الأمور بسهولة بالغة».

«الأمر ليس سهلاً. لو كنت أعرف أنك سترميني هكذا لما عدت إليك، ولرجعت مع كانو. لكنني أفهم مشاعرك».

«لا تقولي أموراً تافهة. كانو هو كانو. إنها غلطتك أيضاً أنك تصرفت بتلك الطريقة. تحب النساء أن يلوحن بذيولهن للجميع. كان ذاك المكان جنة بالنسبة لأي امرأة، فمن المؤكد أنه من المفرح أن تشعري بأن الجميع راغبون فيك».

«لا أفهم لماذا تخاطبني بهذه الطريقة الآن. لم تعد تحبني، أليس كذلك؟ حسن، سأريك. سأخرج مثلما فعلت تلك المرأة التي رأيناها في المدخل، وسأتمرغ بالطين، ولن يهمني بالذي يفكر به الآخرون».

«ليس هناك ما يستدعي هذا الجنون. أنا نفسي لا أستطيع الآن بعد عودتي إلى اليابان أن أعيش دون أي مسؤولية كما كنت أعيش في دالات. ما أعنيه هو أنه من غير المنطقي أن نحاول مواصلة الحياة التي كنا نعيشها في دالات هنا في اليابان. لكنني أريد أن أقدم لك أي مساعدة ممكنة، أود أن أتحمل المسؤولية».

«أي نوع من المسؤولية؟»

14

استمر توميوكا بشرب الساكي، فأصبح أكثر ابتهاجاً، وتحرر من شرك المشاعر المزعجة التي انتابته من قبل، واستعاد القوة والجرأة للانغماس في نفس العلاقة الخطيرة. على الرغم من انهماكه بالتخيلات البعيدة جداً عن الواقع الفوضوي الذي يخيم على حياته، مثل أعبائه الأسرية أو قضية كودا يوكيكو، إلا أن الوحدة التي عششت داخله جعلته يرغب في محاربة هذه الأفكار ليتفرغ لعناق تلك المرأة التي كانت تبكي بجانبه. بعد عودته إلى اليابان بدأت ذكرياته مع يوكيكو تخبو شيئاً فشيئاً لأنه كان دائماً يحاول إنكارها وتجاهلها. لكنه عندما رآها أمامه على هذا النحو شعر بنفسه يقف فجأة، ودون سابق إنذار، عند خط يفصل بين ماضيه وحاضره ويقرر قدره ومصيره. وهذه المرة تقدم هو بنفسه نحو يوكيكو وضغط بكتفيه على كتفيها.

قالت يوكيكو: «أنا أتذكر كل الأمور.. هناك حيث كنا أنا وأنت مثل المجانين.. تلك المرة التي ذهبت فيها لتفقد غابات المحمية في شانبو مع ماكيتا والقائد الملازم الذي كان قادماً من اليابان، ماذا كان اسمه؟ عندها قلت فجأة لما كنتم تهمون بركوب السيارة: «ألن تأتي كودا معنا أيضاً؟» فأجاب الملازم: «نعم، نعم، دعونا نأخذ الآنسة كودا». ثم ذهبنا نحن الأربعة إلى شانبو، وأقمنا في

فندق أنامي. وقت العشاء وضعت فوانيس على الطاولات، وشربنا الساكي معاً، وثملنا، وغرقنا في النوم. اكتشفت أن غرفتك هي الأبعد، وقمت في منتصف الليل ومشيت حافية إليك. كان هناك مستنقع أمام الغرف، وسمعت عصفوراً يغرد بصوت غريب في الغابة. أدرت قبضة الباب بهدوء فانفتح بسهولة لأنه لم يكن مقفلاً، وأجفلني الناظر الأنامي الذي يقف في الحديقة. كانت تلك أول مرة لي معك، أليس كذلك؟»

في أثناء حديثها أخذت يوكيكو يد توميوكا وشبكت أصابعها بين أصابعه. فكر توميوكا بمدى صحة تصرفاته، فها هو يعبث مع امرأة في حين كان الجنود يريقون دماءهم ويستشهدون. وهكذا بدت له حماقات الحياة اليومية لتلك الفترة كأحداث حلم.

كان بناء الغرف في الفندق واهناً والجدران رقيقة مثل الأبواب الورقية المنزلقة، وهكذا فإن أي صوت يصدر في المبنى يمكن سماعه بوضوح كما لو كان صادراً من الغرفة المجاورة. وما إن أغمض توميوكا ويوكيكو عينيهما حتى بدأت الذكريات التي لا يعرف بها سواهما تتوارد إلى مخيلتيهما. تذكرا أرضية غابة صنوبر الكوشا التي كانت تنبت فيها أعشاب السهول ونباتات لانج لانج[1]، كما تذكرا نباتات القطلب[2] والفاوانيا[3] التي انتشرت في عدة أماكن من أرض الغابة.

تذكر توميوكا بشكل خاص غابة شانبو وقطع الأشجار ونشر أخشابها إلى دوائر، وكيف كان على كل رجلين العمل معاً طوال اليوم لتقطيع أربع أشجار فقط. لم يكن هناك إقبال كبير على استمارات التوظيف عند إرسالها إلى هناك، إذ لم يرغب الكثير من العاملين في نشر الخشب، ومعظمهم من قبيلة الموي أو من أنام، في العمل خشية الإصابة بالملاريا. ولهذا السبب كان توميوكا يبادر

(1) نبات طبيعي يستخدم في إعداد سقوف للمنازل.

(2) فصيلة مكونة من أكثر من 14 نوعاً من النباتات المزهرة التي تنمو في المناطق التي يسودها المناخ الدافئ.

(3) يسمى أيضاً عود الصلب، وهو نبات مزهر.

ويجند عماله قبل الخروج إلى شانبو ليقوموا بقطع الأشجار وتقطيعها إلى ألواح وقطع مربعة صغيرة في المناشر الصغيرة في الجبال ثم إرسال أخشابها إلى دالات في شاحنات عسكرية، وكل ذلك مقابل أجور يومية زهيدة لدرجة تثير السخرية. لكنهم ظلوا يعملون معه بجد حتى آخر الحرب لأنهم كانوا يكنون له الود على الرغم من معرفتهم بشيء قليل عن هزيمة اليابان.

«لقد فات الأوان ولن نستطيع العودة إلى تلك الجبال المنعزلة في الهند الصينية، أليس كذلك؟ كنا نخطط لنصبح عمالاً ونكسب قوتنا من قطع الأخشاب ونعيش هناك، نحن الاثنان فقط، خلال الفترة المتبقية من حياتنا».

«نعم».

«أنت قلت ذلك».

«حسن، لا نستطيع العودة ثانية».

«هذا صحيح. لا نستطيع العودة ثانية. كان بوسعنا نحن الاثنين الهرب إلى شانبو في نهاية الحرب لولا تلك المشكلة التي أثارها كانو. لكن ليس صحيحاً أن بمقدور الناس العيش في أي مكان. أنا لا أعتقد حقاً أن الناس يستطيعون أن يعيشوا بانسجام مع الطبيعة».

لم يشأ توميوكا أن يعيش في اليابان المنهزمة البائسة وأن يمضي حياته يكد ويلهث لمجرد إبقاء رأسه فوق الماء. كان يسمع بين الحين والآخر شيئاً يشبه صوت الطبيعة يناديه ويتردد صداه في أعماق نفسه. فغابات الهند الصينية هي موطن الروح بالنسبة إلى توميوكا، تماماً مثلما الناصرة هي موطن السيد المسيح. كان توميوكا يشعر أحياناً بحنين يشده إليها.

حل المساء دون أن يشعر توميوكا ويوكيكو بمرور الوقت. كان السوق في الأسفل يضج بالأصوات المرتفعة. خرجت يوكيكو وحدها واشترت بعض السوشي وزجاجة جعة مملوءة بالساكي العكر. أرادت أن تتحدث مع توميوكا لفترة أطول إذ لم يكن لها مسكن تعود إليه. شرب الاثنان الساكي الرخيص حتى

الثمالة وشعرا بأنهما خسرا كل شيء.

بدت ملامسة يوكيكو أمراً طبيعياً بالنسبة إلى توميوكا. أخذ الاثنان يتعانقان معاً في الفراش الذي أعد في وقت سابق من ذلك اليوم، فقد أصبحت المعاشرة بالنسبة لهما عادة. حاول توميوكا أن يستبدل نفسه بنفس أخرى، نفس ذاقت طعم المعاناة والهجر الذي ذاقه السيد المسيح في بستان الجثمانية[1]. وأخذ يحدث نفسه قائلاً: «إذا كان الله معنا، فمن بوسعه أن يكون ضدنا؟»، ورأى أن عليه مواصلة المشوار مع تلك المرأة، وشعر بأن والديه وأسرته يمكن ألا يكونوا بالنسبة له أكثر من حماية مؤقتة. في خضم ثمله، سمع توميوكا صوتاً ينصحه بأن يقفز فوق الحواجز من جديد ليعيش حياته مع هذه المرأة، وفكر أن عصر ازدهار اليابان قد انتهى، فعانق يوكيكو وقبلها بشوق لأول مرة منذ فترة طويلة.

ازدادت أجواء الفندق من حولهما صخباً، وضجت الغرفة بهزيز الرياح وهدير عربات القطار. في تلك الليلة أخطأت فتاة ليل معربدة وماجنة غرفتها ففتحت عليهما الباب، لكنهما لم يكترثا لها ولم يباعدا جسديهما حتى. شعرت يوكيكو بالدفء لالتصاقها بجسد توميوكا، لكنها أرادت شيئاً أكثر عنفاً، وخشيت من أن تكون العلاقة بالنسبة إليه وسيلة تغيير تهدف إلى تلبية حاجة آنية، وتذكرت أنها عانت الشعور نفسه أيضاً في خلال علاقتها السرية بإيبا التي استمرت لمدة ثلاث سنوات. أما توميوكا فقد شعر بالوحدة تشتعل في قلبه مثل جمرة مترمدة، حتى وهو يحتضن يوكيكو، وأخذ يسكب بين الحين والآخر كأساً صغيرة أخرى من الساكي، في حين التهت يوكيكو بتناول قطعة من السوشي. كان لديهما الكثير من الذكريات الخاصة، لكن قلبيهما اتخذا مسارين متعاكسين تماماً. لقد أفلحا في تأجيج عواطفهما، لكنهما لم يتحدثا عن المستقبل أبداً.

قالت يوكيكو: «لقد أصبحت نحيفاً جداً».

«هذا لأنني لم أتمكن من الحصول على غذاء جيد».

«أنا أصبحت نحيلة أيضاً».

(1) بستان يقع شرقي بيت المقدس صلى فيه السيد المسيح عليه السلام ليلة اعتقاله.

«لا لست كذلك».

«أنت أعلم. من يبدو لك أسمن أنا أم زوجتك؟»

أمسك توميوكا بالكأس الصغيرة، وظن أنه لن تتأجج بينهما أي ثورات عاطفية. فقد أساء كل منهما فهم الآخر.. كان كلاهما يدور في دوامة من مشاعر الهزيمة. لم تعد لديهما أية نار يخترقانها، بل كانا في حالة نسيان فقط.

«أتعلم؟ أعتقد أنني كنت قاسية على كانو، فقد كنت أهزأ منه لأنك كنت تلاطفني، ومع ذلك كان يسره أن يموت معي. لم تكن لديه أية شكوك على الإطلاق. حتى فيما يتعلق في الحرب، لم يكن أحد أكثر إيماناً منه بأن اليابان ستنتصر. كان إنساناً جيداً، كان الرفيق المثالي لكلينا».

«أنت امرأة فظيعة».

«ربما، ولكن أليست تلك من ميزات النساء؟»

أراد توميوكا الامتناع عن التفكير بكانو قدر المستطاع، في حين عمدت يوكيكو إلى التحدث عنه كوسيلة لإثارة مشاعر الحب لدى توميوكا. كان توميوكا منهكاً، في حين لم تشعر هي بأدنى حد من التعب. حملت يوكيكو بين أصابعها شريحة من التونا المكمدة واسترسلت بالثرثرة. لم يستسغ توميوكا قوتها الأنثوية الغريزية، وبدا الوجه المشرق والمتورد لتلك المرأة التي تحدق به وهي متدثرة باللحاف الأحمر مبتذلاً وفظاً.

«بماذا تفكر؟»

«لا أفكر بشي».

«أتفكر بزوجتك؟»

«أيتها الغبية!»

«نعم، أنا غبية. معظم النساء غبيات، لكن جميع الرجال رائعون، صحيح؟ من المحزن للمرء أن يتحمل مسؤولية تجاه امرأة غبية. إنني أتعلق بك فقط لأنك هنا معي الآن، ودون أدنى تفكير بالمستقبل. أنا أعرف أن الجميع يعتبرون هذا تصرفاً غبياً. لكنني على الرغم من ذلك سعيدة جداً لمجرد أنني عدت من بلاد

بعيدة وتمكنت من لقائك. هذا كل ما أردته. في هاي فونغ كنت أكره أن أتخيل أنك ستلتقي بزوجتك.. أي نوع من النساء هي؟ إنها جميلة، صحيح؟ متعلمة وأنيقة»..

حاولت يوكيكو أن تتخيل زوجة توميوكا، تخيلتها نحيلة كاملة دون عيوب، وتابعت ثرثرتها في حين استسلم توميوكا لنوم خفيف.

«لقد كذبت عندما قلت لي إنك سترتب كل الأمور عندما تعود وستنفصل عن زوجتك لتعيش معي بحرية ووضوح. الرجال كاذبون. إنهم يخدعون النساء ويحتفظون بعالمهم الخاص لأنفسهم. من المريع أن تحضرني إلى مكان كهذا وتجعلني أدرك هذه الحقيقة. قلت إننا عندما نعود إلى اليابان ستكون أمورنا بخير، كما كانت في الماضي، وإنه بإمكاننا أن نكسب العيش من العمل بالمياومة»...

تحسست يوكيكو جسد توميوكا وهي تغلق عينيها، كانت عظام وركه بارزة، وأثارت شفقتها خشونة بشرته، التي قد تكون ناجمة عن نقص التغذية، ثم وضعت يدها على بطنها، وشعرت بشيء غامض في ملمس بشرتها الناعم المصقول، واستغربت تلك النعومة المخملية في بشرة امرأة تعيش نمط حياتها. ألا تعاني بشرة النساء في بلد انهزم في الحرب من أي تغيير؟ أعادت يوكيكو يدها خلسة، ووضعتها من جديد على بطن توميوكا.

«سيذهب كل منا بطريقه غداً، ثم سيأتي وقت ما نلتقي فيه ثانية في مكان كهذا، وستثمل وتستسلم للنوم. عودتي من تلك البلاد البعيدة جداً لا يعني أي شيء بالنسبة لك. ألا تعتقد أنها معجزة أنني تمكنت من العودة؟ أكره الطريقة التي تقلق بها على كل الأمور، لكن لا تعاملني بنفس الطريقة التي عاملتني بها في دالات! استيقظ!»

قرصت يوكيكو بشدة جلد توميوكا الذي كان يغط بالنوم، فجعلته يفتح عينيه. جال توميوكا بنظره في تلك الغرفة غير المألوفة والنعاس غالب عليه، فأغلق عينيه ثانية وقال: «اهدئي. أنت متعبة، ومن المفيد لك أن تنامي قليلاً. لا جدوى في مواصلة التفكير في الماضي طوال الوقت».

«أنت لا تشعر بشيء، أليس كذلك؟ ذكريات الماضي مهمة كما تعلم، ولو فقدناها نصبح تائهين. لا أريد أن أصبح عجوزاً لا حول لها ولا قوة تعاني من سوء التغذية وتشعر بالتعب الدائم.. ألا يقول الناس إن اليابان قد أصبحت حرة الآن؟ النزلاء في الغرفة المجاورة لا يشعرون بالأسى على أنفسهم. انهض وتوقف عن التصرف كرجل عجوز، وإلا سأذهب إلى زوجتك وأتحدث إليها غداً، أسمعت؟»

15

عادت يوكيكو بعد ظهر اليوم التالي بمفردها إلى منزل إيبا في ساجينوميا دون أن تحصل على أي وعود مؤكدة من توميوكا الذي أخبرها بأن عليهما الانتظار لبعض الوقت، وإلا فإن الأمور لن تسير على ما يرام حتى وإن عاشا معاً. أدركت يوكيكو أن ليس هناك ما يمكنها فعله، فقد وعدها توميوكا بأن يجد لها عما قريب مكاناً تقيم فيه ويحضر لها مبلغاً من المال أيضاً، ولم يكن أمامها من خيار سوى الوثوق به على الرغم من إيمانها بأن كل تلك الحلول مؤقتة.

ودَّع توميوكا يوكيكو عند محطة إيكيبوكورو، ثم اختفى بسرعة وسط الازدحام، في حين ظلت هي بحال بائسة تستند إلى عمود على الرصيف وتراقب أفواج أناس ينزلون من عربات القطار وأفواجاً أخرى تصعد إليها. احتشدت وتزاحمت أمام عينيها وجوه الناس الجوعى الذين عانوا من أقصى درجات الاستغلال خلال فترة الحرب الطويلة. ظلت يوكيكو واقفة هناك لفترة إذ لم يكن لديها مكان تقصده، فعلى الرغم من أنها كانت عائدة إلى ساجينوميا، إلا أنه لا يوجد أحد بالتحديد ينتظرها هناك. فكرت بالعودة إلى شيزوكا، لكن من الصعب عليها مغادرة طوكيو لأن قلبها متعلق بتوميوكا. فقد فرحت عموماً لأنها تمكنت من لقائه، ومع ذلك كانت تشعر بداخلها بأنها تقف عائقاً في طريقه في

هذه الظروف الحالية. فكرت بأن عليها أن تعيش كالآخرين وتبحث عن عمل، فتذكرت قاعة الرقص التي شاهدتها عند محطة شيناجاوا، وتخيلت أنه بإمكانها أن تصبح راقصة. حاولت أن ترسم لنفسها صورة متبرجة مختلفة في أجواء مفعمة بأنغام الموسيقى الحية، ولكن نظراً لشكلها الحالي، لم يكن هناك أية إمكانية لتحويل هذه الفكرة إلى واقع.

حصلت يوكيكو على مبلغ صغير من المال من توميوكا، لذا توجهت إلى شينجوكو التي لم ترها منذ سنوات طويلة، فوجدتها مزدحمة كالمعتاد، لكنها لم تر أي وجه تعرفه وشعرت بأنها تجوب شوارع مدينة غريبة عنها. مرت بها أنواع جديدة من السيارات، فيما اكتظت الأرصفة الباردة الرطبة بحشود من الناس الذين يرتدون ثياباً شتوية. وصلت يوكيكو إلى مبنى كبير تهشمت نوافذه، وتذكرت أنه متجر ميتسوكوشي للبضائع المتنوعة، وعندها انعطفت إلى اليمين لتصل إلى سلسلة من أزقة اصطفت على جوانبها بضائع الباعة المتجولين.. وهناك شاهدت كميات كبيرة من السردين التي أخرجت من صفائح الكيروسين لتعرض للبيع، وحلوى مربى البازلاء معبأة في أوعية زجاجية مغطاة. كان بعض الباعة يبيعون المندرين المكوم على شكل أهرام، وبعضهم يبيعون الأحذية المطاطية، وآخرون يقفون أمام صفوف من الحبار المجمد يبيعون القطعة منها مقابل ين واحد. امتدت البضائع على مساحات واسعة في جميع الأزقة حتى وصلت إلى مسار السيارات. ووسط أكوام الحطام والحجارة التي خلفها القصف تجمع أطفال الشوارع القذرون يأخذون سحبات طويلة من سجائرهم. اشترت يوكيكو بعض حبات المندرين بعشرة ينات، وتسلقت كومة حجارة وجلست عليها، وقشرت حبة منها وأخذت تأكلها. اعتقدت أن أعباء الحياة الشاقة القديمة قد تقسمت إلى أجزاء صغيرة، وهذا ما منحها شعوراً لطيفاً وممتعاً. لقد أحست بالراحة هنا أكثر من أي مكان آخر، وراحت تبصق بذور المندرين الحامض على الأرض.

هل أحدثت الثورة التي شهدتها اليابان تغييراً فعلياً في النفوس؟ شعرت يوكيكو أن وجوه الناس قريبة من قلبها كما لو كانوا أفراد عائلتها.

التهت يوكيكو بالتفكير بأن توميوكا يجب أن يكون قد عاد إلى منزله الآن ليقدم لزوجته تفسيراً حول غيابه في الليلة الماضية. ما العذر الذي سيقدمه؟ إنها تعرف توميوكا، ولذا كانت متأكدة من أنه سيعالج الأمر بسلاسلة وبساطة، ومن المحتمل ألا يشعر أفراد عائلته بأي شكوك. كانت تحلم بأنها ستعود إلى اليابان لتقابل توميوكا وتنتقل للعيش معه في منزل جديد، لكن حلاوة أحلام الماضي قد تحولت إلى مرارة الآن.

عادت يوكيكو إلى ساجينوميا بعد الظهيرة، وأعطت حبتي المندرين المتبقيتين إلى الأطفال، وذهبت إلى الغرفة التي تكومت فيها أمتعة إيبا. كانت الغرفة باردة ومنعزلة. نظرت إلى أمتعة إيبا، كما لو أنها قد رأتها للتو، وشعرت فجأة برغبة في البحث فيها عن شيء ثمين تبيعه وتعيش من ثمنه في الوقت الحالي، واعتقدت أن هذه ستكون طريقة مناسبة للانتقام من إيبا. فهي تستطيع أن تفتح الأمتعة وتقول إنها تبحث عن شيء يخصها دون أن تثير شكوك سكان المنزل. واعتقدت أن إيبا لن يعاقبها إذا عاد ووجد نقصاً في أمتعته وعلم أنها هي التي قامت بذلك.

في المساء قدم سكان المنزل ليوكيكو البطاطا الحلوة وسمحوا لها بأن تعدها على البخار مع حصصهم.

وهي تتناول حصتها من البطاطا، نظرت يوكيكو إلى الخارج عبر نافذة الباب الورقي المنزلق، تلك النافذة الزجاجية الصغيرة ورأت وسط أشجار الأزاليا هرة صغيرة بثلاثة ألوان تراقب شيئاً بإنعام. تذكرت يوكيكو أشجار الأزاليا التي كانت تنبت أزهاراً بلون أزهار الفاوانيا في وقت مبكر من الربيع وعاد إليها الماضي مسرعاً. بعد فترة، مرت الهرة ببطء وتكاسل تحت شجرة الزعرور القريبة من السياج وتوارت عن الأنظار. فتحت يوكيكو الباب وخرجت إلى الرواق المشجر ونادتها، لكن الهرة لم تعد.

16

ظل تومیوكا يفكر بيوكيكو ليومين أو ثلاثة، إلا أنه سرعان ما نسي أمر البحث عن مسكن لها أو جمع بعض المال من أجلها، ولم يعد يحاول مساعدتها، بل أصبح أكثر ميلاً لإيجاد وسيلة سهلة للتخلص من علاقته بها، فقد كانت تلك اللقاءات العرضية صعبة لدرجة خانقة. وتضرع إلى الله أن تقرر يوكيكو بنفسها وببساطة أن تذهب بحال سبيلها.

كان تومیوكا يحاول تأسيس مشروع مع أحد معارفه لشراء الأخشاب بالجملة من الجبال والمتاجرة بها، ولهذه الغاية خطط الاثنان للسفر إلى المناطق الريفية الشمالية في ناجانو لشراء كميات من ألواح خشب الأرز وتخزينها. لكن تلك الرحلة ظلت تتأجل من يوم إلى آخر بسبب فشل جهود شريكه في جمع المال للمشروع ووجود مشكلة في نقل حزم الأخشاب إلى أسفل الجبال. لكن المشروع سيحقق أرباحاً طائلة إذا سارت الأمور على مايرام، فالأخشاب أصبحت تباع بأسعار مرتفعة جداً في السوق السوداء. بعد عودته إلى اليابان أحس تومیوكا بنفور شديد من حياة الموظف الحكومي، وشعر برغبة في المخاطرة، وظن أن اغتنام هذه الفرصة سيمكنه من تغيير مسار حياته. لكن أمله خاب عندما أجرى تومیوكا مكالمة هاتفية لمكتب صاحبه تادوكورو وعلم بأن الحصول على رأس

المال قد يتطلب أربعة أو خمسة أيام أخرى.

عندما عاد إلى منزله أخبرته زوجته بأن امرأة جاءت وسألت عنه، وتركت له رسالة تطلب فيها لقاءه غداً في شركة «هوتي»، عندها أدرك توميوكا أن تلك المرأة هي يوكيكو. فشركة «هوتي» تعني نزل «هوتي» الذي أقاما فيه معاً في إكيبوكورو. ظهرت على وجه توميوكا مسحة من الكآبة الممزوجة بالغضب، ولاحظت كونيكو ذلك فقالت: «سألتني إن كنت أنا زوجتك. من تكون تلك المرأة؟ هل لها علاقة بشركة تادوكورو؟»

«لا، لا. أتوقع أن تكون زوجة رئيس شركة «هوتي» الذي قابلته مؤخراً بموضوع عمل».

«فهمت. لكنني لم أرتح لها. منذ نهاية الحرب بدأت تظهر لنا أنواع مختلفة من الناس. إنها من النوع الذي لا أستطيع أن أشعر بود تجاهه. سألتني عنك.. أين ذهبت، ومتى ستعود، وصلت قلة لباقتها إلى درجة الوقاحة».

اعتقد توميوكا أن حدس المرأة ينعكس بسرعة على الشخص الآخر، فتولد داخله خوف خفي، لا شك أن كونيكو بحدسها قد استشعرت شيئاً من يوكيكو، ولذا فكر بأنه من الأفضل أن يخبرها عن علاقته بيوكيكو حالاً قبل أن يفوت الأوان. لكن كيف يمكنه القيام بذلك؟ جلست كونيكو أمامه ترتدي بنطالاً واسعاً وتقوم بخياطة وإصلاح لحف الشتاء التي امتدت على ركبتيها، شعر بأنه سيكون قاسياً جداً بمصارحته لها عن علاقة الحب التي أقامها في بلاد الغربة. فقد ظلت كونيكو تقيم مع والديه وانتظرته بكل إخلاص وتحملت بصبر ظروف الفقر. إن الاعتراف لها بمثل هذا الأمر سيجرحها في الأعماق، لذا لم يستطع تحمل القيام به.

بعد ظهر اليوم التالي، ذهب توميوكا إلى نزل «هوتي»، ووجد يوكيكو بانتظاره هناك، وقد بدا مظهرها رائعاً جداً وهي تقف منحنية قبالة الموقد ترتدي معطفاً ماروني اللون وشعرها مسدل على جبينها.

«ذهبت يوم أمس إلى منزلك».

«نعم».

«تبدو زوجتك لطيفة جداً».

«أصبحت أنيقة للغاية».

«نعم، لقد اشتريت هذا المعطف. هل يعجبك؟»

«من أين حصلت على المال؟»

«بعت بعض الأشياء الخاصة بأحد أقاربي دون أن أخبره بذلك. كنت أشعر بالبرد الشديد، والوحدة أيضاً، ولم يكن بيدي حيلة».

«هل ترين أن تلك فكرة جيدة حقاً؟»

«لم يكن بيدي حيلة».

ألقى توميوكا نظرة طويلة على مظهر يوكيكو الجديد والمبهرج، وشعر بالحزن لتحولها من شخصية المرأة الضعيفة الكسولة التي كانت تتميز بها، وتذكر مشهداً رآه منذ زمن بعيد في مسرحية كابوكي[1] وقفت فيه امرأة مختلة تندب وتنوح على الرصيف ممسكة بعصا. كان توميوكا على يقين بأنه لو تخلى عن هذه المرأة الآن في هذا المكان، فإنها ستغرق في هاوية الوحدة والدمار.

«بماذا تفكر؟»

«لا أفكر بشيء بالتحديد. لكن الأمور ستكون أصعب علينا من الآن فصاعداً».

«أتعتقد أنه ليس هناك من حل؟ أنا نفسي استسلمت. حزنت كثيراً عندما رأيت زوجتك، وأمضيت كل الوقت وأنا أتجول في المنطقة بعد ذلك أفكر فيها. إنها زوجة تثق بزوجها.. مرتبة.. أنيقة.. جذابة. أخشى أن أجلب سوء الحظ لشخص لطيف مثلها».

نظر توميوكا بقسوة إلى يوكيكو متسائلاً إذا كانت فعلاً تعني ما قالته، واستطاع أن يتخيلها وهي تتسكع خارج منزله. أخذت يوكيكو منديلاً من جيب معطفها ومسحت عينيها، وصادف أنه كان نفس المنديل الذي استخدمه توميوكا

(1) من أنواع المسرح الياباني يقدم العروض التاريخية والغنائية وعروض الحياة اليومية.

في دالات.

«تريد أن تتخلص مني، صحيح؟ أظن ذلك. أستطيع القول بأنك لا تبالي بي بأي طريقة، فقد أصبحت عبئاً عليك. لكن إن هجرتني، سأنزلق إلى الجحيم.. سأصبح رماداً يُذرُّ بعيداً. لا أستطيع أن أعيش وأنا لا أرى سوى خيالك، ولا أريد أن أكون متسولة أحظى ببقايا الحب الذي تكنه لزوجتك».

«عما تتحدثين؟ أنت غبية. من الغريب جداً أن تثيري موضوع الحب الآن، إنني أفكر بكل الأمور الأهم الآن. أتوقع أنك ستواجهين صعوبة أيضاً إن لم أفكر بخطة. ولهذا السبب جئت إلى هنا اليوم على الرغم من انشغالي».

«لا تلقي باللوم علي. لا أستطيع أن أجعلك تفهم ما أريد. لماذا لا يمكنني الاعتماد عليك بقدر ما أشاء؟ ألا تفكر بشيء آخر الآن؟ لكنني لا أطلب أي شيء غير منطقي. كل ما أطلبه أن تجد لي مسكناً وتأتي لزيارتي بعض الأحيان. أريد أن أذهب للعمل في مكان بعيد. لم يُكتب لي أبداً أن أكون زوجتك الحقيقية».

أصغى توميوكا إلى توسل يوكيكو الهستيري وهو جالس يشرب الشاي البارد وركبتاه ترتجفان قلقاً وبسبب جو الغرفة القارس. فهو لم يترك يوكيكو بمفردها سوى لثلاثة أيام فقط، وها هي الآن، وبمجرد أنها رأت وجهه، تريد أن تتحدث عن كل الأمور مرة واحدة.

«هل تبحث عن غرفة لي؟»

«نعم. ربما تقولين إنها مجرد غرفة، فلماذا كل هذا البطء؟ لكن من الصعب العثور على أي مكان بعد أن احترق كل شيء. حتى وإن وجدت المكان، سأحتاج إلى دفع عربون بعشرات الآلاف من الينات. فقط انتظري قليلاً».

«أنت تعيش في منزل، لذا يمكنك التفكير في الأمر بهدوء، أما أنا فمشردة بلا مأوى. المنزل الذي أعيش فيه الآن ليس مكاناً يمكنني الإقامة فيه قدر ما أشاء بسبب بعض الالتزامات العائلية. فأقاربي قد أخلوا المنزل، والناس الذين يعيشون فيه الآن لا يعرفون شيئاً عن مستقبلهم. إنني أستعير غرفة لبضعة أيام فقط، وأريد مسكناً خاصاً بي».

«سأعثر لك على مسكن قريباً. إنني لا أقول هذا من باب التأجيل والمماطلة. في زمن كهذا ليس هناك وفرة في المنازل التي يمكن الحصول عليها. بالمناسبة، ألا توجد أية وسيلة تدفئة في هذا النزل؟ أكاد أموت من البرد».

«أنت محق. لم لا أذهب لأقترض زجاجة جعة من الفندق، مثلما فعلت من قبل، وأذهب لأحضر فيها بعض الساكي؟»

تحسن مزاج يوكيكو قليلاً، فسحبت حقيبة يدها، وأخذت تفتش في محتوياتها إلى أن عثرت على كيس النقود، ثم وقفت على قدميها.

قال توميوكا: «كمية قليلة فقط تكفي، لا أريد أن أشرب كثيراً».

«هل ستعود باكراً اليوم؟»

«لا، ليس علي أن أعود في وقت مبكر بالتحديد».

«ألا تريد أن تمضي الليل هنا؟ لدي بعض المال».

«لا أستطيع أن أبقى هنا الليلة».

«أوه، يا للكآبة! لماذا؟ هل توبخت في المرة السابقة؟»

«أنا لست طفلاً. لم يوبخني أحد. لكن لا يناسبني البقاء هنا اليوم».

لم تشأ يوكيكو أن تجبره على ذلك، فغادرت الغرفة. لم تكن تلك نفس الغرفة التي أقاما فيها في المرة الماضية، بل كانت باردة جداً وفيها حصر تاتامي متسخة ومهترئة تثير الكآبة. أشعل توميوكا سيجارة وأخذ يدخنها ويتذكر ما قالته زوجته عن يوكيكو، ورأى أنه كان من الأفضل له لو أنه جلس في غرفة الشاي بقرب كونيكو يتصفح الجريدة ويصغي لصوت نشيش الماء وهو يغلي بدل المجيء للقاء امرأة في هذه الغرفة البائسة. وبطريقة ما خطرت له فكرة مروعة بأن يوكيكو كانت تستطيع أن تكون لطيفة بما يكفي لتموت في الهند الصينية. وتذكر أنه قرأ مرة في مكان ما بأن داخل كل نفس بشرية يوجد دائماً نوعان متناقضان من الصلوات، ويكون أحدهما موجهاً للشيطان.

أخذ توميوكا يراقب مسار دخان سيجارته يسرح بعيداً، فتسمَّرت عيناه على حقيبة يد يوكيكو المنتفخة المتسخة. مد يده إليها وسحبها نحوه، فوجد بداخلها

شيئاً صلباً ملفوفاً بقطعة قماش بنفسجية تبين أنها لفافة قماشية. ما عدا ذلك تضمنت الحقيبة بعض أدوات التجميل، وقلم حبر من نوع باركر بعلامة الماسة الزرقاء كان توميوكا قد اشتراه في سايغون، وعلبة من سجائر من نوع بيس، ومنشفة يدين وقطعة صابون. كما كانت هناك أيضاً رسالتان عليهما عناوين أقارب لها في شيزوكا. بعد ذلك أعاد توميوكا الحقيبة إلى ما كانت عليه، وأطفأ سيجارته في رماد الموقد. راوده شعور بالاستياء تجاه يوكيكو، وفكر في كونيكو وأساليبها الهادئة، ورأى أنه يضحي بها بمجرد وجوده هنا في هذا المكان وتورطه مع هذه المرأة في محاولة للهروب من حالة العزلة التي تخيم على حياته الحالية.

عاد توميوكا بتفكيره إلى الماضي عندما لاذ بالفرار مع كونيكو، التي كانت وقتئذ زوجة رجل آخر، وتزوجا. وشعر أنه مقدر له أن يكون قلبه أنانياً يضيف خطايا الحاضر إلى خطايا الماضي. فالخادمة نيو التي تركها في دالات وهي حامل بطفله عادت إلى البلاد، وآلمته كثيراً فكرة تسويته للأمر بتقديم مبلغ ضخم من المال لها. إنه يحلم بها بين فترة وأخرى، ومن المؤكد أنها قد ولدت الطفل. فكر توميوكا كيف سيكون الطفل مختلط العرق، وتساءل إذا ما كانت نيو تشعر بالخجل والعار. بعد قليل عادت يوكيكو وقد احمرت وجنتاها بسبب الرياح الباردة التي لفحتها.

«اشتريت بعض السوشي ثانية، والساكي أيضاً. أحضرت زجاجة كاملة».

حملت يوكيكو زجاجة الجعة باتجاه ضوء النافذة حيث يتسنى لتوميوكا رؤيتها، ثم سكبت ما تبقى من الشاي البارد بلا مبالاة في زاوية الموقد وملأت الفنجان بالساكي، وقالت:

«سأختبر إذا ما كان مسموماً»، ثم وضعت شفتيها على الفنجان، وشربت نصفه جرعة واحدة.

«آه، هذا حسن، أشعر بحريق يشب في معدتي وصدري».

سكب توميوكا فنجاناً لنفسه وشربه رشفة واحدة، ثم أضافت يوكيكو المزيد إلى فنجانه.

«ألن تمضي الليلة هنا؟ ألا تستطيع ذلك؟ لهذه المرة فقط، أنا لا أطلب الكثير. إذا كنت لا تحب هذا المكان، يمكننا الذهاب إلى مكان آخر. وإذا كنت بحاجة للمال، لدي شيئان ثمينان يمكننا بيعهما، وهكذا يمكننا الإقامة في مكان أفضل».

لم تستطع يوكيكو إخفاء عواطفها التي تميزت بشيء من البساطة والعفوية المحببة، وأمسك توميوكا بيدها وشعر بأنه قد تخلص من إحساسه بثقل أعباء الظروف والعائلة، ربما بفضل نشوة الساكي، وأخذ يقبّل أصابعها ويعضُّها.

«عضها بعنف أكثر».

أخذ توميوكا يعض أصابع يوكيكو بعنف أكثر، ووضعت يوكيكو رأسها على حضنه وبدأت تبكي. هل كان ذلك لأنه جرحها فعلاً؟ وقالت: «لا أفهم حتى كيف تحولت إلى هذا النوع من النساء. أرجوك أن تفعل شيئاً.. أي شيء»، وأخذت في أثناء بكائها تفرك ركبتي توميوكا بيديها. بدأ الظلام يخيم على الغرفة التي ضجت بأصوات الباعة ينادون في السوق. وضع توميوكا شفتيه على شعر يوكيكو، ولكنه أحس في داخله بأنها كانت حركة زائفة لا معنى لها، وبدأ يدرك مشاعر المرأة الفطرية التي تفتقدها زوجته كونيكو، والتي لا يدري هو بها إلا عندما يكون ثملاً.

«ما كان علي الذهاب للقاء زوجتك. أستطيع القول إنها إنسانة طيبة، لكن مع ذلك عندما فكرت في كونها زوجتك بدا وجهها كريهاً لي. بعد زيارتي لمنزلك أصبح وجهها يتراءى لي دائماً ويصيبني بطعنة في القلب.. لا بد أن زوجتك تعرف بأمري.. هل قالت أي شيء؟»

«لم تقل شيئاً».

«هذا كذب. كنت عابسة جداً وأنا أحدق بها، فرمقتني بنظرة غريبة، ثم تفحصتني بنظرها من رأسي حتى أخمص قدمي، وابتسمت ابتسامة بغيضة.. ابتسامة غريبة لا تحتمل. كانت أسنانها الذهبية تلمع. لماذا تضع حشوات ذهبية على أسنانها الأمامية؟»

رفعت يوكيكو رأسها وابتسمت لتوميوكا وهي تكمل حديثها... بدت

منتعشة.. وبدا وجهها الباكي وكأنه مغسول بعد أن زالت مساحيق التجميل عنه، فيما تجعد الشعر الذي كانت تسدله على جبينها فأعطاها مظهراً لعوباً فاتناً.. كان توميوكا يرى وجه يوكيكو يقترب ويبتعد ويعتم ويضيء، ربما بسبب ثمله.

«لكنها أكبر مني بكثير».

«هل لديك مأخذ عليها؟»

«نعم، فهي لا تمتلك مواصفاتك. كيف يمكن تقبيل زوجة بأسنان ذهبية في مقدمة فمها؟ إنها تجعلني أرتعد».

لم يشأ توميوكا أن يشير إلى عيوب زوجته بصراحة وحدة كهذه. سحب لحافاً من بين اللحف المكومة في زاوية الغرفة ووضعه على ركبتيه. كان اللحاف متسخاً ودبقاً يثير القشعريرة في النفس. قالت يوكيكو وقد بدا عليها الثمل: «قدماك دافئتان، هل تمانع أن أدخل قدماي هنا؟» فسألها توميوكا: «قلت إنك ستبحثين عن عمل؟ ما هي مخططاتك؟» وفي هذه الأثناء شرب كأساً ثالثة من الساكي أعقبها برابعة.

أجابت يوكيكو بشيء من الجدية: «أود أن أصبح راقصة، لكن أيناسبك هذا؟» ونظرت إلى توميوكا نظرة لعوب صدرت من أعماق عينيها. رأى توميوكا أن فكرة أن تصبح راقصة لا بأس بها، لكنه لم يخبرها بموافقته عليها. اقتربت الساعة من العاشرة مساءً.

قال توميوكا: «حسن، علي أن أعود»، ثم أخرج من جيب معطفه الداخلي بعض الأوراق النقدية ووضعها على حضن يوكيكو.

«هذه ألف ين. آمل أن تحصلي على عمل في أي مكان قبل أن تتصرفي بها. حالما أجد غرفة سأبلغك بذلك. سأتوجه غداً مساءً في رحلة قصيرة إلى ناغانو ولن أتمكن من لقائك لنحو عشرة أيام. في هذه الأثناء أرجو أن تعطي بعض المال لسكان المنزل علّهم يسمحون لك بالبقاء هناك».

أمسكت يوكيكو بحزمة النقود بيدها، وشعرت وكأن توميوكا يقصيها بعيداً عنه.

«لا أريد المال، ألا تستطيع أن تبقى الليلة بدل ذلك؟ الذهاب إلى ناغانو لعشرة أيام.. أنت تهجرني، أليس كذلك؟ هكذا هو الأمر بالتأكيد. أخبرني الحقيقة».

شرب توميوكا ما تبقى من الساكي وقال:

«لا، الأمر ليس كذلك. لا أعرف كيف أعتذر لك، ولكننا بصراحة نعيش بأحلام منذ أن كنا في ذلك البلد الجميل. لن يروقك ما سأقوله، ولكن بعد عودتي إلى اليابان ورؤيتي لهذا العالم المختلف كلياً، فكرت بأنه من الفظيع أن أسبب المعاناة لأسرتي بعد الآن. صحيح أن الجميع عانوا، لكن أسرتي احتملت الكثير. لا يمكنني أن أعود إلى اليابان لأهجر الأناس الذين انتظروني. يبدو وكأنني قد حنثت بوعدي لك، لكنني سأفعل كل ما وسعي لإسعادك.. أحاول أن أفكر.. إنني أحبك، لكن نقطة ضعفي أنني لا أستطيع العيش معك. حتى بقائي معك الليلة لا يتعلق بعدم توافر إمكانية لدي، بل بشعوري بالاستياء لعدم إخبارك الحقيقة. صحيح أنني ذاهب إلى ناغانو، كنت أعتزم أن أحدثك بكل هذا بعد عودتي من السفر، لكنني قررت أن أخبرك الآن.. أعرف أنك ستمرين بأوقات صعبة في حال افترقنا للأبد.. لكن مستحيل بالنسبة لي أن أهجر عائلتي إذ ليس هناك من شخص آخر تعتمد عليه».

غطت يوكيكو أذنيها بيديها، وهزت رأسها، وحدقت بعينيها البراقتين بتوميوكا الذي أزاح اللحاف بهدوء ووضع يديه على ركبتي يوكيكو وقال:

«ليس هناك من طريقة أخرى».

«أتعني أنه لا بأس مهما جرى طالما أنك وعائلتك سعداء. لا أريد هذا المال. لا أرى أن أخذ المال منك يجلب لي السعادة. إذا سمحت لي أن أقول ما أريد، فأنا وزوجتك متشابهتان تماماً. من المحتمل أنك تعتقد أنك ستنجح في حل المشكلة معي طالما أنك قادر على إسعاد زوجتك. حسن، لماذا لم تفكر بهذا الأمر عندما زرتك أول مرة؟»

بدا الثمل على يوكيكو فجأة، وأخذت تتحدث دون أن تفكر جيداً، لكنها أحست أنها لا تستطيع تقبل أنانية توميوكا في الحديث. إنه نفس الرجل الذي

كان يتصرف براحة ودون تحفظ في الهند الصينية، لكنه سرعان ما فقد حيويته بعد عودته إلى اليابان. لم تستسغ يوكيكو حماقة مخاوفه وصحوة ضميره المفاجئة تجاه منزله وأسرته، فأخذت يدي توميوكا بين يديها وشدت عليهما، ثم رفعت كم قميصها الأيسر لتريه أثر الجرح الأفقي والثخين على ذراعها وقالت له: «هل تتذكر هذا؟ كان ذلك بسبب كذبك على كانو. أعرف كل شيء عن علاقتك بنيو، أيضاً. تعتقد أن مشاعر الناس العميقة غبية. يمكن للجميع الوثوق بإنسان مثلك، في حين أن أناساً مثلي ومثل كانو لا يحظون بالثقة، كان الجميع يعتقدون أننا غريبا الأطوار. لكنك لم تبد لي مزيفاً في ذلك الوقت. والآن تريد أن تضحي بأي عدد من الأشخاص مقابل تحقيق سعادتك في الحفاظ على روعة منزلك وسعادة عائلتك. لا تعجبني هذه البراءة التي تدعيها. إذا كانت لمنزلك وزوجتك كل هذه القيمة لديك، لماذا لم تعاملني ببرود منذ البداية؟ أنا لا أريد أن أقصي زوجتك. لكنني أعتقد أنني أمضيت وقتاً طويلاً جداً أتخيل الأمور الجيدة بكل أصنافها. أنا باقية هنا الليلة، لذا يمكنك العودة متى شئت».

سمرت يوكيكو عينيها على توميوكا، ثم لفت نفسها باللحاف من رأسها حتى قدميها، وتدحرجت بعيداً عنه فوق حصير التاتامي، فيما جلس توميوكا يراقبها.

17

بعد نحو أربعة أيام عاد إيبا فجأة إلى طوكيو. كانت يوكيكو في طريقها للخروج عندما رأته قادماً من آخر الزقاق يسير بعزيمة. ظنت في البداية أنه لم يكن هو، بل شقيقه الأكبر. بدا إيبا متفاجئاً لرؤيتها.

«أوه، أهذه أنت يا يوكيكو؟»

احمرت يوكيكو من وقع المفاجأة.

«متى عدت؟ لماذا لم تذهب إلى شيزوكا أولاً؟ لقد عدت على كل حال».

بان الكبر بشكل واضح على إيبا، وتغيرت تعابير وجهه كثيراً منذ أن رأته لآخر مرة قبل أربع سنوات.

«كيف علمت أنني عدت؟»

رفع إيبا ياقة معطفة الأسود وقال: «لا أستطيع أن أخبرك عن العائلة بالتفصيل هنا. ما رأيك أن نذهب لمكان ما نرتاح فيه ونشرب الشاي؟»

توجه إيبا نحو الشارع العريض القذر حيث بدت الرياح أكثر برودة، وتبعته يوكيكو التي أخذت تراقبه من الخلف وكأنها تنظر إلى شيء غير مألوف أبداً. اجتاز إيبا خطوط السكة الحديدية لكنه لم يدخل المحطة، بل مشى على طول

الشارع إلى أن وصل إلى مطعم للنودلز[1] المصنوع من الحنطة السوداء مقابل المحطة. حنى رأسه تحت ستارة المطعم ودخل. لم يكن في المكان أي وسيلة تدفئة، وكانت الطاولات الممتدة في المدخل الإسمنتي مغطاة بالغبار. جلس الاثنان في زاوية مقابل بعضهما البعض، وأخذا يرتجفان من البرد، فرفع كل منهما ركبتيه نحو جسمه وأخذ يفرك ساقيه لتدفئتهما. في تلك الزاوية كان هناك باب زجاجي مغطى بطبقة من الشبك الناعم، وهذا بالتحديد ما جعل المكان بارداً وكئيباً.

سأل إيبا: «هل لديكم نودلز الحنطة السوداء؟» بدا الارتباك واضحاً على وجه النادلة التي كانت ترفع شعرها بتسريحة قديمة الطراز، وأجابته بأنه ليس لديهم أي نودلز لأن الظروف لاتزال صعبة. وعندما سألها عما يتوفر لديهم، قالت إن هناك شاياً أسود وحساء فول الأدزوكي مع الزلابية[2] وماء الصودا. علق إيبا بأنه ليس بإمكانهم شرب ماء الصودا في هذا البرد، وطلب طبقين من حساء فول الأدزوكي. كان مطعم النودلز يمثل تماماً عينة من مطاعم المدن القديمة غير المتحضرة. أخرج إيبا علبة سجائر بيس من جيبه وأشعل سيجارة ثم أعاد العلبة إلى جيبه، فقالت يوكيكو وهي ترتجف من البرد: «دعني آخذ سيجارة أيضاً».

«إذاً أنت تدخنين الآن».

«أريد أن أدخن قليلاً بسبب برودة الجو فقط. فالتدخين يشعرني بدفء أكثر».

بعد أن أشعلت يوكيكو سيجارتها، سألها إيبا عن أمور كثيرة، لدرجة أنه أزعجها بوابل الأسئلة التي أمطرها بها. أحضرت النادلة زبديتين من الحساء الكثيف مع نكهة الدولسين[3]، ورفعت عنهما غطاءيهما والعرق يتصبب عليهما من الداخل. كان الحساء بلون بني فاتح، وطفت في كل زبدية كرتان من الزلابية. أخفض إيبا وجهه محاولاً التقاط كرة زلابية بعودي طعامه وقال: «لقد قمت بفتح

(1) نوع من المعكرونة على شكل عصائب وشرائط.

(2) كرات من العجين تصنع من الطحين والبطاطا ويضاف إليها اللحم أو السمك أو الحلوى وتطهى وتقدم مع الحساء.

(3) سكر اصطناعي تفوق حلاوته حلاوة السكر الطبيعي بنحو 250 مرة.

أمتعتي». ظلت يوكيكو صامتة منكبة أيضاً على تناول حسائها وأيقنت أن سكان المنزل قد أبلغوا عنها.

«أعرف أنك فتحت حقائبي عن قصد. لماذا فعلت ذلك؟ إذا كنت بحاجة إلى المال، كان بإمكانك أن تطلبيه مني فقط، وكنت سأحضر لك مبلغاً منه. كما أنه من الغريب أنك عدت إلى طوكيو ولم تخبري أقرباءك في شيزوكا بذلك. أرسل لي أحدهم رسالة يخبرني بالأمر، هل صحيح أنك بعت بعض أغراضي؟» أشعل إيبا سيجارته من جديد بعد أن بدأت تنطفئ، وأخذ يتنشق دخانها بسحبات قوية. لم تكن لدى يوكيكو الآن أي عاطفة تجاه إيبا.

«كان الجو بارداً جداً، ففتحت حقائبك وأخذت منها قطعتين أو ثلاثاً».

«وبعتها».

«أعرف أن ذلك كان خطأ، لكن هناك أناس احترقت منازلهم، ولذا فكرت بأنك لن تفتقد بعض الأشياء القليلة، وظننت أنك ستسامحني. اشتريت هذا المعطف من مالك».

«لماذا لم تذهبي إلى شيزوكا مباشرة؟»

«لم أشأ العودة إلى هناك.. وكذلك جاء معي صديق من الهند الصينية.. أردت أن أبدأ البحث عن مكان أعمل فيه.. كنت أنوي أن أذهب إلى هناك بعد أن تستقر أوضاعي».

أنهت يوكيكو كلامها، وأخرجت من حقيبة يدها رسالتين موجهتين إلى عائلتها في مسقط رأسها كانت قد كتبتهما قبل أربعة أو خمسة أيام ولكنها نسيت أن ترسلهما، وأبرزتهما لإيبا.

«ماذا بعتِ؟»

«بعت قطعتين من الحرير الرقيق ولفافة من القماش أيضاً».

«أتعتقدين أنه من الصواب فعل شيء كهذا؟ لقد تغيرت كثيراً منذ ذهابك إلى الهند الصينية».

التزمت يوكيكو الصمت.

«استقلت من عملي في البنك وذهبت لأعمل مزارعاً في الريف. لكن لا يمكن لإنسان اعتاد العيش في المدن أن يستقر في الريف، لذا قررت أن أعيد عائلتي في نهاية هذا العام وأرسلت الأمتعة مسبقاً. فالأشياء الثمينة تباع بأسعار مرتفعة الآن، ولذا عزمت على بيعها لتمويل تجارتي. أليس لديك معطفاً تحتفظين به في الريف».

«نعم، أرجو أن تبيعه. لا أهتم لو بعت كل حاجياتي. كنت أخطط للزواج، ولهذا السبب جئت إلى طوكيو أولاً».

«أوه؟ متى ستتزوجين؟»

«لم تنجح الخطة.. لديه زوجة.. تعسرت الأمور عندما عدت إلى اليابان».

«ماذا يعمل؟»

«كان يعمل في وزارة الزراعة والغابات، وقد عملت معه هناك. ولكنه يقول إنه يعمل في تجارة الأخشاب منذ عودته».

«كم عمره؟»

«أصغر منك بكثير».

«لقد خدعك».

«لا، لم يخدعني، لكننا افترقنا».

فوجئ إيبا من التغير الكامل الذي طرأ على يوكيكو التي أصبحت ناضجة تتحدث بحزم بعد أن كانت من قبل فتاة خنوعة قليلة الكلام. لفت يوكيكو قطعة قماش بنفسجية حول خديها بسبب برودة الجو، وبدا اللون البنفسجي جميلاً جداً على بياض خديها، وسألت:

«هل ستبقى هنا إذاً؟»

«لا، سأبقى لثلاثة أو أربعة أيام متنقلاً هنا وهناك ألتقي أصدقائي وأدرس الأوضاع ثم سأعود. يمكنك المجيء معي».

«دون حقائبك؟»

«نعم، سأتركها في منزل القابلة القانونية عند الزاوية. هي التي أرسلت لي

رسالة تخبرني فيها عنك».

«أوه».

غادر الاثنان مطعم النودلز وتسكعا خارج المحطة يتجاذبان أطراف الحديث دون أن يكون لديهما مكان محدد يقصدانه. ثم قالت يوكيكو دون أي خوف أو جبن: «أنا ذاهبة من هنا إلى شينجوكو، تعال لتتأكد من صحة أقوالي إذا كان ذلك يرضيك». شعر إيبا بالبرد ووقف وظهره للريح وقال: «سأذهب معك»، ثم دخل المحطة مع يوكيكو واشترى تذكرتين.

في ذلك اليوم بدت الشمس مشرقة قليلاً، لكن الرياح كانت عاتية جداً. استقل الاثنان القطار المتوجه إلى شينجوكو، وكانت معظم نوافذه مهشمة وأجواؤه باردة، فشعرا وكأنهما يسافران في عربة تبريد.

«لقد تعرضت هذه المنطقة للقصف المدمر هنا».

كان إيبا ينظر إلى الأطلال المحترقة الذي انتشرت في المنطقة بين المحطات. ثم قالت يوكيكو فجأة وبنبرة من العفوية: «أود أن أصبح راقصة، هل تروقك هذه الفكرة؟» لم يجب إيبا فوراً، ثم سأل: «ألا تريدين أن تعملي في الطباعة».

«تعبت من هذا النوع من العمل، ويقال أن أجره ليس مجزياً. سمعت أن هناك طرق عديدة لجني المال في القاعات المخصصة للجنود الأميركيين».

«هذا محتمل، ولكن هل تعتزمين العمل في هذا المجال لفترة طويلة؟»

وصل إيبا ويوكيكو إلى شينجوكو وراحا يتجولان هائمين في أرجاء المدينة، ثم ذهبا لمشاهدة فيلم عن مدام كوري كان يعرض في مسرح موساشينو. تساءلت يوكيكو عن الفترة التي انقضت على آخر مرة شاهدت فيها فيلماً أجنبياً. جلس الاثنان بجانب بعضهما في المقاعد المخملية المخربة. وكذلك كان جو المسرح بارداً جداً. لم يعد لذاك المسرح الصغير البائس أي من السحر الذي تميز به قبل الحرب، وبدا من المستغرب جداً أن يشاهد المرء فيلماً أميركياً هنا في هذه الظروف.

شعرت يوكيكو بإيبا يمسك بيدها في الظلام. ما الذي يدور في ذهنه يا ترى؟ كانت يده دافئة.. لم تحس يوكيكو بالمتعة من ملمسها، ولكنها تحملت وجودها

فوق يدها. بدا المنظر الجانبي لوجه إيبا تحت الإضاءة المنعكسة من الشاشة الفضية كوجه ميت. شعرت يوكيكو بدموعها تنهمر على خديها فيما كانت تتذكر وداعها الأخير لتوميوكا وشعور الوحدة الذي عانت منه بعد ذلك.

عندما غادرا المسرح كان الظلام قد بدأ يخيم في الخارج وكانت الرياح باردة كالثلج.. اختفت الأكشاك من الطرقات وبدت المنطقة مهجورة، وأضاءت إنارة الشارع عند الزوايا فقط مثيرة لدى المرء إحساساً أقوى بالهزيمة. وصل الاثنان إلى طريق الحافلات الكهربائية المحاط بالمتاجر الصغيرة المتداعية التي بدت مثل أقنان الدجاج. حتى هذه المتاجر قد أقفلت مبكراً، فاللصوص والنشالون كثر يجوبون الشوارع في هذه الفترة، ولذا كانت أبواب جميع المحال تقفل بإحكام في نهاية اليوم.

اصطحبت يوكيكو إيبا إلى مطعم نودلز يشبه الكوخ جاءت إليه مرتين من قبل في شارع الحافلات الكهربائية. كان الظلام مخيماً.. أرادت يوكيكو أن تحتسي الساكي، حيث شعرت بأنها لن تستطيع تحمل الظروف ما لم تملأ أحشاءها بشراب قوي. طلبا طبق نودلز الحنطة السوداء مع براعم الخيزران وجلسا بجانب الموقد الصغير. مدت يوكيكو أصابعها بحذر لملامسة موقد القصدير المتوهج متسائلة كم من الأعوام مرت على رؤيتها موقداً يشتعل بهذا التوهج. قال إيبا وهو ينفث دخان سيجارته: «لا أريدك أن تصبحي راقصة»، لكن يوكيكو لم ترد، وظلت مستاءة من وقاحته بإمساك يدها.

استرسل إيبا يتحدث بهدوء وهو يحدق بوجه يوكيكو بتبرجه البراق وقال: «كنت قلقاً عليك طوال الوقت. كنت أخشى ألا تتمكني من العودة بسلام. تمر اليابان بظروف سيئة الآن، فقد أُلقي القبض على جميع الشخصيات البارزة، وانقلبت الأمور رأساً على عقب، وأصبح الناس الذين كانوا ينظرون إلى الآخرين بفوقية من قبل في أسفل الهرم. لكنني أعتقد أن بعض التغيير كان نحو الأفضل».

أجابت يوكيكو: «كانت البلاد بأكملها في حالة ثورة وجنون، أما الآن، فإن

مجرد إدراك حقيقة أنه لن تكون هناك حرب من الآن فصاعداً يثير في النفس الارتياح. كيف استطعت تجنب التجنيد؟»

«لطالما أقلقني هذا الأمر دوماً. نجوت من التجنيد لأنني كنت أعمل في مصنع للجيش في هاماماتسو. يبدو لي ذلك كالحلم عندما أفكر فيه الآن. لكن هاماماتسو قد تعرضت للقصف أيضاً، ثم عملت بعد ذلك مزارعاً. في الحقيقة مازال عدم طلبي للالتحاق بالخدمة العسكرية سراً غامضاً بالنسبة لي. بعد الحرب كنت قلقاً عليك أكثر من أي شيء آخر. لم أعتقد أنك ستعودين بهذه السهولة».

وصل طبق النودلز الساخن، فاحتضن كل منهما زبديته بيديه وأكلا، واستغربا اللون الأحمر لبراعم الخيزران.

«إنه لذيذ»...

«نعم، هذا المكان جيد حقاً. يتولى الغرباء إدارته ويقدمون للزبون كميات كبيرة من الطعام بالفعل. كما أنه رخيص».

شعرت يوكيكو بالاشمئزاز من العودة مع إيبا إلى ساجينوميا حيث سيناما بجانب بعضهما في تلك الغرفة المزدحمة. أحست بأن الدنيا تحرمها من كل ما تريده وتفرض عليها كل ما لا ترغب فيه، كما لو كان قدرها هكذا.

«أستقيم في المنزل الليلة؟»

«نعم».

«قد لا تكون هناك غرفة مخصصة لك».

«في أي غرفة تقيمين؟»

«في غرفة الشاي، إنها مليئة بالأمتعة».

«يمكننا النوم سوية».

«ليس هناك ما نأكله».

«أحضرت معي نحو ست كيلوجرامات من الأرز. إنه منزلي على الرغم من كل شيء، وسنستخدم المطبخ لنطهو بعض الأرز. ليس هناك ما نخجل منه. هناك مجموعة جميلة من الفرش في الأمتعة. دعينا نعود ونفتحها».

«أنا مقيمة في مكان في إكيبوكور، لذا سأذهب إلى هناك».

«أصبحت بالغة الحذر».

«ليس الأمر كذلك. سأقيم هناك لليلة فقط لأن علي أن أقابل صديقاً، وسيكون من المتعب جداً علي أن أخرج في الصباح لهذه الغاية».

«لكنني فرحت للقائك بعد كل هذا الوقت الطويل. لايزال لدينا الكثير من الأمور لنتحدث عنها. أرجوك أن تعودي معي. لا أعرف ما هي الملابس التي بعتها، لكنني لن أوبخك».

«حسن، أنا لا أبالي بتوبيخك لي. أريد أن أذهب إلى المكان الذي يوجد فيه صديقي حيث سنتحدث بخصوص العمل».

لقد أثارت فكرة النوم مع إيبا القشعريرة في جسم يوكيكو.

18

تأجلت رحلة توميوكا إلى ناغانو، ولم تسفر المناقشات في مقر شركة تادوكورو عن أية نتائج. كانت أوضاع السوق في حالة تغير سريع للغاية ويجب على المرء التحرك بسرعة لأنه سرعان ما تفوت عليه الفرص للقيام بأي بشيء. أراد توميوكا أن يطلب كميات كبيرة من الأخشاب في الحال بعد أن سرت بعض الشائعات حول احتمال إعادة تقييم كامل للعملة، كما أراد أن يشارك في تجارة الورق لأنه علم بانتعاش هذه التجارة في السوق السوداء تلك الأيام. لكنه وجد نفسه مرمياً وحده في هذا العالم وأدرك مدى ضعفه. فقد بدا الجميع أهلاً للثقة، لكن الحقيقة أن كل فرد يفكر بمصلحته فقط عندما تدور الأحاديث حول التجارة. لم يظهر أحد قلقه من الأوضاع الجديدة التي ولدتها الحرب. أراد الناس أن يعتقدوا أن كل الأمور ستكون على ما يرام، وأن هذه الفوضى ستتمخض عن أمر ما مفيد يستطيعون الاعتماد عليه بمفردهم.

استمتع الشعب بهذه الفترة الثورية التي كانت أكثر إثارة من الحرب نفسها. فالناس يضجرون بسرعة، ويفضلون التغيير على الرتابة، ويشعرون بتحفز في أوقات التغيرات حيث تواصل الأحداث الدوران مثل عروض الاحتفالات الصاخبة. رأى توميوكا بأن ليس أمامه من خيار لتوفير رأس المال لمشروعه إلا عن

طريق بيع منزله، وبأن جمع خمسة أو ستة آلاف ين نقداً سيحقق له بالتأكيد شيئاً من الراحة لاحقاً، ولم يحتمل فكرة إضاعة فرصة كهذه بكل بساطة.

في صباح أحد الأيام، سألت كونيكو زوجها توميوكا وهما على طاولة الفطور: «هل تتذكر تلك المرأة من شركة هوتي التي جاءت لزيارتنا مؤخراً؟ حسن، رأيتها في الجوار يوم أمس. هل تعتقد أنها تعرف أحداً ما من هذه المنطقة؟»

كان توميوكا على وشك نسيان يوكيكو، لكنه استطاع الآن، وهو يتناول الحساء بهدوء، أن يتخيلها تتسكع في الجوار والقلق يخيم على ملامح وجهها.

«لم أعرف بما أجيبها عندما سألتني عن موعد عودتك من ناغانو، ورأيت أنه سيكون من المحرج أن تلتقي بك في طريق عودتها، لذا أخبرتها أنك عدت بالأمس. لما أخبرتها بأنه بإمكاني نقل رسالة إليك، قالت إنها قطعت مسافة طويلة لتأتي إلى هذه المنطقة لأنها تقيم بشكل دائم في شركة هوتي وأنك ستزورها بكل الأحوال، حتى في الليل. وقالت: «أرجوك أخبريه بذلك، وهو سيفهم إذا أخبرته بأنني أريد منه إعادة المال الذي أقرضته إياه يوماً». ثم ابتعدت مسرعة. كانت تضع الكثير من مساحيق التجميل».

شعر توميوكا بضيق في نفسه وظن أنها قد تكون استقرت في ذلك الفندق لأن ليس لديها مكان آخر تقصده. عندما كانا معاً فيما مضى أعادت له الألف ين قائلة بأنها لا تريدها، وظلت اتهاماتها له بأنه يضحي بالآخرين في سبيل سعادته الخاصة تلقي بثقلها عليه.

في الهند الصينية اتخذ توميوكا يوكيكو حبيبة له، فأثار ذلك غضب كانو، ذاك الرجل اللطيف والصادق، وقاده إلى حد الجنون الذي دفعه إلى جرح يوكيكو. لكن في ذلك الوقت كان الاثنان يعتقدان بسذاجة بأنها سيتمكنان من الزواج، وقد أرسلا العنان لعواطفهما لتنمو وتكبر على هذا الأمل. فقد توميوكا شهيته، ووضع عودي الطعام من يديه، وفكر للحظة واحدة فقط بأن يبيع المنزل ويقسم ثمنه بين زوجته ووالديه ويعيش هو مع يوكيكو دون فلس واحد، لكنه لم يشعر بأي ارتياح للفكرة.

سألت كونيكو بنبرة انزعاج: «هل اقترضت المال من تلك الشركة؟»

«في أي ساعة من الليلة الماضية؟»

«في حوالي الساعة السابعة وأنا عائدة من السوق. نسيت أن أذكر الأمر أمامك لأنك رجعت متأخراً. لكنني تذكرت هذا الصباح عندما ذُكر اسم هوتي في الإذاعة في برنامج الأشخاص المفقودين. ما هو مجال عمل شركة هوتي؟»

لم يجب توميوكا عن السؤال، وبما أنهما يتناولان الفطور في وقت متأخر دائماً، فقد كان والداه في غرفة أخرى. سألت كونيكو وهي تطوي الصحيفة: «أيمكنني الانصراف الآن؟»

اكتفى توميوكا بالنظر إلى وجهها النحيل كما لو أنه في حالة سبات.. أراد أن يشرح لها كل شيء.. كان متعباً جداً.. أرادها أن تكتشف سره. لقد افتقر للشجاعة للاستمرار على هذه الحالة المزعجة لفترة طويلة، لكنه أدرك في الوقت ذاته أنانيته تجاه يوكيكو. إنه خطؤه وحده. شعر توميوكا منذ أن عاد إلى اليابان بأنه أصبح شخصاً مختلفاً تماماً، وبات يضع قناعاً سميكاً ويحجم عن إظهار مشاعره الحقيقية. أحست كونيكو بفطرتها بأن لعلاقته بتلك المرأة المتبرجة صلة بالأمر، وأصبحت أفكارها تلقائياً مضطربة وسوداوية. بدا القلق واضحاً في عيني توميوكا هذه الأيام. وكان يتوقف أحياناً حتى في أثناء ملاطفة زوجته أو معانقتها ليطلق تنهدات عميقة. وكان في أثناء المعاشرة يتوقف فجأة ويبعد كونيكو عنه ببرود، حتى قبل أن يستنفذ قدرته القوية.

بعد فترة قصيرة من عودته قالت له كونيكو بتساؤل: «لقد تغيرت كلياً منذ عودتك من الهند الصينية». وكذلك كان توميوكا يشعر بذلك التغيير. فعندما كان يحلق كل صباح، كان يرى وجهه في المرآة وقد أصبح منتفخاً وضخماً قليلاً بفعل الشراب بالتأكيد، فيذكره ذلك بشخصية ستافروجين في رواية «الشياطين»[1]. صحيح أنه لم يكن يشبهه بالشكل الهزيل، ولا بالشفتين المرجانيتين ولا بخشونة

---

(1) رواية من تأليف الكاتب الروسي فيدور دستويفسكي وتتناول الحياة في روسيا الامبراطورية في أواخر القرن التاسع عشر.

الوجه وشحوبه، لكنه لم يستطع أن يتخلص من ذلك الإحساس بوجود شبه متزايد بينهما.

«لا يروقني تسكع تلك المرأة حول المنزل. هل هناك أمر ما؟ لقد تغير سلوكك تماماً».

«لا، لا، لم يتغير شيء».

«هل أذهب وأسدد ذاك القرض؟»

«لا داعي لتزعجي نفسك بشؤون الرجال»

«لكنني لا أفهم».

«أرجوك لا تقلقي، فهذا شأن يخصني، وعليك الوثوق بي».

«صحيح، لكن ألا تدين لها بشيء ما؟ فما أن ذُكر الموضوع حتى ثار غضبك».

«أنا منشغل فقط. لا أعرف كيف ستسير أمور الشراكة التجارية مع تادوكورو. قد يكون من الأفضل أن تحتفظي بمخاوفك غير الضرورية لنفسك».

أراد توميوكا بشدة أن ينطلق من جديد نحو جبال وغابات الهند الصينية. بدأ يؤمن بأنه ليس هناك من عمل يناسبه غير العمل في الجبال والغابات. زوجته.. والداه.. أسرته، كلهم أعباء كثيرة على عاتقه. رأى أنه من الأمتع له أن يقضي بقية حياته يعمل في تلك الغابات الرائعة على أن يظل يتخبط في أوضاعه الحالية. عادت إلى مخيلته صورة أشجار المنغروف وجذورها المجدولة تبرز من وحل الشاطئ متشابكة ومتماسكة. وتذكر صفوف تلك الأشجار التي نمت عند المدخل إلى مرفأي هاي فونغ وسايغون بأوراقها الزيتية وجذورها التي تشبه المجسات، فامتلأ قلبه بالرغبة في العودة إلى الجنوب من جديد. نظرت كونيكو إلى وجه زوجها البارد وهو في حالة من الصمت، وبدأت دموعها تنهمر فجأة.

«لم تبكين؟»

«بدأت أفكر مؤخراً بأن هذا هو جزائي، إنك تريد الانفصال عني. أشعر بأنني أعاقب على عدة أمور».

«الحياة صعبة، لذا لا بد أنك متوترة قليلاً. أنا لا أفكر بالانفصال على الإطلاق».

لم يستطع توميوكا أن يحتمل نفسه وهو يكذب، وتراءت أمامه جميع أكاذيبه تصطف معاً مثل حبات رمانة مفتوحة.

19

عادت يوكيكو إلى منزل إيبا في ساجينوميا بعد أن عجزت عن الاستمرار في تسديد فواتير الفندق في إيكيبوكورو. وكان إيبا قد عاد إلى شيزوكا، لكنه أرسل خبراً بأنه سينتقل إلى طوكيو خلال يومين أو ثلاثة. ولذا فقد أخليت من أجله غرفة الشاي التي تتسع لست حصائر وغرفة الاستقبال التي تتسع لأربع حصائر ونصف. خلت هذه الغرفة الأخيرة، وعلى الرغم من تسميتها «غرفة الاستقبال»، من أي خزانة أو كوة مزخرفة، وكانت مسقوفة بالقرميد الأحمر فقط وبدت حصر التاتامي على أرضيتها جرداء بالية.

بقيت يوكيكو هناك لليلة أخرى. وكان إيبا قد ترك لها رسالة يخبرها فيها بأنه قد تفقد الأمتعة ولم يغضب منها، لكنه سينزعج إذا ما سببت له أي مضايقة أخرى، وسيضطر للتفكير في اتخاذ إجراء ما في حال وضعت يدها على أمتعته ثانية في أثناء غيابه. كما اعتذر لها عن عدم توافر إمكانية لبقائها في المنزل بعد عودته بسبب ازدحام الغرف، وقال إنه يمكنها الذهاب أينما تشاء، وأن بإمكانه أن يساعدها في العودة إلى الريف لمناقشة أمور مستقبلها مع جميع أقاربها إن لم يكن لديها مكان تأوي إليه.

كانت جميع الأمتعة محزومة مثل إوزات برية مكتفة، كما وضعت عليها أختام

ورقية. رأت يوكيكو أن منظرها يثير الضحك وأحست برغبة في قص كل الحبال بمقص. اعتقدت أن الرجال يمتلكون موهبة، بل هي غريزة في الغالب، التهرب من ارتباطاتهم بالآخرين، وأحست بكراهية تجاه طريقة طمعهم بالممتلكات المادية. باتت يوكيكو في منزل إيبا لليلة واحدة هذه المرة، ثم استعانت بوكالة شحن قريبة لتنقل حزمة فراش إيبا إلى فندق هوتي في إيكيبوكورو. لم يعترض سكان المنزل على هذا الأمر بالتحديد، فعلاقتهم بإيبا لم تكن طيبة، بل نظروا إليها بصمت. كانت وجوههم جامدة متحجرة، وبدت تعابيرهم في الحقيقة وكأنها تقول لها «افعلي ما تشائين».

عندما فتحت يوكيكو حزمة الفراش في الفندق في إيكيبوكورو، وقع منها كيمونو إيبا المبطن ومعطف إنفيرنس[1] بالٍ قليلاً وحقيبة تحتوي نحو عشرة كيلوجرامات من حبوب البازلاء وفرشتان وبطانية صوفية ولحاف مصنوع من حرير ميسين[2]. شعرت يوكيكو بالجرأة والمغامرة، وباعت في الحال المعطف والبازلاء في السوق خارج المحطة. شعرت بمتعة في سرقة الأشياء ورأت أن اختفاء هذه الأشياء القليلة من أمتعة إيبا لا يشكل فرقاً كبيراً. ولما فكرت بالطريقة التي عبث معها إيبا على مدى ثلاث سنوات في الماضي، انتابتها نوبة عارمة من الغضب، واعتقدت أنها لن تكون مخطئة حتى ولو سرقت كل أشيائه.

وفي اليوم الثاني، وبفضل مساعدة صاحب الفندق، تمكنت يوكيكو من استئجار سقيفة تخزين قديمة تعود ملكيتها لتاجر أدوات منزلية من الجوار كان قد بنى مخزناً بديلاً عنها بالقرب من منزله. بلغت مساحة السقيفة حوالي ثلاثين متراً مربعاً، ووضعت فيها رزمة من أطباق القصدير الجديدة. لم يكن في المكان سوى نافذة واحدة في السقف، كما لم يتوافر فيه الماء والكهرباء. لكن تاجر الأدوات المنزلية قد تكرم ووضع على الأرضية حصيرتين قديمتين من التاتامي، أي ما يكفي لنوم امرأة بمفردها. انتابت يوكيكو رغبة مفاجئة في لقاء توميوكا من

(1) معطف إنفيرنس (Inverness cloak) نوع من المعاطف الكلاسيكية دون أكمام.

(2) نوع من أنواع الحرير الياباني.

جديد. باعت إحدى الفرشتين لنزل هوتي، واستخدمت ثمنها لشراء آنية وقدور وموقد فخاري محمول للطهي، كما تمكنت لأول مرة من شراء كيلوجرامين من الأرز وكمية صغيرة من الفحم من السوق السوداء، فطهت الأرز على البخار في قدر الألمنيوم الذي انبعثت منه رائحة المعدن، ووضعت الجمرات المتبقية في السخان من أجل الطاولة الموضوعة فوق الكوتاتسو(1). تناولت يوكيكو الأرز المطبوخ الحار بعد أن كسرت فوقه بيضة نيئة، وتذوقت متعة أن يطهو المرء لنفسه. أكلت حتى ملأت معدتها من الأرز الأبيض اللامع، ثم جلست لفترة لا تفعل شيئاً بالقرب من الكوتاتسو، وبدأ يتسرب إليها شعور بالعزلة لا يمكنها مواجهته بالطعام فقط. نظرت إلى الجدار المصنوع من ألواح الخشب المقصوصة عشوائياً وهي تعد خطوط الخياطة في اللحاف. كان لهب الشمعة يتراقص ويكاد ينطفئ أحياناً، بسبب التيار الهوائي المار عبر الفراغات الفاصلة بين الألواح. شعرت يوكيكو بالبؤس والكآبة وتساءلت إلى متى ستستطيع تحمل هذا النوع من العزلة. كان دلو الماء الذي ملأته من قبل بارداً في زاوية. أحست يوكيكو بقليل من السعادة لإدراكها أنه من الممكن للمرء أن يعيش بتقشف كهذا، لكنها سعادة مهزوزة لأنها لا تعرف ما ستفعله في الغد.

في صباح اليوم التالي كان الجو ممطراً. استيقظت يوكيكو وذهبت لإرسال رسالة إلى توميوكا والاغتسال في الحمام العمومي. في طريق عودتها توقفت عند المحطة، واشترت صحيفة، وبحثت فيها عن قسم «وظائف شاغرة»، لكن كل الإعلانات كانت تطلب موظفي طباعة. تشوقت يوكيكو لتبدأ بالعمل في مكان ما غداً، لكنها بالمقابل لم تكن لديها الطاقة حتى لتصفح الإعلانات، وقضت اليوم كاملاً نائمة في السقيفة المظلمة. وهكذا أمضت أربعة أو خمسة أيام على هذا النحو، ولم يأت توميوكا. أدركت أنه ربما يكون قد عاد من ناغانو، ولكنها تساءلت إذا كانت الرسالة قد وصلته.

(1) الكوتاتسو هو وسيلة تدفئة يابانية تقليدية يتكون من منضدة منخفضة يوضع أسفلها موقد خفي وتغطى بلحاف، وللاستمتاع بالدفء يجلس اليابانيون على وسادة مسطحة ومربعة الشكل ويمدون أقدامهم تحت اللحاف.

قررت يوكيكو أن تذهب إلى شينجوكو وتتمشى في أرجائها قليلاً. كان الوقت مساء، وجميع الأكشاك على قارعة الطريق قد أقفلت، وهكذا بدت المنطقة مهجورة تصفر في أرجائها الرياح الباردة. حاولت يوكيكو أن تمشي بسرعة كما لو أنها تقوم بمهمة سريعة، وأخذت في الوقت ذاته تفكر بما ستفعله من الآن فصاعداً. لم تكن راغبة في العودة إلى شيزوكا، لكن عليها الآن محاولة تدبر احتياجاتها الخاصة لفترة من الزمن بعد أن استطاعت الحصول على مكان تعيش فيه. مشت لمسافة بعيدة حتى وصلت إلى متجر إيستان للبضائع المتنوعة، وهناك نادى عليها رجل غريب طويل القامة وسألها عن وجهتها، فتوقفت للحظة وابتسمت له بعفوية. بدأ الرجل يمشي بمحاذاتها.. وأبدت يوكيكو جرأة ورغبة في المغامرة.. كان الغريب يتحدث بسرعة وأخذت هي تقترب منه بصمت وفي أعماقها شعور بأن قدرها يقودها نحو هدف ما. بدأ الغريب يميل على يوكيكو بين الحين والآخر ويلامس وجهها قبل أن يتابع سيل أحاديثه. وتمكنت يوكيكو من الرد عليه بجملة هنا وأخرى هناك، وتذكرت الفترة التي تمكنت فيها من التواصل مع أبناء أنام باستخدام مزيج من اللغتين الفرنسية والإنجليزية. بادرت يوكيكو بالحديث وقالت: «أنت تسير دون أن يكون لك مكان تقصده».

«هذا صحيح. كنت أمشي وحدي دون أي مكان أذهب إليه».

بعد قليل شبكت ذراعها بذراع الغريب، ورفعت صوتها عالياً وأطلقت ضحكة كما لو كانت سكرانة على الرغم من عدم وجود ما يثير الضحك، ثم دخلا معاً إلى محطة شينجوكو بذراعين متشابكتين، واستقلا قطاراً غير عادي مخصصاً للأجانب.. انبهرت يوكيكو بالمكان، وشعرت بالخجل من نفسها، وواصلت تأبطها بذراع الرجل.

أخذت يوكيكو الغريب إلى سقيفتها البائسة، وكان طويلاً جداً لدرجة أن رأسه كاد يلامس سقفها. أدخل الرجل ساقيه الطويلتين بسرعة تحت غطاء الكوتاتسو الذي لم يكن فيه نار، وأخذ يحدق باستغراب في المكان من حوله، في حين انهمكت هي بإشعال النار في موقد الفخار المحمول مستنيرة بضوء الشمعة

المتراقص الخافت. تصاعد الدخان بكثافة وملأ أجواء السقيفة. أشارت يوكيكو بيدها إلى نور السماء، وطلبت من الغريب بالإنجليزية أن يفتح النافذة، فقام الرجل وفعل ذلك بكل طاعة، فانسحبت غيمة الدخان بسرعة نحو الأعلى واختفت.

20

بعد ظهر اليوم التالي عاد الغريب ليرى يوكيكو ثانية، فدخل إلى السقيفة ذات السقف المنخفض حاملاً حقيبة بوسطن خضراء. فتح الرجل الحقيبة وأخرج منها سلسلة من الهدايا الواحدة تلو الأخرى وهو يتحدث بسرعة طوال الوقت. تضمنت الهدايا وسادة كبيرة وصندوقاً صغيراً ثقيلاً ومؤناً وحلوى. كان الصندوق الصغير مذياعاً يعمل بالبطارية، وعندما أدار الغريب قرصه انبعثت منه ألحان موسيقى راقصة. وضعت يوكيكو المذياع الصغير على أذنها وبدت عليها سعادة طفولية، فقد شعرت بأن تلك النغمات الموسيقية تحمل معها قدراً جديداً غامضاً. صحيح أنهما لا يتحدثان لغة بعضهما بعض بشكل جيد، ولكن كان لديهما إحساس مشترك بالإنسانية وراحة نفس مكنتهما من التفاهم بالحس البشري. أحست يوكيكو بأنها تمتلك من ثقة النفس ما يكفيها للانطلاق في الحياة دون أن تخشى شيئاً. وضعت رأسها فوق غطاء الوسادة النظيف وأخذت تبكي، لقد تأثرت برقة الإحساس التي تبدو على ذلك الرجل الذي أحضر لها وسادة.

حبيبتي الغالية، لقد ذبلت الزهرة الآن

لكن هذه الزهرة التي كانت في الأمس بلون اللازورد

تشرق وتتألق فتنة

أصبحت اليوم مجرد ذكرى سعيدة تعيد لي الأيام الماضية
التي قضيتها معك.

قال الغريب إن اسمه جو، وأخذ يردد الأغنية بسرعة مع المذياع، وأخبر يوكيكو أن عليها أن تتعلم كلماتها إلى حين مجيئه في المرة القادمة. كتب كلمات الأغنية على قصاصة ورق وأعطاها ليوكيكو التي أخذت تقرأ كل كلمة بتأنٍ إلى أن تعلمت لفظها جميعاً وحاولت أن تغنيها بصوت عالٍ. لقد فوجئت بروح الشهامة في ذلك الجندي الأميركي التي لا تشبه روح سكان الجزر مثل اليابانيين، وأحست فيه ميزة عرقية تجعله يتصرف بحرية أينما وجد، شيء من الإشراق والتفاؤل لم يكن موجوداً لدى توميوكا. لم تعد العزلة تعشش في قلبها، ولم يعد لديها ذاك الخوف الشديد من أشياء غامضة وغير محددة. لم يشعرا بالحاجة إلى أن يبحث كل منهما في قلب الآخر، ربما كان ذلك بسبب مقدرتهما على التصرف بحرية.

في تلك الأمسية، وبعد أن غادر جو، ذهبت يوكيكو إلى الحمام العمومي ومعها قطعة صابون من نوع بالموليف، وهو نوع اشترته من قبل في سايغون، كان جو قد أحضرها لها. تولدت لديها ثقة جديدة بالنفس، وشعرت بأن بإمكانها الاستمتاع بحياتها بهذه الطريقة أكثر من حياتها مع رجل يغمر مشاعرها بحالة من الفوضى. لكنها لم تكن متأكدة من أنه بإمكانها الوثوق حتى بأبسط إحساس بالسعادة.

في إحدى الأمسيات، وبعد أكثر من عشرة أيام على انتقالها إلى السقيفة، جاء توميوكا لزيارتها. ذهبت يوكيكو مباشرة نحو الباب وفتحته معتقدة أنه جو، فاندهشت لرؤية توميوكا واقفاً هناك. وكذلك فوجئ توميوكا بالتغيير الذي طرأ على يوكيكو إذ كانت قد رفعت شعرها المتألق بلمعان الزيت بتسريحة جميلة إلى الأعلى، كما شذبت حواجبها، ووضعت كحلا أسفل عينيها، ووضعت قرطين من الماس الاصطناعي في أذنيها وانتعلت صندلاً في قدميها.

«انتقلت إلى مكان ممتع».

«حسناً، قد لا يبدو جيداً كثيراً، لكنني أراه قصراً منيفاً».

كانت يوكيكو قد غطت الجدران بورق أبيض، وعلقت مزهرية على مسمار ووضعت فيها باقة من الأقحوان. أضاءت على طاولة شاي صغيرة شمعة لمعت تحت نورها علبة شوكولا زاهية الألوان ملفوفة بورق فضي، وكان المذياع الصغير يعمل. تلفت توميوكا في المكان من حوله قبل أن يجلس، ولاحظ التغيير الذي طرأ على ظروف يوكيكو خلال الأيام القليلة الماضية.

«يبدو المكان هنا أنيقاً».

«أوه، أهكذا تراه؟»

كانت تنبعث من المذياع نغمات موسيقى راقصة. وقفت يوكيكو تنظر إلى توميوكا مثل طفل اكتشف وهو يسيء التصرف، ثم زجت بساقيها تحت لحاف الكوتاتسو.

«متى عدت من ناغانو؟»

«قبل يومين».

«هل وصلتك رسالتي».

«وهذا ما جاء بي إلى هنا».

«ما رأيك في أن تدخل تحت اللحاف».

دفع توميوكا قبعته عن رأسه، وجلس وأدخل ساقيه تحت اللحاف، وثبت ناظريه على الوسادة البيضاء الكبيرة التي وضعت بشكل غير مناسب في المكان الذي يجلس فيه جو دوماً.

«تبدين سعيدة».

«حقاً؟ كل ما أعرفه أنني لم أمت جوعاً بعد».

صمت توميوكا واكتفى بالنظر إلى وجه يوكيكو تحت ضوء الشمعة، كانت ملامحها تشبه ملامح نيو. استطاع أن يلمس في وجهها تلك القوة الداخلية التي تمتلكها كل النساء.. كانت ثابتة مثل جذور شجرة. اعتاد توميوكا على نمط حياة يوكيكو الجديد، وانتابه مزيج من مشاعر الحسد والغيرة وهو يحدق بها، فقد

بدت غير متأثرة بأي أحد. واشتعل في قلبه شوق متجدد لها، ولم يعد ينظر إليها على أنها عائق في طريق حياته، ثم قال لها بعفوية: «أنا أحسدك».

«ماذا تقول؟ ما الذي يثير حسدك في هذا النمط من الحياة؟»

«لا، آسف إذا كنت قد أهنتك. هذا هو شعوري فقط. عندما تتعسر أمور المرء يصبح من السهل عليه أن يحسد الآخرين».

«أنت تهزأ مني. كل الرجال مثلك. الرجال اليابانيون أنانيون دوماً ويفكرون في راحتهم فقط».

التقط توميوكا صندوق المذياع الصغير، وأخذ يدير قرص الموجات لمرات ومرات. أما يوكيكو فقد خرجت وقررت أن تطلب من جو البقاء بعيداً إذا جاء لزيارتها الليلة. وقفت خارج المحطة لفترة من الزمن.. مرت ثلاثون دقيقة ولم يأت جو.. ذهبت لشراء زجاجة جعة مملوءة بالساكي، وعادت لتجد توميوكا مغموراً بلحاف الكوتاتسو يسيطر عليه النعاس وهو مطأطئ الرأس. كان شكله من الخلف نحيلاً يفتقر لتلك القوة الذكورية التي كانت تميزه عندما كان في دالات.

«أحضرت بعض الساكي، هل تريد احتساء قسط منه؟»

«هل تقدمين لي واجب الضيافة؟»

بدلت يوكيكو الشمعة بأخرى أحضرتها معها، وملأت كأسين حتى الشفة، ووضعت شفتيها على كأسها.

«كيف يسير عملك؟»

«لا يسير بالطريقة التي أريدها. سأبيع المنزل وأخاطر بكل شيء».

«كيف حال عائلتك؟»

«انتقلوا جميعاً إلى أوراوا حيث تمتلك عمتي منزلاً هناك. سأخوض التجربة بنفسي. لا أستطيع أن أستمر أكثر بالاعتماد على أموال الآخرين».

«يبدو الأمر صعباً».

«أنت رسمية جداً الليلة. يعجبني هدوؤك وحرصك على القيام بكل شيء

بلباقة».

«أصبحت ساخراً».

قررت يوكيكو ألا تكترث سواء عاد جو الليلة أم لا. وشعرت بأن سكنها في هذا المكان الذي يشبه الكوخ هو واقع حياتها، وهي لا تعرف ماذا سيحدث غداً. نظرت عن كثب إلى وجه توميوكا الذي فاحت منه رائحة غبار قديم تثير في النفس الحزن، وبدأت تدرك، للتو فقط، أن الظروف تغير الناس. شعرت وكأنها اكتشفت كبرياء جديدة في داخلها، ووجدت نفسها لأول مرة تنظر بدونية إلى توميوكا.

تمكن توميوكا من جمع القليل من المال. بحث في جيبه وأخرج منه ظرف نقود ووضعه بانزعاج على غطاء الكوتاتسو وقال: «إنه مبلغ صغير، لكنني ظننت أنك بحاجة إليه».

نظرت يوكيكو إلى الظرف البني دون اكتراث.

«بعد عودتي إلى اليابان احتجت إلى بعض الوقت حتى بدأت تدريجياً أفهم الكثير من الأمور. فأنا أدرك الآن أن اليابان قد خسرت الحرب حقاً، وإنني لهذا السبب لا أكن لك أي ضغينة يا توميوكا».

أضافت يوكيكو بعض الفحم إلى موقد الفخار وأخذت تشوي بعض الحبار، وبعد أن نضجت وضعتها في طبق وقطعتها إلى قطع صغيرة. شعرت أن عبق رائحة شيّ الطعام البحري قد أضفى شيئاً من الفرح على أجواء الغرفة. حتى تلك الرائحة بدت وكأنها تقول «أنا أعيش حياتي بشكل جيد ماذا عنك؟»

اهتزت ارضية السقيفة في أثناء مرور قطار بالقرب من المنزل، فنهضت يوكيكو لإقفال الباب.

سأل توميوكا: «ماذا لو كنا بقينا في دالات وعشنا حياتنا هناك؟»

«على كل حال أعتقد أنه من الجيد أننا عدنا. حتى وإن بقينا في دالات لن نكون سعداء هناك. لا أعتقد أننا كنا سنحتمل أن نعيش هناك دون مال تثقلنا هزيمة وطننا. أما هنا فإننا نعاني كالآخرين».

ربما كان الأمر كذلك. لكن عندما تأملت يوكيكو بكلماتها شعرت بأنها لم تكن صادقة تماماً، وقد يكون السبب في ذلك أن الناس يحاولون دوماً القول بأنهم بخير مهما آلت إليه أمورهم. فكرت بكآبة بقناع الشجاعة الذي ارتدته منذ عودتها إلى اليابان.

سحب توميوكا جهاز المذياع صوبه، وأخذ يعبث بقرص الموجات ويحركه نحو برنامج آخر. كانت الأنباء متشائمة، فأطفأ المذياع كما لو أنه لم يعد قادراً على الإصغاء إليه، ثم قال فجأة: «يبدو أن كانو قد عاد».

«حقاً، متى؟»

«مؤخراً. قابلت صديقاً من مكتب غابات توتوري وهو الذي أخبرني بذلك».

«أوه، حقاً؟ هل هو بخير؟»

«أتودين رؤيته؟»

«نعم، أود ذلك. على الأقل كانو رجل طيب وشريف».

«أنت محقة».

عندما علمت بعودة كانو، أدركت يوكيكو بأنه الطرف الثالث الذي لا مفر منه في علاقتها مع توميوكا. وفي الحال سمع طرقٌ على الباب، نهضت بسرعة على قدميها، ففتحت الباب وخرجت. كان جو يقف هناك. حاولت يوكيكو إبعاده بإخباره بأن لديها بعض الأقارب الذين جاءوا من الريف اليوم، ورجته أن يعود غداً، ورافقته إلى مسافة بعيدة حتى وصل إلى المحطة.

شعر توميوكا بالاضطهاد وهو يسمع أصوات الكلمات الإنجليزية التي كانا يتحدثان بها عند الباب، وأراد أن يعرف كيف تعرفت يوكيكو إلى رجل غريب. بدأ يشعر وهو ينظر إلى الوسادة البيضاء الكبيرة بأن لديه القوة للانفصال عنها. عادت يوكيكو بعد نحو ساعة، فسألها توميوكا:

«لقد كنت عائقاً، أليس كذلك؟»

«لا بأس، أرسلته إلى حيث جاء».

«كيف تعرفت عليه؟»

«هذا ليس بالأمر المهم، أليس كذلك؟ إنه رجل وحيد أيضاً. هذا يشبه شعورك تجاه نيو».

«لا تتحدثي عن هذا الأمر».

«أريد أن أكون إنسانة مختلفة من الآن فصاعداً».

«هكذا إذاً. هذا جيد. ليس لي اعتراض على ذلك».

«إنه شاب ولطيف، وهو يعلمني الأغاني أيضاً».

«أفهم ذلك».

«كما أنه إنسان طيب وسيعود إلى وطنه بعد نحو شهرين».

«وهكذا ستبحثين بعدها عن رجل آخر».

«حسناً، من المزعج أن تقول هذا. لقد التقيته فيما كنت عند مفترق طرق، بين الحياة والموت. هذا هو ظنك المحتمل بالمرأة، أليس كذلك؟»

انطفأت الشمعة، لكن نور السماء ظل مضيئاً. أشعلت يوكيكو عود ثقاب وتناولت الشمعة.

«هل كنت تحاول القول إن الوقت مناسب الآن للانسحاب؟»

بدأ الغضب ينتاب يوكيكو. شرب توميوكا ما تبقى من الساكي، وخلع قبعته، ووضعها على التاتامي. لم يكن يشعر برغبة في العودة إلى المنزل، فقد منحه ثمله شعوراً مؤقتاً بالشجاعة، وتنامت داخله القوة على التخلص من التقاليد.

«أيمكنني البقاء الليلة؟»

«ألم تأت بنية البقاء؟»

«بلى».

«أنت تكذب، فجأة أردت البقاء، صحيح؟ أنا أفهم ذلك، تعلم أن ذكائي قد تحسن قليلاً».

«إذا كنت لا ترغبين في بقائي، فلا بأس بذلك. لن أبقى. أصبحتِ متعكرة جداً ولا أستطيع التعامل معك».

بدأت يوكيكو تعبث بقرص موجات المذياع، فقال توميوكا بإصرار: «غيري الموجة إلى برنامج أجنبي. أليس هناك أي موسيقى راقصة؟ البرامج اليابانية تثير الكآبة في نفسي. لا ينبغي لنا الاستماع إليها، أليس كذلك؟ اطفئي المذياع».

كان المذياع يبث محاكمات جرائم الحرب. وضعت يوكيكو المذياع عن خبث فوق الكوتاتسو، ففقد توميوكا السيطرة على أعصابه وأطفأه ووضعه بخشونة فوق ألواح الأرضية.

«ماذا تفعل؟»

«لا أريد الاستماع إليه».

«لكن عليك أن تستمع إليه، فالأمر يعنينا جميعاً. إنهم يتحدثون عنا. مشكلتك أنك لا تريد التفكير بأمور كهذه».

وضعت يوكيكو شفتيها على كأسها وحدقت بتوميوكا. فالبحار الهائجة التي أبحروا بها في خلال الحرب قد هدأت الآن وتحولت إلى سطح راكد خال من أي موجات. خلع توميوكا جواربه كريهة الرائحة، وتمدد وهو يرتدي معطفه، وأراح رأسه على ذراعه متجاهلاً وجود الوسادة البيضاء الكبيرة المنتفخة.

قالت يوكيكو: «على كل، لن نستمر بالاعتماد على جهودك لفترة طويلة، أليس كذلك؟ إذا كنا لا نستطيع العيش معاً، علي أن أكسب عيشي بنفسي. آمل أن تستطيع أنت أن تتكيف مع هذا الأمر».

«لن أقف في طريقك، لكن لا بأس إن جئت لزيارتك بين الحين والآخر، أليس كذلك؟»

«لا، حتى أنك كنت عثرة في طريقي الليلة».

«في طريق عملك؟»

«إذاً هذا ما شعرت به حيال الأمر؟ أنت تريد دوماً أن تكون الفتى الطيب، فتقف جانباً تبتسم لنقاط ضعف الآخرين، أليس كذلك؟ لقد وقعنا أنا وكانو في شركك هذا».

«هل تقولين إنني خدعتك؟»

لم تحب يوكيكو، وأدركت أن مشاعرهما لم تكن متكافئة، وأنها كانت الطرف الذي أحب بعمق أكثر، فقالت: «كنت أحبك، تلك كانت المشكلة، أليس كذلك؟ أنا مزعجة».

بصقت يوكيكو قطعة حبار كانت تمضغها ووضعتها في موقد الفخار فاحترقت ودخنت وسط ألسنة اللهب الأزرق.

غادر توميوكا إلى منزله في وقت متأخر من ذلك المساء، فيما حبست يوكيكو أنفاسها وهي تنصت لأصوات خطاه تتجه بعيداً، ثم دفعت الباب ففتحته وخرجت. كانت السماء تتألق بالنجوم الساطعة والصقيع يلمع على الطريق. مرت يوكيكو خلف السوق المظلمة، وركضت نحو المحطة.. لكن توميوكا توارى عن الأنظار. ثم عادت أدراجها إلى السقيفة، وهناك في تلك الغرفة المهجورة كانت الشمعة الثالثة قد احترقت وأصبحت عقباً يشتعل وينطفئ. شعرت بالأسف على كل ما قالته، فهي لم تقصد أن تلوم توميوكا وحده. لكن كلماتها أزعجته أكثر فأكثر، فارتدى جواربه ونهض. نظرت إليه يوكيكو مندهشة وأرادته أن يبقى ليشاركها شعورها بالوحدة. لكن كلماتها لم تستطع أن تعيده.

اطفأت يوكيكو الشمعة، وجلست عند الكوتاتسو وسحبت اللحاف عليها، ولفت ذراعيها حول جسمها وأخذت تبكي.

21

عاد توميوكا إلى المنزل لكنه لم يستطع أن يبعد فراقه الممقوت عن يوكيكو عن ذهنه. وكان من الواضح أن كونيكو ظلت مستيقظة لوقت متأخر تحزم الأمتعة. كان عليه بيع المنزل الذي عاشوا فيه لفترة طويلة، ألا ليته احترق وتدمر، فذاك كان أفضل، واعتقد توميوكا أن ذلك كان سيوفر له فرصة للهروب بشرف.

كل ما كان يألفه في محيطه قد بدأ يزول. كانت العائلة الكبيرة عبئاً خانقاً ثقيل الوطأة بالنسبة إلى رجل مثله يعيش حياته كل يوم بيوم. كما شعر بالحسد تجاه الطريقة التي تعيش بها يوكيكو، على الرغم من أنها بدت حزينة بعض الشيء. تجسدت نقطة ضعفه في عدم قدرته على الوقوف بجانب تلك المرأة وتأمين المأوى لها. رأى أنه لا بد له من لقائها مرة أخرى قريباً كي ينهي علاقته بها بشكل رسمي أكثر. فالالتقاء خلسة بهذه الطريقة لن يفضي إلى أية نتيجة. وأحس بأنه لمس، ولأول مرة منذ عودته إلى اليابان، جوانب المكر في نفس المرأة. لكنه لم ينكر أن عواطفه قد تغيرت، فالنفس البشرية يمكن أن تتغير كلياً بفعل تأثرها بالبيئة المحيطة. ظن توميوكا أنه من الجيد أن ينفصلا على هذا النحو، لكنه فكر في أن الوقت لم يفت بعد ليلتقي بها ويتحدث معها لمرة أخرى.

عند اقتراب الفجر، حلمت يوكيكو بأنها تجلس مع كانو في شرفة السكن

الرسمي في دالات ويعانق كل منهما الآخر. وبعد أن استيقظت، عادت إليها ذكريات ذاك اليوم الذي توجهوا فيه جميعاً لزيارة مزرعة شاي في أروبورو بروي. كان ذلك يوم عيد رأس السنة، وكان أبناء الطبقة الراقية من الأناميين يرتدون ستراً سوداء وسراويل حريرية بيضاء وهم في طريقهم إلى الكنيسة التي تقع على منتصف سفح هضبة هونتور. وبدت قرية هونتور المحاطة بالغابات الكثيفة جميلة وخلابة.

كانت المنطقة الواقعة على ارتفاع ألف وستمائة متر عن سطح البحر مغطاة بتربة حمراء بازلتية المنشأ وتراوحت درجة الحرارة فيها ما بين خمس وعشرين وست درجات مئوية. شرح توميوكا لها ولكانو أن كل هذه العوامل تجعل من هذه المنطقة مكاناً مناسباً لزراعة الشاي، وأن الأشجار تنمو عرضياً بشكل أسرع من نموها نحو الأعلى وأن ذلك قد يكون بسبب بقاء درجات الحرارة في منطقة المرتفعات عند معدلات منخفضة. سارت يوكيكو في ممرات المزرعة الواسعة وهي ترتدي ثوباً أبيض اللون مزركشاً بشريطة وتتكئ على ذراع توميوكا، فيما كان كانو يتوقف بين الحين والآخر وينظر من حوله مبدياً انزعاجه.

«أشعر أنني لست على مايرام وأعتقد أن أنفي سينزف».

«ما المشكلة يا كانو؟»

توقف توميوكا ويوكيكو ونظرا إليه.

«ما المشكلة يا كانو؟»

«أنت فظيعة يا يوكيكو. هل أحضرتني إلى هنا لتسخري مني فقط؟»

«عمَّ تتحدث؟»

رد كانو على ذلك بابتسامة غريبة وقال: «أفضل ألا تمشي مع توميوكا متشابكي الذاراعين».

ارتبكت يوكيكو وسحبت ذراعها من ذراع توميوكا الذي انفجر بنوبة من الضحك العالي مما أثار استغراب الدليل الأنامي الذي بدا منزعجاً لاعتقاده أن الضحك كان بسبب خطأ ارتكبه هو في أثناء شرحه. واصل الثلاثة مسيرهم من

جديد، ولكن هذه المرة بمسافات جيدة تفصل بينهم.

«نزرع البذور السليمة بعد مرور ثمانية عشر شهراً، ونزيل الأعشاب الضارة ونضع السماد لخمس أو ست مرات سنوياً بمعدل خمس كليوجرامات من النيتروجين وأربعين كيلوجراماً من حمض الفوسفور وخمسين كيلوجراماً من البوتاسيوم للهكتار الواحد. نستخدم السماد مرة واحدة كل عامين. ونقوم بقطف الأوراق بعد عامين من الزراعة. تُحسب النفقات التشغيلية لزراعة محصول الشاي من بداية السنة السادسة أو السابعة، وبعد مرور عشر سنوات، تصل النباتات إلى قمة إنتاجيتها».

بينما كانت يوكيكو تصغي لشرح الدليل، بدأت تشعر بخوف من الروح العصامية التي تمتع بها الفرنسيون الذين أظهروا على مدى سنوات طويلة تفانياً مستمراً في زراعة الشاي. أدركت يوكيكو التاريخ الطويل لحقول الشاي تلك التي تمت إدارتها بعناية لسنوات عديدة، فشعرت بالخجل من الوسائل المستبدة التي اتبعها اليابانيون للاستيلاء في خلال فترة قصيرة من الوقت على كل شيء، حتى هذه الحقول. تلاشت حساسيتها تجاه تصرف كانو وإذا ما كان عليه أن يطلب منها ألا تمشي وذراعها بذراع توميوكا. لم يبد ليوكيكو أن اليابان ستكون قادرة على البقاء في الهند الصينية لمدة طويلة، بل شعرت في الحقيقة أن القصاص قادم بطريقة أو بأخرى.

قال توميوكا: «على الرغم من أن جنود الجيش الإمبراطوري قد شقوا طريقهم إلى هنا، إلا أن اليابان لن تستطيع يوماً ما تولي أمور مزارع الشاي والكينا الشاسعة هذه. فأقصى ما يمكننا فعله هو أن نسرقها وندمرها ثم نهجرها».

لم يجب كانو، ولكنه ببساطة أزال الشارة العاجية عن صدر الدليل الأنامي وثبتها على صدره. لم تكن يوكيكو متأكدة مما يمكن استخلاصه من ذلك المشهد. كانت تلك الليلة التي طعنها فيها كانو وهو ثمل في ذراعها. لقد أصبح ذلك اليوم أيضاً جزءاً من الماضي، فقد دُحر اليابانيون إلى بلادهم بعد أن صالوا وجالوا في أرجاء ذلك البلد الجميل. اعتقدت يوكيكو أن ذلك كان في صالحهم، ففتحت

عينيها ونظرت عبر النافذة إلى السماء الغائمة المعتمة.

كانت يوكيكو تعبث بقرص موجات الراديو عندما سمعت قرعاً على الباب. لم تكن تتوقع أن يأتي أحد لزيارتها في الصباح الباكر. لذا اعتقدت أنه من الممكن أن يكون أحد ما من نزل هوتي. فوقفت وفتحت الباب واندهشت لرؤية إيبا وقد بدت على وجهه تعابير الغضب. لقد أرشدته خادمة من النزل، ولكنها كانت في منتصف الزقاق في طريق عودتها.

«توقعت أن يحدث هذا».

خلع إيبا حذاءه وخطا بسرعة إلى داخل السقيفة، فيما لم تستطع يوكيكو التفكير في أي شيء تقوله.

«من المحتمل أنك لم تتوقعي أن أتعقبك على هذا النحو، أليس كذلك؟ لقد تغيرت بالتأكيد».

«لا تتكلم بصوت مرتفع».

«لا تخبريني كيف أتكلم».

«لماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة؟»

«ألا يتطلب الأمر أن أكون غاضباً؟ اكتشفت عنوان وكالة الشحن. ألا يفترض بي أن أغضب عندما تسرقينني وتبيعين ممتلكاتي إلى فندق؟ سمعت أنك أصبحت مومساً هذه الأيام».

شعرت يوكيكو بأن شفتيها قد أصيبتا بالشلل بسبب الغضب، فقد أثار موقف إيبا العدائي اشمئزازها.

«لم يكن بيدي حيلة. علي أن أعيش. على كل حال ما الذي يشكله فراش بالنسبة لك؟»

«تعنين أنه إن لم يكن لديك فراش، فلن تتمكني من جني أي مال؟»

«حسناً، ماذا توقعت مني أن أفعل؟ اخفض صوتك. حتى لو كان لدي فراش لك، هل هذا سيئ جداً؟ ماذا عن الطريقة التي عاملتني بها كلعبة لهوت بها على مدى ثلاث سنوات؟ إذا كنت تريد الفراش خذه».

«إنه متسخ، لكنني سآخذه لأنظفه وأستخدمه. إنه قطعة ثمينة».

أخرج إيبا علبة سجائر، ووضع سيجارة بين شفتيه، ونظر حوله بحثاً عن عود ثقاب، وابتسم بسخرية عندما شاهد المذياع والوسادة الكبيرة. عندما رأت يوكيكو تعابيره المتعجرفة شعرت بأن هناك شيئاً ما يغلي في صدرها. بمقدوره التفكير كيفما شاء، لكنها لا ترغب في بقائه جالساً هنا لدقيقة واحدة. قال إيبا بلامبالاة: «يبدو أن عملك يسير بشكل جيد، فلديك بعض الأشياء الجميلة. كيف تسير أمور العمل؟ لقد اخترت خط عمل مناسباً هنا، أليس كذلك؟ يمكنني إعارتك فراشي في الوقت الحالي مقابل إعطائي حصة».

ظلت يوكيكو صامتة وتساءلت لماذا يتحول جميع الرجال من حولها إلى الفظاظة والإفلاس؟

«وهكذا لا بد أن لديك بعض العلاقات من هذا العمل. ألا تحصلين منه على سجائر وملابس، أو أي شيء آخر؟»

«ما الذي تقوله؟ أرجوك أن تأخذ فراشك وترحل. أنا لست بحاجة إلى أي شيء».

أخذت يوكيكو تبكي غير مبالية برأي إيبا. كان مجرد رؤية وجهه في غرفتها مريعاً بالنسبة لها سحب إيبا المذياع نحوه وأدار قرص التشغيل فملأت موسيقى السميسن[1] أجواء الغرفة.

«أوه؟ إنه يعمل على البطارية؟ مناسب جداً».

أزال إيبا الغطاء الخلفي للمذياع، وكان هناك الكثير من الصمامات المفرغة المرتبة في صف واحد مثل دمى. نظرت إليها يوكيكو وهي واقفة، ثم انخفضت ورفعت غطاء الطاولة وسحبت الفراش الذي كانت تستخدمه كغطاء وطوته بسرعة ورمته إلى إيبا.

«حسناً، ليس عليك أن تسلميه الآن».

شعرت يوكيكو بالوحدة وهي تستمع لصوت موسيقى السميسن، وأحست

(1) آلة موسيقية يابانية ثلاثية الأوتار.

وكأن ذلك المذياع قد جلب لها اللعنة منذ اليوم السابق. تحدث إيبا فيما كان يعيد غطاء المذياع وقال: «بالمناسبة، اشتريت نحو ستين أو سبعين رطلاً من البطاطا الحلوة المجففة، هل تعرفين مكاناً ما يمكنني بيعها فيه؟»

لم تجب يوكيكو عن ذاك السؤال، فمن أين لها أن تعرف مكاناً لبيع البطاطا الحلوة المجففة؟

«لا بد أن هذا المذياع باهظ الثمن؟»

«إنه ليس لي».

«أتساءل إذا كان بمقدورنا صناعة شيء كهذا في اليابان والحصول على براءة اختراع له. أعتقد أننا سنتمكن من جني بعض المال من هذا الأمر».

حمل إيبا المذياع ورفعه إلى أذنه وأخذ يستمع لألحان السميسن.

22

أراد توميوكا أن يقابل يوكيكو لمرة واحدة فقط، لذا فقد أرسل لها رسالة بالبريد الخاص. لم يشأ أن يلقاها في مسكنها، إذ ليس لديه رغبة في الجلوس هناك ثانية وهو يشعر بالخوف. لذا طلب منها أن تلاقيه عند محطة يوتسويا ميتسوكي للسكك الحديدية وأخبرها عن يوم اللقاء وتوقيته. جاء ذاك اليوم بعد مرور عيد الميلاد، وكان الطقس فيه ماطراً، غير أن الناس لم يبدوا مكترثين بالمطر، ربما بسبب انشغالهم في التحضير لعطلة رأس السنة.

انتظر توميوكا عند المحطة لمدة عشر دقائق وهو يراقب حشود الناس من مختلف الشرائح الاجتماعية يجيئون ويذهبون عبر البوابات، وبدأ ينتابه شعور باليأس دون سبب يذكر. إنه نفس الشعور الذي كان ينتابه في الهند الصينية.. إنه إحساس بعدم الارتياح لجهله ما سيفعله لاحقاً. لقد أحس بذاك الإحساس يتغلغل في أعماق قلبه. أخذ يضرب مقدمة حذائه بعصبية على حافة الرصيف وهو ينظر إلى الشارع المنحدر. كان هناك شخص غريب مبلل يتمايل بمشيته على الرصيف، بدا وكأنه كان يتجول باحثاً عن أحد ما. نظر إلى ساعته وظن أن يوكيكو لن تأتي، فقرر أن ينتظر لفترة قصيرة فقط. حاول أن يصفر لكلب كان يتسكع هناك، فتحرك الكلب بسرعة نحو مصدر الصفرة وحدق بتوميوكا، ثم

أبدى نظرة حزن وكأنه يقول «إنه ليس الشخص الصحيح»، ثم جرى مسرعاً نحو بعض الشجيرات على جانب الطريق.

«هل انتظرت طويلاً؟»

وقفت يوكيكو بجانبه واصطدمت بكتفه عندما كان يقف تحت حواف سقف المحطة.

«تأخرت لنصف ساعة، لذا اعتقدت أنني لن أجدك هنا، وفكرت في العودة».

نظرت يوكيكو إلى توميوكا بحيوية وهي تلف رأسها بوشاح أحمر ربطته بإحكام تحت ذقنها. شعر توميوكا أنه لمن الفظاظة والغرابة أن تفكر يوكيكو بالعودة إلى المنزل بكل بساطة لأنها هي التي تأخرت، وأحس بأنها تتلاعب به وفكر بأن الوقت قد حان لينفصل عنها.

بدأ توميوكا بالسير وتبعته يوكيكو فداست في بركة ماء. كان يسير أمامها مسرعاً، لكنه ظل طوال الوقت يتخيل شكل وجهها وهي تشق طريقها عبر البركة خلفه. فكر بأنها قد تكون رفيقاً مناسباً يؤنس وحدته، وبالمقابل أحس بشعور الذنب يلازمه لمجرد أنه يسير معها.

لكن توميوكا لم يكن متأكداً بأنه قادر على مواصلة تحمل هذه الحقيقة. حتى نفسيته التي كانت مصدر راحته قد أصبحت مفعمة باليأس والفراغ، حيث فقد الثقة بالنفس ليواصل الحياة. خطر له أن يقدما هما الاثنان على الانتحار معاً، وتذكر حادثة فر فيها شاب ياباني مع امرأة أجنبية ثم شربا سماً في محطة قطار في إحدى الضواحي عندما أدركا أنهما ملاحقان. تشير تلك الحادثة إلى حالة العزلة والانفصال لدى الكائنات البشرية التي تعيش مثل العديد من الغيوم التائهة.

وبما أنه ليس لهما وجهة يقصدانها، تجول الاثنان لمسافة طويلة إلى أن وصلا إلى محطة قطار البلدية.

«الجو بارد جداً، هل لنا بالذهاب لاحتساء الشاي في مكان ما؟»

«نعم».

«تبدين غير سعيدة؟»

«غير سعيدة؟»

«نعم».

«ذلك فقط لأنك تقول أشياء مزعجة».

«نعم أنت محقة. لكننا بعد ذلك سنتجاوز بالطبع كل تلك الأمور التي قلناها مرة بعد مرة عندما نصبح بمفردنا. أخشى أنني أصبحت أقل حساسية».

«هل تعتقد ذلك؟ ومع ذلك تبدو مرتاحاً وسعيداً».

«أحقاً؟ هذا مدهش، فأنا لا أشعر بأقل قدر من الراحة. أنت نفسك تغيرت كلياً، أتعلمين ذلك؟ أعتقد أنني وصلت إلى مرحلة ليس لدي أدنى فكرة ماذا ينتظرني؟»

وقف توميوكا في الشارع الممطر ونظر إلى الممر الجميل المحاط بالأشجار ضمن منطقة قصر ولي العهد السابق الذي لم يُعرف بعد ما سيؤول إليه مصيره. كان العقار بأكمله يثير في النفس الذعر، فخلف السياج الحديدي كان مبنى القصر الرمادي الشاحب محاطاً بكميات كبيرة مظلمة من الأشجار التي يحيط بها الضباب مثل الدخان. سار توميوكا مكتئباً في الطريق وكانت يوكيكو قد أصبحت بجواره.

«في الماضي كنا أنا وأنت شخصين طيبين، كنا نعيش حياتنا الطبيعية على حقيقتنا».

«نعم، ولكن من يعلم إذا كانت تلك سعادة حقيقية. هنا، انظر إلى هذا القصر، إنه يبدو أجمل الآن بعد أن فقد كل شيء. لا أحد يعرف مصيره، لكنه كان في يوم من الأيام قصراً. أما الآن فيحوم حوله شيء من سحر الآثار. إنه يحرك العواطف والأحاسيس نوعاً ما».

نظرت يوكيكو بغموض إلى الجدار الطيني للقصر الذي كانت تفوح منه رائحة التراب. لم تكن متأكدة من أن مشاعرها تسير في نفس اتجاه مشاعر توميوكا، ولكنها أحست بالتأكيد بالحزن المخيم على الأشياء. فقد ساهم المطر والبرد بشكل خاص في إضفاء مسحة من الكآبة على المشهد. وعندها مرت بهما سيارة

كوبالت باهظة الثمن وأخذ رذاذ الماء يتطاير حول إطاراتها.

أراد توميوكا أن تكون يوكيكو رفيقته في رحلة الموت بملء إرادتها ودون أن يجبرها على ذلك. تخيل أن سكان هذا البلد المنعزل قد سمروا على الصلبان. بغض النظر عن ماهية الحرب، فقد كانت الهزيمة بحد ذاتها نهاية محزنة يرثى لها. كان توميوكا يحسد النساء على روح القتال البسيطة وينزعج من سلاسة تدفق مشاعرهن. نظر إلى يوكيكو التي كانت تسير بجانبه، وأخافه أنه ليس تلك المرأة وحسب، بل جميع النساء قد تمكنَّ من خوض معاناة الحرب دون أي أثر نفسي واضح.

«إلى أين نسير؟»

«هل تعبت؟».

«لا أستطيع تحمل السير في هذا المطر. سأصاب بنوبة برد».

«يمكننا الذهاب إلى أكاساكا، ومن هناك نستقل الحافلة الكهربائية إلى شيبويا».

«حسناً، إذاً ما الأمر الذي أردت التحدث به؟»

«الأمر الذي أردت التحدث به؟ أوه، لا شيء بالتحديد».

«فهمت، غيرت رأيك ثانية».

«لا، أردت فقط أن أراك».

«أنت متحدث لطيف. إذاً أردت أن تراني؟ ليست هذه أول مرة أسمع منك كلمات عاطفية».

«هل هذا ما تفكر به كل النساء، الكلمات العاطفية؟»

«يمكنني قول هذا».

لم يستطع توميوكا تحمل الطريقة التي سار بها النقاش. فجميع لقاءاتهما، مهما تكررت، لا تسفر عن نتيجة. ولكنه مع ذلك استغرب تلك الرغبة الأنانية الضحلة في جذب يوكيكو التي لم تكن تعرف شيئاً عن غروره ورغبته في أن يجعلها رفيقته في رحلته إلى الموت، وبدأ يرى في نفسه شخصية مخادعة.

23

في شيبويا ذهب توميوكا ويوكيكو إلى مطعم صيني يقع تحت العوارض الخشبية لجسر محطة القطار. جلسا قبالة بعضهما بعض بجانب موقد فحم من الآجر، وأخذت ألسنة اللهب الزرقاء تنفث هبات من الهواء عبر فتحة التهوية. لم يكن في المطعم من زبائن سواهما، في حين وقفت في إحدى زواياه ثلاث نادلات يرتدين معاطف بيضاء رثة ليس لديهن ما يفعلنه. وضعت يوكيكو يدها فوق الموقد ومدت وشاحها فوق شبك من الأسلاك ليجف. ثم جاءت إحدى النادلات لتسجيل طلبهما، وطلب توميوكا تشاو مين[1]، وأضاف: «نريد زجاجة ساكي أيضاً». أخرجت يوكيكو وهي عابسة علبة من سجائر ويسترن من حقيبة يدها الخضراء البلاستيكية وقدمت له واحدة. أخذ توميوكا سحبة طويلة من سيجارته بتلذذ واضح، ولكنه شعر بالإنهاك من المشي تحت المطر. لقد طلب منها أن تقابله، وها هو الآن يجلس غير قادر على التفكير بشيء محدد يتحدث عنه.

«متى ستنتقل؟»

«لقد غادرت عائلتي، وسأحتفل بعيد رأس السنة في منزل خاوٍ».

«أوه؟ ستحتفل بمفردك؟»

---

(1) نوع من الأطباق الصينية يتكون من النودلز وصلصة الصويا والخضار.

«حسناً، ربما تبقى زوجتي معي».

«آه، مثل زير نساء».

لقد ظهرت على يوكيكو خيبة الأمل. ثم حضر الساكي، وعندها قال توميوكا:

«أعرف مكان كانو. هل تودين رؤيته؟»

«أوه، أتعرف عنوانه؟»

أخرج توميوكا دفتر ملاحظات صغيراً، وفتش في صفحاته، ثم كتب عنوان كانو بقلم رصاص خلف بطاقة العمل الخاصة به وأعطاها ليوكيكو.

«أهو في أوداوا؟»

«نعم، سمعت أنه يقيم مع والدته. من الواضح أنه لايزال عازباً».

اتقدت عينا يوكيكو رداً على ملاحظة توميوكا اللامبالية، واشتعل في قلبها حنين وشوق لرؤية كانو الذي كان متيماً بحبها عندما كانا في الهند الصينية. شربت كأسين أو ثلاثاً من الساكي، فالساكي يثير الدفء في الجسم. قال توميوكا: «إذاً لم يبق سوى ثلاثة أيام».

«على ماذا؟»

«على عيد رأس السنة».

«أوه، صحيح، حتى أنني لم أفكر بالأمر».

«ما رأيك؟ هل نذهب الآن إلى مكان بعيد مثل إيكاهو أو نيكو».

«نعم، لم أذهب إلى إيكاهو من قبل، ولكنها تبدو مكاناً مناسباً. أود أن أغطس في فقاعات ينبوع مياه حارة لفترة. أيمكننا حقاً الذهاب إلى هناك».

«نستطيع الذهاب لليلة أو اثنتين فقط. هل تودين ذلك؟»

رأى توميوكا أنهما كانا هائمين على غير هدى على أيّة حال، لذا لن يضيرهما أن يذهبا حيث تقودهما عواطفهما الشهوانية. إنه يريد إنهاء حياته مع يوكيكو لدى وصولهما إلى الجبال هناك حيث سيكونان محاطين بأشجار الشتاء العارية.

راقب توميوكا يوكيكو وهي تتناول التشاو مين بنهم، والأقراط المطلية

بالذهب تهتز في ثقبي أذنيها الصغيرتين. وكانت قد قصت شعرها قصيراً عند رقبتها.

«أليس الجو بارداً في إيكاهو؟»

«سيكون المكان جميلاً على الرغم من البرد».

«هذا صحيح».

كانا مثل عروسين يخططان لشهر العسل. وضعت يوكيكو وتعابيرها تتهلل بهجة البطاقة التي كُتب عليها عنوان كانو في حقيبة يدها، وبعفوية أخرجت علبة التجميل ونظرت إلى صورتها في المرآة الصغيرة. تخيل توميوكا المشهد الذي سيقتلها فيه وبدت فيه غارقة بدمها مثل شخصية في فيلم صامت. ازدادت جرأته وانتعشت فسمحت له بتخيل تلك الأفكار. سأقتلها، وسأموت أنا أيضاً فوقها.. لن يلومنا أحد. طلب توميوكا زجاجة ساكي أخرى، وحدق وهو شارد الذهن بوجه يوكيكو المفلطح وهي تضع مساحيق التجميل عليه. هل هذا هو الوجه الذي يجذب الغرباء؟ لقد استغرب ذلك كثيراً، فقد بدا وجهها عادياً، فظاً، مسطحاً، عريض الفكين، دون ملامح مميزة. فقط عندما ينظر المرء إليه عن كثب، يجد فيه وجهاً ساذجاً.. الجبين والحاجبان ومحيط العينين.. كلها كانت تشبه ملامح صورة بوذا.

«أما من مشكلة إذا بقيت خارج المنزل؟»

«نعم، إنني أقفل الباب عندما أخرج. حتى لو جاء أحد، سيظن أنني في الخارج».

«هل جاء إيبا لأخذ اللحاف؟»

«أوه، هل استلمت رسالتي؟ هذا صحيح. لذا فإنني أنام الآن ببطانية».

بدت يوكيكو مبتهجة جداً، فأخذت زجاجة الساكي وسكبت بعض الشراب في كأس توميوكا. أخذ توميوكا يشرب ويتناول بين الحين والآخر بعض قطع الكراث وبراعم الخيزران التي وزعها فوق التشاو مين ليتلذذ بها. من المثير للشفقة أن يعيش الإنسان حياته يوماً بيوم. فما يقوم به الناس ليس سوى سلسلة

من فصول مسرحية هزلية. يعيش الناس حياتهم بجبن ومكر ومهزلة. والأخلاق كذلك مهزلة. ربما يستطيع الناس وهم على حافة الموت أن يستفيقوا أخيراً على بداية جديدة، وعندها، ولأول مرة، يذرفون دموعاً حقيقية.

نفذ توميوكا خطته في اصطحاب يوكيكو إلى إيكاهو، حيث وصلا هناك في وقت متأخر من الليل، واستقلا السيارة التي جاءت لاصطحابهما إلى فندق يدعى كيندايو يقع على قمة هضبة ضيقة مثل الزقاق. كانت المدينة مليئة بالهضاب النائمة، ورائحة عفونة مياه الينابيع الحارة تعبق في كل أرجائها. مشت يوكيكو وهي تحدق بعينين مندهشتين بالمنازل المنتشرة على طرفي الطريق المنحدر. كانت إيكاهو مكاناً بسيطاً لدرجة مذهلة.. إنها مكان رومانسي للغاية. وصلا في وقت متأخر من الليل، وأثار صوت الماء والرياح القادمة من الجبال القشعريرة في جسديهما. عندما دخلا غرفتهما في مؤخرة الفندق، لاحظا وجود كوتاتسو مغطى بلوح خشبي فأدخلت يوكيكو ساقيها تحت اللحاف وبدأ الدفء يسري في جسديهما بسرعة.

قالت يوكيكو بنبرة غنج: «يا له من مكان جميل! كيف عرفت به؟ هل أتيت إلى هنا من قبل؟»

«أتيت عندما كنت طالباً».

«إنه مكان جميل، مثل دالات تماماً. لو كان لدي بعض المال لبقيت هنا إلى الأبد».

«لكنك ستشعرين بالتعب إذا بقيت هنا لفترة طويلة. قد لا تستمتعين بالمكوث هنا لأكثر من يومين».

«نعم، ربما يكون هذا صحيحاً».

كانت الغرفة صغيرة وفيها كوة مزخرفة تدلت منها مزهرية خيزران على شكل سلة وضعت فيها زهور الأقحوان الصغيرة مع ورقة بَرْديّ طبع عليها منظر طبيعي. ويبدو أنه كان هناك جدول صغير يتدفق أسفل النافذة إذ استطاعا أن يسمعا صوت خرير مياهه. دخلت خادمة تقدم الشاي والبيرميسون المجفف.

كانت الغرفة عادية ومتواضعة، لكنهما جاءا إليها في رحلة يقصدان فيها مدينة غنية بينابيع المياه الحارة. وربما لهذا السبب تلاشى شعور العزلة الذي انتاب توميوكا في وقت لاحق من اليوم. كان اليأس واقعاً، لكن تعكر المزاج قد تلاشى لتحل محله مخاوف أكثر واقعية. أخذت أفكار الانتحار تبدو مثيرة للسخرية حتى بالنسبة لتوميوكا نفسه الذي كان يسعى لإبداع مشهد موت ودرامي مع يوكيكو. ففي النهاية لا تمثل هذه الحادثة أكثر من بقعة من الزبد الزائل في بحر الكون الكبير. مدد توميوكا ساقيه تحت لحاف الكوتاتسو وهو لايزال يرتدي معطفه، وأراح رأسه على إحدى ذراعيه وأخذ يحدق في السقف القاتم.

دخلت الخادمة ثانية وقالت: «أترغبان في تبديل ملابسكما وارتداء أثواب كيمونو مبطنة؟» ثم وضعت كومة من أثواب الكيمونو وأشياء أخرى. أخذت يوكيكو تبدل ملابسها بسرعة في الغرفة المجاورة، وطلبت من الخادمة إحضار منشفة لليدين. كان الاستحمام مشكلة كبيرة بالنسبة إلى توميوكا، فمجرد تحريك جسمه كان عبئاً مضجراً عليه، وتمنى لو استطاع الموت على ما هو عليه، فقد كان يتوق حينها للغوص في أعماق الأرض هناك.

«ألن تبدل ملابسك؟»

«حسن».

«لنبدل ملابسنا ونطلب العشاء فوراً، فأنا أتضور جوعاً».

«هذا مزعج جداً، دعيني آخذ قسطاً من الراحة. لم لا تستحمين؟»

وضعت يوكيكو ملابسها في زاوية الغرفة وجاءت إلى القرب من الكوتاتسو. شمت كم الكيمونو المبطن وقالت بانزعاج: « أشم فيه رائحة الآخرين».

24

شعر توميوكا بثمل خفيف، وأحس بقلبه مفعماً بالراحة والحرية لأول مرة منذ وقت طويل. وقف متكئاً على عمود الكوة وأخذ يردد باللغة الألمانية كلمات أغنية شعبية رائجة:

حبك وحبي
في ذلك اليوم فقط كانا حقيقين
كانت عيناك عينين حقيقيتين
وكذلك كانت عيناي أيضاً في ذلك اليوم فقط
في تلك الساعة فقط عينين حقيقيتين
والآن عيناي وعيناك
عيون الشك

وأصبحت يوكيكو هي الأخرى ثملة أيضاً، واستسلمت وهي تستمع لتلك الأغنية التي تذكرتها قليلاً لشعور بالحنين للحياة التي عاشاها معاً في دالات. مدت إحدى ساقيها وتحسست حولها بحثاً عن ساق توميوكا تحت لحاف الكوتاتسو، ثم عثرت أخيراً على كاحل قدمه.

«توميوكا، أنا أشعر برغبة قوية تجاهك. أرجوك أن تتصل بي عندما تتذكر

بين الحين والآخر تلك الأوقات التي قضيناها في دالات، حسناً؟ لقد استسلمت بنفسي لهذا الأمر. يكفي أن نتمكن من الالتقاء هكذا عندما تسنح لنا الفرصة. سيكون هذا جيداً. قصتنا مثل تلك الأغنية... أفهم ذلك».

أغلق توميوكا عينيه وأخذ يردد، في حين وقفت يوكيكو للحظة، ثم اقتربت منه وأدخلت ساقيها تحت الغطاء إلى جانب ساقيه تماماً، وواصل توميوكا ترديد الأغنية دون أن يفتح عينيه.

«بماذا تفكر؟ أخبرني بذلك. أرجوك بنصف ما تفكر فيه فقط».

فتح توميوكا عينيه، فبدت له يوكيكو فاتنة، وبدت كلماتها النابعة من قلبها مثل قوس قزح يلوح في السماء. شعر بانجذاب نحوها، فأمسك أصابعها ووضعها على شفتيه، ثم فجأة صرخت: «أنا وحيدة، وحيدة».

تفاجأ توميوكا من فقدانها المفاجئ للسيطرة على نفسها، وأخذ يفكر في أفضل وسيلة يمكنه اللجوء إليها لقتلها وقتل نفسه بطريقة لائقة كعاشقين في ينبوع مياه حارة. اعتقد أن الأمور ستكون على مايرام ولن يتساءل أحد بسخافة بعد موتهما إذا ما كانت تلك حادثة انتحار مزدوجة أم لا.

انعكست صورة المصباح الكهربائي على الصينية الحمراء الكبيرة فوق الكوتاتسو التي كانت تحمل بقايا العشاء، والتي حفرت على طلائها الأحمر أشجار صنوبر صغيرة ذهبية اللون. كان ذلك آخر منظر يشاهدانه، فقد جعلت الفكرة كل شيء يبدو وحيداً وجميلاً.

لاحظ توميوكا أن المطر قد توقف. قالت يوكيكو: «كيف تسير أمور تجارتك؟»

«تجارتي؟»

«نعم، تجارة الأخشاب».

«أوه، تجارة الأخشاب؟ أعتقد أنها ستحقق بعض النجاح».

«هل بعت منزلك؟»

«نعم، بعته، وحصلت مسبقاً على نصف النقود. في العام القادم سأسجل

البيع، وفي نهاية يناير سأخلي المنزل وأسلمه».

«بكم بعته؟»

«هل هذا مهم؟»

«لا، ولكن لا بأس بالسؤال، أليس كذلك؟»

بعد أن تمكنت من التغلب على الحالة الهستيرية التي انتابتها، أنعمت يوكيكو النظر في توميوكا وتساءلت: كيف يا ترى انجذبت إلى هذا الرجل؟ كان الأمر مضحكاً بالنسبة لها. فقد كانا بكل بساطة مجرد شخصين يلتقيان بين الحين والآخر. وقفت يوكيكو وتوجهت للاستحمام ثانية حاملة معها منشفتها، فنزلت السلم الضيق، ودخلت الحمام حيث وجدت هناك شابتين لهما شعر طويل أشعث مموج تتحدثان بصوت مرتفع جداً.

كان الماء الموحل الأحمر اللون يتدفق على قرميد حواف الحمام. وضعت يوكيكو إحدى ساقيها فيه بالقرب من المكان الذي جلست فيه الشابتان.. ربما كانت ثملة.. كانت ساقاها ترتعشان.. ترنحت في البداية ثم قفزت في الماء فتطاير رذاذ الماء من حولها بشدة. نظرت إليها الشابتان وقفزتا مبتعدتين بحركة فيها الكثير من المبالغة، وأخذتا تطقطقان بلسانيهما وانتقلتا إلى طرف الحمام. قالت يوكيكو: «أنا آسفة».

لم تبدر من الشابتين أي ابتسامة، فانزعجت يوكيكو من صمتهما، ومددت ساقيها باسترخاء في الماء الأحمر الحار، وأخذت تراقبهما. من المؤكد أن الشابتين كانتا من المدينة، لكن كانت لهما أوراك ضخمة قوية مثل نساء المزارع ذوات العظام الثخينة. شعرت يوكيكو بفخر بقوامها الرشيق وانتابتها رغبة قوية في إبراز هذه الرشاقة أمامهما. جلست الشابتان بثقلهما على المقاعد الخشبية في منطقة الشطف وواصلتا حديثهما.

«عند مغادرته خاطبته الآنسة تامي باللغة الإنجليزية قائلة «عد ثانية». كانت تلك العبارة الوحيدة التي تعرفها باللغة الإنجليزية. بعد ذلك طلبوا منها التوقف عن السعي وراء الأميركيين والتحول إلى شيء آخر مثل العمل في مكتب. ثم

بدأت مباشرة التسكع مع الرجال من جديد. لم يكن هناك من وسيلة أخرى. لكنها قالت إنها لم تكن قادرة لأنها لا تستطيع أن تتحمل رؤية رجل ياباني».

وانفجرت الفتاتان بضحكات عالية.

أدركت يوكيكو أنهما كانتا من ذاك النوع من النساء، ثم عادت بتفكيرها إلى سقيفتها المتواضعة في إيكيبوكورو. في هذه اللحظة، ربما، يكون قد عاد لزيارتها وطرق على الباب دون أن يجيبه أحد. كانت الشابتان تستخدمان صابوناً ذا رائحة شذية وتمشط كل منهما شعر الأخرى بواسطة مشط بلاستيكي كبير. بدا سلوك الشابتين، على الأقل حسب تفكير يوكيكو الثملة، نوعاً من التحدي لها، فكأنهما كانتا تقولان لها إننا من طينة تختلف عن المخلوقات القذرة مثلكِ، كما كانتا تتباهيان بعبوتين جميلتين من سائل الغسول ومنشفتين كبيرتين، في حين كانت يوكيكو تستخدم منشفة يدين يابانية مغلية بعناية استعارتها من الخادمة في الفندق وقطعة صابون ذات رائحة كريهة مزعجة.

«عندما أعود غداً سأذهب إلى متجر الملابس الغربية، هل تودين مرافقتي؟ فقد اشتريت من هناك بدلة حمراء بأزرار ذهبية».

«أوه، حقاً؟ هل اشتراها لك حبيبك؟»

«نعم، تعرفين كم هو كريم».

قهقهت يوكيكو، فنظرت إليها إحدى الشابتين، وكانت شفتاها مصبوغتين باللون القرمزي، وسألتها: «ما الذي يضحكك؟»

«ماذا؟ كنت أضحك مع نفسي على شيء تذكرته، هذا كل شيء».

«آه، اعتقدت أنك تضحكين علينا على الرغم من أنك أنت التي جئت ثملة وارتطمت بحوض الحمام».

«قلت إنني آسفة».

قاطعتها الشابة الأخرى وقالت: «كونك ثملة لا يعطيك الحق بالتجسس على شؤون الآخرين».

حملت الشابتان أغراضهما واتجهتا نحو غرفة الملابس.

«إنها ترتدي قرطين وهي في الحمام، وتستخدم منشفة قذرة، أي نوع من الناس هي؟»

«أليس ذلك واضحاً؟»

استطاعت يوكيكو أن تسمع الشابتين تضحكان بصوت منخفض، فأخذت ترش الماء الحار وتغني بصوت مرتفع:

«حبك وحبي
في ذلك اليوم فقط
كانا حقيقيين».

كانت تغني باللغة الأنامية. وكان صوتها رقيقاً وأجش على غير المتوقع. توقف صوت الضحك.

«كانت عيناك عينين حقيقيتين
وكذلك كانت عيناي أيضاً في ذلك اليوم فقط
في تلك الساعة فقط عينين حقيقيتين
والآن عيناي وعيناك
عيون الشك».

وفيما كانت تغني، راود يوكيكو شعور وحشي مدمر، وشعرت وكأنها في أقصى حالات الفسوق.

25

أمضت يوكيكو مع توميوكا يومين في إيكاهو كان الطقس فيهما ماطراً. وكما هو متوقع، لم يكن هناك في ليلة رأس السنة أي نزلاء آخرين، وبدا الفندق الكبير هادئاً ومهجوراً. وعلى الرغم من توافر الكثير من وقت الفراغ لديهما، لم يتمكن توميوكا من التوصل إلى فهم أفضل لأي شيء أو من اتخاذ أي قرار واضح. ساوره شعور عميق بعدم الثقة بالنفس... شعور ظن أنه ربما كان يساور جميع من عادوا من مهام الحرب في أي جزء من العالم. لكن البلاد بمجملها صغيرة وذات كثافة سكانية عالية، وكل فرد فيها يستجيب للوضع بإقصاء نفسه بطريقة ما عن الآخرين. كان من المستحيل السعي وراء أي حقيقة أخرى أشمل في هذا البلد الصغير المهزوم. كان الوضع صعباً بالنسبة إلى الجميع، فأفراد أسرته تفرقوا بكل بساطة وأصبح كل منهم يعاني من شعور منفصل بالعزلة.

«هل لديك سيجارة؟»

«لا، ليس لدي».

التقطت يوكيكو عقب سيجارة من المنفضة، ووضعت بقايا التبغ في غليون ياباني، وأشعلته وقالت: «بماذا تفكر؟ لماذا لا نمضي ليلة رأس السنة هنا؟ إذا كان يعوزك المال، تستطيع أن ترهن معطفي أو هذه الساعة. إذا كنت تخجل من هذا،

يمكنني أن أذهب إلى المدينة بنفسي لأبيع الساعة».

كان توميوكا مستلقياً على بطنه فوق الكوتاتسو يقرأ جريدة الأمس، ثم استدار ورفع نفسه مستنداً إلى كوع واحدة على حصيرة التاتامي ونظر إلى وجه يوكيكو.

قالت يوكيكو: «ماذا؟»

«أنت تعرفين أن العالم أصبح مكاناً مريعاً».

«ماذا تعني؟ كيف بالضبط؟»

عانى توميوكا من صعوبة في تحديد ما يريد قوله بالضبط، وشعر وكأن الخدر قد أصاب خديه. نظر بقسوة إلى وجه يوكيكو الذي لم يكن عليه أي مساحيق تجميل وإلى عينيها الواسعتين، وقال ببرود: «الحياة نفسها أصبحت عبثاً».

لم تكن يوكيكو متأكدة تماماً مما عناه توميوكا الذي أردف وهو يعبث بزر قميصه الذي كان على وشك أن يقع: «أصبح وضعنا ميؤوساً منه».

«لكنني لا أعرف إذا كان الوضع ميؤوساً منه بالفعل. من المؤكد أن تفكيرك متشائم جداً».

«هذه إحدى الطرق للنظر إلى الأمر. أنت لست متشائمة على أية حال. من المحتمل أنك مازلت تعتقدين أن العالم مكان ممتع».

«وما الممتع فيه؟»

«أن الأمور قد آلت إلى هذا المسار».

بدأت يوكيكو شيئاً فشيئاً تدرك ما كان يفكر فيه توميوكا، وشعرت بأن الدموع على وشك أن تسيل إلى أسفل رقبتها.

«هل أخبرك بما تفكر به؟»

«لا، لست بحاجة إلى ذلك».

«أنت تفكر بهجري».

«لا، لا، الأمر ليس كذلك».

انقطع زر القميص، فحمله توميوكا بين أصابعه، واستلقى على جانبه متخذاً

وضعية الجنين وكأنه يحاول أن يجعل جسده لا يبدو أكبر من الكوتاتسو.

«هل أذهب وأبيع الساعة؟ أود أن أمضي ليلة رأس السنة هنا».

كان المطر يرتطم بزجاج النافذة.. وقفت يوكيكو وفتحت الباب الزجاجي.. بدت الجبال والسماء بيضاء كالحليب يغطيها الضباب.

«ستكون ليلة رأس السنة ماطرة».

أغلقت يوكيكو الباب وزحفت عائدة إلى تحت لحاف الكوتاتسو. جلس توميوكا بسرعة، ووضع الزر فوق الغطاء، ودمدم دون أن يوجه حديثه لأحد: «جئت إلى هنا رغبة في الموت».

حملت يوكيكو الزر وحاولت وضعه على صدرها. لقد سمعت كلمات توميوكا ولم تشأ الاكتراث بها. لكنها قالت بعد ذلك وهي تزيل بقايا الخيوط من مكان الزر المنقطع: «وأنا أرغب في الموت أيضاً».

«أنت؟ لا تسايري بهذه الطريقة. عليك أن تطوري حياتك بكل السبل الجديدة. تمتعي بحياتك أكثر»...

«ما الذي تعنيه بأن أطور حياتي؟ لا تكن سخيفاً».

«هل فكرت حقاً بالموت؟ أعني بصورة جدية. ليس من الجيد أن تقولي باستخفاف «أوه، نعم، أنا أريد أن أموت» إذا كنت لا ترغبين في ذلك».

«لا، لقد فكرت بالأمر بجدية.. إنني أفكر به منذ وقت طويل.. حتى في هاي فونغ كانت لدي نية الموت. وقد فكرت بالأمر أيضاً عندما وقع ذلك الحادث مع كانو في دالات.. لست خائفة من الموت».

«هذا يبين مدى عجزك عن الموت. إن قولك إنك لست خائفة يعني أنك تنظرين إلى الموت بنظرة وردية متفائلة. لكن الموت مخيف، لا بد أن يكون كذلك. لن تستطيعي للموت سبيلاً ما لم تدعي فكرك ينفجر هكذا ويصبح فارغاً. إذا كنت تفكرين في الموت، فأي طريقة ستختارين؟»

«يقولون إن استخدام سيانيد البوتاسيوم أسهل طريقة لذلك، أليس كذلك؟»

«ولو أردت الانتحار ولم يتوافر لديك أي كمية منه؟»

«لن أعرف إلى أن يحين الوقت، أليس كذلك؟ فإذا جعلت فكري فارغاً لن أتمكن من التفكير بالطريقة التي أختارها للموت، صحيح؟»

«ما رأيك بشخصين يقدمان على عملية انتحار مزدوجة؟ الأمور لا تسير بسلاسة إن لم يكن فكر كليهما فارغاً، أليس كذلك؟»

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. نحن بحاجة إلى المضي قدماً في تنفيذ خططنا بقلوب باردة بدلاً من إفراغ عقولنا، وإلا لن ينجح الأمر، صحيح؟ إذا كان الموت مخيفاً، فمن المؤكد أن التفكير بطريقة القيام به مخيف أيضاً. إذا شئنا الموت سوية، يجب أن نخطط للأمور بعناية».

«فكرت في تسلق جبل هارونا معك لنموت هناك».

«هذا مضحك، فقد كنت مؤخراً أفكر في فعل الشيء ذاته أيضاً».

ووسط أجواء تبادل المشاعر بينهما، بدأ الوعي بالموت يتبلور بالتدريج على شكل شبح قاتم يقيم في الغرفة معهما.

26

فكر توميوكا أخيراً بأن هناك أسلوبين للموت: إما الموت في لحظة من السعادة الغامرة، أو الموت في لحظة يأس. ورأى أن أسلوب اليأس ينطوي على ادعاء بفوائد العالم ومزاياه، فمن المعروف أنه عندما يختار الإنسان الموت، ولأي سبب كان، لا يكون هناك في الحقيقة أي يأس في تفكيره.

كانت يوكيكو مستلقية تحت اللحاف بجانبه تراودها أحلام فظيعة. أصغى توميوكا لصوت أنينها لفترة، لكنه لم يستطع احتمال ذلك أكثر. تلمس طريقه بحثاً عن منفضة، فأطفأ سيجارته، وأضاء نور المصباح ذي الغطاء الورقي الذي كان بجانب وسادته، وقال وهو يسحب وسادتها: «ما المشكلة؟» استدارت يوكيكو في الفراش إلى أن واجهته، وفتحت عينيها، وقالت:

«أوه، لقد راودني حلم مزعج. حلم غريب ومخيف».

«إنه كابوس إذاً».

«كان كابوساً مريعاً. كان يلحق بي حصان مضرج بالدماء سلخ جلده عن جسمه ويمتطيه شخص يرتدي ملابس قاتمة وليس له وجه. كان يطاردني أينما هربت... وحاولت وأنا أواجه هذه المشكلة أن أصرخ «النجدة، النجدة» لكنني لم أتمكن من إصدار أي صوت».

مدد توميوكا ساقيه تحت غطاء الكوتاتسو، نظرت يوكيكو نحو الضوء وقالت وهي ترمش بعينيها سريعاً: «اليوم عيد رأس السنة».

شعر الاثنان بأنهما يقيمان في ذلك الفندق منذ وقت طويل على الرغم من أنه لم يمض على قدومهما في الحقيقة سوى ثلاث ليالٍ فقط. راود توميوكا شعور عميق بأن ذلك كان قدره. فلولا الحرب لما ذهب إلى ذاك المكان البعيد في مستعمرة الهند الصينية الفرنسية، ولما التقى ربما بهذه المرأة، ولكان الآن يعيش الحياة الروتينية الجامدة لموظف ناجح. أخذ توميوكا يحدق بالسقف المتسخ ببقع كثيرة جعلته أشبه ما يكون بخريطة العالم. تذكر مدينة هيو ومنظر البراعم التي أضفت لوناً ذهبياً لطيفاً على أشجار الكافور الصغيرة المنتشرة على طول الطريق الممتد من محطة القطار إلى وسط المدينة. وتذكر أيضاً أزهار القنا والياسمين البري تزهو بألوانها الساطعة كألوان الحرير المطبوع في المتنزه القريب من النهر الذي يمر بالمدينة، وأشجار جوز الهند ونخيل القوفل والزيتون الحلو[1] المزهرة في كل مكان. تذكر رجال قبيلة الموي وهم يرتدون مآزرهم الحمراء فقط ويصطفون على طول المتنزه لبيع ببغاوين أو ثلاثة محبوسة في أقفاص. كانت حياة توميوكا في دالات على نمط واحد تشبه الكيمونو ذا النقوش المتماثلة والمتكررة، وقد انطبعت في ذاكرته إلى الأبد.

يحتمل أن يكون السيد ماركو، رئيس مكتب الغابات في هيو، قد عاد إلى هيو الآن، وقد يكون في هذه اللحظة على الشرفة يستمتع بتدخين سيجاره. كان يعطي دوماً انطباعاً بأنه لطيف على الرغم من الأفكار السيئة التي كان يحملها عن الجيش الياباني. تخرج ماركو من كلية الغابات في مدينة نانسي بفرنسا، وجاء إلى الهند الصينية عبر البحر في العام 1930 ليشغل منصب رئيس الدائرة في مكتب الغابات. لم يكن توميوكا وأصحابه من شبان الريف في نظره سوى جهلة وشخصيات هزلية مضحكة لا تمتلك مهارات التصرف بلباقة، إلا أنه حرص على الرغم من ذلك على التعامل معهم دوماً بطريقة راقية للغاية حتى في أثناء تسليمه

(1) نوع من الأشجار موطنه آسيا يتميز برائحة أزهاره الشذية.

المكتب. أبدى ماركو اهتماماً خاصاً بتوميوكا، وأخذ يحث الشبان على التفكير بعملهم في جبال وغابات الهند الصينية وكأنه شبيه بمصارعة نمر ضخم. لم يدرك توميوكا وزملاؤه طبيعة تلك الجبال والغابات، ولم تكن لديهم أي خلفية عنها، بل قاموا بغزوها بناء على الأوامر العسكرية وهم لا يعرفون عنها سوى ما شاهدوه في الخرائط فقط. فقد ظنوها منطقة سهلية منبسطة مغطاة بغابات قليلة الكثافة من أشجار الصنوبر.

قام ماركو بدعوة توميوكا إلى منزله في هيو وسأله إذا كان يعلم أسماء جميع الأشجار في الحديقة. لكن توميوكا لم يستطع أن يتعرف حتى على أشجار نخيل القوفل، فيما تمكن السيد ماركو من الإشارة إليها الواحدة تلو الأخرى، الصنوبر الأحمر والتاغاياسان والبودي والساو واليو والبنبن والبانيان. ووصف لتوميوكا مناطق انتشار كل منها ومواصفاتها، وأخبره أن غابات الجبال في الهند الصينية كانت كثيرة الأمطار وكثيفة وأنه أمضى فيها وقتاً طويلاً. وقال إن الأبحاث حول الغابات الجبلية لاتزال في بداياتها، ونصح توميوكا بأن يتأكد تماماً من طبيعة الغابة قبل أن يقطع أشجارها بطيش وتهور. فقد أدت سياسة القطع والحرق التي اتبعها السكان الأصليون بهدف خلق مساحات مخصصة للزراعة إلى تغيير حالة الغابات القديمة. هذا أمر لا بد من أخذه بعين الاعتبار. وقد علم ماركو أن الجيش الياباني قد قام بالكثير من أعمال التطوير، خصوصاً في مقاطعات فنه وتانوا في شمال أنام. أما في المناطق الوسطى فقد انحدرت الجبال نحو البحر، وفي تلك المنطقة شديدة الانحدار تدفقت بعض الأنهار التي استخدمت لنقل الأخشاب. على الرغم من قطع الأشجار وتطوير المناطق، إلا أنه لم يكن من السهل تأمين وسائل النقل الكافية، واقتصر استخدام المنصات العائمة كوسيلة نقل مناسبة على المناطق الشمالية والجنوبية فقط حيث الأراضي متدرجة وانسيابية. نصح ماركو توميوكا بأن يفكر بعناية بهذا النوع من الاستغلال العشوائي غير المدروس، وقال إن مشروع التشجير هو أمر يختلف تماماً عن الحرب ويتناقض معها.

«هاي، أتتذكر ذلك المكان خارج تسوران عندما قمنا بزيارة لمقبرة يابانية؟»

شعر توميوكا بأنه قد اختطف وأعيد من الجولة التي كان يقوم بها في أحضان الماضي، فأدار عينيه عن البقع التي كانت تلطخ السقف، ونظر نحو يوكيكو التي سألته:

«تلك المدينة، ماذا كان اسمها؟»

«هيو؟»

«نعم، إنه كذلك، هيو. كانو وأنت وأنا ذهبنا معاً إلى هيو في رحلة استمرت لثلاثة أيام، أليس كذلك؟ كان كانو في مزاج سيئ وظل يراقبنا بعين ثاقبة كعين النسر. لكننا تمكنا من أن نفلت من مراقبته وتهنا معاً في ظلام الليل. كنا نتصرف بجنون أيضاً، أتتذكر ذلك؟»

«والأشجار على طول الطريق كانت تدعى فوكوجي، أليس كذلك؟ كانت كثيفة ومعمِّرة. عندما أوقفنا السيارة للاستراحة، ركض إلينا بعض الأطفال وهم يصيحون «تونبوس يابونيزيس»، التي كانت تعني «قبور يابانية»، فقد أرادوا أن يصطحبونا لمشاهدتها. لم يبد الأطفال اهتماماً بي لأني امرأة، بل تحدثوا فقط إليك أنت الرجل الطويل. أتذكر أنه في الطريق إلى المقبرة كانت هناك نباتات الصبار العملاقة. وفي مرحلة ما حدقت في مرآة علبة التجميل الخاصة بي وشعرت بالخجل لأنني لم أخلق على مستوى عال من الجمال».

27

قبل ثلاثمائة وخمسين أو ستين عاماً عاش الكثير من اليابانيين في هيو، وكانوا يأتون ويرحلون بأعداد كبيرة في السفن المرخصة من قبل حكومة تلك الحقبة ويجلبون معهم خشب الصندل الأحمر وأخشاب الأبنوس ونباتات الصبر والقرفة وما شابهها من اليابان. لم يستطع الكثير من هؤلاء العودة إلى اليابان فيما بعد بسبب سياسة الباب الموصد الجديدة التي اتبعتها الحكومة، فاختلطوا مع سكان هيو الأصليين. احتوت بعض شواهد القبور في المقبرة على مرثيات تضمنت عبارات مثل «هنا يرقد تاروبي تاناكا». اعتقدت يوكيكو أن نفوس هؤلاء اليابانيين الذين هاجروا قبل قرون إلى الأماكن البعيدة مثل حبات جوز الهند المنجرفة مع المياه المتدفقة كانت شجاعة، وشعرت بعاطفة خصوصاً تجاه المرثيات البسيطة مثل «هاناكو».

واصلت يوكيكو حديثها وقالت: «كانت هيو مكاناً جميلاً، طرقاتها ضيقة بالكاد تسمح بمرور سيارة واحدة. كانت هناك صفوف من المنازل المطلية بالكلس الأبيض التي بدت مثل علبتي كبريت فوق بعضها. أوه، ووجد فيها أيضاً جسر صغير يعلوه سقف، وقد سمي نيهونباشي نسبة إلى أحد جسور طوكيو. التقط كانو صورة لذلك الجسر، لكنه لم يتمكن من إحضار الصورة معه إلى هنا. جيد أننا

قمنا بتلك الرحلة وقتئذ، فالقيام بمثل هذه الرحلة الآن يكلف كثيراً».

«حسناً، لقد تعاقبنا على ذلك».

«نعم، إنها طريقة جيدة للتفكير بالأمر. على فكرة، كم الساعة الآن؟»

انقلبت يوكيكو على بطنها، وأخذت ساعتها من فوق الطاولة بجانب السرير ونظرت إليها. كانت تشير إلى الرابعة وبضع دقائق صباحاً. لم تعد يوكيكو تفكر بالموت على الإطلاق الآن على الرغم من حديثهما الطويل عنه في الليلة السابقة. ورأت أنه من الغباء التفكير في الإقدام على الانتحار في مكان كهذا، كما لم تظن أن توميوكا قد عنى ما قاله أيضاً. وخططت لأن تبيع هذه الساعة اليوم وتعود إلى إيكيبوكورو. كانت ذكرياتهما في الهند الصينية رابطاً بينهما، لكنها كانت تثير لدى كل منهما أحلاماً مختلفة جداً، وحتى متناقضة.

شعرت يوكيكو بالقلق حيال عدم قدرتهما على سداد فاتورة الفندق، وهذا ما جعلها تفكر بأنه من المستحيل خلق مزاج رومانسي في إيكاهو مهما طالت مدة بقائهما فيها. أرادت أن تطرح هذا الموضوع على توميوكا، لكنه بدا مكتئباً جداً وغير ميال للتفكير في طريقة مغادرتهما للفندق.

«اليوم عيد رأس السنة، أليس كذلك؟»

«نعم».

«هل سنعود اليوم؟»

«ألم تقولي بأنك ترغبين في البقاء لثلاثة أو أربعة أيام؟ هل غيرت رأيك؟»

«المسألة ليست أنني غيرت رأيي، لكن يبدو أنه لم يعد لدينا ذكريات أخرى نتحدث عنها. إلى جانب أنني أعتقد أنك قد ضجرت مني».

«ربما أنت التي ضجرت مني».

«هذه سخافة».

قالت يوكيكو هذه العبارة بصوت عال كما لو أنها أرادت أن تطمئن توميوكا، لكنها في الحقيقة كانت تتطلع للعودة إلى إيكيبوكورو بمفردها. فقد شعرت بأنها باتت متقلبة ومخادعة.

قال توميوكا: «إذا أردنا الذهاب إلى ما هو أبعد من الحياة التي نعيشها الآن، فعلينا أن نمر ببعض الصعوبات. قد لا تبالين أبداً بالتوصل إلى أي نتيجة. فها نحن نلتقي معاً ونتحدث عن الأيام الخوالي.. لكن الوقت يمر.. ومن السيئ الاعتياد على الدخول في هذا الحوار. لم أعد أشعر بالحب كما كنت من قبل، حتى تجاه زوجتي. لقد فرضت علينا الحرب بعض الكوابيس، ونحن الآن نحاول تجنب مواجهة الحقيقة. لكن المشكلة أنه ما من ملجأ آخر لنا غير الحقيقة».

«هذا كلام صحيح وله معنى. لكن، على الرغم من ذلك، ألا تعتقد أنه من الغريب أننا عندما نفترق ولا نرى بعضنا لأيام تساورنا فجأة الرغبة في الالتقاء؟ أنا أفكر دوماً فيك.. أكرهك أحياناً.. أحبك أحياناً. ليس بيدك حيلة تجاه الآخرين. ربما يصبح هذا الشعور مع مرور الوقت أضعف».

بدأ الاثنان يغفوان من جديد. ربما كان من الأفضل ترك الأمور تأخذ مجراها، وقد لا تكون هناك وسيلة أخرى. استسلما للنوم العميق ولم يستفيقا إلا في وقت متأخر من الصباح. سمعت يوكيكو صوت طبل أيقظها وهو يقرع بعيداً، ثم عرفت أن الصوت كان يصدر من جهاز مذياع. لاحظت أن توميوكا لم يكن في سريره.. نهضت وسحبت الكيمونو المبطن وارتدته، ثم نظرت إلى ساعتها وكانت قد تجاوزت العاشرة بقليل. جاءت الخادمة لتزود الموقد بالفحم وقالت:

«لقد ذهب زوجك للاستحمام».

أخذت يوكيكو نفس منشفة اليدين التي استخدمتها الليلة السابقة وتوجهت نحو الحمام. كان توميوكا قد دخل إلى الحمام الأصغر من بين الحمامين تاركاً الباب الزجاجي مفتوحاً قليلاً، فاختلست يوكيكو النظر منه وقالت:

«هل يمكنني الدخول؟»

«بالطبع».

خلعت يوكيكو الكيمونو المبطن، وزلقت الباب الزجاجي لتفتحه بالكامل، وصعدت إلى منطقة الاستحمام حيث كان الماء الأحمر الحار يتدفق فوق حواف الحوض المصنوع من خشب السرو وبخار الماء الحار الكثيف يملأ أجواء الحمام

الضيق، وقالت: «سنة سعيدة».

رد توميوكا التهنئة. لكن، وعلى الرغم من تبادلهما الأمنيات الطيبة، كان قلباهما مفعمين بمشاعر الوحدة والحرمان. فهما ليسا من نوع السياح الذين يأتون لقضاء ليلة رأس السنة وفي متناولهم الوفرة من المال والوقت. دخلت يوكيكو إلى الحوض فطفح الماء منه، فقالت: «آه، إنه ممتع وحار».

رد توميوكا: «يبدو أننا النزيلان الوحيدان هنا»، ونهض من الحوض وبدا جسده محمراً. كانت الإضاءة في المكان ساطعة جداً. حولت يوكيكو نظرها للحظات عن جسده العاري، ونظرت إلى التربة الحمراء التي وضعت بالقرب من النافذة في الخارج، ثم تابعت حديثها وقالت:

«حسناً»...

«ماذا؟»

«لقد شعرنا بالاستقرار هنا نوعاً ما. لكن لا بد أن الخادمة تظننا زوجين غريبين جداً، إذ إننا نشعر بالارتياح والحميمية مع أننا لا نخرج ولا يبدو علينا أننا نمتلك الكثير من المال. الناس هنا لطفاء جداً».

«نعم، هذا صحيح».

«أمازلت تفكر في أمر آخر؟ أمازلت تفكر في الموت؟ سأجعلك أكثر حيوية».

أجاب توميوكا: «لا، أنا لا أفكر بأي شيء محدد. دعينا نحتسي بعض الساكي بعد الانتعاش والمتعة الناتجين عن الاستحمام. فنحن سنعود هذه الليلة»، ثم أمسك بقطعة من الصابون وأخذ يغتسل.

«إذاً هل تخليت عن فكرة التسلق إلى أعلى جبل هورانا والقفز في البحيرة؟»

«لا، بل إنني لا أستطيع أن أموت معك، لا بد أن تكون امرأة أكثر جمالاً».

«يا له من شيء جميل تقوله».

ضحكت يوكيكو بغزل وغنج، ووضعت يديها على حافة حوض الاستحمام، وقامت ببعض حركات السباحة. كانت ذراعاها مكتنزتين وجميلتين وناعمتين.

وتساءلت وهي تحدق في بشرتها وردية اللون: هل تؤثر الحياة التي يعيشها المرء، دون أن يفعل شيئاً سوى الأكل والنوم بهذه السرعة، على الجسم؟

عاد يوكيكو وتوميوكا من الحمام وجلسا في الغرفة خلف صينيتي الغداء. لكن الأجواء اختلفت عن تلك التي سادت في أثناء جلوسهما في حوض الاستحمام الدافئ. وبدأت أفكارهما الباردة تبدو متعارضة من جديد، وقد أحضرت لهما زجاجتا ساكي لكنهما لم تنفعا في تحسين الأمور كثيراً. وبردت كعكات الأرز اللزج المسلوقة مع الخضار التي وضعت في زبدية كبيرة دون أن يأكلا الكثير منها.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، ذهب توميوكا إلى البلدة بمفرده ليبيع ساعته التي أصلحها مرة، وكانت من طراز أوميغا القديم، واعتقد أن ثمنها قد يكفي وحده لتسديد المبلغ الذي يتوجب عليه دفعه للفندق. ترك توميوكا ساعة يوكيكو في مكانها، وتوجه بالكيمونو المبطن نحو الخارج حيث كان الثلج يهطل خفيفاً.

28

نزل توميوكا على الدرجات الحجرية ليجد نفسه في شارع ضيق اصطفت على جانبيه المقاهي وأروقة الرمي وتجولت فيه النساء بمعاطفهن الفرائية يتسوقن لدى محلات الهدايا التذكارية. أحس بالبرد وهو يرتدي الكيمونو المبطن، لكنه سار في الشوارع بحثاً عن محل مجوهرات. بالقرب من موقف الحافلات رأى مكاناً يشبه الحانة وامرأة ترتدي ثياباً حمراء قرمزية نادته وقالت: «مرحباً، تعال وادخل إلى هنا». اقترب منها توميوكا بسرعة، ودخل معها لظنه بأنها قد تكون عارفة بالمنطقة. بدت الحانة المزدحمة من الداخل كأنها منزل مهلهل كثرت فيه الفجوات التي تمت تغطيتها بالطلاء. شعر توميوكا بالبرد فطلب الساكي. أحضرت المرأة موقداً من البروسلين من الخلف ودعته ليجلس ويحيطه بساقيه.

«هل أنت من هنا؟»

«لست من مكان بعيد».

«ظننت أن إيكاهو مدينة قديمة، لكنها حديثة بصورة مدهشة».

«حدث فيها حريق كبير، وبعد ذلك أصبحت على ما هي عليه الآن. يقولون إنها كانت مدينة جميلة في الماضي».

سكب توميوكا الساكي الحار في الكأس وشربه دفعة واحدة، ثم سدد ثمن

الشراب وسأل المرأة عن محل مجوهرات قريب. قالت المرأة إنها ستذهب لتسأل عن الأمر وتعود. وفيما كانت تهم بفعل ذلك، سحب توميوكا الساعة من معصمه وطلب منها أن تأخذها معها. عندها جاء من الخلف رجل أصلع الرأس قصير القامة وكان من الواضح أنه مالك الحانة.

«بكم ستبيعها يا سيدي؟»

شعر توميوكا بشيء من الإحراج. لكنه أوضح أنه يريد بيع ساعته لأنه قد جاء إلى إيكاهو بصحبة سيدة قبل يومين أو ثلاثة، وأنهما أحبا المدينة جداً وأقاما فيها لفترة أطول مما توقعا، وأنهما بحاجة إلى القليل من المال لتسديد الفواتير.

«في الحقيقة أنا لا أريد أن أبيعها. سيكون من الجيد إذا كان هناك أحد يأخذها كرهن إلى أن آتي لاستردادها».

«إنها ساعة جميلة».

«نعم، اشتريتها في الجنوب».

«أوه، في أي منطقة من الجنوب كنت يا سيدي؟»

«كنت في الهند الصينية».

«أهكذا إذا؟ أنا كنت في البحرية في مكان يدعى بنجروماشين في بورنيو الجنوبية، ثم عُدت إلى هنا في العام الماضي».

«أوه، بورنيو الجنوبية؟ لا بد أن الأمر كان صعباً. هل توجد قاعدة بحرية هناك؟»

«نعم. لا يوجد شيء في بورنيو الجنوبية، لكن أحوال الأعمال كانت جيدة، وقد رأيت هذا النوع من الساعات مرة هناك. أظن أنها ساعة جميلة. بكم ستبيعها؟»

«هل تعرف مكاناً يمكنني أن أبيعها فيه؟»

«لا، أريدها لنفسي. كنت أحب هذا النوع من الساعات. سيما وإلجين ساعات جميلة أيضاً. لكنني لم أحصل بعد على ساعة بهذا الجمال. يوم أمس الأول رأيت ساعة فولكان، لكنها كانت قديمة الطراز، ولم أكترث بها لأنها لم تبد

أنيقة في شكلها مثل هذه. أرجوك أن تدعني آخذها إذا تمكنا من الاتفاق على ثمنها».

«إذا كنت راغباً فيها إلى هذا الحد، سأدعك تحصل عليها. أعطني سعراً لها، فأنا حقاً لا أعرف».

«حسناً، أنا لست بتاجر. هل تكفي رزمة نقدية كبيرة؟»

«رزمة نقدية كبيرة؟ هل تعني عشرة آلاف ين؟»

«نعم، مارأيك بهذا؟ لو ذهبت إلى محل مجوهرات سيحتالون عليك. أظن أنهم سيعرضون عليك فقط خمسة آلاف أو ما شابه».

فكر توميوكا بأن هذا ما كان ليحدث لو أنه أخذ الساعة إلى محل لا يعرفه هنا، وسيكون محظوظاً إذا تمكن من الحصول على خمسة آلاف ين. جاء مالك الحانة إلى الطاولة التي جلس عليها توميوكا بعد أن طلب من المرأة أن تحضر بعض الساكي، وأشعل ضوءاً، ووضع الساعة على معصمه، وأخذ يتأملها، ثم رفعها إلى أذنه وأصغى إلى صوت دقاتها لبرهة.

«صوتها جيد، ودقاتها ثابتة ولطيفة».

«ربما ترغب في تغيير سوارها».

«لا، إنه جميل، يعجبني هذا السوار أيضاً. فسوارات الجلد اليابانية ليست جميلة ولينة كهذا».

أحضرت المرأة الساكي، وانسحب مالك الحانة إلى مؤخرة المحل وغاب ليعود بعد بضع دقائق وهو يرتدي صندلاً خشبياً وقال: «هذا كل ما تدبرت جمعه».

وضع المال على شكل أوراق نقدية من فئة الألف ين بالعرض على الطاولة وقال: «سمعت أن الهند الصينية كانت، وخلافاً لبورنيو، مكاناً ممتعاً. هل كنت جندياً هناك يا سيدي؟»

«لا، ذهبت إلى هناك موظفاً إدارياً حيث كنت أعمل مع وزارة الزراعة والغابات».

«أوه، مسؤول».

ضحك مالك الحانة وأخبر توميوكا بأنه لما جاءت النادلة بساعة الأوميغا إليه عند الطاولة في مؤخرة المحل، اعتقد بناء على مظهره في البداية أنه يتاجر بالبضائع المسروقة.

«في مجال عملنا، نقابل جميع أنواع الناس، وأنا لدي عين ثاقبة. ظننتك فناناً، لم أعتقد أبداً أنك كنت مسؤولاً».

شرب مالك الحانة بعض الساكي، وأخذ المكان الذي يشبه الكوخ يهتز لدى وصول أو مغادرة الحافلات. أخفى توميوكا الأوراق النقدية في مقدمة الكيمونو المبطن وأخرج بطاقة عمل من محفظة البطاقات وقدمها للمالك.

«إذاً أنت تعمل في تجارة الأخشاب؟»

«تركت العمل في الوزارة وأقوم حالياً بمساعدة صديق لي في تجارته. لكنك هذه الأيام تشعر وكأنك مكبل اليدين والقدمين بسبب الصعوبة التي تواجهها في تأمين رأس المال والتقيد بكل هذه الأنظمة والقوانين».

«أصبح من المستحيل أن تنطلق في أعمال التجارة بسبب الأنظمة والضرائب. فأنا مثلاً لا يسمح لي بتقديم الأرز بالكاري عندما يدخل إلى الحانة زبون جيد. المخبرون في كل مكان، والبيرقراطيون صارمون مثل الوكلاء في عهد توكوغاوا[1]. فهم مثل الأطفال الذين يتنافسون على من سيكون المستأسد الذي يرهب المنطقة. إنهم لا يكفون عن مضايقتك بعد أن جعلوا الأعمال التجارية مستحيلة في الوقت الذي تزدهر فيه السوق السوداء. كيف هي أحوال الأرز في الفندق الذي تقيم فيه؟»

«لو لم يكن لديهم أرز لما تمكنوا من استقبال أي نزيل. لذا لا بد وأنهم قد اشتروا كميات قليلة من مكان ما».

«نعم، هذا ما يفعله الجميع. من السهل الحصول على الأرز من السوق السوداء. وليس من الجيد لسمعة المكان على الإطلاق ألا يكون هناك طعام تقدمه

(1) تاكوغاوا إيه-ياسو (1543-1616م) أحد الثلاثة الذين ساهموا في توحيد بلاد اليابان بعد فترة الانقسامات، وهو مؤسس سلالة التوكوغاوا التي حكمت البلاد لأكثر من 300 عام.

للضيوف الذين تحملوا مشقة الطريق للمجيء إلى إيكاهو. إنهم يحاولون جذب الزبائن، لكن تدخل الأنظمة والمسؤولين يهدم كل شيء. من المؤكد أن الأوقات صعبة. هل كانت عائلتك في طوكيو في خلال فترة الحرب يا سيدي؟»

«نعم. ولحسن الحظ أن منزلي لم يدمر. لكن لم تسر الأمور بشكل جيد أبداً واضطررت في النهاية حتى لبيع المنزل».

«انتقل والداي إلى هونجو ناريهيرا قبل أن أولد، وعشت هناك طوال فترة حياتي. ولكن خلال الغارات الجوية التي حدثت في التاسع من مارس، دُمِّر منزلي وقُتل أحد أطفالي. بعد أن عدت إلى اليابان انفصلنا أنا وزوجتي الأولى، وحصلت على هذا المكان مع زوجتي الجديدة. ومازلت أرغب في العودة إلى طوكيو أكثر من أي شيء آخر. عملي الحقيقي هو بيع السمك، لكن زوجتي الحالية تقول إنها تكره فكرة تجارة السمك، ولهذا فأنا أحتفظ بهذا المحل».

«زوجتك هي تلك المرأة الشابة؟»

«نعم، إنها يافعة جداً وتبدو مثل فتاة صغيرة. أشعر بالخجل من نفسي. لكن كل الأمور محكومة بالقدر. وأعتقد أن هذا أيضاً هو نتيجة لقاء تم بالمصادفة في مكان سابق. أنت تعلم ياسيدي أن على المرء أن يكون حذراً بشأن تقلبات القدر هذه. أعتقد أنه ليس من الحكمة مقاومتها. أنا أعيش بطريقة لا أعارض فيها القدر».

كان من الصعب تصديق أن تلك المرأة بكل تبرجها كانت زوجة هذا الرجل. لقد لامست كلمات الرجل بأن على المرء أن يكون حذراً بشأن تقلبات القدر وتراً حساساً عند توميوكا، وبدا له أن علاقته مع يوكيكو هي بالضبط إحدى هذه التقلبات.

«عندما وصلت عائداً إلى ميناء أوتاك في هيروشيما، كان هناك على الرصيف علبة سجائر «كامِل» فارغة، فأعجبتني ألوانها الجميلة وفكرت أننا قد خسرنا الحرب بالفعل. لقد جعلتني علبة السجائر الأجنبية أدرك ذلك.. خسارة الحرب هي أيضاً إحدى تقلبات القدر».

«هل كان شراؤك لهذه الساعة مني واحدة من تقلبات القدر أيضاً؟»

بدأ توميوكا يثمل وأخذ يشعر بارتياح أكثر، فأطلق نكتته اللطيفة، وأخذ سيجارة قدمها له مالك الحانة وأشعلها. قال مالك الحانة وهو يطحن حبات الفول السوداني بأسنانه الناتئة ويتحسس سحّاب سترته: «كل شيء في هذا العالم يتعلق بالقدر، هذا أمر مؤكد. من المحتمل أن تكون معاناتنا الآن أكثر لو كانت اليابان ربحت الحرب. على الأقل تعلمنا أن الحرب جنون. لقد ذهبت إلى أقاصي الجنوب، إلى بورنيو والأماكن الأخرى. علي أن أفكر بالأمر على أنه قدري».

29

عاد توميوكا إلى الفندق فوجد يوكيكو عند الكوتاتسو تلمع أظافرها بواسطة منديل، وقد بدا شكلها من الخلف فجأة بائساً ومكتئباً. كان لكلمات صاحب الحانة بأن كل شيء محكوم بالقدر وقعاً مؤلماً عليه الآن. بدا من الجنون أنه حتى الأمس كان يتخيل الموت مع هذه المرأة، وفجأة انتابه شعور بأن الانتحار ليس وارداً. وكأن التخلص من الساعة كان نقطة تحول في قدره، فقد انتعشت مشاعره تدريجياً تحت تأثير الساكي.

«آه، هل ثملت؟»

«شربت بضع كؤوس».

نظرت يوكيكو إلى عيني توميوكا نظرة ذات معنى متسائلة عما إذا كان مصيباً في تعاطيه الشراب. ولدهشتها شعرت بأن شيئاً جيداً قد وقع بسبب ما لمسته من نظرة لطف في عينيه إثر عودته، فسألته: «هل تمكنت من بيعها؟»

«نعم. بعتها بعشرة آلاف ين».

ثم روى توميوكا تفاصيل ما حدث معه لدى بيع الساعة، فتنهدت يوكيكو وقالت بانفعال: «يبدو رجلاً حكيماً». كانت كلمات صاحب الحانة مقنعة بالنسبة إليهما. فقد أعادت تدفق مشاعر انجذاب كل منهما نحو الآخر بطريقة

صادقة. حدقت يوكيكو برزمة الأوراق النقدية التي وضعها توميوكا على غطاء الكوتاتسو.

«إنه سبيل للخروج من المأزق».

قالت يوكيكو: «ذاك الرجل عائد من الجنوب أيضاً، ولديه زوجة شابة. إنه يمتلك الشجاعة، وأنت، بالمقابل، لا تفعل شيئاً سوى الاستغراق في أفكار الموت».

لم يكن توميوكا قد تخلى كلياً عن حلمه بالموت، وتذكر كيف استعد ستافروجين بعمق للموت في رواية «الشياطين» التي قرأها عندما كان في الهند الصينية، وكيف شعر عندها باشمئزاز حيال البرودة التي فكر فيها ستافروجين في كل الأشياء مسبقاً وهو يجهز ويدهن الحبل الحريري القوي بكميات كبيرة من بالصابون ليقلل من ألم الموت قدر الإمكان. لكنه الآن يفكر بطريقة مختلفة، إذ يرى أن خطة ستافروجين كانت منطقية. وكذلك أراد هو أن يعد لخطة مناسبة للموت. ستافروجين الذي قام برحلة إلى شمال الأرض وجنوبها، لم يجد شيئاً للحفاظ على قلبه وعاد إلى وطنه الأصلي كرجل متهم. أراد توميوكا أن ينهي حياته بعد أن عاد من بلاد الهند الصينية البعيدة كرجل خائب الأمل يائس من حياة البشر. لم يعد العالم بالنسبة له ممتعاً أو مسلياً.

«كان من الأفضل أن نغادر فوراً وألا نظل هنا، لكنَّكِ أردت أن نبقى ليومين أو ثلاثة. ما رأيك الآن؟» وجه توميوكا سؤاله هذا وأشعل سيجارة من سيجارة سابقة من علبة السجائر الأجنبية التي أعطاه إياها صاحب الحانة. وكذلك أشعلت يوكيكو سيجارة أخذ دخانها يتصاعد، ثم أخذت سحبة منها وقالت: «أعتقد أن الأمر ممتع. أود مقابلة ذاك الرجل اللطيف».

«إنه يحب الناس، فهو من النوع الذي يمكن أن يقال عنه رجل طيب. رجل طيب مثل كانو الذي سخرنا منه».

«أكره أن تقول ذلك».

في ذلك المساء سدد الاثنان فاتورة الفندق وقررا أن يعودا إلى طوكيو في

تلك الليلة. لكن قبل ذلك توقفا في الحانة فلم يجدا فيها سوى سائقين يحتسيان الساكي. اصطحب صاحب الحانة توميوكا ويوكيكو إلى غرفة خاصة ضيقة في الطابق الثاني، وطلب منهما أن يتصرفا وكأنهما في منزلهما. ثم جاءت امرأة أخرى غير تلك التي كانت هناك في منتصف النهار وأحضرت لهما الشاي. كان كوتاتسو تلك الغرفة في حفرة في الأرض، وقد عُلِّق على جدارها معطف وكيمونو يخصان النساء. صعدت المرأة التي كانت تعمل في منتصف النهار السلم، وكانت امرأة هادئة في حوالي الثامنة عشر أو التاسعة عشر من العمر وذات جسم أكبر من جسم يوكيكو، وبدت وكأنها على الأغلب قد أفاقت من نومها للتو. اعتادت تلك المرأة أن تفتح عينيها كثيراً بين الحين والآخر فتبدوان واسعتين جداً ولامعتين. وعلى الرغم من أنها لم تكن جميلة، إلا أن ملامح جسمها اليافع كانت تتألق بتوهج.

صادف ذلك اليوم عيد رأس السنة، ولذا فقد غادر الزبائن في الطابق السفلي مبكراً. وفي الحال قدمت تلك المرأة للجميع التهاني المعتادة برأس السنة الجديدة ثم غادرت. طلب صاحب الحانة من زوجته إغلاق المحل وصعد إلى الطابق العلوي حاملاً معه زجاجة ويسكي.

أخرج صاحب الحانة، وكان رجلاً قصير القامة سمين الجسم في الخمسينيات من عمره، بعض التفاح من جيوب سترته ووضعها على الكوتاتسو، وعزم على يوكيكو أن تأخذ واحدة. شرب الرجلان الويسكي وأخذا يتحدثان عن حكايا الجنوب ويحاولان تجميلها.

كانت الغرفة تتسع لست حصائر تاتامي، ولها سقف متدلٍ من الورق، وقد علقت خارطة العالم على جدارها. كانت زوجة صاحب الحانة تضع يديها حول غطاء الموقد ذا البدن المدور الناتئ، وبدت كأنها مشوشة التفكير وهي تجلس إلى جانب توميوكا الذي أخذ يسترق النظر إليها من الجانب بين الحين والآخر. أما يوكيكو فقد انهمكت بتقشير تفاحة، وبدأت تلتهمها بضجيج، وأخذت تدس أنفها في أحاديث الرجال وتثرثر بمفردها. وسُمع في الغرفة صوت حفيف الثلج

وهو ينحدر على زجاج النافذة وصوت صدى الرياح الذي بدا وكأنه دمدمة الجبال. أسندت المرأة التي كانت تجلس بارتياح بجانب الموقد خدها إلى إحدى راحتي يديها ومدت اليد الأخرى تحت غطاء الكوتاتسو. جلس توميوكا متصالب الساقين، وضرب دون قصد مقدمة قدمه بشدة على ركبة المرأة.. كان وجه المرأة جامداً.. حاول توميوكا أن يلمس يدها بيده اليسرى تحت الغطاء وضغط عليها بشدة وهو يواصل مراقبتها بهدوء بنظرات جانبية.. ازداد اتقاد مشاعره حتى تحولت إلى نار هائجة. أغلقت المرأة عينيها وهي مطأطئة الرأس، لكن يدها التي بللها العرق أظهرت تجاوباً دائماً مع يد توميوكا.

أُعجب توميوكا بقوة المرأة الغريزية، وشعر بالدم يتدفق نحو رأسه، فحمل بيده الأخرى الكأس وشرب، في حين كانت يوكيكو تقشر تفاحة أخرى.

ظل توميوكا بين الحين والآخر يراقب يوكيكو بعناية وهي تأكل التفاح بفمها المصبوغ بلون أحمر شفاه قاتم. لكن يوكيكو كانت تخوض مناقشة حول مواضيع مشتتة مع صاحب الحانة الذي وصفته بأنه رجل طيب مثل كانو والذي كان يتباهى بالساعة ذات الغطاء الذهبي التي كانت تلمع على معصمه البدين بوميض باهت.

لم تفترق يدا توميوكا وزوجة صاحب الحانة تحت الغطاء أبداً. وازدادت المرأة جسارة وتهوراً فحركت ركبتها بحيث أصبحت ملقاة على قدم توميوكا الذي ترك يدها للحظة، وقال بصوت مخنوق وحاد: «آه، هذه أيضاً إحدى تحولات القدر. ليس هناك أفضل من الاحتفال بالليلة الأولى في العام. إنها ليلة جميلة. خذ واشرب كأساً أخرى من الويسكي، وأنا سأشرب أيضاً في صحة لقائنا جميعاً هنا هذه الليلة».

وعندها ملأ توميوكا كأس صاحب الحانة حتى الشفة، ومد يده بالكأس إلى يوكيكو وطلب منها أن تشرب، ثم وضع الكأس على شفتيه، وجعل يوكيكو تشرب قدر ما تشاء من كؤوس الويسكي مفكراً بمدى قابلية قلوب الناس للتغير. فقد أصبحت مشاعره تجاه يوكيكو باردة من جديد. ثملت يوكيكو بسرعة لأن

الكحول قد سرى في جسمها بسرعة كبيرة، ربما لأنها لم تتناول طعام العشاء.

ظنت يوكيكو أن هذه المرأة الناعسة التي تطأطئ رأسها وتسنده إلى يدها لم تكن سوى امرأة خرقاء جداً عاشت حياة ريفية دون أي إحساس بالشباب مع هذا الرجل العادي، ونظرت إليها بعين الشفقة والعطف. لم يتبين لأحد ما كانت تفعله تلك المرأة، ربما لأنها ظلت صامتة كل الوقت. تفاقم ثمل يوكيكو فبدأت تخبر صاحب الحانة بحماسة ساذجة عن قصة علاقة الحب العاطفية التي نشأت بينها وبين توميوكا في الجنوب.

واصل الثلاثة الآخرون الشرب إلى أن فرغت الزجاجة، لكن توميوكا لم يثمل، فانتصب بسرعة على قدميه، وقال بأنه سيأخذ حماماً ويعود.

قال صاحب الحانة وعيناه تائهتان: «هيا يا سايكو، أرشدي الرجل إلى الطريق، خذيه إلى الحمام في غرفة تاجر الأرز. هل ستذهبين أنت أيضاً يا سيدتي؟»

«أنا لست بحاجة إلى حمام، فقد أخذت حمامين في كينداير منذ الصباح. كما أنني ثملة تماماً وأشعر بالدوار».

ملأت يوكيكو فمها من الجانبين بلحم الخنزير الذي قدم مع الشراب، ورفعت كأس الويسكي إلى شفتيها. طلب توميوكا استعارة منشفة يدين، فأخذت المرأة منشفتها المشمشية اللون التي كانت معلقة على الجدار وتبعت توميوكا إلى السلم الضيق المنحدر.

كان الجو مظلماً وقارساً. عند أسفل السلم انتظر توميوكا السيدة حتى تصل، وعلى أرضية الحانة حيث كومت الكراسي فوق الطاولات كانت الفئران تسرح وتمرح.

نزلت المرأة ووقف الاثنان وجهاً لوجه متقاربين ينظر كل منهما إلى الآخر بعينين لامعتين.

30

وقف الاثنان على الأرضية المتسخة عند أسفل الدرج المظلم، فسارع توميوكا لمعانقة سايكو التي التصقت به منقطعة الأنفاس تقريباً واستسلمت له ليفعل ما يشاء. وبينما كانت تستكين لقبلاته، سمعا فجأة يوكيكو وهي تضحك بصوت عال في الطابق العلوي، فتوقف توميوكا وأفلت سايكو التي توجهت بصمت نحو المدخل الخلفي للمحل، وقالت: «انتبه لخطواتك فالظلام حالك». أمسك توميوكا بسايكو من جديد عند خصرها، لكنها أفلتت يديه ونزلت على الدرج الحجري الضيق. كان الظلام يحيط بكل شيء في المكان، وقد انتشرت سحب الضباب في هواء الليل حول المصباح. بالقرب من عمود الإنارة كان هناك باب زجاجي مضاء من الداخل، فتحته سايكو وانتظرت توميوكا لينزل عن الدرج.

عندما وصل إلى الباب، كانت هناك شابة ترتدي كيمونو ذي ورود ساطعة وأكمام طويلة مسدلة ربطته بحزام زاهي الألوان وتهم بوضع قدميها في صندل خشبي. قالت الشابة دون أن توجه كلامها إلى أحد: «إن البرد قارس جداً»، ثم قامت بسرعة بهز وشاح أبيض كانت ترتديه على كتفيها النحيلين إذ لم تكن ترتدي المعطف الياباني القصير، ثم قالت: «مع السلامة»، وانطلقت مسرعة، ففسح لها توميوكا الطريق لتمر.

قالت سايكو: «إنها تعمل لدينا، فتاة جيشا».

دخلت سايكو أولاً، ثم تبعها توميوكا مغلقاً الباب الزجاجي خلفه. مر الاثنان عبر ممر بارد جداً فيه الكثير من التعرجات والمنعطفات المنحدرة نحو الأسفل إلى أن انتهى المطاف بهما في حمام واسع. كان من الواضح أنه حمام مختلط، ففي غرفة خلع الملابس كانت ملابس الرجال والنساء مرمية معاً في سلة مدورة ذات غطاء. وقالت امرأة في منتصف العمر كانت تقف أمام المرآة: «سايكو، لم آت اليوم لزيارتكما بمناسبة عيد رأس السنة. لكن رجاء أبلغي زوجك تهانيَّ، سأمر بكما غداً».

بدأ توميوكا يخلع ملابسه الغربية الطراز، وبدت سايكو وكأنها في انتظار أن يقوم بذلك، ففتحت قطعة قماش قطنية ولفت قطع ملابسه فيها الواحدة تلو الأخرى. في أثناء ذلك أخذ توميوكا ينظر إلى السلال من حوله ورأى رزمتين أو ثلاثاً من المناديل، فتساءل إذا ما كانت ملابس الناس تلف بالمناديل كإجراء احترازي لحمايتها من السرقة. ثم بدأت سايكو أيضاً تخلع ملابسها.

دخل توميوكا الحمام بسرعة ووجد فيه ستة أو سبعة رجال ونساء يجلسون في حوض الاستحمام القرميدي الواسع، وكان من الصعب معرفة إذا ما كانوا شباباً أو كهولاً. شعر توميوكا بشيء من الراحة النفسية في تلك الأجواء الحيوية المليئة بسحب البخار. دخلت سايكو الحمام أيضاً، وركعت تغسل نفسها بالماء الساخن عند الزاوية بالقرب من الباب.

بعد ذلك قفز توميوكا في حوض الاستحمام فأحاط الماء الساخن بكامل جسده البارد وأحرق بشرته. كانت سايكو نصف مخفية بسبب البخار تتحدث مع شخص آخر، لكنها سرعان ما دخلت إلى حوض الاستحمام وتقدمت ببطء من توميوكا وقد برزت كتفاها المكتنزتان ببشرتهما البيضاء وسط المياه الموحلة الحمراء. لمس توميوكا ساقها، في حين ادعت هي البحث عن منشفة اليدين التي غاصت بالماء فوضعت يدها على حضن توميوكا. وبما أن الماء أحمر، لم يستطع أحد أن يلحظ ما كان يفعلانه من الرقبة وحتى الأسفل. نظر توميوكا إلى

عيني سايكو بابتسامة غريبة، لكن سايكو توقفت عن الابتسام، وكأن طاقتها قد انتقلت بمجملها إلى أجزاء جسمها السفلية المغمورة بالمياه. كانت تتحرك خفية تحت سطح الماء في حين ظل رأسها يهتز دوماً مثل بطيخة عائمة على بعد مسافة ثابتة من رأس توميوكا. أحس توميوكا بأنه قد رأى هذا المشهد في مكان وزمان ما من قبل، لكنه لم يحاول أن يتذكر، وغمر جسمه بالماء حتى ذقنه تاركاً وجهه المبتسم يعوم فوق الماء، وجلس مقابل سايكو مرسلاً العنان لمخيلته. دخل رجلان محدثين ضجة، وبدأ أحدهم يغني «أغنية التفاح» في حوض الاستحمام. تمايل توميوكا مع ألحان الأغنية ونغماتها، وتأكد من أنه يدرك مشاعر صاحب الحانة.. ذاك الرجل الذي كان يعمل في بيع السمك، والذي جاء ليستقر في إيكاهو، موطن ينابيع المياه الحارة، من أجل العيش مع سايكو الشابة. سبحت سايكو إلى الطرف البعيد من حوض الاستحمام، ثم برزت فجأة من الماء، فبدا المنظر الخلفي لجسدها الممتلئ الرائع بالنسبة لتوميوكا أجمل منظر لامرأة عارية رآه في حياته.. شعر برغبة جامحة في جسدها، فسارع بالسباحة عبر حوض الاستحمام وخرج منه ووقف بجانبها. كانت رياح الليل القاسية تهب مصدرة صوت زئير عميق من الجبال وتداعب بلطف الحواف الناتئة من الحمام.

سألت سايكو: «هل تريدني أن أشطف لك ظهرك؟» بدا جسدها العاري الضخم وهي تجلس على الأرضية القرميدية وفخذاها الكبيران بموازاة بعضهما أشبه بجسد نيو عندما كانت تستحم. فجأة تذكر توميوكا وجه نيو وجسدها النحيف القوي وبشرتها القاتمة ورائحة أنفاسها عندما تمضغ عوداً من القرفة.. تذكر كل جوانب الحياة في الهند الصينية.. فتولد لديه حنين شديد في لحظات غير متوقعة. عندما كان توميوكا يشعر بالتعب ويلازم سريره، كانت نيو بين الحين والآخر تقشر بعض لحاء شجر القرفة، وتنقعه بالماء الحار، وتحضره له، وتخبره بأن فوائد القرفة معروفة منذ قديم العصور وبأن الرجال يستخدمونها كوسيلة لاستعادة الشباب. من الواضح أن القرفة المجددة للشباب تميزت بقيمة كبيرة بوصفها دواءً ملكياً. وقد خرج توميوكا وأصحابه بحثاً عن أشجار القرفة، التي

تعرف في أنام باسم كاتسورا، في مناطق الجبال غير المأهولة في مقاطعة نين. كما نمت هذه الأشجار متوسطة الطول في مناطق متفرقة من جبال الشمال، واستُخدم لحاء جذوعها في البلاط الملكي في أنام، لذا فقد حُرِّم على عامة الشعب تقشيره وجمعه. كان زعماء قبائل جبل مون يخرجون للبحث عن أشجار القرفة بعد حصولهم على إذن خاص من المسؤولين في أنام ويتغلغلون في أعماق المناطق الجبلية بعد أدائهم لطقوس دينية ميمونة. كان يُعتقد بأن العثور على شجرة قرفة يعتمد على الحماية الإلهية، وقد علم توميوكا بهذا من ماركو في مكتب الغابات. تعوَّد رجال قبائل مون الخروج لسنة أو سنتين إلى مناطق بعيدة يبحثون عن الأشجار حسب رائحتها، ويقال إن الحظ نادراً ما كان يحالف البارعين منهم فقط في العثور على واحدة من هذه الأشجار. وعندها يتوجب عليهم إبلاغ السلطات التي تطلب منهم تقديم عينة من اللحاء لتضع عليه ختم الحكومة. شم توميوكا رائحة القرفة لعدة مرات في الجبال المحيطة بتانوا، وقد تذكرها عندما كانت سايكو تشطف ظهره وهي عارية. لا بد أن الطفل الذي أنجبته نيو منه قد أصبح الآن قادراً على نطق بعض الكلمات والسير لخطوات قليلة. تساءل توميوكا عن الحياة التي تعيشها نيو وهي تربي طفلاً دون أب، وأخذ يتخيل حياة تلك المرأة التي لن يراها ثانية والطفل الذي أنجبته منه.

كانت الأضواء الخافتة تتراقص في الحمام بين الحين والآخر. سأل توميوكا:

«منذ متى وأنت تعيشين في إيكاهو؟»

«منذ نحو عامين. أتعلم؟ أريد أن أذهب إلى طوكيو، فقد ضجرت من هذا المكان المنعزل. العمل فيه سيئ... فعندما يكون الطقس بارداً لا يأتي أحد إلينا».

«المكان ليس معروفاً».

«إنه ليس مكاناً جيداً على الإطلاق. حتى زوجي يقول إنه ليس جيداً وإنه سيعود إلى طوكيو ويعمل من جديد في مجال عمله السابق. لكنني لا أستطيع أن أتقبل فكرة العمل في متجر أسماك. أريد أن أذهب إلى طوكيو بمفردي وأصبح راقصة. هل تتذكر فتاة الجيشا التي رأيناها عند الباب سابقاً؟ أنا أتعلم الرقص

منها.. يقولون إنه يمكنك في طوكيو كسب المال الكافي لمعيشتك. لذا أود أن أجرب ذلك. هنا لا يوجد عمل إلا في الصيف».

«راقصة؟ لا بأس بأن تصبحي راقصة، لكنك لن تتمكني حقاً من الاعتماد على ذلك فقط، بل على الأرجح أن الأمر سينتهي بك أخيراً إلى بيع جسدك».

«لكن أود أن أذهب إلى طوكيو على الرغم من ذلك. يحاول زوجي وضع كل العراقيل ولا يبدو أنني سأخرج من هنا».

سكبت سايكو دلو الماء الأخير على ظهر توميوكا، ثم دخلت إلى حوض الاستحمام من جديد محدثة طرطشة ماء صاخبة.

غادر الاثنان الحمام أخيراً، وعادا من جديد إلى الطابق العلوي، فوجدا يوكيكو تتسامر مع صاحب الحانة الذي كان لايزال يشرب الويسكي مستمتعة ومتسلية بالحكايات التي كانت ترويها عن ذكرياتها المتنوعة في مستعمرة الهند الصينية الفرنسية.

«لا بد أنكما قد تأنيتما، ظننت أنكما هربتما».

كانت يوكيكو تمزح، لكن توميوكا اندهش من حدسها. أما سايكو فلم يرف لها جفن، وعلقت منشفة يديها الباردة على مسمار في الحائط، وزحفت لتحت غطاء الكوتاتسو. كان خداها متوردين كما لو أنها تضع عليهما أحمر الخدود، لكنه كان في الحقيقة لوناً طبيعياً، وبدت تشبه كثيراً نساء الجبال. كان وجهها مشرقاً ومتألقاً حتى دون أي تبرج. أخذ توميوكا ينظر من غير قصد إلى صدر سايكو الممتلئ، وقد جعله جسمها الضخم يدرك ما ستؤول إليه حياته مستقبلاً. لم يعد راضياً عن ارتباطه بيوكيكو ولا متجاوباً مع وجودها معه، كما لم تعد لديه أية أفكار تتعلق بالموت. كانت سايكو بين الحين والآخر تنظر بعينيها البراقتين إلى توميوكا الذي أحس بحرية بالغة لكونه في بلاد غريبة تماماً كما أحس عندما كان في الهند الصينية. لم يكن متحرراً كلياً من المساءلات الأخلاقية، لكنه في أعماق نفسه لم يكن يكترث على الإطلاق لزوج سايكو أو ليوكيكو. أراد أن يعود إلى الحياة من جديد عبر إغواء سايكو. شعر بنوع من الإثارة المتوهجة، وتمنى

لو يذهب صاحب الحانة ويوكيكو إلى مكان ما بعيد. وظن أنه لو لم يكن الاثنان موجودين لتمكن من الانطلاق بحرية مع سايكو في حياة جديدة. كان متأكداً من أن بإمكانه التخلص من جميع الروابط الأسرية، ووصل لحد أنه تمنى أن يقضي بعض الوقت في السجن مع سايكو بسبب جريمة قتل هذين الاثنين. كان صاحب الحانة ويوكيكو ثملين. استسلم صاحب الحانة لحالة من النوم الخفيف والسبات بالقرب من الكوتاتسو.

كانت عينا يوكيكو نصف مغلقتين يبرز من فتحتيهما بياض العين فقط. خففت سايكو قوة الساكي الذي أحضرته، وسكبته في كأس يوكيكو التي كانت تشعر بجفاف في حلقها فشربته كله وأخذت تتفوه بكلام غير مفهوم. ثم سحبت جسم زوجها إلى غرفة نومهما المجاورة دون أن يمد لها توميوكا يد المساعدة، بل اكتفى بسكب المزيد من الساكي في كأس يوكيكو التي كانت تنفجر ضاحكة بين الفينة والأخرى ناشرة رذاذ الشراب من حولها. بدا وجهها وكأنه يتقلى فوق نار هادئة.

«حليب جوز الهند طيب المذاق للغاية، لكن رائحته كريهة عندما يكون بارداً حقاً. أريد بعض حليب جوز الهند».

«هذا حليب جوز الهند».

سكب توميوكا المزيد من الساكي، وسرى الخدر في كامل جسم يوكيكو فاستسلمت لحالة سبات. أشعل توميوكا سيجارة وهو يصغي لصوت الرياح، في حين وضعت سايكو إحدى يديها حول الموقد ذي البدن المستدير، واستخدمت اليد الأخرى للإمساك بقدم توميوكا التي كانت تتجه نحو ركبتيها. كان سائلاً شاحباً يسيل من عينيها الواسعتين. زحف توميوكا إلى القرب من الموقد وسحب سايكو نحوه واضعاً يده خلف رقبتها.

«لا نستطيع».

«إنهما ثملان، لن يعرفا أيَّ شيء».

«لا، مازالت زوجتك تتحدث عن شيء ما».

نظر توميوكا بكراهية إلى وجه يوكيكو الثملة وقد خلا من أي مساحيق تجميل، وشعر بأن الستار قد أسدل على هذا المشهد من حياته مع هذه المرأة التي كانت تتقلب وتدور وتواصل التحدث إلى نفسها، ثم أخذت تضحك وتغني أغنية تتحدث عن الصدق في عيني العاشقين عند أول لقاء بينهما. فكر توميوكا بغبائها وأبعد الموقد الذي كانت تدفعه سايكو بركبتيها برفق.

كانت يوكيكو تفتح عينيها بين الفينة والأخرى، لكن الظلام كان محيطاً بكل ما حولها، وتناهى إلى مسمعها من مكان ليس ببعيد عن أذنيها صوت شخير رجل نائم. استطاعت أن تسمع صوت الشخير، وفي ضوء مصباح الشارع الخافت المتسلل إلى الغرفة عبر الستائر رأت شخصين يتهامسان ويتعانقان. كان حلقها يحترق من العطش، وأرادت أن تصل إلى مكان يتدفق فيه حليب جوز الهند بغزارة. بدت لها الغرفة وكأنها تتأرجح من جانب إلى آخر مثل أرجوحة.. لم يكن لديها أي قوة على الإطلاق في كتفيها أو رجليها.. أرادت بشدة أن تشرب بعض الماء، لكن حلقها العطشان بدا مسدوداً. لم تستطع أن تنادي أحداً، ثم استجمعت كل قواها حتى تمكنت أخيراً من الانقلاب على بطنها. وفجأة أحست بأحد يمر من فوق وسادتها في الطريق نحو الباب الورقي، وصدف في تلك اللحظة أن فتحت عينيها، فرأت شكل امرأة طويلة تفتح الباب الورقي وتختفي في الغرفة المجاورة، فصاحت بها يوكيكو بأعلى صوتها: «أرجوك أعطني بعض الماء».

أُغلق الباب الورقي، ولم يأتها رد، فصاحت يوكيكو من جديد: «أريد بعض الماء». وبما أنه لم يكن هناك أي مؤشر على قدوم أحد لمساعدتها، زحفت يوكيكو حول الكوتاتسو تتلمس طريقها بيديها.

31

أقام توميوكا ويوكيكو لمدة ثلاثة أيام في النزل. غير أنَّ يوكيكو بدأت تلح على العودة إلى طوكيو، إذ بدأ يتولد لديها، بفعل حدسها كامرأة، رد فعل ضد سايكو. في حفلة الوداع التي أقيمت مساء اليوم السابق لرحيلهما الفعلي من إيكاهو جرى التحايل على صاحب الحانة حتى يسرف في الشراب. لكن يوكيكو حرصت هذه المرة على أن تشرب بحذر بعد أن أدى إسرافها في الشراب في الليلة الأولى إلى إصابتها بألم دائم في الرأس وثقل في المعدة. أخذت سايكو تسكب لها الساكي بسخاء، إلا أن يوكيكو كانت تسحب منفضة نحوها خلسة وتفرغ محتوى الكأس فيها. لكنها كانت تتصرف كثملة. أغلق توميوكا عينيه، وأخذ بين الحين والآخر يردد أغنية أنامية، فيما واصلت يوكيكو النظر إلى تعابير سايكو وكأنها تتجسس عليها، واعتقدت أن الشبح الغامض الذي رأته في الليلة الأولى يشبه سايكو. بدا لها وقوفها بجانب الباب الورقي المنزلق لغزاً غامضاً. تعدل مزاج صاحب الحانة وأخذ يتحدث عن خططه بالعودة إلى طوكيو وتأسيس عمل جديد له هناك.

«أود أن أبني محلاً لبيع الساكي في إحدى المناطق المحترقة المدمرة في هونجو. ستكون مساحة أربعين يارداً مربعاً مناسبة حتى ولو كان سعر الأربعة ياردات

عشرين ألف ين. وسأخصص ثلاثمائة ألف ين لتزويد المحل بالبضاعة. يقولون إنه ليس من السهل العثور على سكن في طوكيو هذه الأيام. لكنني لا أستطيع الاستمرار بمثل هذا العمل إلى الأبد. أريد أن أعرض المكان بمجمله للبيع، لكن ليس لدي المقدرة على الاستمرار حتى الصيف، بل إنني أفكر في أن نذهب كلانا للإقامة لدى أحد أصدقائي في تسوكيجي».

كان توميوكا يفتح عينيه بين الحين والآخر لينطق بتعليق مناسب، لكنه في الحقيقة لم يكن يأبه بأي طريقة بما كان يقوله الآخرون، ثم رفع الكأس إلى شفتيه بعد أن استنزف كامل طاقته. أحب صاحب الحانة توميوكا المتواضع قليل الكلام وبدا راغباً في إخباره بكل شيء، فقال إنه وسايكو قد ضجرا كلياً من عملهما الحالي. على الرغم من أن الرياح لم تهب في تلك الليلة إلا أن برودة الطقس كانت شديدة تنخر العظام، وقد سُمع صوت اختصاصي التدليك يمر قرب النافذة وهو يعزف على الناي.

قال توميوكا فجأة: «حسناً الآن، هل نذهب للاستحمام؟» وعندها نهضت سايكو فوراً على قدميها، وحملت علبة صابون ومنشفة يدين، وقالت: «وأنا ذاهبة لأدفئ نفسي بحمام أيضاً».

ثم وقفت يوكيكو بلا مبالاة وقالت: «نعم، سأذهب معكما أنا أيضاً».

عندها قالت سايكو وقد بدت مستاءة فجأة: «حسناً، اذهبا كلاكما معاً إذاً».

اندهشت يوكيكو من سلوك سايكو الغاضب والفظ ولحقت بتوميوكا إلى الطابق السفلي. انتعل كل منهما صندلاً خشبياً وخرجا والهواء البارد يلفح جسديهما.

«سايكو امرأة غريبة، تبدو مفتونة بك، هناك شيء غريب».

قالت يوكيكو هذا بصوت لطيف في محاولة للاحتيال عليه لقول الحقيقة، لكن توميوكا رد بمرح وظهره لها: «أوه، حقاً؟»

«حسناً، إنها قردة ماكرة، امرأة خائنة».

«أوه، هل هي كذلك؟»

«أنت وأسئلتك البريئة. دائماً تتصرف بلا مبالاة تجاه المرأة ثم ينتهي الأمر بك بمعانقتها».

«ليست لدي أي نية خاصة بمعانقة تلك القردة. هيا، دعينا من الحديث عن هذا الأمر».

«لكن لا تقل إنك لست مهتماً بها، أليس كذلك؟»

«لست مهتماً بها».

«أتساءل لماذا غضبت فجأة عندما قلت إنني سأذهب إلى الحمام. إنها مفتونة بك. الخدمة هنا جيدة، لكن بالنسبة لك فقط».

«حقاً؟ لم ألاحظ ذلك حتى الآن. هل نبقى هنا لأربعة أو خمسة أيام أخرى؟»

«بالتأكيد، سيكون ذلك ممتعاً».

دخل الاثنان إلى الحمام في منزل تاجر الأرز وهما يضحكان، ووجدا هناك سبعة أو ثمانية أشخاص يستحمون ويتحدثون بصوت مرتفع عن أسعار الأرز في السوق السوداء. كان من الواضح أنهم أصدقاء ترافقهم فتاتان من الجيشا تسكبان الماء على ظهورهم. بين الفينة والفينة كان الأصدقاء يسخرون من صديقهم الذي يسكب الماء عليه. كانت ليلة مفعمة بالحياة. نظر توميوكا بلامبالاة إلى جسد يوكيكو العاري وقد أحزنه افتقاره لروعة جمال جسد سايكو. بدت مؤشرات الكبر واضحة على جسم يوكيكو بالمقارنة مع جسمي فتاتي الجيشا الشابتين. لكن مع ذلك كانت ساقاها ناعمتين ونحيفتين وكان تناظرهما مع جذعها ممتعاً للناظر. تعمدت يوكيكو أن تهتم بالاستحمام دون أن تزعج نفسها بغسل ظهر توميوكا كما كانت تفعل فتاتا الجيشا للرجال الآخرين.

انتهت يوكيكو من الاستحمام بسرعة وغادرت حوض الاستحمام، وتوجهت نحو السلة التي رمت فيها ملابسها، ورأت أن ثياب توميوكا في السلة المجاورة قد لُفَّت خلال الدقائق القليلة الماضية بغطاء من القماش القطني الأزرق، فظنت أن تلك

لم تكن السلة الصحيحة. نظرت من حولها ولم تتمكن من رؤية سلة توميوكا. عندما اختلست النظر من زاوية الغطاء القماشي، استغربت لرؤيتها ثياب توميوكا فيه. كان توميوكا على وشك الاستعداد لمغادرة حوض الاستحمام، لذا ارتدت يوكيكو ملابسها بسرعة، ووقفت أمام المرآة وأخذت تمشط شعرها وتراقب توميوكا من المرآة وقد بدا محتاراً بعض الشيء من الغطاء القماشي. لكنه سرعان ما فك الغطاء وكأنه لم يكن هناك أي شيء غريب حوله، وبحث في محتوياته واستدار ونظر نحو يوكيكو بعد لحظة، ثم ارتدى سروالاً داخلياً جديداً. كان ذاك السروال الناصع البياض لغزاً بالنسبة إلى يوكيكو. أسرع توميوكا بارتداء بقية ملابسه، ثم جمع الغطاء على شكل كرة ودسه في جيبه. كانت تلك الأمور غريبة لدرجة لا تطاق بالنسبة إلى يوكيكو فابتعدت عن المرآة وقالت باستياء: «من الغريب أن تلف ملابسك بمنديل. كما أحضروا لك سروالاً داخلياً جديداً. ماذا حل بالسروال القديم؟»

دخل توميوكا مسرعاً إلى الحمام ليعصر منشفة يديه دون أن يجيب. شعرت يوكيكو بطعنة عنيفة في قلبها، لكنها لم تقل شيئاً عندما عاد توميوكا، بل سبقته إلى الممر البارد. أرادت أن تقنع نفسها بأنه غالباً ما يحاول الهروب من مثل هذا النوع من المسائل وأنه خطأ منها ألا تلاحظ هذه الحقيقة. واعتقدت أن عليها أن تجنب نفسها الانجراف والدوران في محيط ذكرياتها مع توميوكا، لأن ذلك قد يؤدي إلى شعورها بوحدة لا تحتمل. وقررت أن تعيش بمفردها في الوقت الراهن.

صعد توميوكا ويوكيكو الدرج الحجري دون أن يتكلما، وكانت النجوم تلمع كأضواء سفينة تشق عباب السماء. بدأت يوكيكو تصفر في محاولة لتحسين مزاجها، وكانت بين الحين والآخر تمسح بأكمام معطفها الخارجي الدموع التي كانت تتدفق من عينيها. لقد تحول جفاف القلب الذي شعرت به لدى عودتها من هاي فونغ إلى دموع. كيف تمكنت عودتها إلى اليابان من تحويل هذه الدموع إلى شعور فاتر بالوحدة؟

«ما الأمر؟»

«لا شيء».

«هل تساورك الشكوك؟»

«شكوك حيال ماذا؟» كان الغضب قد سيطر على يوكيكو، لكنه تلاشى بنفس السرعة التي ثار فيها قبل أن تستطيع التعبير عنه. وهكذا زال هياجها بالتدريج. في أثناء صعودهما الدرجات شاهدا بجانب المنزل زقاقاً يؤدي إلى الطريق الرئيسي فقال توميوكا: «ما رأيك في الذهاب بنزهة قصيرة؟»

«لا أريد أن أصاب بالبرد».

توقف توميوكا، ووضع منشفة يديه التي بدأت تتجمد على كتفه، وقال بصوت منخفض ومضطرب: «أعصابك تبدو متعبة»، ثم أردف: «لا، أظن أن أعصابي هي المتعبة. فأنا لا أشعر بالارتياح. أصبحت لا أحتمل الوحدة.. لا أحتملها أبداً. أود أن أتمشى إلى أي مكان دون تحديد. مازلت أفكر بأنانية حتى الآن».

«الجو بارد هنا. على أيّة حال أود أن أعود وأخلد مباشرة إلى الفراش لأنني أريد أن أغادر في الصباح الباكر غداً».

«أتعنين أنك ستغادرين بمفردك؟ أنا ذاهب أيضاً، بما أننا أتينا معاً لا بد أن نغادر معاً».

«أعتقد أن ذلك صحيح، لكنك شخص صعب المراس. لم أعد أبالي أبداً. لنتوقف عن الحديث عن ذلك، فساقاي ترتعشان».

صعد الاثنان إلى الطابق العلوي من المدخل الخلفي. لم تكن سايكو موجودة في الغرفة المجاورة في حين كان صاحب الحانة يطلق العنان لشخيره. أمسك توميوكا بزجاجة ساكي من على طاولة الشاي، ووضعها بالقرب من أذنه وهزها، فتبين أنه لايزال فيها القليل. سكب الساكي في كأس وتنحنح ثم شربه. أثر غياب سايكو وعدم وجودها في السرير إلى جانب صاحب الحانة في توميوكا ويوكيكو العائدين من حمام الينابيع الحارة، فقد فكرا ملياً، كل واحد منهما بطريقته، بغياب سايكو. وضعت يوكيكو ساقيها الباردتين تحت غطاء الكوتاتسو، وأخذت تفكر بحياتها بعد الافتراق عن توميوكا في طوكيو. انتابها شعور بأن هذا الغياب لأكثر من أسبوع ساعد في توضيح ملامح حياتها في إيكيبوكورو لاحقاً.

32

عاد الاثنان إلى طوكيو في مساء اليوم الخامس من العام. عادت يوكيكو إلى مخبئها مع توميوكا وكانت أكثر إحباطاً من وقت مغادرتها طوكيو. عندما ذهبت إلى منزل تاجر أواني المطبخ الرئيسي لتبلغ أسرته تهانيها بمناسبة عيد رأس السنة، بدا صاحب المنزل غير راضٍ، وكان ذلك بالتأكيد بسبب غيابها لعدة أيام. عندما فتحت يوكيكو قفل السقيفة شعرت وكأنها تتطفل على منزل شخص آخر. أشعلت الكهرباء التي جرى توصيلها حديثاً ووضعت قابس الموقد الكهربائي الصغير وعبثت بمفتاحه. كانت الفوضى تعم الغرفة، وعلى غطاء الكوتاتسو وضعت رسالة تركها لها إيبا يخبرها فيها أنه أقام هنا ليومين في انتظارها، وينصحها بالعودة إلى مسقط رأسها ولو لمرة واحدة على الأقل، ويبلغها بأن عائلة إيبا ستجتمع في ساجينوميا للاحتفال بمهرجان الأعشاب السبعة[1] القادم، وأن عليها محاولة القدوم في ذلك اليوم لقضاء ليلة معهم. في الحال مزقت يوكيكو الرسالة إلى قصاصات صغيرة، ووضعتها في الموقد الفخاري المحمول، ثم أشعلت النار في الكوتاتسو وأعدت القهوة على الموقد الكهربائي.

(1) تقليد ياباني يقام في السابع من يناير من كل عام ويتناول فيه اليابانيون سبعة أعشاب مع عصيدة الأرز من أجل طرد الشر وتمني الصحة والعمر المديد.

جلس توميوكا وهو يضع ساقيه تحت الغطاء. أشعل سيجارة وأخذ يمرر يديه بصعوبة عبر شعره، ثم سأل: «هاي، هل لديك أي كمية من الساكي هنا؟» حملت يوكيكو زجاجتين أو ثلاثاً كانت موجودة بزاوية الغرفة ورفعتها بصمت نحو الضوء وقالت: «لا، لا يوجد شيء».

أدرك توميوكا أنه وصل إلى مرحلة أدمن فيها على شرب الساكي كل ليلة، فإن لم ينعش نفسه بهذا الشراب سرعان ما يقع في هوة عميقة من اليأس والاكتئاب. تذكر كيف ترك سايكو تتخبط عندما طلبت منه أن يأخذها معه بعيداً، وبدت له تلك الحقيقة جزءاً من الماضي البعيد.. لقد أحبها كثيراً، لكنه في الوقت نفسه لم يكن حقاً مكترثاً لأمرها بطريقة أو بأخرى. وعندما طلبت منه أن يعطيها عنوانه، أعطاها عنواناً مزيفاً. لقد عاد إلى طوكيو مرتدياً الملابس الداخلية التي أعطته إياها سايكو، لكنه لم يفكر بذلك كثيراً.

«أتريد شراباً؟»

«نعم، أود ذلك».

قالت يوكيكو وهي تعد القهوة: «انهض إذاً»، فهي لم تشعر برغبة في الخروج لشراء الساكي.

«هل مازال هناك ما يقلقك؟»

«ما الذي سيقلقي؟»

«أوه، لا شيء. إذاً ما رأيك أن نحتفل بنجاتنا وبقائنا على قيد الحياة؟»

«كما لو أن سايكو أنقذتنا؟»

«تلك القردة؟»

«جسمها جميل، أليس كذلك؟ لقد اغرورقت عيناها بالدموع عند موقف الحافلات».

«لا أعرف، لم ألحظ ذلك».

وفيما كانا يحتسيان القهوة شعرت يوكيكو برغبة في أن تنعم بنوم عميق بمفردها الليلة. منذ أن غادرت إيكاهو لم ترغب في شرب قطرة واحدة من الساكي.

أنهى توميوكا شرب القهوة، وقال إنه سيخرج لشراء بعض الساكي ويعود، فتركته يوكيكو يذهب.. ربما كان قدره أن يدمن على الشراب. كان الطقس في طوكيو بارداً فوق العادة. خرجت يوكيكو إلى خلف المنزل الرئيسي لإحضار بعض الماء لتغسل الأرز، وفكرت باحتمال أن يكون جو قد جاء لزيارتها، لكنها لم تعد تكترث بالأمر الآن. ملأت الدلو بالماء بواسطة مغرفة وعادت إلى السقيفة حيث وجدت أن توميوكا قد عاد بزجاجة ساكي كبيرة سعة ليترين. سكب توميوكا بعض الساكي في إبريق شاي ووضعه على الموقد الكهربائي.

«أنت تعشق الساكي».

«نعم. إنه عشقي الأهم هذه الأيام. ألا تريدين أن تشربي القليل منه؟»

«لا أريد أياً منه، معدتي تؤلمني».

«لا تقولي هذا. لم لا تشربين القليل منه؟ سيجعلك ذلك تشعرين بتحسن».

«سأسلق أرزاً وآكل. لا أريد ساكي».

غسلت يوكيكو الأرز في وعاء ووضعته يغلي فوق الموقد الكهربائي، في حين سكب توميوكا جرعة ثانية من الساكي في فنجان الشاي، وأخرج من جيبه مكعبي نرد صغيرين أعطته إياهما سايكو خلسة عند رحيله وبدأ يرميهما على لحاف الكوتاتسو. استقر النرد على الرقمين اثنين وخمسة، فتشاءم بذلك لأنهما كانا أكره رقمين لديه. غضب توميوكا ورمى النرد مرة ثانية، فاستقر هذه المرة على الرقمين أربعة وخمسة. شعر بشيء من السخط، فرمى النرد مرة أخرى لكنه عاد إلى النتيجة الأولى وحصل من جديد على الرقمين اثنين وخمسة.

«هل نضج الأرز؟»

«بعد قليل».

«ألا تعتقدين أن إيكاهو كانت مكاناً ممتعاً؟»

«نعم، ربما لأن تلك القردة كانت هناك».

«نعم».

«هل أنت على علاقة حب معها؟»

«نعم».

«يستحسن بك العودة إلى هناك».

«سيكون الذهاب مزعجاً للغاية».

«لماذا غضبت؟ أنت تحبها كثيراً».

«نعم، أنا أحبها. إنها امرأة تعبر عن كل شيء بجسدها ودون أن تنطق بكلمة. أود أن أراها ثانية».

«إذاً عليك الذهاب لرؤيتها ثانية».

«فات الأوان.. لقد تخلصت منها».

كانت يوكيكو على وشك قول شيء ما عندما هز قطار شحن كان يمر من محطة إيكوبوركو الأرض مثل زلزال جعل السقيفة ترتجف. تراءى في عيني توميوكا بريق عيني سايكو الجميلتين وهما تلمعان كعيني وحش، وفكر بجسدها العاري الأبيض المكتنز المشدود، وتذكر أنفاسهما وهما يشبكان أصابعهما بصمت في الظلام. تولدت لديه رغبة قوية في سايكو بعد أن أصبح ثملاً.. كان شعرها الكثيف المموج ينسدل مثل شعر عنق الفرس. تفاقمت حالة اليأس لديه، فأخذ يرمي مكعبي النرد، اللذين كانا بحجم حبتي بازلاء، على غطاء الكوتاتسو لمرات ومرات. مر قطار الشحن وابتعد وتلاشى معه اهتزاز الأرض. رفع توميوكا الفنجان الرابع من الساكي إلى شفتيه، فيما أنزلت يوكيكو القدر عن الموقد. عندها فقط شعرت بكره فظيع تجاه سايكو، فقد كانت كلمات توميوكا بأن سايكو تعبر على كل شيء بصمت بجسدها تخز جسمها مثل الإبر، ثم تذكرت أن ذلك الشبح الغامض الذي رأته عندما كانت ثملة في تلك المرة كان شبح سايكو.

«أنت رجل مخيف».

لم يجب توميوكا، بل واصل رمي النرد بهدوء. كان الأمر مرهقاً، فهو لا يرغب في العودة إلى زوجته كونيكو، وأحبطه تخيله لمنظرها وهي تجلس في المنزل الذي أصبح خاوياً. لكنه كذلك لا يحمل أي مشاعر عميقة تجاه يوكيكو، فقد بدأ يتوضح مكرهما الذي كانا يحاولان من خلاله تنقية علاقتهما وتحويلها

إلى صداقة حميمة. كما أن الزمن الذي اتخذ فيه من يوكيكو عشيقة له قد ولى وغاص في أعماق الماضي البعيد.

33

شرب توميوكا معظم الليترين اللذين احتوتهما زجاجة الساكي.

«اعتدتَ أن تشرب الكثير من شراب الشيري[1] في دالات».

سكبت يوكيكو كمية أخرى من القهوة وشربتها بعد أن انتهت من إعداد الأرز، وأخذت تراقب توميوكا وهو يشرب الساكي ويتحدث وحده عن مشاعره وأحاسيسه، وذهلت بأنه قد أفرغ الزجاجة الكبيرة بأكملها تقريباً. ربما أصبح الساقي مخدراً له. لكنه إذا واصل شرب الساكي يومياً فلن يستطيع أن يكسب سوى القليل، مهما كان العمل الذي يمارسه جيداً. غضبت يوكيكو لأن توميوكا فقد المقدرة على التفكير بالأمور بجدية ومناقشتها معها منذ أن بدأ يورط نفسه في السكر والشراب. كان وجهه مفعماً بالشباب والنضارة في الهند الصينية، لكنه الآن يبدو منهكاً ونحيلاً لدرجة مرعبة.

«لماذا تحدقين في وجهي؟ هل تحاولين ملاحقتي ومحاسبتي؟ ماذا، هل أنا عقبة في طريق العمل؟»

«عَمَّ تتحدث؟»

«لا، المهم أن تعرفي متى تغادرين وكيف تتمكنين من تسديد حساباتك. طالما

(1) الشيري شراب مسكر يصنع من العنب الأبيض.

أنك تدركين هذا الجانب من الحياة، ستتمكنين من المضي قدماً دون أي مشاكل أو حوادث. إننا بالطبع منفصلان هذه الأيام، وكل منا سيمضي في طريقه».

«أنت ثرثار. لا تشرب أي كمية أخرى من الساكي، وأرجوك أن تخلد لفراشك. على الرغم من أنك تقول إن وقت الانفصال وتسديد الحسابات أمران هامان، إلا أنك تنحدر نحو الهاوية بسهولة. ما هذا؟»

«لا يجب أن تغضبي هكذا. فغداً سنذهب في اتجاهين متعاكسين، سيسلك كل منا طريقه. ما حدث في إيكاهو ليس ذا أهمية، ولا تحسبينه موقفاً ضدي يا عزيزتي يوكي».

وقفت يوكيكو تراقبه وهو يثرثر. كانت شفتاه بنفسجيتين وشعره مسدلاً على جبينه.

«أنت إنسان يائس، لكن الآخرين لا يرون بأساً في ذلك، وهكذا تتيسر أمورك. إنك لعوب وخائن، ولكنك وجل ولا تصبح شجاعاً إلا عندما تثمل... أنت كاذب».

«نعم، كاذب، هه؟ هيا، من المؤكد أنك تستطيعين التفكير بأمور أسوأ لتقوليها عني».

«نعم، أنت رجل تمتلك مقدرة هائلة على الخداع ولكنك تخفيها، كما أنك لست من النوع الذي يستسلم ويتنازل بسهولة. على الرغم من امتلاكك القدرة الجيدة على التخطيط والتكتيك، إلا أن تفكيرك بكل بساطة لا يجدي نفعاً في مجال التجارة. ربما يكون هذا هو الجانب البيروقراطي من شخصيتك. ولكن من يعلم، ربما تبلي حسناً لو استطعت ركوب أمواج هذا العالم الهائج يا سيد توميوكا».

«مازال المستقبل أمامي. هاي، لست بحاجة إلى أن تعامليني على أنني غبي أبله. على الرغم من أنني أبدو وجلاً بعض الشيء، إلا أن لدي رغبة أكثر من غيري في كسب الكثير من المال».

«إذاً لماذا أردت أن تموت؟»

«وماذا عنك؟ أريد أن أعيش، ولذا أنا أفكر أيضاً في الموت. عندما أفكر

بوحدة الموت ألجأ إلى الشرب هكذا. أفتقر للشجاعة، ولكنني اعتدت على هذا الأمر. أظن أن كل إنسان يفكر في الموت في مرحلة ما من حياته، أليس كذلك؟ نحن فقط من نعاني من إزعاج الوعي الذاتي يحوم فوق رؤوسنا حتى في مسألة الموت. لا نستطيع أن نتابع ونقوم بذلك ببساطة. إننا نبدو من السماء بحجم حبوب الدخن[1]، لكن لدينا المقدرة على التفكير بمنطق والتفكير جيداً بأنفسنا والتصرف بفوقية. ألم يكن هناك جميع أنواع الناس السيئين في هاي فونغ عند مغادرة السفينة؟ لقد أرادوا العودة إلى الوطن بسرعة، ولذا حاولوا الصعود إلى السفينة حتى ولو كان عن طريق إبعاد الآخرين. حتى إن بعضهم قال إن كل من حولهم كانوا مجرمي حرب باستثنائهم هم.. هؤلاء هم الناس. والأسوأ على الإطلاق أولئك المعتدون بأنفسهم. ليس بشيء أن تغوي امرأة. لكنني أعرف شيئاً واحداً وهو أن كانو كان رجلاً طيباً ونزيهاً، غير أنَّ حظه كان سيئاً دوماً، على الرغم من أنه لم يكن يعتبر نفسه متعثر الحظ أبداً».

«علينا أنا وأنت أن نعتذر لكانو. لقد عذبناه وسخرنا منه. نحن من أسأنا التصرف بحقه. وعندما اعتُقل واقتيد إلى سايجو، لم يشر إلى أدنى ما يمكن أن يضرنا. على الرغم من أن كانو قد أصابني أنا بالجرح، إلا أنك أنت الذي استفاد منه، وذلك لأنك مخادع محتال».

«كان حظي طيباً، فخرجت بسلام».

«ظل كانو طوال فترة الحرب يؤمن بأننا سننتصر، لا بد وأنه اندهش عندما عاد أخيراً. عندما كنا هناك، حتى أنا ظننت أن كانو كان غبياً بعض الشيء».

وصل توميوكا إلى حد كاف من الثمل، فتمدد باسطاً ذراعيه وساقيه قرب الكوتاتسو وملقياً رأسه على ذراعه، وأخذ يفكر بكانو وبالطريقة التي كرس فيها نفسه بغير تردد أو توانٍ لدراساته التي كان يجريها تحت إشراف البروفيسور هيرالد في مختبرات وزارة الزراعة والغابات في سايغون. وكان هيرالد قد انتهى أولاً من دراسة الغابات الأفريقية وإجراء تجارب حول استخدام غاز الفحم

(1) نوع من الحبوب المغذية ويستعمل بديلاً للأرز.

النباتي، ثم اتجه نحو المساهمة في تطوير سيارة تعمل على حرق الفحم النباتي في الهند الصينية. فقد نذر أن يكرس جل حياته للبحث في سبل إنتاج الغاز من الفحم النباتي وزراعة الغابات المناسبة لإنتاج هذا الفحم. أدرك توميوكا الآن أن إخلاص كانو وصدقه سمتان نادرتان وقيمتان، وفكر بأن عليه أولاً أن يبعث برسالة لكانو بعد أن سمع إشاعات عن تخليه عن كل شيء بعد عودته ولجوئه إلى العمل بالمياومة في يوكوهاما، غير أنه لم يتأكد من ذلك. لكن لا يُستبعد أن يقبل رجل مثل كانو بأي عمل يروق له.

بعد توقيع اتفاقيات السلام جاء الوقت الذي بات فيه السفر مسموحاً إلى أي مكان. عندها شعر توميوكا برغبة في العودة إلى سايغون ليعمل هناك موظفاً في مكتب الغابات.

«هل أنت نائم؟»

«لا، لست نائماً. أشعر في الحقيقة بأنني أزداد يقظة. إنني أفكر بكثير من الأمور حول الطريقة التي سأواصل بها حياتي من الآن فصاعداً. المرأة تظل امرأة، مهما حدث.. لكن الأمر بالنسبة إلى الرجل صعب جداً».

«الأمر صعب على المرأة أيضاً.. أنا لا أستطيع الاعتماد عليك، لذا أفكر في العودة إلى الريف لفترة. ما رأيك بهذا؟»

«فكرة جيدة. عودي إلى مسقط رأسك، وكوني زوجة مفعمة بالصحة. فلو تمكنت من صنع حياة هادئة لنفسك، سيكون ذلك أفضل ما تقومين به».

«هل تمزح. لا يمكنني أن أصبح زوجة. عندما قلت إنني قد أعود إلى مسقط رأسي، لم أكن أعني ذلك. طالما أنني وجدت سبيلاً لكسب العيش، سيكون ذهابي إلى هناك لمجرد وداعهم».

«آه، نعم، سبيل لكسب العيش. هذا صحيح. كل إنسان يحتاج إلى طريقة لكسب عيشه. لكن على الرغم من ذلك، ليس عليك أن تقومي بأشياء غير منطقية. لا تستطيعين أن تمضي حياتكِ كلها وحيدة».

وضعت يوكيكو بعض الفحم النباتي في الكوتاتسو، ونفخت على النار،

وقالت بنبرة غاضبة: «تتكلم كأن كل الأمر لا يتعلق بك».

كانت الأرض تهتز بين الحين والآخر عندما يمر قطار قريب. بدا لها أمر وجودهما في إيكاهو حتى يوم أمس مثل الحلم، وراقها أن يظل توميوكا متمدداً هكذا أمام عينيها.. بما أنهما انفصلا حقاً، ستكون حياتها بمفردها في هذه السقيفة أكثر وحدة. وكان بقاؤهما في المكان نفسه ينطوي على شيء من العزاء بالنسبة إلى رفيقين يعرف كل منهما قصة حياة الآخر.

«أليس لديكِ سيجارة؟»

مد توميوكا يده فأخذت يوكيكو علبة سجائر هيكاري من حقيبة يدها وأعطتها له، ثم التقطت مكعبي النرد اللذين كانا على الغطاء وانشغلت بهما. كان التفكير بالعمل الذي عليها ممارسته يثقل كاهلها وتفكيرها.. فكل مهاراتها المكتبية السابقة قد تلاشت الآن وباتت بالكاد تستطيع العمل نادلةً... كما أنها لا تريد أن تصبح زوجة أحد أيضاً.. لكنها ستموت جوعاً إن لم تعمل. هزت يوكيكو النرد، وتخيلت نفسها سراً تتسكع في الشوارع تتقاذفها الرياح الباردة.

34

لم تذهب يوكيكو يوم مهرجان الأعشاب السبعة إلى منزل عائلة إيبا، فبعد أن عاد توميوكا إلى منزله لازمت سقيفتها لمدة أربعة أو خمسة أيام لم ترغب خلالها في الذهاب إلى أي مكان أو فعل أي شيء. أرسلت بطاقة بريدية إلى سايكو في إيكاهو وأخرى إلى العنوان الذي قيل إن كانو يقيم فيه في يوكوهاما. في بطاقتها إلى سايكو تعمدت يوكيكو أن ترسل تحيات من «زوجها»، فقد كان لهواً ممتعاً أن ترى رد الفعل الذي ستبديه سايكو في ردها على البطاقة. أما على بطاقة كانو فقد كتبت أنها ترغب كثيراً في زيارته في المستقبل القريب، وسألت عن الوقت المناسب لذلك. بعد أن أرسلت البطاقتين جاء زوج سايكو لزيارتها على نحو مفاجئ في يوم كان من المتوقع أن يهطل فيه الثلج، وقال إن سايكو قد غادرت المنزل في صباح اليوم التالي لمغادرة يوكيكو وتوميوكا إلى طوكيو وإنها لم تعد بعد.

توجهت أفكار يوكيكو فوراً نحو توميوكا الذي مضى إلى منزله بعد بقائه لليلة واحدة معها، وظنت أنه ربما يكون قد رتب لموعد مع سايكو. على الرغم من أنها لم تلحظ شيئاً محدداً بينهما، إلا أنها كانت متأكدة من أن دموع سايكو عندما جاءت لوداعهما لم تكن عادية. وظنت أن مجيء زوج سايكو لزيارتها بهذه

الطريقة قد يعني أن توميوكا كان يكذب بشأن إعطاء سايكو عنواناً ملفقاً. بدأت يوكيكو الآن تأسف لعدم تنفيذ رغبة توميوكا والانتحار سوياً في إيكاهو. فقد بدا الموت الآن، وبعد أن وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، بسيطاً وهادئاً. أحست بيأسها الخفي يحيط بها كسياج من الخيزران، وتعمدت إعطاء زوج سايكو عنوان توميوكا.

في صباح اليوم التالي، عاد زوج سايكو إليها من جديد وقال لها:

«رأيت توميوكا. لا يبدو أنه يعرف شيئاً عن سايكو فقد فوجئ بالأمر. ليست لدي أي فكرة عن المكان الذي يمكن أن تكون قد ذهبت إليه. فكرت في أن أقدم طلب تحقيق في مخفر الشرطة. لقد تكرم توميوكا واستضافني الليلة الماضية. لكن لم تكن هناك فرش إضافية لذا نمت بالقرب من الكوتاتسو بملابسي. أنا متأكد أن ذلك كان عبئاً كبيراً على زوجته».

في أثناء ذلك دخل زوج سايكو، الذي بدا مدركاً لموقف يوكيكو لأول مرة، إلى داخل السقيفة المظلمة باستهتار وقح بعض الشيء. رأت يوكيكو أنها، بعد كل هذا، قد تكون مخطئة بشأن الدموع التي سكبتها سايكو تلك المرة. لكن بما أنهما كانا يتحدثان عن توميوكا، ذاك الرجل الذي يمكن أن يتصرف بقساوة فائقة، فربما يكون بالفعل قد أمسك عنوانه عن سايكو. ولو كان قد فعل ذلك، فإن فظاظته تكون أكثر سوءاً وأشد غرابة. أيعقل أن تكون علاقته مع سايكو مجرد علاقة عابرة نشأت خلال رحلة قصيرة؟

بعد نحو ساعة غادر زوج سايكو مكتئباً. شعرت يوكيكو أنها كانت تدرك نوايا توميوكا الحقيقية، كما شعرت بتعاطف صادق مع سايكو الشابة التي تلاعب بها توميوكا وجعلها تهرب من منزلها. في نفس ذلك اليوم تلقت يوكيكو بطاقة رد من كانو يقول لها فيها إنه لايزال يحن للأيام الخوالي على الرغم من مرضه والظروف البائسة التي يعيش فيها، ويدعوها للمجيء لزيارته إن كانت تعني حقاً ما ذكرته في بطاقتها. كما ذيَّل بطاقته بملاحظة قصيرة مفادها أنه يود مقابلة توميوكا أيضاً وأنه بإمكانهما القدوم معاً إذا كانا يريدان ذلك. كانت يوكيكو تتوق لرؤية

كانو، وقد فرحت لأنه لم يبد أي مؤشرات حقد يكنه لها أو لتوميوكا.

حزمت يوكيكو أمرها وتوجهت لزيارة كانو في منطقة مينوزاوا في يوكوهاما. وهناك أخذت تتفحص بعناية أرقام المنازل في الشارع القذر المحفور الذي تصطف إلى جانبيه منشآت مثل المطابع ومصنع المحامل ذات الكريات إلى أن عثرت أخيراً على المنزل الذي كان يقيم فيه كانو في آخر زقاق مزدحم. ضم المنزل غرفاً صغيرة متواضعة للإيجار، وكانت غرفة كانو في نهاية صف الغرف الواقعة في الطابق الثاني. كما كان السكان يربون أرانب أنغورا داخل المنزل. علمت يوكيكو من صبي هناك بأن كانو يقبع في فراشه في الطابق الثاني، فصعدت درجات السلم بشجاعة. كان المكان شبيهاً بمنزل سايكو في إيكاهو. مرت يوكيكو بموقد فخاري محمول وكومة من الفحم النباتي في غرفة منفردة ذات سقف منخفض، ووقفت عند عتبة باب ورقي منزلق ممزق، فناداها كانو بصوته الحاد الذي لا تخطئه أذن: «ليس هناك ما تنظرين إليه، تفضلي إلى هنا».

فتحت يوكيكو الباب فوجدت كانو مستلقياً متدثراً ببطانية يلف رأسه بمنشفة يدين قذرة، وكان هناك مصباح كهربائي يتدلى بمفرده من سلك فوق رأسه مباشرة. بدا وجهه شاحباً ومعتماً، وقد تغيرت ملامحه بحيث لم تترك أي أثر من الماضي.

«حسناً، كيف حالك؟ هل تعاني من نوبة برد؟»

شقت يوكيكو طريقها نحو وسادة كانو وسط الأشياء المبعثرة هنا وهناك بحيث لم تترك مكاناً لموضع قدم، ونظرت إلى وجهه الذي تحول فجأة إلى لون قرمزي، وكذلك نظر كانو إليها بابتسامة حب حنونة بدت من خلالها أسنانه البيضاء، وقال:

«لست بحالة جيدة. صدري في وضع سيئ، وفي الليلة الماضية أصبت بنزيف خفيف».

أشار كانو بعينيه نحو وسادة ممزقة تخرج منها حشوتها القطنية بالقرب من الجدار وطلب منها الجلوس عليها. كانت أجواء الغرفة تعبق برائحة حمض الكاربوليك النفاذة.

«لقد انهار جسمي بالكامل. عملت فترةً في تفريغ المراكب وتحميلها، لكني أصبت بقشعريرة في أثناء المطر، وأصبحت أسير الفراش منذ أربعين يوماً. لست سوى جثة حية. ألم تأت مع توميوكا؟»

«لا، جئت بمفردي. لم أر توميوكا منذ مدة».

«ألم تتزوجي؟»

«ماذا؟ أنا؟»

«ظننتك وتوميوكا تعيشان بسعادة معاً».

«لا، لا. أعيش بمفردي. توميوكا هو توميوكا. لكن من الذي يعتني بك في خلال مرضك؟»

«أمي وأخي الأصغر. يعمل أخي منضداً للحروف الطباعية في إحدى المطابع القريبة من هنا. وكان خلال الحرب متدرباً على عمليات الكاميكازي[1]، لكنه الآن منضد حروف طباعية ويعيش مع والدتنا. لقد انتظراني.. لكن على كل حال تدمر منزلهما في الحرب وهما يعيشان الآن في هذا المكان الذي يبدو لنا، على الرغم من هذا، قصراً».

كان زجاج النافذة قد تهشم وحل محله غطاء من الورق اخترقته أشعة الشمس الخجولة مرسلة حزماً من الضوء فوق البطانية العسكرية المتسخة. بدا وجه كانو الطفولي المدور غير الحليق شاحباً نحيلاً حفرت قساوة العيش آثارها فيه، وبات يوحي وكأن عمره قد ازداد أكثر من عشرة أعوام. أصبح من المستحيل تذكر الحياة في الجنوب بعد ما آلت إليه ملامحه الآن، فقد غدا وجهه وهو مستلقٍ على جانبه كأنه وجه شخص آخر، وشعرت يوكيكو بأنها غريبة تماماً عنه.

«لقد تغيرت».

«هل فاجأك ذلك؟»

«نعم».

(1) الكاميكازي هي كلمة تشير إلى الهجمات الانتحارية التي قام بها الطيارون اليابانيون ضد الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية.

«حسناً، دعينا نتحدث قليلاً عن أيام الزمن الجميل قبل أن ترحلي. لقد سررت كثيراً عندما وصلتني بطاقتك. لم أعتقد أنك قد تكتبين لي يوماً».

«وددت أن أفعل ذلك حالما حصلت على عنوانك من توميوكا. وأردت أن أراك أيضاً».

«حسناً، شكراً لك».

وفجأة ساد الصمت بينهما، وأخذا يفكران في طريقة معاملة كل منهما للآخر.

35

«لقد خرجت أمي إلى عملها أيضاً، لذا لا أستطيع أن أقدم لك الشاي. تعالي إلى الطرف الآخر، من هنا، حتى لا تلتقطي عدوى مرضي، ربما يكون هذا أفضل».

أخذ كانو يبتسم بمرارة وتجهم ويسعل بشدة وهو يهز رأسه بين الحين والآخر.

«ألا يجب عليك الوقاية من الإصابة بالقشعريرة؟»

«الأمر ليس مهماً، على كل لم يتبق لدي أي طاقة. الشيء الوحيد الذي أحاول فعله هو ألا أصبح مصدر إزعاج لأمي وأخي. أنا عازم على التعبير عن شكري وامتناني بألا أكون عبئاً على الآخرين. لست خائفاً من الموت، لكن بما أن هذه هي الحياة التي وهبني إياها الله، فأنا أفضل أن أعيش كل يوم إضافي على أن أموت وأتحول إلى رماد».

«لا تقل أشياء سيئة كهذه. آمل أن تتعافى بسرعة».

«لن أتعافى».

«لماذا تتحدث هكذا؟ الأمر بمجمله يعتمد على طريقة نظرتك للمستقبل. أريدك أن تعود مفعماً بالصحة والعافية كما كنت، أن تعود كانو الذي عرفته».

«كانو الذي كان هناك في الماضي قد مات في الحرب. ضحيت بكل ما لدي في تلك الحرب، لكن ذلك لم يغير في الأمر شيئاً. لقد استسلمت. عندما أفكر بالهند الصينية بين الفينة والأخرى أظن أنها كانت أروع فترة في حياتي. هل آلمك الجرح في ذراعك منذ ذلك الحين؟ كان ذلك في ذراعك اليسرى».

تأثرت يوكيكو بقلق كانو على الجرح في ذراعها وأخذت تبكي.

«أعتقد أنني تصرفت معك بطريقة لا تغتفر حقاً».

«لا، أنا التي تصرفت معك بأنانية لا تغتفر يا كانو. كنا جميعاً نتصرف كمجانين».

«صحيح، كنا جميعاً نتصرف كمجانين. كنت أشعر في بعض الأحيان أنك اتكأت عن قصد على سيفي. كنت أقصد أن أجرح توميوكا. لما ذهبت إلى غرفته، كنت أنت هناك، وهذا ما زاد من غضبي. عندما أفكر في الأمر الآن أعرف أنني تصرفت بحماقة».

«دعنا من الخوض في هذا الأمر».

«أرجوك سامحيني. فبمجرد أن رأيتك عادت إلي تلك الذكريات كما لو أنها حدثت بالأمس».

تضايقت يوكيكو من رائحة الدواء التي تملأ الغرفة، فوقفت وفتحت الباب الورقي لبضع بوصات، فدخلت منه نسمات هواء باردة منعشة.

«هل توميوكا بخير؟»

«نعم، يبدو أنه كذلك».

«ذاك الرجل، إنه محظوظ. وهو يدرك حظ الآخرين المتعثر، فيجلس ويراقب ما يحدث لهم. لا أحاول أن أتكلم عنه بالإساءة. لكنني أعتقد أن هذا هو سبب حظه الجيد. وقد فكرت مؤخراً بأنه كان عليَّ أن أغتنم كل لحظة لأتعلم من شخصيته».

«حسناً، لكنه لا يبدو محظوظاً إلى هذا الحد هذه الأيام».

«حقاً؟ لكن ربما تنظرين إليه من زاوية التعاطف. فهو لم يكره على الرحيل

بسبب احتراق منزله، وتمكن من العثور على شريك جيد في عمله. تبدو أحواله مزدهرة».

عادت يوكيكو بتفكيرها إلى رحلتها إلى إيكاهو، فقد ذهبت بصحبة توميوكا للانتحار هناك ولكنهما لم ينجحا في ذلك، وقالت:

«إنه الآن يعاني من مشاكل، فقد باع منزله وأرسل عائلته إلى الريف. وهو يعمل حالياً ويعيش حياة عازب طليق. هذه حكايته على كل حال».

«يعمل؟ ما كان توميوكا ليعمل في تحميل السفن وتفريغها مثلي لو كان مقابل مائتي ين يومياً. وقد يعتبر أنه من المهزلة أن أقلل من شأني إلى هذا المكانة البائسة وأقوم برفع مئات الأرطال من الوزن على كتفي».

«لكن انتظر. بماذا كنت تفكر عندما قررت العمل في تحميل السفن وتفريغها؟»

«كنت أريد أن أحصل على قوتي فقط. لم أستطع العثور على أي عمل يتطلب تفكيراً، لذا رأيت أنه من الجيد الحصول على هذا العمل، فهو شاق لكنه يفي بالغرض. فذلك بالتأكيد أفضل من أن أصبح سارقاً. لكن الأمر يبدو صعباً بالنسبة إلى رجل بيروقراطي لم يرفع في حياته شيئاً أثقل وزناً من القلم».

«الأمر كذلك حتماً».

فتحت يوكيكو كيساً فيه خمس أو ست تفاحات اشترتها هديةً لكانو، وبحثت في المكان عن سكين وأخذت تقشر واحدة منها. وفيما كانت تزيل قشرة التفاحة على شكل دوائر فكرت بأنها تريد أن تقدم كل ما تستطيع من حنان ولطف لكانو الذي بدا أنه لن يعيش لفترة طويلة. قطعت يوكيكو التفاحة المقشرة إلى قطع صغيرة، وأخذت تضعها الواحدة تلو الأخرى في فم كانو الذي أكلها بنهم.

«لقد شهدنا أحداثاً كثيرة، ومع ذلك تمكنّا من أن نعيش لنرى هذا اليوم. وتمكنا من الالتقاء ثانية، أليس كذلك؟ لهذا السبب عليك أن تتناول طعاماً مغذياً لتصبح قوياً».

«طعام مغذٍّ؟ هذا صحيح. لو كان لدي المال لكان من المحتمل أن أتمكن من

العيش لمدة عامين أو ثلاثة أعوام أخرى».

«عليك أن تحاول أن تصبح في حال أحسن، من أجل أمك وأخيك».

«شكراً جزيلاً للطفك. أمي وأخي يعاملانني هذه الأيام كما لو أنهما قد ضجرا مني».

«إنها فقط نظرتك الخاطئة للأمر».

«نظرة خاطئة؟»

لم يكن كانو قادراً في الحقيقة على مجاراة توميوكا في الحظ الجيد والمقدرة على التخلص من الأزمات بطريقة بسيطة في خلال حياته. وكان يشعر بالغضب كلما فكر في توميوكا الذي كان دائماً يراوغ وينجو بنفسه ويرفض أن يخضع أو يستسلم. لفت يوكيكو قشور التفاح بورقة جريدة، وكانت على وشك أن تقول شيئاً ما، ثم أحجمت. استغرب كانو كيف جلست يوكيكو بهدوء هناك وهي التي لم تظهر له أي عاطفة في الماضي، وشعر بغموض في سلوكها وجرأتها. فقد أخبرته بأنها لم تعد إلى عائلتها ولو مرة واحدة، بل عادت من الخارج واتبعت أسلوب حياة تشرد وعزلة. تساءل كانو إن كانت لجميع النساء قلوب باردة مثل لحم السمك.

«بالنسبة إلى هذا الرجل، توميوكا، فمن المؤكد أن لديه مواهب للبقاء. فهو يستطيع دائماً تجنب الكوارث والإخفاقات. يا له من رجل.. عندما سمعت بأنه مر من هاي فونغ في مايو الماضي وعرفت لاحقاً بما حدث في ذلك الوقت، فكرت بيني وبين نفسي بأنه رجل محظوظ. فقد علمت أنه أخبر السلطات عندها بأنه موظف مدني لدى الجيش وأنه جاء إلى الهند الصينية مع هيئة الغابات كشخص يعد الشاي وينظم الرحلات القصيرة لأنه أدرك بأنهم لو علموا بأنه كان باحثاً لما تمكن من العودة لفترة. استجوبه عدد من الضباط عند نقطة التفتيش على الجسر، فتظاهر بأنه من النوع النزيه والمغفل، ولعب هذا الدور على أتم وجه. حتى عندما كان الضباط يتحدثون باللغتين الفرنسية أو الإنجليزية، لم يعرهم انتباهاً ولو حتى بالنظر إليهم. فلو فكروا بأنه يستطيع فهم ما يقولون لاحتجزوه. بعد ذلك عندما

عرضت عليه خريطة اليابان، وسئل عن موقع شيكوكو، أشار فوراً إلى كيوشو[1]، مدعياً أن مستوى معرفته لا تتجاوز مستوى معرفة تلميذ في المرحلة الابتدائية. ما رأيك بهذا؟ وهكذا تمكن من اجتياز الحدود، واستخدم اسم شخص آخر ليصعد على متن أول سفينة ليعود إلى اليابان. ذاك الرجل ليس غبياً».

كانت تلك أول مرة تسمع فيها يوكيكو هذه الحكاية، ولكنها لم تستغرب أن يكون توميوكا قد نجح بذلك على الرغم من المتاعب. ومن المحتمل أنه لم يفعل شيئاً مع سايكو سوى أنه قبل عاطفتها كما هي.. ربما كانت سايكو بالنسبة له مجرد وسيلة يسلي نفسه بها في ذلك الوقت.

«بمناسبة الحديث عن هذا الأمر، ظننت أنكما قد عدتما معاً في وقت مبكر. لكنكما لم تكونا على نفس السفينة، صحيح؟»

«لا، لقد عاد كل منا بمفرده».

يقال إن كانو قد تعرض لمعاملة قاسية جداً من قبل الشرطة العسكرية في سايغون بسبب جريمته التي ارتكبها في ذروة الحرب والتي تعتبر السلوك المشين الأول من نوعه الذي يصدر عن مدني.

بعد نحو ساعة، ودعت يوكيكو كانو وغادرت ذاك المكان الخانق، وما إن أصبحت في الخارج حتى أحست بالراحة وأخذت تتنشق الهواء النقي. شعرت في داخلها بأن كانو رجل بائس جداً. فقد سمعت أنه كان سليل أسرة عريقة ميسورة الحال، وهذا ما يفاقم من الشعور بالأسى والشفقة تجاه التغير الجذري الذي طرأ على مصيره وحياته.

لم يبد وجه يوكيكو بالنسبة إلى كانو مختلفاً حقاً عما كان عليه في الماضي، لكنه استغرب الآن، وبعد أن رآها ثانية في اليابان بعد كل هذا الوقت الطويل، أن يكون قد رغب فيها إلى درجة دفعته لخوض قتال دموي مع توميوكا بسببها. وظن أنه كان مخدراً أو ربما مهووساً، كغيره من اليابانيين في الخارج في ذلك الوقت. على الرغم من ذلك، عندما قالت يوكيكو إنها سترحل، تمنى كانو أن تظل لفترة أطول

(1) شيكوكو وكيوشو من أكبر جزر اليابان.

بقليل. فحتى تلك اللحظة كان يفكر فيها كإلهة، وشعر بكآبة وكأنه قد استيقظ من يوكيكو الحلم ليتعرف إليها على حقيقتها كائناً بشرياً.

من جانبها، ندمت يوكيكو على ذهابها لرؤية كانو، وفضلت لو أنها ظلت على معرفتها به كما كان في الماضي. لقد أخبرها توميوكا عندما أرادت أن ترى كانو أنها كانت عاطفية وغريبة الأطوار. شعرت يوكيكو الآن أنها أدركت أعماق ذاته، والسبب وراء احتمال إعطائه سايكو عنواناً خاطئاً. بدت لها قوة الرجل القادر على تجاوز المصاعب وتسوية الوضع بغيضة لكنها جذابة. ربما تصلح الأغنية الأنامية الشعبية التي غناها توميوكا بصوت طبيعي منخفض «في أول لقاء لنا، كانت عيوننا حقيقية» الآن تعبر عنها وعن سايكو.

سارت يوكيكو نحو محطة شينباشي تلفحها نسمات الرياح الباردة. وبينما همت بالسير نحو الرصيف، سمعت عبارة تعجب واستغراب: «حسناً، مرحباً أنت هناك». ثم ركضت امرأة ترتدي معطفاً أخضر مبهرجاً نحو يوكيكو وأخذت تربت على كتفها.

«مرحباً!»

جحظت عينا يوكيكو عندما رأت شينونوي هاروكو، رفيقتها في الرحلة إلى سايغون، وشعرت بتدفق مشاعر الحنين.

«كيف حالك؟ متى عدت؟»

أرادت يوكيكو أن تعرف في الحال عن ظروف عودة شينونوي إلى الوطن.

«منذ أن دخلت من بوابة التذاكر سألت نفسي: «أليست هي؟ إذاً، أنت بخير؟ لقد عدت في يونيو الماضي. رحلت عائلتي إلى أوراوا، ولكنهم لم يضطروا إلى ترك منزلهم بسبب احتراقه على أيَّة حال. حالما عدت التحقت بدورة لتعليم الطباعة باللغة الإنجليزية، وحصلت على وظيفة في مارونوتشي. ماذا تفعلين هذه الأيام؟»

لكن شينونوي هاروكا كانت متجملة ومتبرجة بشكل جميل ومبهرج وأكثر مما تحتاجه بوصفها موظفة طباعة.

36

«لأننا نملك هذه الطبيعة البشرية
لا نستطيع أن نتنبأ بما يحمله الغد لنا
وعند مراقبتنا لأحداث هذا العالم العظيمة
نتساءل كم سيطول مجدها
تغيرات العالم سريعة
كساقي التنين المجنح الطائر».

كانت تلك أبيات شعر كتبها كانو في ذيل رسالة بعثها ليوكيكو بعد نحو أسبوع ليشكرها على زيارتها له. لقد تركت هذه الكلمات أثراً كبيراً في نفس يوكيكو، لكنها لم ترد على الرسالة.

بعد ذلك لم يتصل توميوكا أبداً. عادت يوكيكو بأفكارها إلى الماضي واستغربت الجبن الذي شعرت به عندما اقترح توميوكا فكرة الانتحار في إيكاهو. وكذلك أثار لقاؤها مع شينونوي هاروكا لديها الشعور بالحماقة. إنها لن تستطيع الاستمرار بالانجراف مع التيار هكذا إلى الأبد. فقد تلقت إنذاراً من المالك بأن عليها التكرم بإخلاء غرفة المخزن المبنية من الصفيح في المستقبل القريب، وكان ذلك كشكل من أشكال الموت بالنسبة لها. لماذا لم تنتحر مع توميوكا هناك؟ استلقت وحاولت

فعلاً وضع حزامها الجلدي حول رقبتها، لكنها افتقرت إلى الثقة بأنها ستتمكن من سحبه وشده كفاية بمفردها. شدته إلى درجة معينة، لكنها لم تصل إلى مرحلة من العنف لتأخذ خطوة أخرى وتقوم بشنق نفسها بالفعل. أرخت يوكيكو الحزام ووضعته حول خصرها، وتمنت لو كان توميوكا هنا الآن، فقد شعرت بشوق إليه. هل يعني الموت أنها ستغادر هذا العالم ببساطة؟ من المؤكد أنه مع مرور الوقت لن يبالي أحد بموتها، حتى توميوكا سينساها في النهاية. أدركت يوكيكو أنه حتى لو كانا قد قررا الانتحار معاً كعاشقين، فإنهما لن يتمكنا من الموت بهيبة وإخلاص. فدون شك سيتوجه كل منهما في لحظة الموت الحقيقية نحو أفكاره الخاصة. لم ترق لها تلك الفكرة، فهي قد تموت دون أن تفكر في شيء، في حين أن توميوكا سيكرر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «سامحيني يا زوجتي العزيزة».

وبينما كانت يوكيكو تتذكر أطياف الألوان والمناظر الجميلة في الهند الصينية، شعرت برغبة في العودة إلى ذلك المكان ثانية. فقد كانت تلك الحياة الفقيرة تخنقها. عندما فكرت بأن الحياة التي عاشتها في دالات لن تعود، بدت ذكريات ملامسات توميوكا لها عزيزة جداً على قلبها. أدركت يوكيكو أن الرفاهية شيء جميل، وتذكرت الأصوات والموسيقى في جبال رانبين. لم تكن تلك الذكريات بطبيعتها مخيبة للأمل مثل «أغنية التفاح». بدت القوة العظيمة والممتدة التي تميز الشعب الذي يتمتع بمكانة متأصلة في التاريخ أعمق بكثير من قوة شعب بلادها. فكرت يوكيكو أن ما من أحد يحب الحرب بقدر ما تحبها الشعوب الجاهلة الفقيرة. أصبحت اليابان تبدو بلداً نائياً وغريباً عنها.

37

ذهبت يوكيكو مرة إلى شيزوكا للقاء أقاربها في أواخر فبراير، ثم عادت إلى اليابان بسرعة، حيث انتقلت من السقيفة في إيكيبوكورو واستأجرت غرفة في الطابق الثاني من منزل سمكري في تاكادانوبابا، وذلك بناء على اقتراح شينونوي هاروكو. مضى وقت طويل لم تر فيه توميوكا. أحبت يوكيكو المكان على الرغم من قربه من المحطة وإزعاج أصوات اهتزازات القطار، وذلك لأنها لم تضطر لإيداع مبلغ من المال ولأن قيمة الإيجار لم تتجاوز الألف ين شهرياً. وهكذا نقلت حقيبتها المصنوعة من أغصان النباتات المجدولة والفرش التي أحضرتها من شيزوكا بواسطة عربة، واستقرت لأول مرة في مكان يمكنها أن تعيش فيه حياة كريمة تليق بوجودها الإنساني.

كانت يوكيكو حاملاً. وقد كتبت إلى توميوكا ثلاث مرات، لكن لم يرد منه سوى رد واحد يقول فيه إنه سيأتي قريباً وأرفق فيه حوالة مصرفية بمبلغ خمسة آلاف ين. باعت يوكيكو تقريباً جميع الملابس التي أحضرتها من الريف وسددت بثمنها نفقات معيشتها. لكن الظروف كانت شاقة جداً. على الرغم من أن جسمها كان قوياً وحالات الوحم الصباحية خفيفة نسبياً، إلا أنها كانت قلقة يومياً بشأن إذا ما كان عليها أن تنجب الطفل. لقد أرادت الطفل، ومع ذلك رغبت في التخلص

منه في الحال. أمضت يوكيكو جميع أيامها منعزلة في غرفتها لا تبرحها إلا من أجل الاستحمام أو التسوق. كان إيبا يمر لزيارتها أحياناً مرتدياً ثياباً أنيقة، ولم يعد يلمها على سرقة ممتلكاته. تساءلت يوكيكو: هل تمكن من جني بعض المال؟ أما بالنسبة إلى جو فقد انفصلت عنه قبل عام، ولم يبق من ذكرى زياراته لها سوى تلك الوسادة، إذ أنها باعت المذياع لتدفع أجرة سفرها إلى شيزوكا.

لم يعرف إيبا بحمل يوكيكو. فهي لم تخضع لفحص قابلة قانونية، بل كانت تحزم بطنها بنفسها بواسطة قطعة قماش بيضاء. لم تعرف يوكيكو أن جسمها يمتلك تلك القوة الرزينة التي تمكنه من الحياة والتحمل. ولا بد أنها كانت تتحلى بنفس القوة عندما تعرضت فيه لطعنة كانو.

في إحدى الأمسيات، وإثر ثلاثة أيام من المطر المتواصل، جاءت هاروكو لزيارتها وكان من الواضح أن هاروكو، التي قالت إنها كانت تعمل موظفةَ طباعة في مارونوشي، كانت موظفة طباعة بالاسم فقط، إذ إنها في الحقيقة، وحسب ما قالته صاحبة محل السمكرة، تعمل في إحدى الحانات. بدا ذلك منطقياً، لأن يوكيكو شكت منذ البداية أن ملابس هاروكو كانت أجمل من أن تناسب امرأة تكسب عيشها من راتبها بوصفها موظفة طباعة.

جلست هاروكو وخلعت جواربها فوراً وتنهدت وقالت: «لقد أصبح الناس من أمثالنا من حثالة المجتمع بسبب هذه الحرب يا يوكيكو». ربما كانت الجوارب بالنسبة إلى هاروكو أهم شيء في الحياة في هذه المرحلة. ثم أخرجت حزمة ملفوفة بورق الخيزران وقالت إنها أحضرت قطعة من لحم العجل كهدية. شعرت يوكيكو بالكسل والوهن، لكنها بدأت تستعد لتحضير السوكي ياكي[1]. خرجت إلى السوق تحت المطر لتشتري بعض الكراث، وكانت هاروكو قد أعطتها بعض المال، فاشترت خبزاً وقليلاً من السكر أيضاً. عندما عادت كان إيبا قد جاء بزيارة غير متوقعة، ووجدته يتبادل أطراف الحديث مع هاروكو.

كان إيبا يحدثها عن الدين، وقد استغربت يوكيكو كثيراً أن تسمع أشخاصاً

(1) سوكي ياكي طبق ياباني يتكون من شرائح لحم العجل مع الصلصة والخضار.

من أمثال إيبا يتحدثون عن الدين. قال إن جميع البشر معرضون للخطيئة، وإن الإنسان منذ ولادته مخلوقٌ يمضي قدماً في حياته وهو ينظر إلى الأسفل ويواصل حساب الاحتمال النسبي للوقوع في الخطيئة. أصبح إيبا ينتقد بقسوة هذه الأيام، وذلك لأنه أصبح أمين صندوق لدى إحدى الطوائف الدينية الناشئة حديثاً وتُدعى ديانة الشروق العظيم.

«هناك الكثير من الخاطئين لدرجة أنك ستحتاجين إلى مكنسة ضخمة لقشهم بعيداً. عموماً ينظر الناس إلى السماء لأول مرة عندما يأثمون ويبتهلون إلى الله. لاتزال ديانة الشروق العظيم في بداياتها، لكننا نتلقى عدداً غير محدود من الزيارات إلى مقام الإله الجبار لديانة الشروق العظيم لأنه هو الذي ينير درب الخاطئين، وذلك بفضل ما تتناقله الألسن عن هذه الديانة فقط. أعتقد أن ديانة الشروق العظيم ستصبح عن قريب أكثر قوة ونفوذاً من طائفة كانون[1] في أتامي».

«لكن ماذا ينبغي أن يفعل الأشخاص الذين يخطئون دوماً مثلي؟»

«سيساعدك الرب يوماً ما على التنبه والتوبة. يقول لنا بولس الرسول في الفصل الرابع عشر من رسالته إلى أهل روميا «وأما الذي يرتاب فإن أكل يدان، لأن ذلك ليس من الإيمان، وكل ما ليس من الإيمان فهو خطيئة». حتى المسيحية تتضمن عبارة واضحة ومماثلة تماماً حول هذه المسألة. على الرغم من ذلك من المحتمل أكثر أن تجد ديانة الشروق العظيم طريقها إلى أرواح الناس المثقلين بوزر الخطايا والآثام. إننا نبحث حالياً عن موقع مناسب لمعبدنا الرئيسي في ديننشوفو».

«هل هي ديانة شبيهة بالجيكوسون[2]؟»

«لا، إنها ليست كذلك. إننا لا نعتمد على مناصرة المشاهير كما يفعلون، بل إننا نعبد فقط إله ديانة الشروق العظيم، وغايتنا الوحيدة أن نحقق الازدهار لأتباعنا من الأناس العاديين. لو سمحنا بدخول المشاهير، سنكون بارزين وقد نواجه خطر ألا تسير الأمور بشكل جيد. فعلى العكس تماماً، قد يشكل ذاك

---

(1) طائفة من البوذية تؤمن بإلهة الرحمة كوان ين.

(2) إحدى الديانات اليابانية.

النوع من الشعبية والشهرة عائقاً بالنسبة لنا».

«نعم، ولكنني أتساءل: هل الإله موجود حقاً؟»

«إنه موجود.. إنه موجود.. وقد ضل الكثير من الناس إلى أن آمنوا به. أولاً، يجدر بك أن تراقبي هذا الجسد الغامض للكائن البشري. على الرغم من كل الاكتشافات التي حققها العلم، إلا أنه لا يستطيع أن يخلق كائناً بشرياً. إن الإله موجود».

أصبح السوكي ياكي جاهزاً. مد إيبا يده إلى الوعاء، أما يوكيكو فلم يكن لديها شهية على الإطلاق. أحبت الجزء الأبيض من الكراث النيء وأكلته. أخرجت هاروكو زجاجة ويسكي من جيبها، وقدمت بعضاً منها إلى إيبا. لقد أثر شراب الويسكي في إيبا وأسكره مع وجود المرأتين الجالستين أمامه. أخذ يحدق بشدة في لحم العجل ودعاهما، في فاصل بين لقمتين، لزيارة المعبد ولو لمرة واحدة على الأقل، وقال:

«في الماضي انتشرت المعابد البوذية في كل مدينة وقرية، وكانت قد استعملت تلك المعابد أماكن لالتقاء الناس العاديين. لكن المعابد تحولت تدريجياً لتتخصص في إقامة الشعائر الجنائزية، ففقدت حيويتها، وقد ذاعت شهرة البوذية على أنها ديانة معتمة... عندما تذهبين إلى كنيسة مسيحية، تجدينهم يقيمون مراسم الزفاف، إنها ديانة مليئة بالمرح والحيوية. ليست فقط متاجر البضائع المتنوعة والمطاعم هي التي تقيم الأعراس الجماعية لعشرات الأزواج، أليس كذلك؟ تعتزم ديانة الشروق العظيم أن تتبع هذا التقليد أيضاً. الديانة التي يكون كل ما فيها حيوياً ومشرقاً يكون فيها شيء من الفتنة والسحر بالنسبة إلى الآثمين. سنهتم فوراً بإقامة طقوس الزواج في المعبد الرئيسي لديانة الشروق العظيم. لن نقيم أي شعائر جنائزية على الإطلاق».

«غالباً ما يقول الكهنة في المعابد أشياء كهذه: «سيصبح الناس أثرياء إذا قام

الناس بالحج إلى معبدنا في طوكيو في يوم النمر ومن ثم دونوا حساباتهم بواسطة قلم ريشة يشترونه من المعبد». أفكار كهذه تفيد دون شك في زيادة نسبة الحجاج بسرعة فائقة. لكن الأمر لن ينجح ما لم يكن كل ما فيه مشرقاً ومبهجاً. طقوس الزفاف لا تحقق عائدات كبيرة بمفردها. تلك الديانات التي تقول إن زيارة المعبد يجب أن تتم في منأى عن عيون الآخرين ليست جيدة. الديانات التي تعطي الناس ما يريدون هي الديانات التي تجلب المال».

وتحول الحديث نحو طرق الاستفادة من الإله والناس. ورأى إيبا أن الناس عندما يخطئون يعانون من آلام اليأس، وأن فترات اليأس تبدو للجميع طويلة في حين تدوم السعادة لفترة قصيرة. وقال إيبا إن المهمة الملحة للدين في الوقت الحالي أن تنتهز فرص السعادة القصيرة. ثم اختتم بقوله إن الرجال والنساء ينفقون المال على الحب، ولو كان ممكناً استخدام نشوة الدين لجعل الناس ينفقون المال، فمن الممكن أن يصبح الدين مربحاً أكثر من أي تجارة أخرى.

أمسك إيبا بيد هاروكو ووضع أذنه على راحة يدها وقال:

«يدك حارة، فالأذن هي أكثر الأدوات حساسية لقياس درجة حرارة جسم الإنسان بالكامل. ليس هناك حاجة لاستخدام ميزان حرارة. الأشخاص ذوو القلوب الباردة تكون أيديهم حارة. اليد هي المكان الذي تنبعث منه الروح البشرية أيضاً. ومن الجيد والمناسب أن تكون اليد حارة مثل يدك. الأشخاص ذوو الأيدي الباردة يحبسون حرارتهم داخل أجسامهم، وهم يعانون من مرض في مكان ما في الداخل».

ظل إيبا ممسكاً بيد هاروكو يلعب بها ولم يبدُ مستعداً لتركها.

«لكنني أشعر بخيبة أمل بسبب الحب هذه الأيام. أشعر بالاكتئاب، هل يمكنك التحدث عن حظي في الحياة؟»

عندما سمع إيبا أن هاروكو كانت خائبة الرجاء بسبب الحب، وضع أذنه على يدها ثانية وضغطها على خده، وأخذ يركز في تفكيره، في حين سحبت هاروكو يدها بسرعة عن أذنه وهي تقهقه.

«في القسم الأصلي لأميتابها[1]، يقول إن على المرء ألا يهتم بالكبار أو الصغار، ولا بالجيد أو السيئ بل عليه أن يجعل الايمان مطلبه الوحيد. في هذا القسم، يصلي لإنقاذ البشرية من الخطايا بمستوياتها المتعددة ومن لهيب العاطفة. أجل، إن لم تؤمني بأن القلب هو الذي يصلي لن يحدث شيء. وليس من الجيد أن ينظر المرء إلى الأمر بسخرية مطلقة مثلك. إذا أردت السخرية، اسخري من نفسك مرة وآمني بديانة الشروق العظيم، وإلا ستخسرين كل شيء. مهما كان فأنا بالنسبة لك أمثل الجنس الآخر، وعندما تلامس يدك أذن الجنس الآخر تنتقل بينهما موجة لاهوتية رقيقة. لا بد أن تجعلي الايمان مطلبك».

بدت في عيني إيبا نظرة ارتباك بعد أن كان قد أفرغ نصف ما في قارورة الجيب الصغيرة من الويسكي.

---

(1) بوذا الأرض الطاهرة.

38

كان في الطابق الثاني غرفة نوم صغيرة تتسع لثلاث حصائر خاصة بأطفال السمكري الثلاثة، وأخرى أكبر تتسع لأربع حصائر ونصف، وفيها خزانة جدارية عرضها ثلاثة أقدام ولها باب ذو مفاصل. كان الجدار عبارة عن لوح مركب يتكون من نشارة الخشب المضغوطة. وضع موقد الطهي الفخاري المحمول ومؤن الفحم النباتي في مدخل كوة تنتهي بنافذة بارزة. هناك كانت يوكيكو تطهو طعامها. أسفل تلك النافذة البارزة امتدت مساحة فارغة نمت فيها سوق نباتات الذرة الهندية عالياً. شعرت يوكيكو بضياع أكثر وأكثر حول طريقة كسب عيشها، ربما عليها محاولة العمل في تلميع الأحذية، لكنها شعرت بأن العمل الذي يتطلب منها القرفصاء على الأرض سيكون صعباً كثيراً على جسمها. حاولت إرسال برقيتين إلى توميوكا، لكنها لم تتلق رداً منه، فعقدت عزمها وتوجهت نحو منزل توميوكا القديم في جوتاندا. لكنها وجدت لوحة الاسم قد تبدلت، وأخبرها الشخص الذي خرج للقائها بأنهم اشتروا المنزل وانتقلوا إليه في مايو، وأنهم قد تلقوا بطاقة بريدية من السيد توميوكا. قال لها الساكن الجديد: «سأحضرها لك»، وقدمها لها وعليها عنوان المرسل في ميشوكو في سيتاجايا. فاتضح لها أن توميوكا قد استأجر غرفة بعيدة بالقرب من تاكاسي.

عقدت يوكيكو عزمها ثانية، على الرغم من ضعف جسمها، وذهبت لزيارة توميوكا في منزله الجديد. كان منزلاً كبيراً بشكل غير عادي، وله بوابة حجرية بجانبها مرآب. هل كان المالك السابق يمتلك سيارة؟ دخلت يوكيكو من البوابة وضغطت على جرس الباب، فخرجت سايكو على نحو غير متوقع وفتحت الباب وهي ترتدي ثوباً منزلياً صيفياً. صُدمت يوكيكو للحظة ثم ابتلعت أنفاسها، وكذلك بدت سايكو مندهشة فاحمر لونها وقالت بنبرة استغراب: «أوه!»

«أوه، هل جئت إلى طوكيو؟»

«نعم»...

«كيف وصلت إلى هذا المكان؟»

«إنه منزل أحد معارفي».

«هل توميوكا هنا؟»

«هو في الخارج الآن، لكن»...

«أنت تكذبين تماماً. يا لك من إنسانة غريبة! هذا الأمر غريب تماماً. حسن، سأنتظر في غرفة توميوكا إلى حين عودته»...

التزمت سايكو الصمت، في حين شعرت يوكيكو بجسمها يرتجف كله، ولم تدر ما تقول.

«عاد إلى زوجته، غادر يوم أمس فقط، وليس من المحتمل أن يعود قريباً. زوجته ليست بخير».

«أوه، الأمر هكذا؟ أتمنى لها الخير إذاً. وأنا لست بخير أيضاً. ستسمحين لي أن أرتاح بهدوء في غرفة توميوكا إلى حين عودته».

بدت سايكو مرتبكة. نظرت يوكيكو إلى ممر الدخول خلفها فرأت عربة أطفال ولوحاً ذا عجلات، واتضح لها أن عدة عائلات كانت تعيش في هذا المنزل. وقفت سايكو هناك بعناد ولم ترض التنحي جانباً، وكذلك وقفت يوكيكو في مكانها بعناد.

«ممر الدخول لا بأس به. سأشرح الظروف لسكان المنزل. ستدعيني أبقى هنا».

عندها قامت سايكو بإرشاد يوكيكو إلى الطابق الثاني، وبدت وكأنها قد فقدت روح المقاومة. في نهاية رواق عريض كانت هناك غرفة تتسع لثماني حصائر وقد فُرشت أرضيتها الخشبية بحصير من القش الرقيق ووضع بمحاذاة الجدار سرير بسيط عليه وسادتان بجانب بعضهما، فيما علق على الجدار كيمونو سايكو غير المخطط المصنوع من حرير الميسين البنفسجي وقميص وكيمونو توميوكا الصيفي وملابس نومه. أمام الزجاج الماسي للنافذة ذات المفاصل وضعت مزينة مطلية بالورنيش الأحمر، كما كانت هناك طاولة طعام جديدة بجوار خزانة شاي صغيرة. شعرت يوكيكو بنيران تستعر في داخلها بعد أن باتت كل الأمور واضحة بالنسبة لها. وفكرت أن هذا هو الظرف على كل الأحوال. لم يكن توميوكا هناك، والشيء الوحيد الذي كان يشير إلى توميوكا في تلك الغرفة كان الكيمونو الصيفي الرجالي.

«منذ متى تعيشان معاً؟»

«تقولين منذ متى. هذه غرفتي. انتقل السيد توميوكا إلى الريف، وقد جاء إلى هنا لأن ليس لديه مكان يقيم فيه في طوكيو. في ذلك الوقت كنت أنام في الطابق السفلي».

«لا مكان يقيم فيه؟ نعم، ليس له مكان يقيم فيه... ماذا يفعل زوجك في إيكاهو؟»

«لقد انفصلنا».

«هذا مناسب لك».

حل المساء وأخذ الأطفال يلعبون بضجة في ممر الطابق العلوي. جلست سايكو على السرير صامتة لا تقول شيئاً، وكذلك خيم الصمت على يوكيكو وهي تجلس قرب النافذة. خرجت سايكو إلى الممر وكأن فكرة ما قد خطرت لها فجأة. كان التقاء سايكو مع توميوكا أمراً غامضاً. نظرت يوكيكو من حولها ورأت فنجاني شاي على طاولة الطعام ومظلة رجل في الزاوية. جالت بنظرها في المكان وبدأت

تظهر لها أشياء توميوكا بالتدريج. تأخرت عودة سايكو لبعض الوقت، فخرجت يوكيكو إلى الرواق ونادت على أحد الأطفال الذين كانوا يلعبون هناك، وكان صبياً في السابعة من عمره تقريباً، وسألته: «هل لدى الرجل الذي يقطن هنا أي عمل؟»

«نعم».

«هل يعود في المساء؟»

«نعم».

«متى يعود عادةً؟»

«قريباً على ما أظن».

«أين يعمل؟»

«لا أعرف».

«هل يظل هناك لوقت طويل؟»

«نعم».

ظنت يوكيكو أن المنزل يتكون من عدة شقق، وعادت إلى الغرفة وتفحصت كل الأشياء بعين فاحصة. كان هناك تحت السرير صندوق ثياب وحقيبة مصنوعة من الأغصان المجدولة، وامتد عبر إحدى زوايا السقف الجصي حبل علقت عليه مناشف يدين، ووجدت خلف السرير كومة من نحو عشرين كتاباً تتعلق كلها بالغابات في قمتها كتيب من مكتب الغابات في رانبين مكتوب باللغة الفرنسية ويتناول مساحة الغابات العذراء التي تقع تحت سيطرتهم. تذكرت يوكيكو أن هذا الكتيب من تأليف أحد الموظفين في مكتب الغابات، فأمسكته بيدها وتصفحت صور الغابات الجميلة في مستعمرة الهند الصينية الفرنسية. أثارت كل صورة في الكتيب لديها ذكرى ما، ولفتت نظرها بشكل خاص صورة فيلا في مرتفعات رانبين محاطة بأشجار الميموزا ونباتات البوغنفيلية. كان المنظر الخلاب المحاط بالجبال والمطل على البحيرة مصدر ارتياح لا يصدق بالنسبة إلى يوكيكو في تلك اللحظة. خيم الظلام في المكان حول يوكيكو دون أن تعود سايكو. ربما تكون

قد ذهبت لإجراء مكالمة هاتفية مع توميوكا. نظرت يوكيكو من النافذة المفتوحة إلى السماء الحارة فيما كان لونها آخذاً بالتحول إلى ظلمة الليل. جففت بعض الدموع، ووضعت الكتيب في حقيبة يدها لتأخذه معها تذكاراً، وخرجت إلى الرواق. لم تعد ترغب في رؤية توميوكا أو سايكو وشعرت بأن مشاعرها باتت واضحة ومحددة.

كان عليهما أن يموتا في إيكاهو، ولكنهما ماتا حقاً بطريقة ما. عندما فكرت يوكيكو بالأمر أخيراً بهذه الطريقة لم تعد تحمل أي ضغينة تجاه أحد. ارتدت حذاءها وخرجت إلى الحديقة الأمامية خارج ممر الدخول، وعند البوابة رأت أحداً ما يقترب نحوها. كان ذاك توميوكا. للحظة بدا مندهشاً، لكن بعد ذلك، عندما نظر إلى يوكيكو وهي تقف أمامه صامتة وعيناها تطفحان بالدموع، سألها بهدوء وكأنه استسلم لكل شيء: «متى جئت؟»

ردت يوكيكو: «قابلت سايكو»، وابتعدت عنه، وخرجت من البوابة، فتبعها توميوكا وصاح بها: «هاي»، لكن يوكيكو لم تلتفت إليه.

«هاي، أريد التحدث إليك».

لم تكترث يوكيكو به على الإطلاق. فالأمر لن ينتهي لو أصغت في هذه الساعة المتأخرة إلى تفاصيل علاقته مع سايكو. شعرت كأن كانو كان ينتقم منها لأنه ذاق طعم هذا النوع من المشاعر في الماضي. فعندما اعترف لها كانو بحبه العنيف أعطته قبلة سريعة، لكنها كانت على موعد سري مع توميوكا، فغضب كانو من خداعها ولوح بسيفه. الآن فقط أصبحت تدرك أن هذه الأشياء هي التي أدت بها إلى ما هي عليه الآن.

«لم أنسك قط ولا ليوم واحد. كنت أفكر بأنني أود أن أفعل شيئاً من أجلك. لكن تلك المرأة، سايكو، أغوتني بالقوة».

«إنها رواية جيدة».

«إنها ليست جيدة. أنا رجل سيئ، أعلم أنني الملام».

«هكذا إذاً؟»

كانت يوكيكو تسير في الاتجاه المعاكس من محطة ميجورو، وفي الظلام، كانت أسراب من الحشرات الصغيرة تحوم في أجواء المناطق المحترقة التي نمت فيها الحشائس. وكانت سماء الليل قد بدأت تتلون مع بزوغ الفجر.

«أستكون في أكتوبر؟»

«ما هي؟»

«ولادة الطفل».

«هذا إذا قررت أن أنجبه. فأنا أفكر في الذهاب غداً إلى المستشفى لأجهضه».

ظل توميوكا صامتاً، أما يوكيكو فقد أدركت أنه طالما هناك حياة ستظل المشاعر تولد في الناس عواصف من الرغبات، وشعرت بحاجة ملحة إلى الانعزال في معبد والتفرغ للصلاة، حتى وإن كانت صلاة لإله كالذي تستخدمه ديانة الشروق العظيم لجمع المال.

لم يعلم توميوكا ما الذي قالته سايكو ليوكيكو، لكنه تصور أنها من المؤكد قد أشعرتها بالانزعاج.

«إذاً لا بد أنك تعتقدين أنني إنسان فظيع».

أجابته يوكيكو بتأثر كبير: «نعم».

«أرجوك أن تنجبي الطفل، وأعدك بأن أتحمل مسؤوليته منذ يوم ولادته. كما أعتزم إخبارك بكامل الحقيقة عن سايكو أيضاً».

«أخبرتني السيدة سايكو بأنها هجرت زوجها».

«الحقيقة أن تلك الغرفة هي غرفة سايكو. على الرغم من أن الأمر يبدو وكأنني أقيم هناك، إلا أن سايكو هي التي تستأجر الغرفة. التقيتها في شهر مايو صدفة في محطة شينجوكو وقد أخذتني بيدي على الرغم من إرادتي. وهكذا انتهى بي الأمر بشكل طبيعي للإقامة في غرفتها. عندما أرسلت لي رسالة من شيزوكا، عرفت من كلماتك أنك ستعودين إلى طوكيو وأنك عثرت على غرفة جديدة. لكنني فكرت أن لقاءنا لن يجدي نفعاً، لذلك اكتفيت بإرسال النقود. لقد بعت منزلي وأرسلت

عائلتي إلى الريف، وأدخلت زوجتي إلى المستشفى ودبرت عملاً لي بطريقة ما. ولأن مشاعري في تلك الفترة كانت مكدرة استسلمت إلى إغواء سايكو رغماً عني».

لم تصدق يوكيكو حجج توميوكا.

عثر الاثنان على مقهى يشبه ثكنة ودخلا إليه. كان هناك في المقدمة صندوق أزرق كبير مليء بالمثلجات. حدقت بهما امرأة تحمل طفلاً بعينين مدورتين. جلست يوكيكو على أحد الكراسي المتزعزعة وكانت ساقاها متشنجتين وقد أضناهما التعب. شعرت أنها قد انهزمت على المستويين الجسدي والنفسي.

39

كان لون يوكيكو شاحباً.. نظر إليها توميوكا وأخرج سيجارة من علبة سجائر في جيبه، وطلب زجاجتين من ماء الصودا، في حين اتكأت هي بكل ثقلها على الجدار مغلقة عينيها. لم يكن لديها طاقة للتفكير في أي شيء، لكن مر أمام عينيها ذلك اليوم في رانبين عندما كانت تقف على لوح الغوص الأبيض عند البحيرة مثل شبح في حين كان توميوكا يسبح في البحيرة المعتمة. عندها سمعت أصوات مباراة صاخبة للعبة الرجبي كانت تجري في حقل قريب. وتمنت لو استطاعت الجلوس دون حركة، فقد كانت تشعر بإرهاق شبيه بالإرهاق الذي يعقب السباحة.

أخذ توميوكا يدخن سيجارته باستمتاع وقال: «من المحتمل أنك تفكرين في جميع الأشياء، لكن هذا ما آلت إليه الأمور. لكنني سأعالج الأمر، وأرجو أن تكوني متفهمة».

«لقد أقمت علاقة مع السيدة سايكو في إيكاهو؟»

التزم توميوكا الصمت.

«أنت إنسان يمكن أن تفعل أي شيء على الإطلاق، أليس كذلك؟»

وجهت يوكيكو كل هذه الأسئلة لتوميوكا، لكنها كانت تسأل نفسها أيضاً

أي نوع من الأشخاص كانت هي، وعن الوقت الذي أمضته مع جو، على الرغم من أنه كان قصيراً. فتوميوكا لم يلمها على ذلك. ألا يترك الفراغ العاطفي للمرء أحياناً فرصة سوى أن يبحث ليكون في متناول شخص آخر؟ إنه أيضاً نفس الفراغ الذي كان وراء علاقتها المؤسفة مع إيبا في الماضي. لقد فعلت نفس الأشياء التي تلوم عليها توميوكا، لكن عندما بدرت تلك الأشياء منها جعلتها تمر مرور الكرام.

«المشكلة ليست أنني لا أتفهم، بل أنني انذهلت.. لم أنس كيف بكت السيدة سايكو عند موقف الحافلات في إيكاهو، لكنني صدقتك. ربما إنني خدعت بمشاعرك، لكن هذا ما حصل، وما من شيء يمكنني فعله حيال ذلك الآن. إن إجهاضي للطفل ليس نتيجة لغضبي، فقد فكرت مسبقاً بأنني سأقوم بهذا الأمر يوماً ما، واليوم قررت أن أصبح قوية. عندما أفكر في المصاعب الكثيرة التي أعاني منها كل يوم، يبدو لي إجهاض الطفل سهلاً. أود أن أصبح خفيفة الوزن ورشيقة الحركة لأمارس عملاً ما. ألا تعتقد أن ولادة الطفل ستكون بلية؟ فحتى لو تحملت مسؤوليتك تجاهه، لن تستطيع أن تفعل أي شيء له، وسأتحمل أنا بنفسي الخسارة لأقوم بدوري كأم. كنت أفكر بأنه كان علينا التحدث والاتفاق حول ما سنفعله بالطفل، وقد لا أبالي حتى ولو كنت تعيش مع السيدة سايكو إذا كانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة لك. يبدو أن تلك المرأة تحبك أيضاً بكل جوارحها. ما خطب زوجتك؟»

«تعاني من مرض في صدرها».

«هل الوضع سيئ؟»

«يقولون إنها لو ارتاحت لفترة طويلة ستتحسن».

«من الآن فصاعداً سيكون الأمر صعباً عليك أيضاً. تقول إنك عثرت على عمل؟»

«نعم، في شركة صابون يديرها صديق لي. ليس بعمل مميز. لكن صديقي طيب معي، وأنا أستعين به الآن للخروج من أزمتي».

نظر توميوكا إلى يدي يوكيكو الجميلتين الناعمتين، فأثارت يوكيكو شفقته، لكن سايكو تثير الشفقة أيضاً.

«حتى الآن لم أرزق بطفل واحد. أنا بحاجة ماسة إلى ولادة هذا الطفل. كما أن علاقتي بسايكو لن تدوم طويلاً أيضاً. بمجرد أن أجد منزلاً سأنتقل للعيش فيه فوراً. سايكو هي الأخرى لم تنفصل عن زوجها بشكل كامل، وتلك الغرفة مثل مخبأ لها. لم يعرف الزوج أي أنباء عن سايكو بعد. وأنا لا أحب الوضع ولا أنسجم أبداً مع سكان المنزل».

«هل تقوم السيدة سايكو بأي عمل؟»

«تعمل نادلةً في حانة في شينجوكو، لكنها لازمت المنزل خلال اليومين أو الثلاثة الماضية لأنها تعاني من ألم في أسنانها».

«لكن السيدة سايكو تحبك كثيراً. يمكنك حتى أن تعيش معها لبقية حياتك، أليس كذلك؟ الفوز في النهاية يكون من نصيب من يستمرون معاً. أما بالنسبة لنا، فقد أصبح الوقت الذي أمضيناه في الهند الصينية جزءاً من الماضي، ونحن بالكاد نتذكره. أنا حتى لم أعد أحلم به، هل تفعل ذلك؟»

«أحياناً تراودني الأحلام عنك وعن دالات».

«هل كتبت في رسالتي أنني ذهبت لرؤية كانو في يناير».

«نعم، أنا أعلم بذلك. كانو هو أيضاً في حال مزرية».

«يبدو أنه استسلم، فقد أصبح نحيلاً لا حول له ولا قوة».

«كان رجلاً وطنياً عظيماً صادقاً وشريفاً».

«نعم لم يكن من النوع الماكر الخادع مثلنا».

غادر الاثنان المقهى وواصلا السير دون أن يقصدا أية وجهة محددة، وفي الخارج، كان الظلام مخيماً كلياً والنسيم بارداً.

«عندما نتجول هكذا، نبدو على الغالب كما لو كنا مقربين. من المرجح أنك تفكر داخلياً بالسيدة سايكو أكثر مني. لكنني أفكر بك بوصفك شخصاً مقرباً مني، لكن بالطريقة التي تروقني فقط. هذه هي الحرية. أتبتسم؟»

«لا أبتسم، بل أفكر بأنني قد ارتكبت ذنباً لا يغتفر بحق زوج سايكو. كما أن انجراري وراء جاذبية سايكو القوية قد جعلني أعيش لاجئاً هارباً».

«إنك لا تفكر في أن تقدم أنت وسايكو على الانتحار بوصفكما عاشقين قريباً، أليس كذلك؟ فهي قادرة تماماً على اجتياز الظروف مهما كانت».

وكان توميوكا يعتقد ذلك أيضاً. «نحن نتشاجر يومياً».

«لماذا؟»

«لأنني لا أتبعها في كل شيء بشكل كامل. سيكون من الصعب للغاية إعادتها إلى زوجها».

«لن يكون أسوأ من الليلة».

«دعينا من الحديث عنها. سآتي لزيارتك يوم الأحد القادم. أرجو أن تؤجلي قرارك بشأن الطفل إلى حين ذلك. أشكر لك تفهمك الجيد لمشاعري، فأنا أشعر الآن بقدر أكبر من الارتياح والسعادة. أنا واقع في شرك سايكو، لكنني أنوي حل هذا الأمر في المستقبل القريب».

«لا تقلق علي، ولا تقطع أي وعود. سأترك الأمور تأخذ مجراها. في الحقيقة إن كل ما بوسعي فعله الآن هو الاعتناء بنفسي. وأنا لا أقول هذا حتى أزعجك».

عندما وصلا إلى الجسر وقفا هناك متكئين على الحاجز المبني من الحجر الأبيض. ثم مر قطار بصوته المدوي تحت ذلك الجسر.

40

بعد نحو عشرة أيام من انفصال يوكيكو عن توميوكا، قررت الذهاب إلى عيادة نسائية صغيرة قريبة لإجراء الفحوص، وعرفت أن الإجهاض سيكلف خمسة أو ستة آلاف ين على الأقل. ازداد غضب يوكيكو مع مرور الأيام، فإن كان لما يحدث أي مدلول فهو بالتأكيد أنها لن تحصل على أي مساعدة من أجل الطفل أيضاً. هل كانت حقاً لتنجب طفلاً من رجل بارد الإحساس مثل ذلك الرجل؟ ازدادت مشاعرها مرارة، وانتهى بها الأمر بإخبار إيبا بكل شيء. لو كان بمقدورها فقط التخلص من الجنين، لفعلت أي شيء يلزم لتسديد الدين لإيبا. قال إيبا إنه سيعطيها المال إذا كانت تريد ذلك، ودعاها للعمل في المعبد بعد أن تتعافى وتستعيد قوتها. فبعد أن ازدهر عمله ونما بات يفضل تعيين سكرتيرة خاصة موضع ثقة تعرف مزاجه على تعيين أخرى غريبة عنه.

بعد يومين أو ثلاثة، أحضر إيبا مبلغ عشرة آلاف ين نقداً، ولم تكن يوكيكو تهتم بأي عمل تقوم به طالما أنها سترتاح من الجنين، لذا قررت أن تعمل من أجل الديانة التي كان إيبا يساعد في تأسيسها. كما أرادت أيضاً العودة إلى حياة خاصة بها ونسيان كل ما يتعلق بتوميوكا.

بعد ذلك بنحو أسبوع، دخلت يوكيكو إلى المستشفى. كان الطبيب يستقبل

يومياً امرأتين أو ثلاثاً يحملن السر ذاته، وكانت عنده امرأتان من هؤلاء تقيمان في غرفة المستشفى الضيقة. بعد إجراء عملية الإجهاض، أحست يوكيكو بأن جسمها قد انحدر نحو الجحيم، وشعرت بالاختناق عندما ألقت نظرة خاطفة على قطعة اللحم المتدلية والدم.

جاء إيبا إلى المستشفى لزيارتها في اليوم التالي، ولم يسأل يوكيكو سوى عن موعد خروجها من المستشفى ومباشرتها العمل مساعدةً له. لكنها في ذلك الحين كانت تشعر بوهن في جسمها أكثر من أي وقت مضى. لقد بات إيبا رجلاً متديناً كلياً، ويفتخر بأن مكتب المحاسبة قد اندمج مع دائرة النفقات المعمارية وأنهم يحققون من المال أكثر من أي مشروع.

وأخذت المرأة التي كانت تقيم مع يوكيكو في نفس الغرفة تصغي أحياناً إلى حديث إيبا، وكانت في نحو الأربعين من عمرها وتشغل السرير المحاذي للحائط. وفجأة سألت تلك المريضة التي كانت تدعى أوتسو شيمو: «أيمكنني أيضاً الانضمام إلى صفوف المؤمنين بهذه الديانة؟»

ثم قالت إنها ستغادر المستشفى في اليوم التالي بعد أن جاءت إليه لإجهاض جنين حملت به من رجل عجوز متزوج. لم تذكر المرأة أي شيء عن وظيفتها، لكن الممرضة قالت إنها كانت معلمة في مدرسة ابتدائية في شيبا أو في المناطق المحيطة بها. كان من الواضح أن تلك المرأة لم تكن من النوع الذي يمكنه التورط بعلاقة مع رجل، فقد كانت داكنة البشرة غليظة العظام ورسمية في سلوكها.

«هل مؤسس ديانة الشروق العظيم رجل؟»

عبس إيبا وقال: «نعم، بالطبع هو رجل، إنه شخصية رائعة. فقد درس منذ نعومة أظفاره في الهند، رجل له رؤية متميزة. لقد مر بالكثير من المحن إلى أن وصل إلى هذه المرحلة. وقد عاد إلى اليابان لينشر النور في الأقفار والمتاهات. كما خدم لمدة طويلة ضابطَ ركن على الجبهة في بورما ومالاي، وقد حقق لنفسه سمعة طيبة في كلا المكانين. لو كانت الأمور على ما يجب أن تكون عليه، لما تجرأ أمثالنا حتى على الاقتراب منه. تعالي مرة واحدة فقط، ومن المحتمل أن يخلصك

من آلامك».

«أوه، إذا مؤسس الديانة كان رجلاً عسكرياً؟»

«هذا صحيح. إنه عنصر نظيف من القوات المسلحة، وهذا أمر مهم، فرجل من هذا النوع يعرف كيف يتحدث إلى الجيش، لا بد من أن يكون المرء قادراً على التواصل مع الجماهير».

ثم أضاف إيبا بنبرة أقل حدة: «سيشتري سيارة جديدة باسمي، إنه يعهد إلي بكل شيء. لقد أوصلت السيد إلى حيث أريده أنا بالضبط».

«كم عمر هذا الرجل؟»

«ربما يكون في الحادية والستين. إنه شخصية رهيبة. أقام علاقات مع ما يقارب من مائة امرأة. إنه يقول إن الحشيش أينما نبت فإنه ينمو باتجاه الشمس. ويقال إنه قد استوحى اسم ديانة الشروق العظيم من قوة الحياة. ولدينا الآن ما يزيد عن مائة ألف مؤمن، لكننا لا نستطيع التنبؤ بحجم الانتشار الذي ستحققه ديانتنا من الآن فصاعداً. من شروط إيماننا بالسيد أن نستخدم السبل الغامضة حتى يتواصل العمل بشكل واضح».

شعرت يوكيكو بالخوف من تحول إيبا الجذري من شخصيته القديمة إلى ما يشبه رجلاً مجنوناً. من المحتمل أكثر أن إيبا يريد بكل بساطة أن يوظف امرأة كان له معها علاقة سابقة لتكون سكرتيرة خاصة له متجاهلاً علاقتها بتوميوكا.

بدت أوتسو شيمو وكأنها تفكر بشيء ما. ثم رمت معطفاً قصيراً من الطراز الياباني فوق الكيمونو الصيفي غير المخطط، وجلست في سريرها وقالت لإيبا: «في الواقع أنا من شيبا. لكنني، ولأسباب شخصية، لا أريد أن أعود إلى هناك الآن. أتمنى أن تتاح لي فرصة لاعتناق ديانة الشروق العظيم والدراسة للحصول على الدبلوم كمبشرة، ولكن كم يمكن أن يكلفني هذا الأمر؟»

أجاب إيبا وهو ينفث دخان سيجارته الأجنبية بتكلف: «آه، نعم. في البداية نفرض على المؤمن العادي مبلغ ثلاثمائة ين رسوم دخول. إذا رغب في أن يصبح مبشراً، نطلب منه إيداع مبلغ ألف ين. ثم نصدر له رخصة التبشير بعد نصف

عام. سيطلب منك يومياً دفع المبلغ الذي تريدينه مقابل إقامتك في المعبد بهدف ممارسة الصلاة. وبعد منحك الرخصة لنا كلام آخر».

قالت أوتسو شيمو إنها ستدخل بكل الأحوال مقام ديانة الشروق العظيم لتؤدي الصلاة الليلية، وطلبت من إيبا بطاقة عمله، لكن من الغريب أنه أخبرها بأنه لم يحصل على بطاقات عمل بعد. فقد بدا وكأنه فقد فجأة أي اهتمام بها. لكنها جعلته يسجل العنوان على قصاصة ورق صغيرة.

قال إيبا: «من الطبيعي أن التبشير يختلف كثيراً عن الإيمان العادي. فحتى يصبح المرء مبشراً يجب أن يتوفر لديه المال على مدى الحياة. إنه في الحقيقة يكلف مبالغ طائلة من المال».

«نعم، بالطبع. أتوقع ذلك. لكنني أعرف أحداً سيعطيني أي مبلغ من المال شريطة أن أبقى متوارية عن الأنظار لنحو سنة. إنه شخص ذو مكانة، لذا فهو لا يمانع أن يعطيني بسخاء».

«ماذا قلت؟ شخص ذو مكانة؟» وتحول إيبا فجأة إلى رجل مؤدب جداً.

«ذو مكانة؟ إذا كنت تحظين بدعم شخص ذي مكانة، فإن ديانة الشروق العظيم ترحب بك وتفتح لك ذراعيها. هذه ليست على الإطلاق ديانة هرطقة وابتداع كغيرها من الديانات الكثر المتوافرة حالياً. فهي لا ترفع من معنويات الناس بإخبارهم بأن أمورهم ستتحسن، كما أننا لا نؤمن في عصر التطورات العلمية الحالية بأن الدين يمكن أن يعالج المرض. أليس كذلك؟ تقوم ديانة الشروق العظيم على الرغبة الداخلية في معالجة أمراض النفس. فهناك أطباء يفحصون الجسم، لكن ليس هناك أطباء يفحصون الروح ويمنحونها العزاء والسلوى. وبالإضافة إلى ذلك، تسعى هذه الديانة إلى تحقيق الثروات. إنها تبدد هذا التفاؤل المشرق غير الاعتيادي في هذه الأيام المظلمة. إذا كنت تحظين بدعم شخص ذي مكانة، سأتولى أنا بنفسي المفاوضات بعناية فائقة، وسأهتم بأمرك أكثر من اهتمامي بإنسان عادي... السيد لا يحب مقابلة الناس، لذا فأنا أمثله في كل الأمور».

41

في يوم مغادرتها المستشفى أخيراً، وبينما كانت تسدد مبلغ الفاتورة في المكتب، رأت يوكيكو صحيفة في غرفة الانتظار، ولفت نظرها خبر صغير فيها.

في الساعة 10:40 من مساء الثاني عشر من الشهر، وفي العنوان XX في شيناجاوا الشمالية من دائرة شيناجاوا، استدرج موكاي سيكيشي، 48 عاماً، وكان يمتلك سابقاً مطعماً في أيكورا، زوجته العرفية تاني سايكو، 21 عاماً، إلى غرفته وخنقها بمنشفة يدين. وبعد أن اقترف جريمته قام بتسليم نفسه فوراً لدى كشك الشرطة في دايبا. وأفاد مخفر شرطة شيناجاوا بأن موكاي كان يعيش مع سايكو ويدير حانة في مدينة إيكاهو بمنتجع الينابيع الحارة، وذلك قبل أن تفر سايكو بمساعدة عشيقها، ويدعى توميوكا، إلى طوكيو. بعد ذلك، جاء موكاي إلى المدينة لإعادتها، لكن سايكو رفضت المصالحة معه. في يوم الثاني عشر، اعترض موكاي سايكو وهي في طريقها إلى الحمام وأخذها إلى غرفته، حيث توسل إليها أن تصالحه، وقد نشب شجار بينهما، ثم انتابته نوبة من الغضب فأقدم على خنق سايكو بمنشفة يدين.

وكان الخبر مرفقاً بصور لكل من موكاي وسايكو.

جلست يوكيكو لبعض الوقت على الكرسي القاسي، وقرأت خبر الصحيفة لعدة مرات، واستغربت منطق أن ينتهي أمر سايكو أخيراً بالخنق على يد زوجها، على الرغم من أن شخصيتها كانت قوية لحد التشبث بالرأي الخاطئ. ورأت أن توميوكا لا بد أن يكون قد لُقن درساً جيداً من ذلك، وأنها تستطيع الآن فهم تلك التعابير الغامضة التي بدت عليه عندما ذهبت لزيارته في منزله في ميشوكو.

ظنت يوكيكو أن توميوكا لن يتحرر أبداً من شبح سايكو. لم يكن توميوكا الوحيد الذي ساءت أموره بشكل كامل بعد عودته إلى اليابان، بل إن كانو قد انهار أيضاً، إن جاز التعبير. في تلك الليلة نامت يوكيكو في سريرها لأول مرة منذ زمن طويل. شعرت بأنها منهكة تماماً، وأنها قد قطعت رحلة طويلة حتى وصلت إلى هذا اليوم. أصغت إلى أصوات الجداجد وحفيف سوق الذرة الهندية التي كانت تداعبها الرياح تحت النافذة، وتخيلت توميوكا وهو يستلقي في غرفته في ميشوكو، ثم أخذت تحلم بإيكاهو وهي بين النوم واليقظة.

لم تشعر يوكيكو بأدنى أسى تجاه مقتل سايكو، ورأت أن ذلك النوع من السلوك العنيد هو أسوأ سبيل يتبعه المرء ليعيش حياته، وأن ضعف توميوكا كان خسيساً وحقيراً. وقد وصل احتقارها لتوميوكا وسايكو إلى حد رغبت فيه في البصق عليهما معاً.

لم تتحسن صحة يوكيكو الجسدية على الإطلاق خلال الأربعة أو الخمسة أيام التالية. كان إيبا يزورها ويضيق ذرعاً عندما يرى وجهها الشاحب الذي يبين له بأنه لن يتمكن من طلب أي شيء، فكان يتردد أن يطلب منها مباشرة عملها بسرعة.

«ما المشكلة؟ تبدين ضعيفة إلى حد مخيف. أرجوك تحلي ببعض القوة.. بعض القوة الروحية. فمسألة الحياة أو الموت تتعلق بالقوة الروحية. لقد تغيرت منذ عودتك من الهند الصينية. يجب أن تكوني أكثر قوة.. ابتهجي وتأنقي. بالمناسبة، تلك المرأة، ماذا كان اسمها، أوتسو شيمو انضمت إلينا، وهي تمضي ثلاث ليال

من الصلاة في المعبد. إنها زبون جيد جداً.. معلمة مدرسة ابتدائية وابنة عائلة تدير تجارة الميسو[1].. متحدثة ولديها مال. وهي تعمل هذه الأيام على بنيتها الجسدية والعقلية، وبعد ذلك تسير كل الأمور بسهولة. يبدو أن النساء أيضاً عندما يبلغن سناً معينة يبدأن بالتفكير بما سيصدر عنهن. ستكون مفيدة بالنسبة لنا.. حتى المؤسس نفسه يقول إنها لقية».

كان إيبا يرتدي بدلة سوداء جديدة ويضع دبوساً على شكل زهرة عباد الشمس على الجزء السفلي من ياقتها.

«هذا الكلام طبعاً بيني وبينك فقط. لكن لتعلمي أن الدين هو بالتأكيد أفضل تجارة في هذا العالم. من اللافت كيف يسمع عنا الأشخاص الذين يشعرون أنهم تائهون ويأتون إلينا. لدينا أكشاك استعلامات في كل مكان وخرائط ملصقة في المحطات. يأتي الناس ويقدمون لنا الأموال عن قناعة وسرور. لقد بعت أخيراً ذلك المنزل في ساجينوميا، وأعيش الآن مع عائلتي ومؤسس الديانة في منزل اشتريته من صيرفي في إكينو. إنه منزل رائع بلغت كلفته ثلاثة ملايين ونصف مليون ين. المنزل قديم، لكن فيه ثلاثمائة وعشرين ياردا مربعاً من مساحات الأرضيات وتحيط به مساحة ألفي يارد من حدائق تتخللها بحيرة اصطناعية ومجسم جبل».

«سيعاقبك الله عما قريب».

«الله؟ إن الله لا يهتم إلا بالناس الذين يحاولون أن يسلكوا طريقاً خاصة بهم، ولكنه لا يكترث لأمر أولئك الذين لا يمسكون بحبل القدر. هاي، مازلت متيماً بك بعد كل هذا يا يوكيكو. سأشتري لك عما قريب منزلاً صغيراً وجميلاً. فأنا كنت أول رجل في حياتك مهما يقول الآخرون. هذا أمر لا أنساه».

قالت يوكيكو: «أرجوك أن تتوقف عن التحدث بهذه الطريقة. حتى النساء، عندما يتقدم بهن العمر، يصلن إلى مرحلة ينظرن فيه إلى العالم على حقيقته. لدي الكثير من ذكريات الماضي، وما تقوم به لا يهمني».

اكفهر وجه إيبا.. في حين بدت فتنة أنثوية على يوكيكو على الرغم من

(1) الميسو هو نوع من التوابل اليابانية يحضر من تخمير الصويا.

الشحوب البادي على وجهها. لقد اختلفت كثيراً عن فتاة الماضي البسيطة.

«لا، لم أقصد أي سوء. بل قلت ذلك لأنني أفكر بسعادتك في كل الأمور يا يوكيكو. من الأفضل ألا نفكر كثيراً بالسعي وراء المثاليات. عندما تتأملين هذا العالم قد تفكرين بما تنطوي عليه الحياة من حلاوة ومرارة، وقد تدركين أنه لا يمكن الوثوق كثيراً بمشاعر الحب والهيام لدى الرجال والنساء. الجنة والنار في هذا العالم مسألة تتعلق بالمال فقط. لقد بدأت أدرك بشدة سعادة المال ونعيمه. لم أشعر أبداً باكتئاب كذلك الذي انتابني في فترة ما بعد الحرب، غير أنني اليوم مختلف كثيراً، فقد أحسست بضرورة أن أعيش طويلاً لأجمع أكبر قدر ممكن من المال. وكذلك المؤسس يقول الشيء ذاته».

ترك إيبا ظرفاً من المال وغادر بسرعة. فتحت يوكيكو الظرف ووجدت فيه رزمة من الأوراق النقدية من فئة المائة ين، وكانت جديدة ونظيفة ليس فيها أي تجعد على الإطلاق. نظرت إلى الأوراق النقدية الجديدة لمبلغ العشرة آلاف ين، وشعرت بالسرور لأنها لم تعرف من قبل سوى الأوراق النقدية المتجعدة، وظلت لفترة تفكر في قوة إيبا المالية.

سمحت يوكيكو لإيبا أن يشتري منزلاً لها. لكنها لم تستطع التعوّد على فكرة الاعتماد عليه، ولا على فكرة أن تصبح من معتنقي ديانة الشروق العظيم. وفكرت في أنها قد تود لقاء توميوكا بين الحين والآخر.. لكنها كانت مجرد فكرة عابرة، إذ أدركت أن غيرتها العنيفة على توميوكا ستعود للظهور من جديد.

وفي أحد الأيام تلقت يوكيكو رسالة من عنوان كانو مكتوبة بخط امرأة تخبرها فيها بأن كانو قد توفي. قرأت يوكيكو رسالة أم كانو عدة مرات، وعرفت أن كانو قد طلب في وصيته أن تقام له مراسم جنازة وفق الطقوس الكاثوليكية، واستغربت رغبة ذاك الرجل الذي عرف بعشقه لبلاده وبإيمانه بأن اليابان لن تهزم في الحرب في جنازة كاثوليكية متواضعة. يبدو أن كانو قد أصبح في خلال سنواته الأخيرة ضحية حرب حقاً. رغبت يوكيكو في أن تبعث برسالة تعزية رقيقة لوالدة كانو، لكنها لم تفعل لأنها كانت متعبة جداً.

لم يرد يوكيكو أي خبر من توميوكا منذ أن نشر الخبر في الصحيفة، وبدأت تقلق وتتساءل عن مكان اختفائه. أمازال يقيم في ميشوكو؟ كان التفكير بتوميوكا يشغل بالها طوال النهار. ومن المؤكد أن توميوكا لم ينس يوكيكو كلياً على الرغم من موت سايكو المؤسف. وعلى الرغم من قوله إنه يعمل في شركة صابون، إلا أن يوكيكو تمنت أن يعود إلى عمله في مكتب الغابات وأن يُرسل إلى محطة للغابات في إحدى المناطق الجبلية الجميلة من البلاد.. أي منطقة يمكن أن تؤدي الغرض. وتخيلت أن بإمكانهما أن يتزوجا بعد ذلك. أخرجت يوكيكو كتيب توميوكا حول الهند الصينية الذي أخذته من غرفة سايكو في ميشوكو، ونظرت إلى صفحاته.. لم تستطع أن تصدق أن يختفي توميوكا من حياتها ببساطة دون أي كلمة. وعقدت عزمها وكتبت له رسالة تقول فيها:

قرأت خبر موت السيدة سايكو في الصحيفة. لا أستطيع أن أقول شيئاً سوى إننا جميعاً معلقون بأحبال القدر. أعتقد أن ذلك أمر فظيع.

كيف حالك؟

كرهتك لوهلة وغضبت منك، لكنني أدركت أخيراً أنه ما من أحد يمكنه مواساتك غيري.

توفي السيد كانو في الثاني والعشرين من الشهر، وقد وصلتني رسالة من أمه تقول فيها إنه أقيمت له جنازة كاثوليكية. أعتقد أنك لم تسمع بالخبر، لذلك أردت إبلاغك به. لو فكرت بالأمر لأدركت أن كانو قد مر بأوقات حزينة خلال سنواته الأخيرة.

لقد مرت أكثر من عشرة أيام على تلك الحادثة، ولا بد أن مشاعرك قد هدأت قليلاً الآن. كان يجب أن نموت معاً في إيكاهو. من جهة أخرى، أرى أننا لو متنا في جبال دالات لكان الأمر أجمل بكثير.

لقد أجهضت الجنين.. أعتقد أنك إنسان بغيض.. لو اعتمدت عليك، لوجدت نفسي محصورة في زاوية، وربما أكون الآن قد قتلت نفسي أيضاً. أنت تقتل الناس، فبسببك حدثت مصائب للكثيرين– سايكو

وكانو وزوجتك وأنا. إنني لا ألومك، ولكن هذا ما أعتقده.

أنتظر أن أتعافى، وعندها أنوي العمل في الوقت الحالي في عمل شريف وثابت. هل أنت بخير؟ لا أريد هجرك ولاأزال راغبة في لقائك. أرجوك أن تأتي بأية حال لرؤيتي، ولو لمرة واحدة فقط. أخبرني عن أحوالك.

بعد نحو خمسة أيام من إرسال يوكيكو لهذه الرسالة جاءها الرد من توميوكا مرفقاً بحوالة مالية بمبلغ خمسة آلاف ين. وجاء في الرسالة: «أما بشأن لقائنا، أرجو منك الانتظار لمدة أسبوعين. فأنا أمر الآن بأسوأ أيامي، ولذا لا أرغب في لقاء أحد. لم يكن هناك مفر من إجهاض الجنين، لكنني أدرك وأعترف بأن ذلك حدث نتيجة خطئي أنا. سآتي بالتأكيد لرؤيتك. إذا كانت رغبتك الحقيقية في ألا ننفصل، سأعتمد على ذلك وسآتي بكل تأكيد للقائك». شعرت يوكيكو على الأقل بشيء من العزاء والمواساة لدى استلامها لتلك الرسالة.

42

مر أسبوعان، وتوميوكا لم يأت بعد لزيارة يوكيكو على الرغم من أنها الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يتحدث معه بأكبر قدر من الحرية. وعدم رغبته في رؤية يوكيكو لم يكن ناجماً عن الكسل، بل عن انشغاله بقضية محاكمة موكاي سيكيشي إذ كان لا بد أن يساعده في مسألة المحامي. لم يكن لدى موكاي أي أقارب ليساعدوه، وشعر توميوكا بالواجب تجاهه، وبذلك يستطيع على الأقل أن يحسن لسايكو. وفي الوقت ذاته صدمه السلوك الهادئ لهذا الرجل بعد أن أقدم حقاً على قتل امرأة. هل العاطفة الجنسية بين النساء والرجال عنيفة إلى هذا الحد؟ لم يلحظ توميوكا وجود موكاي سيكيشي إلا عندما علم بأنه قتل سايكو. فمنذ أن غادر إيكاهو وحتى تلك اللحظة لم يفكر أبداً بوجود زوج سايكو، وأحس بالموت وكأنه عقوبة قاسية يفرضها عليها الزوج لما اقترفه من أفعال.

كان توميوكا قد ذهب إلى إيكاهو مع يوكيكو بهدف الانتحار كعاشقين. ولكن بينما هما على وشك إنجاز تلك المهمة، تولدت من بقايا حنينه لهذا العالم بداية جديدة لحياته بفضل التقائه بسايكو صدفة. لقد أدت رغباته الغريزية إلى موت سايكو وسجن موكاي. ارتعد جسمه بسبب ما شعر به من لامبالاة حيال مكره. لم يتأثر برسالة يوكيكو التي قالت فيها إنها ترغب في رؤيته، ولم يتألم

أبداً لحقيقة إجهاضها، واقتصر تفكيره فقط على أنه أصبح يفتقر لكل المشاعر والأحاسيس منذ عودته إلى اليابان.

عندما التقاه توميوكا في مخفر شرطة شيناجاوا قال موكاي إنه لا توجد حاجة إلى توكيل محامي لأنه لا يكترث للمكان الذي سيمضي فيه بقية حياته، وأنه يود أن يصدر الحكم بحقه بسرعة سواء أتضمن ذلك عقوبة الإعدام أو السجن المؤبد. كما قال إنه سيصلي في السجن لراحة نفس سايكو.

وكذلك توفي كانو أخيراً بسبب مرض في صدره.. وكأن كل إنسان يتوجه مسرعاً نحو نهاية رحلة حياته مدفوعاً من الوراء بعدد لا حصر له من الأناس الآخرين. لم ترق لتوميوكا فكرة الإسراع نحو النهايات غير السعيدة، فقد بات يدرك الآن، وبعد أن فقد كل مشاعره، بأن ليس للحياة سبيل أفضل من أن يشق المرء لنفسه طريقاً مريحة قدر الإمكان في هذا العالم.

لم يرغب توميوكا في أن يرى يوكيكو. وعلى الرغم من أنه أهدر الخمسة آلاف ين التي أرسلها لها، إلا أنه أرادها أن تكون هدية الوداع لأنها أبعدت الطفل عن هذا العالم. فهو، في أعماق نفسه، لم يكن يريد لذلك الطفل أن يولد. تواصل هبوب الرياح وهطول المطر منذ الصباح. استلقى توميوكا على السرير دون سايكو مصغياً إلى صوت المطر. حتى وقت قريب جداً، كانت سايكو تستلقي هنا بجانبه، ثم تستيقظ لتثبت ساقيها فوق ساقيه وتدندن له. في تلك الأوقات فقط كان توميوكا يشعر بأنهما متقاربان حقاً. لكن سايكو لم تعد موجودة الآن. لم يفكر فيها توميوكا بدافع الحب أو الشوق، بل على العكس شعر بأنه انتعش وارتاح منها، فقد عانى ما يكفي من النساء، وهو يشعر الآن ولأول مرة بقيمة الاسترخاء المريح وهو يستلقي على السرير وحده. كم من المنعش والمنشط أن يكون المرء بمفرده! لقد جاءته فرصة لتغيير حياته، فأراد أولاً أن يترك الغرفة وأن يهجر في الوقت ذاته زوجته ووالديه، ثم أن يغير اسمه إذا سارت الأمور بشكل جيد، وأن يستقيل من عمله ويجد عملاً جديداً.

مع ذلك، لم يشعر توميوكا بارتياح خاص عندما يفكر بأن ذاك الرجل الذي

يوده لايزال قابعاً في السجن، وأمل أن يصدر الحكم بحقه بسرعة، فهذا سيساعده في استعادة اتزانه ورباطة جأشه.

لم يدخل توميوكا إلى المكتب منذ الحادثة. وكان يعمل في خلال الأيام القليلة الماضية على كتابة مقالة بعنوان «ذكريات موظف غابات في الجنوب» لمجلة زراعية تصدر عن إحدى الشركات الإعلامية. وأخذ ينكب على الكتابة كلما ساورته الرغبة في ذلك، فقد خطط لتأليف مقالة من نحو مائة صفحة على أمل أن يرسلها إلى المجلة ويجني منها بعض المال. فقبل الكتابة عن ذكريات موظف الغابات، وكنوع من التنويع، أرسل توميوكا خلال نفس الفترة التي وقعت فيها الحادثة مقالاً من ثلاثين صفحة بعنوان «ذكريات فاكهة الجنوب». وقد نشرت المقالة في المجلة وحصل مقابل ذلك على أجر بقيمة عشرة آلاف ين، وهذا ما شجعه على ممارسة الكتابة.

وكان نص المقالة كالتالي:

عشت في الهند الصينية لمدة أربع سنوات تقريباً موظفاً في وزارة الزراعة والغابات السابقة أعمل لدى الجيش. وبما أنني أمضيت السنوات الأربع تلك في مناطق استوائية فقد احتفظت بذكريات العديد من أنواع الفاكهة.

تنمو في المناطق الاستوائية أنواع كثيرة من أشجار الفاكهة. ويتمتع سكان تلك المناطق بسحر مذاق الفاكهة اللطيف أكثر من أي شيء آخر. إذا أردت التحدث عن أعمق انطباعاتي، فلا بد أن أذكر الموز أولاً، إنه ملك الفواكه في المنطقة الاستوائية. تستورد اليابان الموز حالياً من تايوان، ولكن قد لا يعرف الكثيرون أن هناك عدة مئات من أنواع الموز المختلفة. فهناك الموز الطويل والنحيف، وهناك القصير والسمين، والموز المضلع ذو الزوايا البارزة، والموز البني الفاتح، والموز الأحمر الفاتح، والموز ذو الرائحة العطرة... هناك كل الأشكال والنكهات... إنه تنوع لا حدود له بالفعل.

في خلال حياتي في المناطق الاستوائية، كنت في معظم الأحيان أفضل أن آكل بشكل خاص ملك الموز وموز الأشجار التي لا يتجاوز طولها ثلاثة أقدام. في بعض الحالات النادرة كان يقدم لي الموز المطبوخ، لكن طعمه لم يكن لذيذاً.

تستخدم الفروع الصغيرة التي تنبت أسفل الساق لزراعة أشجار الموز. بعد نحو خمسة عشر شهراً تنمو الأشجار إلى ارتفاع يتراوح من عشرة إلى عشرين قدماً. من الوسط، حيث تُطَعَّم الأوراق، ينبت سويق ضخم يصل طوله إلى أربع أو خمس أقدام تنمو عليه الأزهار. عندما تتحول الأزهار إلى ثمار ينحني هذا السويق بشكل طبيعي نحو الأسفل، ويذبل الجذع، في حين تتحول الفروع الجديدة التي تنمو من بقايا الجذع المقطوع إلى جذوع أخرى تستطيع أن تحمل بعد عام واحد الفاكهة من جديد.

الموز فاكهة مناسبة للمناطق ذات المناخ الحار والرطب، ولكن من الممكن زراعته في أي مكان إذا توافرت له عوامل التربة اللزجة والتصريف الجيد، باستثناء الأماكن ذات التربة الصخرية المعرضة للرياح القوية أو التربة الرملية الكلسية.

الموز هبة من السماء. وأكثر ما يسعد به الفقراء الذين يستخدمونه مصدراً غذائياً.

وإذا كان الموز ملك الفاكهة، هل يمكن القول إن فاكهة المنغوستين هي الملكة؟ تنمو هذه الفاكهة على أشجار يطلق عليها علمياً اسم جارسينيا مانغوستانا. شاهدت ثمرة المنغوستين لأول مرة في متجر فاكهة بالقرب من بوراشيكو في مدينة هانوي، وكان حجم ثمرتها بحجم حبة برسيمون صغيرة، مسطحة من الأعلى، وقشرتها ناعمة باللون البني المائل إلى البنفسجي ومذاقها يشبه طعم برتقال المندرين. عند تقطيع ثمرة المنغوستين تظهر مجموعة من البذور

المحاطة بطبقة من مادة ناعمة بيضاء. تحتوي قشرة الفاكهة على حمض التنيك الذي يستخدم صباغاً، ولذا يكون من الصعب جداً إزالة بقع عصيره عن الأقمشة. يقال إن موسم المنغوستين الرئيسي يمتد من مايو وحتى يوليو، لكنني عثرت على هذه الفاكهة في هانوي في شهر فبراير وأكلتها. في خلال الأسبوعين اللذين قضيتهما في فندق موران في هيو، كانت فاكهة المنغوستين حاضرة على المائدة في جميع الوجبات.

تكون شجرة المنغوستين مخروطية الشكل متوسطة الارتفاع، وأوراقها بيضوية كبيرة ذات سطح جلدي وتنمو في صفوف متقابلة ومتناظرة. موطنها الأصلي مالايا، وتتميز بنموها البطيء جداً، فهي تحتاج إلى تسعة أو عشرة أعوام حتى تثمر، وتلائمها التربة العميقة والخصبة والتصريف الجيد في المناطق ذات المناخ الحار والرطب. وإذا كنا نعتبر المنغوستين فاكهة لطيفة، فلا بد لنا من الكتابة عن نقيضها المباشر وهي فاكهة نادرة تسمى الدوريان وتتميز برائحتها الكريهة النفاذة.

كتب توميوكا عن الظروف البيئية لأنواع الفاكهة، مثل كارودامومو وسابوشيرو وباراميتسو والبابايا، مضيفاً إليها ذكرياته حول أول مرة تذوق فيها تلك الفواكه ووصفاً لرحلاته في المنطقة الاستوائية. مد يده تحت السرير بحثاً عن المجلة الزراعية وتصفح أوراقها وأخذ يدقق النظر في كتابته التي تحولت إلى حروف مطبوعة، وتراءت أمام أعينه المشاهد والمناظر الطبيعية في دالات.

كان مبلغ الخمسة آلاف ين التي أرسلها إلى يوكيكو هو نصف المبلغ الذي كسبه من كتابة هذا النص، لكنه تشاءم لإدراكه أن هذا المال قد استخدم لتسديد نفقات عملية إجهاض. ثم سمع صوت أحد يقرع الباب، فنادى وقد انتابه شعور بالخوف: «من الطارق؟»

أجابه صوت من الجانب الآخر من الباب: «هذه أنا يوكيكو».

ذهب توميوكا ليفتح الباب فوجد يوكيكو تقف في الرواق حاملة مظلة رطبة وقد بدت نحيلة ومنهكة كلياً. وأحس في أعماق ذاته أن زيارة يوكيكو غير مناسبة على الإطلاق.

43

لقد مرت ثلاثة أسابيع ولم يأت توميوكا، لذا قررت يوكيكو أن تذهب هي لتراه على الرغم من المطر. لكنها لاحظت تعابير توميوكا عندما فتح الباب وأدركت أن علاقتهما ستنتهي اليوم مهما بذلت من جهود.

«لا بد أنه كان بلية بالنسبة إليك».

حاول توميوكا ما في وسعه الابتسام في وجه يوكيكو وهو يجمع الجزأين الأماميين من اليوكاتا[1] الرث ويجلس بالقرب من النافذة.

«كان الأمر مرعباً. لا بد أنه كان مرعباً بالنسبة إليك أيضاً؟ أمن المناسب لك أن تغادري السرير الآن؟»

«نعم، لم يكن علي الإقامة في المستشفى لفترة طويلة، وتعافيت أخيراً».

كان الاثنان يدنوان بسرعة ويمسكان بأيدي بعضهما في كل مرة يجتمعان فيها بمفردهما في الهند الصينية. أما الآن فقد تغيرت الأمور بالتأكيد. جلست يوكيكو بتثاقل وقالت: «قرأت الخبر في الصحيفة. لم أتمكن من الانتظار لفترة أطول. عشت على أمل ما جاء برسالتك التي قلت فيها إنك ستأتي بالتأكيد لرؤيتي، وإنه إذا كانت رغبتي الحقيقية في ألا تنفصل، فأنك ستعتمد على هذا

(1) أحد أنواع الألبسة التقليدية اليابانية التي عادة ما تلبس في فصل الصيف.

وتأتي لزيارتي».

قال توميوكا وقد بات وجهه جامداً: «لم أنسك للحظة، لكنني انشغلت بهذه المشكلة مع زوج سايكو. كانت الأمور كلها في حالة فوضى، لذا لم أتمكن من القدوم».

«إذاً، ما كنت لتأتي حتى لو مت في المستشفى».

«لا، هذا يختلف. لم يساورني القلق لأنني ظننتك بخير».

قالت يوكيكو وجسمها يرتعد غيرة من سايكو: «هذه مجرد كذبة»، وقد تأثرت وغضبت بسبب حالة توميوكا النفسية التي جعلته يبدو حجراً جامداً لا يتحرك.

«ألست أنت من رجاني أن أنجب الطفل؟ ومع ذلك لم تأت ولا لمرة حتى. عندما ترحل لا تفكر بالعودة. أنا أكره السيدة سايكو، وأكره زوجها حتى. وأنا حزينة جداً لأنني أحبك».

اتكأت يوكيكو على السرير وبكت، في حين كان توميوكا ينصت لصوت بكائها وهو ينظر بثبات إلى الرياح القوية والمطر في الخارج. ما الذي كانت تتوقعه منه يا ترى؟ إلى متى ستظل هذه المرأة تعذبه بذكريات الماضي مثل دائن يلح في مطالبة مدينه؟ إنها مازالت تحاول ابتزاز المال منه بسبب تلك الذكريات. اشمأز توميوكا فجأة وهو يصغي لبكاء يوكيكو وقال:

«أرجوك وأتوسل إليك أن تتركيني بحالي. لا أستطيع مساعدتك. أنا مجرد هيكل كائن بشري».

«لا أريدِ أن ننفصل. كن لطيفاً معي كما كنت من قبل».

«كان من الأفضل لو أن كلاً منا ذهب في سبيله بعد عودتنا إلى اليابان. ومن الأفضل لك الآن أن تشقي طريقك الخاص في الحياة».

«لو كنت أسلك طريقي الخاص بالحياة لتوقفت عن لقائك منذ وقت طويل. ولكنك ضجرت مني، وهكذا فإنك تعبر عما تفكر به بالضبط.. لكن أتعرف أمراً؟ لو ظهر شبح السيدة سايكو في هذه الغرفة لقلت لها: أنا لن أهجر توميوكا».

«هاي، لا تتحدثي بصوت مرتفع هكذا. فهذا مبنى سكني. كوني متحفظة. أنا لا أكترث لأمر سايكو، بل، على النقيض تماماً، أدرك الآن بأنها قد رحلت بالتأكيد. لكنني أشعر بالأسف على السيد موكاي. فأنا حر يمكنني الذهاب أينما أريد في حين يقبع هو وراء قضبان السجن. يبدو الأمر غريباً جداً».

«حسناً، أتعلم؟ أنا لا أريد حقاً التفكير بزوج السيدة سايكو. لماذا علي التفكير به؟ ما العلاقة التي تربطنا بأولئك الناس على أيّة حال؟ فأنا لم أكن على علم بأمر تلك الحادثة التي كنت السبب وارءها».

استعر قلب يوكيكو بمشاعر الخزي، واضطربت رؤيتها، وشعرت بالدوار، ثم فقدت كل قوتها وانهارت. هزها توميوكا من الكتف وقال: «ماذا حدث؟ ألم تكوني بخير؟»

اشتد هطول المطر وهبوب الرياح. حمل توميوكا يوكيكو إلى السرير ومددها عليه. برزت الأوعية الدموية الزرقاء في صدغيها، وتحولت شفتاها إلى اللون الأبيض، وتشنجت عضلات وجنتيها وارتعشت، وبدا جسمها بأكمله مثل جسم مريض. حاولت أن تمسك بشي ما بيديها الجافتين وظهرت الأوساخ السوداء تحت أظافرها.

أحضر توميوكا بعض الماء في وعاء معدني وغمس فيه منشفة استخدمها لخفض حرارة جبين يوكيكو. شعر باحتقار شديد لنفسه، ثم انتابته فجأة رغبة قوية في الحصول على المال. وبما أن يوكيكو قد استسلمت لحالة نوم تشبه الغيبوبة، جلس توميوكا إلى الطاولة وانهمك بالكتابة عن ذكرياته في الهند الصينية التي تتناول بشكل خاص نباتات المنطقة وأشجارها.

> وهناك حكاية شعبية أنامية جميلة تتعلق بنباتات البينرو والكينا. ففي ظل حكم فون بون الرابع، ملك أنام، عاش في منزل أحد رجال البلاط، ويدعى كاو، أخوان اسمهما تان وكان. كان الأخوان قد فقدا والدهما وهما صغيرا السن، ولذا كانا يحبان بعضهما كثيراً. وقد أخذهما قريب لهما يدعى رو للعيش في منزله

وشاءت الصدفة أن تكون هناك خادمة فوقع في حبها الأخ الأكبر وتزوجا.

عندما وصل توميوكا في كتابته إلى هذه النقطة، خطرت على باله مناظر الجبال في دالات حيث التقى يوكيكو لأول مرة، وتذكر بسرعة تنورتها المصنوعة من قطن الجنهام المقلم التي ارتدتها في خلال زيارة مزرعة الشاي في أونتور. لم يصدق أن هذا الجسم المريض المتهالك المستلقي على السرير في غرفته الآن هو ذاته جسم يوكيكو الشابة الجميلة الرقيقة تلك. لكن قلبه استكان أخيراً واستطاع أن يواصل كتابته، ثم بدأ حالاً يشعر بالجوع، فأخذ إبريقاً صغيراً من خزانة الشاي وسخن بعض القهوة على الموقد الكهربائي. ثم نظر إلى الساعة على خزانة الشاي بجانب السرير وكانت تشير إلى حوالي الواحدة تقريباً، فأخذ يحشو فمه بالخبز، ثم التفت فجأة نحو السرير ورأى عيني يوكيكو مفتوحتين تحت المنشفة.

«لماذا لا تأكلين شيئاً؟»

سكب توميوكا المزيد من القهوة في كوب الشاي، في حين كانت يوكيكو تفتح عينيها وتحدق في السقف.

«ألا تنهضين وتشربين بعض القهوة؟»

نهضت يوكيكو بهدوء وأخذت كوب القهوة من توميوكا.

44

عندما حل المساء، ازداد هطول المطر غزارة، وأرسل توميوكا العنان لقلمه ليخط أفكاره على الورق.

كنت أعيش في قضاء مقاطعة غابات الجبال في منطقة دالات حيث يضم خمسة عشر ألفاً وسبعمائة متر مربع من غابات صنوبر الكاشا. وقد باشرنا، نحن موظفي الغابات، وبناء على أوامر الجيش، بحملة متهورة لقطع الأشجار في إطار التطوير السريع للموارد.

كانت صور وجوه ضباط الجيش الذين كانوا هناك في ذلك الوقت تتلاشى من ذاكرة توميوكا، فسأل يوكيكو فجأة:

«ما كان اسم آخر محطة في الطريق من دالات؟»

عرفت يوكيكو أن توميوكا كان يفكر بهذا النوع من الأمور، ودبت فيها حيوية مفاجئة ونهضت من السرير وأجابت:

«تسوروشامو، أليس كذلك؟»

«آه، نعم، تسوروشامو».

ظلت يوكيكو تراقب توميوكا وهو جالس في كرسيه.

«هل تتذكر القرية الصغيرة التي تسمى مانرين؟»

«مانرين؟»

«هل نسيتها؟»

«أوه، تلك القرية التي كانت فيها قبور الأناميين؟»

«صحيح، على بعد أربعة كيلومترات من دالات. كان هناك محطة فرعية لمكتب الغابات، هناك مشينا عبر الغابات الكثيفة لأول مرة».

اقتربت يوكيكو من توميوكا ونظرت إلى النص على الطاولة.

«لماذا تكتب عن هذه الأشياء؟»

«إنني أكسب مالاً من كتابتها».

«أتستحق هذه الأشياء أن يدفع المال من أجلها؟»

أخذ توميوكا المجلة الزراعية من جانب السرير وأعطاها ليوكيكو وقال لها: «اقرئي هذه».

أمسكت يوكيكو بالمجلة بيديها، واطلعت على الفهرس، ولفت نظرها وجود اسم توميوكا كينجو. قلبت الصفحات بسرعة وبدأت تقرأ.

«إنني أكسب المال من الكتابة، وهذا ما جعلني أشعر بثقة أكبر في نفسي. المال الذي أرسلته لك كان من الأجر الذي تقاضيته لقاء الكتابة».

«حقاً؟ أكنت تكتب؟» كان توميوكا قد كتب بالتعابير العامية عن الموز والمنغوستين والدوريان وبيئة المنطقة.

استمر هطول المطر وهبوب الرياح في خلال الليل. كان هدير الرياح وهي تجتاح أغصان الأشجار يشبه صوت أمواج البحر. وافقت يوكيكو على البقاء، لكن الأمر كان سيان بالنسبة إلى توميوكا.

وبينما كانا يتناولان الخبز والقهوة انقطعت الكهرباء فجأة، فأشعلا شمعة ووضعاها على الطاولة وجلسا يرويان ذكرياتهما في الهند الصينية مثل صديقين قديمين. كانت لهما أحياناً ذكريات مختلفة، فتبادلا الروايات والحكايات، ومرت عليهما لحظات سعيا فيها معاً للعودة مرة أخرى إلى أيام حبهما المتقد. دام انقطاع الكهرباء لفترة طويلة، وكذلك بدأ ضوء الشمعة يضطرب، فما كان أمامهما من

شيء يفعلانه سوى التسلل إلى السرير وملازمته. كان وميض البرق يضيء النافذة العارية بين الحين والآخر والمطر يضرب بشدة على الأبواب الخشبية والألواح الزجاجية.

انتظرت يوكيكو رد فعل من توميوكا، وواصلت حديثها عن غابة مانرين، لكن توميوكا لم يشأ الخوض في تذكر مناظر مانرين معها. وكان كلما همست في أذنه يفكر بسايكو والطريقة التي كان جسدها الضخم يتمدد إلى جانبه في هذا السرير.

لم ير توميوكا سايكو وهي ميتة، غير أنه سمع من الناس في الفندق أن عينيها كانتا نصف مفتوحتين ولسانها بارزاً، وسرعان ما شعر بحنين لجسدها الضخم المشدود.. لكنها ماتت ولم يعد لها وجود في هذا العالم.

«عزيزي، أتتذكر حديقة الفيلا الصينية جنوب ملعب التنس في دالات؟»

«نعم».

لم يعد توميوكا يبالي بطريقة أو بأخرى بدالات أو بالفيلا الصينية، كما أنه ضجر من عذوبة يوكيكو الغثة. لم تعد أحلام الماضي تعني له أي شيء على الإطلاق.. لقد اشتاق إلى جسم سايكو الضخم المكتنز. شعر بأنه قد أدرك معها المعنى الحقيقي للمرأة لأول مرة، وأحس بدمعة تتجمع في زاوية عينه. مررت يوكيكو يدها خفية على صدره، فما كان منه إلا أن أمسكها وأعادها إلى مكانها.

«ما الأمر؟ ألا يروقك الأمر؟»

«أنا متعب الليلة، ولا أريد سوى أن أغط بنوم عميق».

سحبت يوكيكو يدها، وحبست أنفاسها، وظلت صامتة لفترة. لقد تكهنت بالتغير الذي طرأ على مشاعر توميوكا، لكن لم يخطر لها أنه مازال مغموراً بذكريات سايكو.

«حسناً، دعنا نتحدث عن الجنوب. هذه الليلة لا يمكنني الاستسلام للنوم بسهولة».

«أنا نعسان جداً».

«كيف يمكنك أن تكون بهذه البرودة؟ لقد كنت أكثر لطفاً».

التصقت يوكيكو مرة أخرى بصدر توميوكا وحاولت أن تلاطفه. تذكر توميوكا تعليق وايلد[1] أن تقييم جودة الخمر وطريقة تخميره لا تتطلب شرب البرميل بأكمله. لقد مرت عليه هذه المواقف ذاتها مراراً وتكراراً، لكنه الآن لا يرغب في أي شيء سوى جسد سايكو. لم يجف حلقه بعد، وغط بعد ذلك بنوم عميق وراوده حلم مزعج وغريب التقى فيه بسايكو في أثناء سباحته في مياه معتمة. كانت عيناها نصف مفتوحتين، ولسانها متدلياً إلى الخارج، وعلى وجهها ارتسمت تعابير غريبة. لكنها بدت على درجة كبيرة من الفتنة والإغراء، وسرعان ما تعانقا في الماء ووضعت سايكو رجليها حول خصره ويديها حول رقبته، ثم أخذت تلعق وجنتيه بلسانها. عندها صرخ توميوكا صرخة لا إرادية، فاستفاق على صوت صراخه.

كانت يوكيكو تستلقي بكامل جسمها فوقه ملقية وجنتها الرطبة على وجنته.

(1) أوسكار وايلد (1854 –1900) شاعر ومسرحي أيرلندي شهير.

45

عندما استفاق توميوكا في الصباح التالي، كانت يوكيكو تضع مساحيق التجميل عند طاولة الزينة الصغيرة الخاصة بسايكو. وكان المطر قد توقف كلياً وأصبحت السماء زرقاء صافية. ظل توميوكا في السرير مستلقياً يراقب يوكيكو وشعر وكأنه قد جُرَّ إلى مستنقع.

أخذت يوكيكو تستخدم الأدوات والمساحيق الخاصة بسايكو، وقد نفر توميوكا من عدم احترامها للأموات. ولكن أليس هو حقاً الشخص الأكثر قسوة في هذا الظرف؟ بدت صورة يوكيكو التي انعكست في المرآة نحيلة لدرجة كبيرة. وتضاءل انحناء جسمها عند الوركين وبان عليها الكبر بشكل ملحوظ. لم يعد لديها ذاك الصدر الممتلئ. وبدا شعرها البني المحمر جافاً وباهتاً، وجبينها عريضاً جداً. كما بدت حواف عينيها حمراء ومنتفخة.

نهض توميوكا فجأة من السرير، ونزل السلم على رؤوس أصابعه كي لا يزعج العائلة، وذهب ليغسل وجهه. وبينما كانت يوكيكو تضع مساحيق التجميل، سالت دمعة من حافة عينها، وشعرت بأن الليلة الماضية قد بينت أنه لا أمل في علاقتهما. لم تستطع أن تصمد في وجه توميوكا، ذاك الرجل الذي كان ينادي باسم سايكو حتى في نومه، وأدركت أنه لم يعد يحمل أي ذكريات من الهند الصينية.

غادرت يوكيكو في الساعة العاشرة وهي مثقلة بالأفكار المريرة، ولم يودعها توميوكا لأنه كان متعباً على حد قوله. وهي الأخرى كانت متعبة أيضاً، فتوجهت دون وعي أو مبالاة نحو المحطة. كان جسمها منهكاً وشعرت وكأنه قد أُفرغ من الهواء. أخذت تفكر بالطريقة التي ستواصل فيها حياتها، وشعرت بوحدة كما لو أنها سقطت في هاوية. ثم فكرت بأن عليها أن تعقد العزم حالياً على الذهاب إلى إيبا والعمل في مكتب ديانة الشروق العظيم طالما أنها لن تستطيع فعل أي شيء آخر.

مرت خمسة أيام تقريباً دون أن تنجز أي أمر. ثم وصلتها رسالة عاجلة من إيبا يطلب منها القدوم فوراً دون أي يوم تأخير. قررت يوكيكو أن تزور مكتب ديانة الشروق العظيم. لم يصلها أي خبر من توميوكا. ولو كان مازال يكن لها أدنى قدر من الحب لكان من المفترض أن يوفي بوعده بزيارتها. لكن يوكيكو فكرت في أنها ستحاول أن تضع ثقتها بديانة الشروق العظيم بغض النظر عن استمرار علاقتها بتوميوكا أم لا. شعرت بتحسن بسيط في نفسيتها.

كانت حرارة ذلك اليوم حارقة. ذهبت يوكيكو للبحث عن ديانة الشروق العظيم حسب العنوان الذي حصلت عليه في إيكجامي_كاميشو. لقد اشترى إيبا بالفعل منزلاً وأراضي صيرفي سابق. عند البوابة ذات الأعمدة الغرانيتية، كان هناك باب صغير من الشبك الحديدي، وممر مفروش بالحصى يؤدي إلى مدخل المبنى. كانت أشجار الحديقة قد قُلِّمت بعناية ووجدت في المكان مظلة مرآب ذات سقفٍ من القصدير. عندما دخلت يوكيكو من البوابة الجانبية شاهدت امرأة نحيلة في منتصف العمر تقتلع أعشاب الحديقة وترتدي قبعة كبيرة من القش، وظنت أنها من أتباع الديانة. رأت يوكيكو باباً زجاجياً مفتوحاً والكثير من الصنادل المصفوفة بترتيب على أرضية الردهة المبلطة.

في مقدمة الردهة كانت هناك ستارة جديدة وكبيرة من قطعة واحدة مرسوم عليها صورة تنين. ورأت وراءها أوتسو شيمو تجلس خلف طاولة مكتب وقد

طلت وجهها بطبقة كثيفة من المساحيق. تذكرت يوكيكو هذه المرأة التي التقتها بالمستشفى. كانت أوتسو شيمو منهمكة بكتابة شيء ما وهي ترتدي معطفاً قصيراً باللون الأزرق الغامق فوق تنورة مشقوقة[1] من نفس اللون. امتد ممر الدخول إلى الجهة الخلفية من المنزل حيث هبت في الخارج رياح عاتية وباردة، وفي الخلف ارتفعت أصوات جوقة مختلطة تؤدي الصلوات حسبما اعتقدت يوكيكو.

(1) التنورة المشقوقة. أو الكولوت. ثوب نسوي يبدو على شكل تنورة ولكنه مفصل ومخيط على شكل بنطال.

46

لولا أصوات المصلين التي بدت مثل أصوات حيوانات تعوي في الجبال، لبدا مدخل المنزل كمدخل مستشفى ريفي صغير. لاحظت أوتسو شيمو وجود يوكيكو فنهضت بسرعة وجاءت إليها وقالت: «مرحباً بك. لقد كان المعلم ينتظرك بفارغ الصبر»، ثم أخذت خفاً جديداً من صندوق الأحذية ووضعته أمام يوكيكو. كان سلوك شيمو هادئاً وأسلوبها راقياً.

قالت يوكيكو وهي ترتدي الخف: «تبدين بالطبع وكأنك في منزلك هنا».

أظهرت شيمو غروراً غريباً كغرور العروس بمهرها ولم تتنازل لإبداء أي رد، بل قالت: «من هنا لو سمحت»، ثم رافقت يوكيكو عبر ممر يؤدي إلى الخلف. عندما وصلتا إلى آخر الأروقة الضيقة انعطفتا عند الزاوية حيث كانت هناك غرفة. وضعت شيمو أصابعها باحترام على الأرض وقالت: «يا معلم، الآنسة يوكيكو هناك».

بدا المشهد سخيفاً بالنسبة ليوكيكو. رد إيبا من الغرفة بصوت كصوت الخنزير، وعندما فتحت شيمو الباب الخشبي كان هناك رجل في الستينيات من العمر يستلقي على بطانية عسكرية وبجانبه إيبا يمد يديه على الرجل. أخذت شيمو مخدة جلوس رقيقة بنية اللون من زاوية الغرفة، ووضعتها بالقرب من الباب

وأشارت إلى يوكيكو أن تجلس هناك، ثم أغلقت الباب بهدوء خلفها وغادرت. لقد كان ذلك عالماً جديداً كلياً بالنسبة إلى يوكيكو. كان الرجل العجوز المضطجع يغلق عينيه ويفتح فمه ويطبقه مثل سمكة. كانت بشرته داكنة، وشعره متشابكاً مثل حزمة من الأعشاب الذابلة، وكانت له شامة كبيرة على جبينه. كان حافي القدمين ويرتدي كنزة قطنية بيضاء وبنطالاً رمادياً. أما إيبا فقد ارتدى معطفاً قصيراً فضفاضاً قاتم اللون يشبه ملابس شيمو، وكانت عيناه مغلقتين أيضاً.

«وهكذا، كما كنت أقول، إن أساس ديانة الشروق العظيم لا يميز بين الشباب والمسنين، ولا بين الصالحين والأشرار، لكنه يشفق على الأشخاص الذين يؤمنون بصدق. هذه إرادة الله، إنقاذ البشرية من المشاعر الشريرة الحارقة. إن خير هذا العالم وشره لا جدوى منهما. مجرد ترنيم صلوات ودعوات ديانة الشروق العظيم أفضل من بوذا وكل الآلهة. لا ينبغي عليك أن تخاف من الشر. يعد المرض أهون الشرور. فهو شر مرئي، يمكن النظر إليه كما تنظر إلى علامة في الشارع. أما شر القلوب فلا تراه العين ولا تلمسه اليد، إنه من غير ريب شر جهنم. لا تقل إنه القدر. شر المرض بسيط. لو رددت صلاة ديانة الشروق العظيم أفضل لك من تزمت أي ديانة أخرى. إنها سلطة السماء، لها من القوة ما يمكنها من إنقاذك، إنه الخلاص عن طريق الايمان. هذا هو أساس ديانة الشروق العظيم بالفعل. إنها تمد اليد الشافية لتخلصك من المرض البسيط».

كان إيبا يقول هذه العبارات غير المفهومة بسلاسة وطلاقة ودون أي تردد، ثم وضع يديه المرتعشتين فوق كتفي الرجل وهزه بشدة، فبدأ العجوز يستنشق الهواء بطريقة مفرطة جداً.

«أرجوك، تنشق أكثر، املأ فمك وتنشق الهواء. إن روح ديانة الشروق العظيم تتدفق من يدي»...

راقبت يوكيكو كل ذلك بعناية، وظنت أن الجنون قد أصاب إيبا الذي انكب على وجه الرجل يفتح عينيه بين الحين والآخر.

«كل البشرية، بكل ما فيها من عواطف شريرة، لا تستطيع الهروب من دائرة

الحياة والموت. الرحمة.. الرحمة.. ليزول سبب المرض وشره. لتحل عليك شفقة ديانة الشروق العظيم وبركته».

كرر إيبا هذه العبارات لفترة أطول ووضع يديه على رأس العجوز، وقال: «والآن أمنحك الطهارة والتبرئة»، وربت بلطف على كتفي الرجل وساعده على النهوض. بدا الرجل وكأنه قد استفاق للتو من قيلولته ثم سارع بالجلوس على البطانية، في حين جفف إيبا يديه بقطعة قماش بيضاء كانت تغطي المذبح الصغير في كوة زخرفية في الجدار.

رتب الرجل العجوز ملابسه وركع باحترام وانحنى بشدة أمام إيبا.

«ما رأيك؟ ألا تشعر بتحسن في جسمك؟»

«نعم، أشعر بأنني أفضل بكثير. منتعش ونشيط».

«لو تابعت لأربع أو خمس جلسات، ستشفى بشكل كامل. فمرضك خطير نوعاً ما ولن يشفى في ليلة وضحاها. إن سيد ديانة الشروق العظيم، وخلافاً للمخادعين في هذا العالم، لا يدعي أن المؤمن سيشعر بتحسن فوري، بل إن شر المرض يبدأ بالزوال بالتدريج مع الإخلاص والمثابرة على الصلاة».

«نعم، أنا أنوي المجيء للصلاة لعدة مرات».

«سيكون ذلك ممتازاً».

«ما المبلغ المناسب لأدفعه كأجر لتطهير اليوم؟»

«لا، لا، هذه ليست مستشفى. إننا نقوم بذلك مجاناً من منطلق الشفقة والرحمة. هذا هو جوهر عقيدة ديانة الشروق العظيم. نحن لا نقبل قرشاً واحداً من الأشخاص الذين لا يمتلكون المال. أما بالنسبة إلى الميسورين، فنقبل بكل رضا أي مبلغ مهما كان، ونصلي لتخليصهم من كل شرور المرض».

بعد ذلك، عاد إيبا إلى مكتبه على مهل ووضع سجل المعبد فوراً أمام الرجل الطاعن في السن الذي بدا تائهاً وقال له:

«هذا ما تلقيناه كأجور للتطهير حتى الآن، يمكنك الاسترشاد به».

تلقى الرجل الطاعن في السن السجل بإجلال وفتحه في حضنه. ثم أحضرت

امرأة يبدو عليها المرض وهي ترتدي التنورة المشقوقة الرسمية الشاي.

في مقدمة السجل كُتب اسم وزير سابق في الحكومة وقد قيد بجانبه مبلغ خمسة آلاف ين. وكانت هناك شكوك حول إذا ما كان التوقيع يخصه بالفعل فالخط كان مريباً، كما أن الوزير نفسه قد اتهم بأنه مجرم حرب وأُعدم شنقاً. تفحص الرجل الطاعن في السن جزءاً من السجل الكبير لفترة، ثم وضعه على البطانية، وأخذ ريشة من وعاء حبر على الطاولة القريبة وأدخل مبلغاً قدره خمسمائة ين.

بعد أن دفع المال، سأل الرجل الكبير في السن إيبا عن اليوم والتوقيت المناسبين لزيارته القادمة ثم غادر. تنهدت يوكيكو بارتياح وهي تصغي لصوت خطواته تبتعد.

قالت يوكيكو مبتسمة: «هذا عمل نمارسه هنا، أليس كذلك؟»

كان من الملاحظ فعلاً أن هذا الرجل، الذي كان من حثالة البشر والذي لم يتمكن حتى فترة قريبة من الحصول على أية وظيفة، قد تمكن بضربة حظ من جني خمسمائة ين بمجرد هز يديه وترديد بعض الصلوات الزائفة. لا بد أن يعترف المرء بأنه عمل ماكر وبارع.

لو حدث الأمر في الماضي لكانت يوكيكو قد دفعت بالوسادة وغادرت الغرفة. جلس إيبا واضعاً ساقاً على ساق بطريقة مبتذلة لحد غريب وأخرج علبة سجائر أجنبية من الطاولة وأشعل سيجارة منها وقال: «ما رأيك بهذا؟ إنه عالم ممتع، ألا تعتقدين ذلك؟ ليس هناك ما يضاهيه. طالما أنك تستطيعين أن تجعلي الناس يؤمنون، بمقدورك أن تفعلي ما تشائين معهم. إنه عمل شعوذة، تنفخين فيهم روح ديانة الشروق العظيم، وتشفين المرضى وتساعدينهم على استرداد عافيتهم. لا أستطيع أن أعود إلى حياتي القديمة موظفاً براتب شهري بعد كل هذا، أليس كذلك؟ ليس لدى الناس بوذا أو آلهة. لا يستطيعون الحصول على رحمة الآلهة أو بوذا بمفردهم، لذا فهم يدخرون القليل من المال ويأتون إلى هنا لشرائها. وقد قمنا بتأسيس ديانة الشروق العظيم استجابة لهذه الحاجة، ونحن سعداء أن

نلبي الطلب. الكل راضٍ».

كانت يوكيكو مرتعبة، فقدم لها إيبا سيجارة فأخذتها وأشعلتها. في الفجوة الجدارية المزخرفة علقت لفافة عليها كتابة ما، وهنا أيضاً بدا الخط مريباً. ووضعت في وعاء الزهور المزخرف بالألوان باقة من أغصان الصنوبر الأحمر، في حين امتدت في منتصف الغرفة التي تتسع لعشر حصائر البطانية العسكرية بدل سجادة. عند مدخل الباب المطل على الشرفة كان هناك مكتب إيبا وبالقرب منه طاولة صغيرة من الطراز الصيني. وساد المكان جو من الهدوء، ربما بسبب علو السقف، وتلاعبت عبر الغرفة نسمات هواء لطيفة. ويبدو أن هناك حديقة فناء داخلي ضيقة نشرت فيها الملابس المغسولة لتجف.

«ماذا ستفعل إذا ما أثار الأمر شكوك صحيفة ما فأرسلت أحد مراسليها لإجراء تحقيق حوله؟»

«سنعلم بالأمر حالاً. نحن لا نقبل أي أموال من أي شخص مثير للشكوك».

«هل لديك نظر ثاقب إلى هذا الحد؟»

«عندما تديرين تجارة كهذه يصبح لديك نظر ثاقب».

ظنت يوكيكو أن هذا النوع من مشاريع الدجل والاحتيال، التي تشبه إلى حد كبير تجارة الجنس، لا يمكن أن يستمر لفترة طويلة. لكن من الوارد جداً وجود بعض الأشخاص ممن لديهم هذا النوع من العقليات والنفوس الشاذة في هذه الفترة التي أعقبت الحرب بعد أن وجد الكثير من الناس أنفسهم في مهب الريح لا هدف لهم.

سأل إيبا: «كيف صحتك؟»

ابتسمت يوكيكو وهي تدخن سيجارتها وقالت: «علي أيضاً أن أدفع رسوم تبرئة وتطهير ليتم فحصي». حتى لو لم يكن هناك شيء تستطيع القيام به لحل مشكلتها مع توميوكا، فلا بأس أن تساعد في هذا العمل الذي يقوم به إيبا بشكل مؤقت بعد أن فقدت من قبل الثقة بمقدرتها على الحصول على عمل شريف. وعلى الرغم من توجساتها تجاه ديانة الشروق العظيم، إلا أن العمل فيها بدا أفضل

من أن تمارس عمل نادلة في حانة أو مقهى من أجل أن تجد لنفسها موطئ قدم في الحياة.

«ألم تفقدي الكثير من الوزن؟»

«نعم، لو استطعت تناول الطعام الجيد وتسهيل الأمور لسمنت مثلك. ليس بمقدور المرأة أن تكون جميلة إذا لم يكن هناك من ينفق المال عليها».

نظف إيبا أذنه بطرف أصبعه وهو عابس. من الواضح أن الصلوات قد انتهت، وكان هناك صوت طبل كبير. جاءت أوتسو شيمو لتصطحب إيبا. وقد سارت يوكيكو خلف إيبا نحو القاعة الكبيرة، حيث رحب نحو ثلاثين مؤمناً من الرجال والنساء يقفون في أرجاء الغرفة بمؤسس الديانة والمعلم إيبا. كانت تلك القاعة إضافة جديدة إلى المبنى، وتتسع لما يقارب من عشرين حصيرة، وكانت الأرضية تفوح برائحة الخشب الجديد. أحاطت ستارة بنفسجية اللون بالمذبح ثلاثي الأوجه ولمعت من ورائها مرآة على شكل الهلال. جلس المؤسس ناريميون سينزو على كرسي من الطراز الصيني أمام المذبح مرتدياً ثوباً أسود يشبه ثوب القاضي، وعلى صدره شارة مرسوم عليها صورة لهلال وزهرة عباد الشمس مجدولين. فيما وقف إيبا إلى جانب المؤسس وانحنى أمام المؤمنين وقال: «ارتاحوا، اجلسوا»، فجلسوا على الأرضية الخشبية، وجلست يوكيكو في الكرسي الأكثر انخفاضاً، واستراح إيبا في كرسي مصنوع من الأغصان المجدولة. بدت الأجواء مشابهة لأجواء دروس آداب السلوك في مدرسة ابتدائية قبل الحرب. رن المؤسس جرساً صغيراً كان موضوعاً على الطاولة، ثم دمدم شيئاً ما بهمس ومد قطعة من الورق الأبيض على الطاولة.

«اليوم سيحدد إله ديانة الشروق العظيم القانون الإلهي في الفصل الثالث. أرجو أن يرتدي الجميع الثياب المقدسة». عندها فتح كل مؤمن معطفاً بنفسجياً دون أكمام يشبه شالاً له ياقة الزي الرسمي للحرفيين طبعت عليه أحرف «ديانة الشروق العظيم»، ووضعه على كتفيه.

«كما يقول الإله في الفصل الثالث: ينتاب المرء مزاج خطير خلال مسيرة

حياته، فيجعل كل حدود العالم تجتمع معاً. «إن أعمال المرء لا تكفي، فهو يظل تائهاً فقط، متجولاً فقط». يسعى إله ديانة الشروق العظيم إلى الحفاظ على البشر من الدخول إلى جهنم. إنه يمنح القدر في هذا العالم. فإن لم تعتمدوا على خلاص الايمان. وإن لم تمتلكوا حقاً روح الفردوس الغربي[1]، ستفقدون كل شيء، نعم، سوف تهلكون في الجحيم»...

تسرب عبر الباب الزجاجي المفتوح نسيم منعش، وكانت تسمع من بعيد أصوات مقص البستاني يجز الأغصان.

«إن كل كائن بشري ينعم بحياة تستمر على مدى خمسين عاماً، وهذا لأنه يسمح لنا أن نجمع الفضيلة من خلال التضحية بالذات»...

شعرت يوكيكو بالإنزعاج من الجلوس على الأرضية الخشبية الجرداء فعدلت من وضعية جلوسها الرسمية.

---

(1) الفردوس الغربي أو الأرض الطاهرة في البوذية هي المرحلة التي يصل بها المتعبدون إلى مرحلة متطورة من التنور والايمان يمكنهم بعدها أن يصبحوا بوذا.

47

قام توميوكا بزيارة محامٍ نيابة عن موكاي، إذ لم يكن أمامه من سبيل لإرضاء روح سايكو سوى أن يقدم المساعدة القانونية لزوجها. لم يعد يكترث قط لأمر يوكيكو، كما لو كانت غريبة تماماً عنه، وظن أنها قد كرست نفسها مؤخراً لجماعة دينية ما. لم يكن هناك أي مؤشر على أن توميوكا سيغادر هذه الغرفة التي كانت تعبق بذكرياته مع سايكو. وكان كل يوم يمضي أوقاته متكاسلاً يتقلب في سريره أو منكباً على كتابة النصوص للمجلة الزراعية التي كانت ترسل له النقود أحياناً. لم يكن بحاجة إلى لقاء أحد، بل كان توميوكا مسروراً بظروفه الحالية وشعر بأنه سيكون من الخانق أن يحصل على عمل يستنزف وقتاً محدداً منه يومياً.

أخذ توميوكا إجازة من شركة صديقه دون إذن وانغمس في أفكار إنسان متشرد. لم يقترب من أناسه في أوراوا، وكان يرمي رسائل زوجته كونيكو فوق خزانة الشاي بلا مبالاة، وحتى لم تعد لديه أيّة مشاعر حيال زوجته التي كانت تلازم الفراش مريضة منذ فترة. فعلى الرغم من معرفته بأن والديه المسنين يعيشان أيضاً في حالة فقر، لم يكن لديه أيّة إمكانية لمعالجة مشكلة ما عليه فعله في هذه المرحلة. لقد خسر معظم المال الذي حصل عليه من بيع المنزل في تجارة الأخشاب، ولم يتبق معه سوى مبلغ يكفي لمصروفات ستة أشهر أو سنة وقد أرسله إلى عائلته.

بسط توميوكا الأوراق الرديئة التي كان يكتب عليها وهو مستلق على السرير وبدأ يؤلف مقالاً عن الورنيش، وأخذت أفكار الجنوب تتوارد إلى ذهنه كمن يخوض عباب بحر ذكرياته.

تنمو أشجار الورنيش فقط في اليابان والصين والهند الصينية وبورما وتايلند.

عندما بدأ توميوكا الكتابة عن هذا الموضوع، شعر بخمول غريب في تفكيره، وكان يعاني بين الحين والآخر من نوبات دوار. وأحس بتدهور في صحة جسمه وربما يكون ذلك بسبب عدم انتظام وجبات طعامه. لكنه لم يطق صبراً لمباشرة كتابة هذا المقال عن الورنيش لظنه أنه سيجني نحو عشرة آلاف ين منها. لكن تفكيره لم يجاريه، واعتقد أن مكان زراعة أشجار الورنيش غير مهم بطريقة أو بأخرى. لذا فقد غير فجأة من طريقة كتابته، وانطلق من إحدى ذكرياته وكتب:

عندما كنت في هانوي عاصمة تونكين خلال الحرب، أُرسلت إلى مدينة صغيرة تدعى فوتو تقع على مسافة مائة وثلاثين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من العاصمة هانوي وفيها مزارع ورنيش مشهورة عالمياً.

> الاسم العلمي لأشجار الورنيش هو روس ساكوشيدانا، وتدعى في بلادنا هاز، وهي شجرة من عائلة السماق (روس سيلفيستريس). وفي تونكين يطلقون عليها اسم كايسون. في مدينة فوتو، كما هو الحال في مناطق اليابان التي يتم فيها إنتاج الحرير، يقوم المزارعون بزراعة الكايسون كمحصول فرعي. في قديم الأزمان كان الورنيش الأنامي يسمى ورنيش الجرار، وكانت نوعيته رديئة وسعره منخفضاً. وقد جرت العادة في المراكز العريقة المتخصصة بتجارة الورنيش على عدم المتاجرة بالورنيش الأنامي. لكن في خلال الحرب كان هناك نقص في كميات الورنيش عالي الجودة في اليابان أيضاً، وقد تنافس التجار على استيراد الورنيش الأنامي. على الرغم من أن خبرتي كانت محدودة لا تتجاوز زيارة تفقد لأيام قليلة لمزارع الورنيش في فوتو، فإنني أرى أنه لو تمكنا في اليابان

اليوم من زراعة غابات من أشجار الهاز، كمهنة إضافية للمزارعين، لاستطعنا تصدير الورنيش الياباني عالي الجودة إلى الغرب. كان الورنيش الأنامي يتميز بسرعة جفاف غير جيدة، ومن المحتمل أن تنهار أشهر عاصمة للورنيش في العالم مستقبلاً ما لم تحدث تطورات فنية. لكن بالنسبة إلى موضوع الأسعار، ليس هناك مجال للمقارنة بين اليابان وأنام. كان مزارعو فوتو يحضرون إنتاجهم من الورنيش غير النقي إلى أسواق المدينة ويبيعونه إلى سماسرة. لكن سوق الورنيش في فوتو كان يعج بجميع أنواع البضائع الأخرى. وهو يشهد حالياً نشاطاً كبيراً كما لو أن صندوق ألعاب قد أفرغ فيه، حيث تباع هناك كل احتياجات الحياة اليومية. وتأتي الفتيات المزارعات إلى السوق بأبهى حللهن.

وصل توميوكا إلى هذه النقطة وتوقف عن الكتابة. شعر وكأنه انجذب نحو حياة اليابان الكئيبة رغماً عن أنفه، وفقد النشاط والقوة لكتابة هذا المقال عن الورنيش. فحتى لو تم تصدير الورنيش الياباني إلى الأماكن الأخرى لن يحدث شيء، لأن إنتاج اليابان من الورنيش ضئيل ولا يضاهي إنتاج الورنيش الأجنبي. انقلب توميوكا على جانبه، ونظر بتأمل إلى النصل الذي كان يشحذ فيه قلم الرصاص. شعر بأنه هو المسؤول فعلاً عن موت سايكو، وأن موكاي كان مجرد كلب صيد في حين كان هو نفسه الصياد الذي قتل سايكو. تأمل توميوكا مكره وحاول أن يضع السكين على شرايين معصمه، لكنه لم يستطع أن يستجمع شجاعته ليغمدها فيها.

لم يأكل توميوكا أي شيء منذ الصباح، ولم يتوصل إلى أي شيء في المقال أيضاً. ارتدى قميصاً قطنياً وسخاً وبنطالاً صوفياً أسود ونزل إلى الطابق السفلي. في الممر كان يرتدي في قدميه حذاء سايكو. وعلى الرغم من أن الوقت كان مساءً، إلا أن الشوارع كانت لاتزال مضاءة كما في النهار بفضل ضوء الشمس الغاربة. تجول توميوكا إلى أن وصل إلى محطة القطار، ومر بحانة صغيرة دخل إليها عبر الستارة

رغبة منه في التخلص من همومه بشرب القليل من الشراب المسكر القوي. طلب توميوكا كأسا من الشوتشو، وهو نوع رديء من المشروبات الكحولية، وشربه دفعة واحدة وطلب كأساً أخرى. لم يكن هناك زبائن غيره. كانت رائحة السمك المجفف المسخن تعج من مؤخرة المحل، ووقف رجل في منتصف العمر خلف المنضدة الطويلة، من الواضح أنه صاحب الحانة، يوبخ فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر بصوت منخفض، ووقفت الفتاة بمواجهة الحائط بتعبير متجهم تحاول بين الحين والآخر أن تضع شعرها المسدل حتى كتفيها خلف أذنيها.

«امسحي وجهك. أنت لا تعرفين شيئاً عن هذا العالم وعن العبث مع الرجال.. أين أمضيت الليلة الماضية؟»

أخذ توميوكا يشرب الشوتشو وهو يحاول أن يركز على الإصغاء للأب وهو يعطي ابنته محاضرة ويعنفها.

«أين أمضيت الليلة الماضية؟»

لم تجب الفتاة بشيء وكانت تنظر إلى حضنها. طلب توميوكا كأسه الثالثة، وشعر بنوبة قوية من الثمالة، فتحسن مزاجه لدرجة أنه رغب في الاستمتاع بمشاهدة فيلم، وهو الأمر الذي لم يفعله منذ وقت طويل. أحضرت له الفتاة كأساً ثالثة، وكانت سمراء البشرة دون أي تبرج، ذات عينين صافيتين لامعتين، وبدا وجهها جميلاً بحاجبيها السوداوين الأفقيين غير المشذبين. وضعت الفتاة الكأس على المنضدة الطويلة وابتسمت لتوميوكا بلطف.

ثمل توميوكا بالكأس الثالثة وتغيرت نظرته للعالم بشكل كلي، ثم غادر الحانة ناسياً كل شيء. أخذ يجوب الشوارع مترنحاً تائهاً دون هدف معين، لكن كان عليه أن يعود في تلك الليلة لينهي مقالته عن الورنيش مرة واحدة وليرسلها إلى المجلة الزراعية. ظل يتجول في الشوارع إلى أن وصل إلى ساجنجايا، وبالتحديد إلى حانة صغيرة غير معروفة تقع في السوق بالقرب من المحطة. دخل الحانة وهو يترنح، فوضعت امرأة في منتصف العمر كثيرة التبرج وسادة الجلوس الخاصة بها

على كرسي توميوكا.

«كأس من الشوتشو من فضلك».

«ربما عليك أن تأخذ الأمور بروية. كنت تشرب في مكان ما، أليس كذلك؟»

قدمت المرأة كأس شوتشو مملوءة حتى الشفة فوضعه توميوكا على شفتيه بتلذذ. وعلى صندوق المصباح الزجاجي الذي كان يهتز تحت الحافة الناتئة بسبب الرياح كتبت الرموز الصوتية المربعة لكلمة «جاموسو» وهو اسم الحانة الذي عرف توميوكا بأنه اسم مكان في مانشوريا.

«إذاً أنتم نازحون من مانشوريا؟»

«نعم صحيح. كيف عرفت ذلك؟»

«من زجاج المصباح».

كان للمرأة جبين عال وأنف صغير وهالات سوداء تحت عينيها الصغيرتين. وكانت تضع طبقة كثيفة من المساحيق على وجهها وترتدي مئزراً له شرائط تزينية في الأعلى فوق الكيمونو الصيفي. وعلى النضد اصطفت أطباق السمك المسلوق وشرائح لحم الخنزير والبيض المسلوق. أمسك توميوكا بشريحة من لحم الخنزير ووضعها في فمه.

«أنا نازحة. جئت بمفردي دون أي مال. مهما كان ظنك بي، إلا أنني عملت كمدرسة في جاموسو لمدة عشر سنوات. أنا لا أفهم الناس لأنني غريبة عن العمل في هذا المجال. يقول الجميع إنني أبدو امرأة من الساموراي مجبرة على العمل في مهنة أقل شأناً».

«هل لي أن أسأل كم عمرك؟»

«حسناً، الآن، كم يبدو علي من العمر؟ قد لا أبدو بعمري الحقيقي، لكنني مازلت شابة. لقد مر علي الكثير، وهذا ما جعلني أهرم، لكنني مازلت»...

«لا أستطيع أبداً أن أخمن عمر النساء، في حدود الأربعين؟»

«ستجعلني أبكي. هل أبدو مسنة مثل جدتك؟ قد لا أوحي بعمري، لكنني في

الخامسة والثلاثين فقط. أنوي من الآن فصاعداً أن أهتم أكثر بالديكور واستخدام بعض الزهور للزينة لأحقق النجاح لهذا المكان».

اندهش توميوكا من كذب المرأة عندما سمعها تقول إنها في الخامسة والثلاثين، فقد اعتقد أنها في الخمسين من عمرها وأنه قد جاملها عندما قال إنها تبدو أصغر من ذلك بعشر سنوات.

«أرجو أن تعذريني على سؤالي. أقلت إنك في الخامسة والثلاثين؟ إنك شابة جداً. لا بد أنك منفصلة بشكل دائم عن زوجك، ولهذا لاتزالين شابة وجميلة».

ضحكت المرأة بسعادة ووضعت شريحتين من لحم الخنزير في طبق صغير على النضد.

«لقد فرقنا الموت. انفصلنا في جاموسو. كان زوجي يعمل مع جمعية كيوواكي هارموني في مكان يدعى هوسي، وكان انفصالنا قراراً مشتركاً. لم أعد أفكر به على الإطلاق».

جاءت كأس الشوتشو الثانية بعد الأولى، وتفاقم ثمل توميوكا فتشوش تفكيره، وأخذ يمد يده بين الحين والآخر لمصافحة المرأة، ثم سألها: «هل مات زوجك حقاً؟»

«لقد مات بالفعل. سمعت أنه كان يعيش مع شخص من جمعية كيوواكي هارموني في كوريا. لكنه على الرغم من ذلك قتل نفسه برصاصة».

«حقاً؟»

كانت حكايتها معقدة ومشوقة. لكن توميوكا الذي كان يحتسي الآن الكأس الثالثة بدأ يعاني من مشكلة في الإصغاء إليها وأخذ يسقط بين الحين والآخر على أرض الحانة.

48

كانت يوكيكو خلال الخريف تدير قسم المحاسبة التابع لديانة الشروق العظيم، وشهدت البلبلة الهائلة التي تحدث من وراء الكواليس. فقد كان مؤسس الديانة ناريمون سينزو بخيلاً في القرارات المتعلقة بالنفقات وهو يخوض شجارات عنيفة مع إيبا بسبب المال. راقبت يوكيكو سلوك الرجلين عن كثب ولم تغفل أن تحتفظ لنفسها ببعض المال. كان الرجلان يقولان دوماً إن المال هو كل شيء في الحياة، وكانت هي تعلق بسخرية أن تلك كانت ديانة المال العظيم وليست ديانة الشروق العظيم. استعادت يوكيكو صحتها بشكل كامل، واستردت بشرتها الدهنية لونها الجميل، وبدت شابة على غير العادة. أصبحت أوتسو شيمو عشيقة سينزو، في حين أخذت يوكيكو تستعيد بين الفينة والأخرى علاقتها القديمة مع إيبا الذي أرسل زوجته وأولاده إلى الريف في شيزوكا واشترى لها منزلاً صغيراً بالقرب من المعبد. لم تكن يوكيكو تكن أدنى مشاعر الحب لإيبا، بل إنها لم تحبه قط. عاشت يوكيكو بمفردها مع امرأة مسنة من أتباع الديانة تعمل مدبرةً لمنزلها الصغير المكون من ثلاث غرف، وكانت تذهب إلى المعبد من هناك. تمكنت من ادخار مائة ألف ين، وأصبحت مع مرور الوقت أكثر مهارة في إدارة الأموال. تزايدت أعداد معتنقي ديانة الشروق العظيم باستمرار وباتت على وشك أن تصبح

ديانة مهمة ذات نفوذ كبير في المنطقة.

أخذت يوكيكو تفكر أحياناً في توميوكا، لكنها كتبت إليه أكثر من مرة دون أن تتلقى الرد. اقتنعت بأن ليس لها من مفر من حياتها الحالية لأنها لا ترى أن بمقدورها العودة إلى علاقة حبها القديم مع توميوكا مهما فعلت. بدت حياتها مريحة جداً، إلا أنها كانت دائماً في حالة من التعطش العاطفي.

وفي ليلة ماطرة، وبعد عودتها من المعبد، بدلت يوكيكو ملابسها السوداء، وارتدت كيمونو مبطناً لتتدفأ به، وتناولت العشاء في غرفة الشاي مع مدبرة منزلها العجوز. وفجأة نظرت إلى صحيفة المساء الموضوعة بجانب الموقد، فلفت نظرها إعلان لمجلة زراعية ذكر فيها مقالة بعنوان «مقالة عن الورنيش» بقلم توميوكا كينجو. تذكرت يوكيكو المجلة الزراعية التي أراها إياها توميوكا من قبل في غرفة سايكو، وطلبت من مدبرة المنزل الذهاب حالاً لشراء المجلة من المكتبة القريبة.

لم تتميز مقالة توميوكا ببراعة الكتابة، لكنها كانت سهلة الفهم. أخذت يوكيكو تقرأ المقالة وما فيها من أشياء لا يعرفها أحد سواهما عن أنام، فاشتعلت في قلبها نار متقدة ورغبت في الإسراع للقاء توميوكا في الحال. لم تشأ أن تعترف بالهزيمة على يدي سايكو. وفكرت في أنه لو كانت سايكو هي لب الموضوع، لكان من غير المحتمل أن يخططا للانتحار في إيكاهو. على أيَّة حال، مر أكثر من شهرين، ومن المحتمل أنه قد آن الأوان ليكون توميوكا قد تحرر من هذا الشبح.

«انظري! هذه المقالة كتبها الرجل الذي كنت أحبه. انظري، ذاك هو اسمه، هناك».

كانت المرأة منهمكة في التنظيف والترتيب، لكنها أخذت المجلة في يديها ونظرت إلى فهرس المحتويات الذي أشارت إليه يوكيكو بأصابعها. فقدت مدبرة المنزل، وتدعى أو-شيج، ولديها في الحرب وعملت بائعةَ سمك متجولة قبل أن يتوفى زوجها في الربيع. وبعد هذه السلسلة من المحن اعتنقت ديانة الشروق العظيم، ثم وظفت مدبرةً في منزل يوكيكو، ربما بفضل ثقة إيبا بها وبمقدرتها على كتم الأسرار.

«ما موضوع هذه المقالة؟»

«إنها تتحدث عن الورنيش. هذه هي ميزات الورنيش. إنه يوجد على الصواني والأطباق الخزفية».

«هل كان رجلك السابق يتاجر بالورنيش؟»

«لا، لم يكن كذلك. كان مسؤولاً في وزارة الزراعة والغابات. إنه رجل مميز حقاً. في خلال الحرب، كنت أعمل موظفة طباعة في الوزارة ثم ذهبت إلى الهند الصينية للعمل موظفة مدنية لدى الجيش، وهناك التقينا وجمعنا الحب معاً».

اتقدت عاطفة يوكيكو في أثناء الحديث فأردفت قائلة: «بعد الحرب، عدنا إلى اليابان كل بمفرده، أصبحنا مثل غريبين على الرغم من الحب الكبير الذي ربط بيننا في الجنوب. حتى أننا ذهبنا في مرحلة ما، بعد عودتنا، إلى إيكاهو بحثاً عن مكان ننتحر فيه معاً».

أصغت أو-شيج إلى حكاية يوكيكو بعناية وهي تمسح طاولة الشاي بقطعة قماش.

«في إيكاهو نفد منا المال، فباع توميوكا ساعته إلى صاحب حانة هناك. لكن يبدو وكأن شيطاناً قد ركبه، فانتهى به الأمر بعلاقة غريبة مع زوجة صاحب الحانة. هل يضل الرجال هكذا حتى وهم في طريقهم للانتحار مع من يحبون؟ انهارت ثقتي به بشكل كامل، وأصبحت منذ ذلك الحين محبطة ومخنوقة. أنا لا أحب إيبا أبداً، لكن عندما يتعطش المرء للعاطفة يصبح محبطاً. أعتقد أن إيبا شخصية كريهة، حتى أنه أسوأ مني. ومؤسس الديانة كذلك شخص سيئ. لقد انخدع الناس من أمثالك به».

«نعم، أنا أعرف ذلك بشكل جيد. على الرغم من ذلك، لا أستطيع أن أواصل حياتي دون أن أؤمن بديانة الشروق العظيم. أنا لا أؤمن بحضرة المؤسس أو بالسيد إيبا. هؤلاء الأشخاص لا يهمونني كثيراً».

شعرت يوكيكو بالخجل من سخريتها وتبجحها عندما سمعت أو-شيج تقول إنها تؤمن بديانة الشروق العظيم وليس بالمؤسس أو بإيبا.

«هكذا هو الأمر. أنا أؤمن بإله ديانة الشروق العظيم الذي لا يمكننا أن نراه».

«لكن لا يبدو أن آلهة ديانة الشروق العظيم موجودة في أي مكان، أليس كذلك؟»

«لا، أحياناً أنظر إلى أظافر يدي. بغض النظر عن الروعة التي خلقت بها الأشياء، إلا أنني أرى أن أحد الأظافر قد يكون أجمل من جميع الأظافر الأخرى، في حين قد يكون ظفر آخر أشد فظاعة من قنبلة نووية. أعتقد أن الآلهة تقيم داخلنا. لم يتمكن العلماء من خلق ظفر إنسان واحد. فقد خلقت هذه الأشياء بشكل طبيعي من أبوينا. لو لم يكن هناك آلهة، لما كانت هناك سبيل لخلق البشر. لولا إيماني بعقيدة ما لما تمكنت من مواصلة العيش. ماذا عنك يا يوكيكو؟ ربما عليك الذهاب إلى ذلك الرجل والتحدث إليه بلطف. لا تثرثري عن كل الأمور وحسب. ابقي قريبة منه وخذيه تحت جناحيك. سيكون هذا جيداً لك».

انفجرت يوكيكو بالضحك، وشعرت لأول مرة بأنها قادرة على الضحك بسعادة.

49

كسب توميوكا أخيراً بعض المال من كتابة «مقالة عن الورنيش»، وهذا يعني أنه كان قادراً على كسب قوت يومه. فبعد أن سدد قسطاً من إيجار الغرفة المتأخر، ظل المبلغ المتبقي كافياً لتغطية نفقات معيشته نحو شهرين. ثم تحول إلى كتابة مقالة أخرى بعنوان «ذكريات موظف غابات» على نحو متقطع على أمل أن تنال قبول نفس المجلة الزراعية. كانت نيته الأساسية الكتابة عن حنينه إلى غابات الجنوب، واحتاج إلى الاعتماد على ذاكرته في الكتابة لأنه لم يحضر معه شيئاً مما جمعه من ملاحظات كثيرة حول الأبحاث المتعلقة بعمله في الهند الصينية. وكان ينوي أن يهدي هذه المقالة إلى كانو في حال قامت المجلة بنشرها بعد أن يتمكن من كتابتها بشكل جيد. وأراد في سره أن يقدم هذه المقالة تعبيراً عن احترامه للهند الصينية ومن عرفهم هناك من أناس قد قضوا الآن.

> يتميز الأناميون بمختلف شرائحهم باحترامهم الشديد للطبيعة. فهم ينظرون إلى جميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية على أنها تحت سيطرة الأرواح. كما تسود بينهم عقيدة بأن الحياة الحالية تتأثر بنشاطات الأرواح، والأكثر من ذلك، أن كل ما تؤدي إليه الحظوظ الجيدة والسيئة يحدث بناء على تعليماتها.

تذكر توميوكا فجأة يوم وصوله إلى محطة الغابات في دالات عندما قدمه رئيس المكتب إلى كانو الذي كان قد وضع قطعة من الخشب على الطاولة. مرر كانو قطعة الخشب الصغيرة تحت أنف توميوكا وسأله: «هل سبق لك وأن رأيت أي خشب صبر حقيقي يا سيد توميوكا؟» ثم قال ضاحكاً: «منذ أن جئت إلى الجنوب لم أشم رائحة بشرة امرأة، لذا بدأت أجري دراسة عن الأشجار العطرية. فكرة ذكية، صحيح؟»

أراد توميوكا أن يشرع بالكتابة بدءاً من ذكريات وصوله إلى الهند الصينية ورؤيته لقطعة من خشب الصبر لأول مرة في حياته. وقد أخبره كانو عندها أن تلك الشجرة تُدعى كيارا في اليابان وجينكو في الصين، ثم علم الاسم الفرنسي للشجرة من السيد ماركو عندما ذهب إلى مختبر أبحاث الغابات في سايغون وشاهد قطعة كبيرة من خشب الصبر بحجم سمكة بينيت. تستعمل الشجرة في الصين منذ عهد أسرة هان، كما تستخدم منذ قرون عديدة في الهند الصينية ومصر والجزيرة العربية. كان خشب الصبر يحرق كبخور في الكثير من المعابد والمزارات المنتشرة في كل مكان كتعبير واضح عن عبادة الأناميين للأرواح. يقال إن شجرة الصبر تساوي وزنها ذهباً، وموطنها الأصلي المناطق الجنوبية من أنام حيث توجد أجود أنواع خشب الصبر. وفي إحدى المرات وضع توميوكا تحت وسادة يوكيكو قطعة صغيرة بحجم رأس الخنصر من هذا الخشب حصل عليها عن طريق رشوة كاهن في أحد المعابد الأنامية. شعر توميوكا بعلاقة غامضة بين حرق البخور والديانة الأنامية.

تمكن توميوكا من كتابة نحو مائتي صفحة، ولاحظ في أثناء الكتابة أن وصف المناطق المختلفة لم يثر في مخيلته أي ذكريات عن يوكيكو على الإطلاق، بل إن ذكرياته مع الخادمة الأنامية والطفل الذي أنجباه هي التي كانت تداعب قلبه وتشعل فيه الحنين. وفي النهاية تناولت المقالة بكل بساطة حنينه لعبق تلك الأرض بحد ذاتها.

تراجعت في تلك الفترة زياراته لموكاي في السجن، وقد مضى الشهر الماضي

دون أن يذهب لزيارته. كان توميوكا يستغرب ما يبديه موكاي من مرح واتزان في أثناء زيارته له، ووجد صعوبة في تصديق وصف محامي موكاي لموكله بأنه رجل انعزالي وكئيب. شعر بأن هناك شيئاً غريباً حول موكاي. لقد سُجن كانو في سايغون من قبل الشرطة العسكرية لسبب شبيه بذاك الذي سجن من أجله موكاي. أصبح كانو الآن من سكان مملكة الموت. شعر توميوكا أنه تصرف بنذالة مع كانو إذ لم يذهب لزيارته، ولو لمرة واحدة، عندما كان على قيد الحياة يصارع المرض. يوكيكو وحدها هي التي ذهبت.

عندما حل الليل أراد توميوكا أن يحتسي شراباً كحولياً قوياً. فهو لن يحصل على أجر لقاء مقالته عن غابات الجنوب إلا بعد فترة طويلة إذ أنه ينتج ما معدله خمس أو ست صفحات يومياً. ولذا أخذ يبيع ملابس سايكو وأشياءها كلما شعر برغبة شديدة في الشرب. لقد باع صندوق الشاي الخاص بها وصندوق ثيابها وجميع ملابسها، وقصد الحانة التي تعمل بها الفتاة ذات العينين الجميلتين لسبع أو ثماني مرات وأصبح معتاداً على التحدث إليها.

جاءت تلك الفتاة لمرة أو اثنتين إلى غرفة توميوكا لتحصيل النقود. أراد توميوكا أن يذهب الليلة إلى الحمام لأنه كان يشعر بقليل من الضجر. لقد مر وقت على ذهابه آخر مرة إلى هناك. وعندها سمع عبر الجدار صوت امرأة تضحك بصوت أجش، ظنه للحظة صوت سايكو. كانت نفس ضحكتها المبحوحة التي أطلقتها عندما أمسكت بيده وقادته إلى أسفل الدرجات الحجرية في تلك الليلة في إيكاهو. عندها سمع أحدهم ينادي «يا سيد»، فالتفت نحو الباب، ووجد الفتاة ذات العينين الواسعتين التي تعمل في الحانة واقفة تحدق في الغرفة وتحمل معها نسختين أو ثلاث نسخ من المجلات.

«ماذا؟ أهذه أنت؟»

«هل أنت بمفردك؟»

«نعم، أنا بمفردي. ما الأمر؟ هل جئت من أجل المال؟»

«جئت لأمرح معك».

«أوه»، وفكر توميوكا بمدى جرأة تلك الطفلة التي قفزت بسرعة إلى داخل الغرفة، ودفعت بقبقابها القذر الذي كانت تحمله بيد واحدة إلى أسفل السرير. شعرت براحة تامة، فجلست على حافة السرير وانقلبت على ظهرها في نوبة ضحك لا معنى لها. وقال توميوكا في نفسه: «آه، تلك هي الضحكة التي سمعتها؟» وجلس على السرير بجانبها. عندما وضع يده على كتفها وجذبها إليه، فتحت الفتاة شفتيها قليلاً ونظرت إليه. دقق توميوكا بوجهها عن كثب، وركز كامل نظره على ذاك الوجه الأسمر الذي رأى فيه نموذجاً لوجوه سكان الجنوب.

«يوبخني والدي كثيراً، ويهددني. لذا فقد هربت من المنزل»...

«أنت تسيئين التصرف دوماً. ربما يوبخك والدك لأنه يخاف عليك».

«إنه يعاني من انهيار عصبي. فوالدتي تجري مفاوضات للانفصال عنه، ولذا تراه في مزاج منفعل وعصبي كل يوم. في الليلة الماضية فقط نمت في كشك للشرطة، وهو مكان ممتع في الليل».

«أين يقع كشك الشرطة الذي نمت فيه؟»

«على بعد مسافة طويلة من هنا. كان الشرطي طيباً ولطيفاً لأبعد الحدود».

لم يستطع توميوكا أن يستوعب نفسية تلك الفتاة على الإطلاق.

50

جاء الشتاء، وكان توميوكا قد أكمل كتابة خمسمائة صفحة من كتاب «ذكريات موظف غابات»، ولكن دون أي جدوى، وقد فقد الأمل منه بعد أن علم أنه ليس بالإمكان نشره بسبب الشروط الصارمة المفروضة على النشر. شعر وكأنه يقف على رأس منحدر شديد على وشك أن يسقط في أي لحظة. لم يستطع أن يتحمل حياة لا استقرار فيها. حاول الذهاب إلى وكالات التوظيف وزيارة أصدقائه ومعارفه من الفترة التي عمل فيها في وزارة الزراعة والغابات، لكنه لم يحظ بمساعدة أي منهم.

كان توميوكا يفكر أحياناً بيوكيكو وهو مستلق في غرفته الباردة الخالية من أي وسيلة تدفئة. لكن ذلك كان يشعره فقط بالخجل من نفسه. وقد تسلم إشعارات بإخلاء الغرفة لعدم تمكنه من دفع الإيجار منذ الصيف. وكانت أمه المسنة تأتي من أوراوا لزيارته في كثير من الأحيان وتتذمر من مرض كونيكو والفقر الذي يعيشون فيه.

وفي صباح يوم مثلج من شهر يناير تسلم توميوكا برقية تحمل خبر وفاة كونيكو، فاضطر لبيع فراشه إلى تاجر مفروشات مستعملة وعاد إلى أوراوا. كانت كونيكو تعيش حياة يائسة، وقد وهنت وتحولت إلى شبح، ثم ماتت بطريقة

تشبه الانتحار. إلى جانب وهنها المزمن، أصيبت بحمى غدية من نوع حمى الخنازير، وباتت بحاجة إلى عملية جراحية، لكن الطبيب نصح فقط بتوفير الهواء النقي وزيت كبد سمك القد. ربما يكون قد رأى أن العملية ستكون خطيرة جداً على حياة هذه المرأة التي تعاني من الهزال وسوء التغذية. ثم تشكل لديها خراج في منطقة رأس الفخذ، وأضحى الحل الوحيد في إجراء عملية جراحية لإدخال أنابيب مطاطية لتصريف القيح. لكن كونيكو كانت عنيدة وأصرت على أنها لا تريد إجراء العملية، وهكذا فقد لفظت أنفاسها الأخيرة في هذه الحال البائسة.

لم يشعر توميوكا بأدنى درجة من الأسف الذي انتابه عندما توفيت سايكو، ولم يكن لديه مال لشراء تابوت، لكنه لم يتقبل أن تصل به الحال المتردية إلى درجة لا يستطيع معها حتى أن يشتري تابوتاً لزوجته بعد إهماله لها منذ نهاية الحرب.

تواصل هطول الثلج منذ الصباح الباكر، ولم يقتصر الأمر على عدم توافر المال اللازم للحصول على كاهن يتلو صلوات الجنازة البوذية، بل لم يكن هناك من أحد ليحمل الجثمان إلى المحرقة. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، ارتدى توميوكا معطف والده القديم وانطلق نحو طوكيو لطلب المال من يوكيكو. بحث عن العنوان الذي أعطته إياه في رسالتها الأخيرة، وكان اسم إيبا على لوحة الاسم. كان ذاك منزلاً أنيقاً من طابقين له بوابة مطلية وشجيرات خضراء غطى الثلج ثمار توتها الحمراء. وما إن وضع يده على الباب المنزلق حتى نبح من الداخل كلب بصوت عالٍ، ثم فتح باب ممر الدخول.

كانت يوكيكو نفسها هي المرأة التي تنزل من الطابق الثاني في المؤخرة حاملة بين ذراعيها كلباً أبيض مرتدية سترة صفراء وبنطالاً أسود. حدقت يوكيكو في البداية بمنظر توميوكا المؤسف، وتسمرت وكأنها قد توقفت عن التنفس. بدت مختلفة تماماً عما كانت عليه في خلال فترة الصيف، حيث ازداد وزنها قليلاً وأصبحت ناهدة الصدر. لقد عادت من جديد إلى ما كانت عليه أيام زمان في الهند الصينية. أخرج الكلب ذو الشعر الطويل الأبيض كالثلج لسانه الأحمر ونبح بعصبية على توميوكا. ربتت يوكيكو على رأس الكلب بقسوة وقالت:

«أوه! من هذا؟ اعتقدت»...

اندهش توميوكا لرؤية التغير اللافت والمذهل في مظهر يوكيكو التي أخذت الكلب في الحال إلى الطابق العلوي، ووضعته داخل غرفة، وأغلقت الباب بضربة مدوية، وعادت مسرعة إلى الطابق السفلي، ودعت توميوكا إلى غرفة الشاي حيث وقفت تدير له ظهرها وأخرجت لسانها فجأة. فكرت أن توميوكا البائس المعدم قد عاد أخيراً إليها فأحست ببهجة وانتعاش لدرجة أنها بدأت تشعر بألم في صدرها. لكنها أدركت في الحال أنه قد جاء لطلب المال. قلبت غطاء الكوتاتسو الناعم، وأشعلت زراً كهربائياً، ثم قالت بصوت هادئ ودون أن تنظر إلى وجه توميوكا: «الطقس بارد، تفضل واجلس إلى الكوتاتسو». لم يخلع توميوكا معطفه، وجلس بهدوء عند الكوتاتسو وحدق بيوكيكو بعينيه الدائريتين، وقال:

«لقد تغيرت كلياً».

«كيف تغيرت؟»

«تبدين أصغر سناً».

«ربما. أنا لست سعيدة بالتحديد، لكنني»...

جلست يوكيكو مقابل توميوكا مباشرة، وكانت يداها ورديتي اللون لكونها قد خرجت للتو من الحمام. أخذ بخار الماء يتصاعد من إبريق الشاي المعدني فوق الموقد الخزفي الكبير. بجانب الباب كان هناك طاولة زينة لها ثلاث مرايا وعلى رف صغير بجانبها وضعت دمية في صندوق زجاجي.

«ربما تعرفين سبب قدومي؟»

أراد توميوكا أن يدخل في صلب الموضوع فوراً، فقد أراد أن يقول ومنذ أن كان في ممر الدخول إنه قد جاء طلباً للمال. لكن عندما جلس إلى الكوتاتسو شعر بطريقة ما بأنه فقد فرصته للحديث. ظل الكلب ينبح طيلة فترة وجوده في الطابق العلوي، ونظر توميوكا بعينين مندهشتين إلى الطريقة التي كانت تعيش فيها يوكيكو هذه الأيام وسأل: «ماذا عن السيد إيبا؟»

«ذهب إلى المعبد».

«أتعيشين هنا بمفردك؟»

«نعم، لدي مدبرة منزل، لكنها خرجت للتسوق».

«تقيمين في مكان جميل».

«شكراً».

ضحكت يوكيكو في داخلها دون أن يظهر ذلك على وجهها. فمن المحتمل أنها تقيم في مكان جميل بالفعل.

«منذ أن انتهت الحرب، لم يعد الرجال ينفعون بشيء. النساء هن من أصبحن قويات».

سكبت يوكيكو الشاي وأردفت القول بصوت متزمت: «ربما يكون هذا صحيحاً». وفكرت: هل هذا هو الرجل الذي أحبه حتى الآن؟ نظرت يوكيكو بطرف عينها إلى شكل توميوكا الذي تغير كلياً، وقد بدا وكأنه كبر سنتين أو ثلاثاً، وأحست بشعور غريب حيال برودة قلبها.

«توفيت كونيكو البارحة».

«أوه، أتوفيت زوجتك؟»

فتحت يوكيكو عينيها باتساع، وسرعان ما تخيلت وجه زوجة توميوكا التي التقتها مرتين، وبدا لها أن ذلك حدث منذ زمن بعيد. لم تنس تعابيرها عندما كانت تتعقب توميوكا والتقت زوجته بالقرب من منزلهما في جوتاندا. وفجأة انفجرت يوكيكو بالبكاء وأخذت تعول. جاء توميوكا لطلب المال من صديقته القديمة، ولكنه اندهش عندما رأى دموعها تتدفق، وفجأة غزت قلبه الكئيب ذكريات المشاق والصعوبات التي مر بها مع هذه المرأة في الماضي. شعر بأن ليس بإمكانه فعل أي شيء، فاكتفى بالنظر إليها فقط.

لم تكن يوكيكو تبكي بحرقة على نفسها وتوميوكا وحسب، بل على البؤس الذي عاشته في تلك الفترة عندما كانت مثل كلب مشرد. ولكن عندما لاحظت تأثير دموعها على توميوكا، بدأت تبكي بشدة أكبر، كما لو أنها لم تعد تستطيع تحمل الأمر. أخذت منشفة رطبة من طاولة الزينة وغطت بها وجهها.

كان توميوكا يراقب مرتعباً، ولكن شيئاً فشيئاً بدأ قلبه يدق بسرعة أكبر، فقد شم رائحة عطر على المنشفة، فاقترب من يوكيكو ووضع ذراعه حول كتفها وسحب المنشفة عن وجهها. وشعر بسعادة عندما أدرك أن يوكيكو قد أحبته بهذا العمق.

قبّل توميوكا عنق يوكيكو الناعم وشم رائحته المنعشة، كما لو أنه كان يلمس امرأة جديدة، ثم طوق ورك يوكيكو العريض. استسلمت له يوكيكو مثل مريض يخضع لجلسة فحص طبي وتركته يفعل ما يشاء، وسرعان ما أخذا يتشاركان دون كلام ذكرياتهما السرية وأسفهما العميق.

51

دقت الساعة الثانية عشرة. فتح توميوكا صنبور المياه ليأخذ حمامه الصباحي، وشعر بأنه قد تحرر من حياة الفقر التي لم تكن تسنح له فرصة للاستحمام سوى مرة كل خمسة أو ستة أيام. امتلأ حوض الاستحمام المحاط بالسيراميك الأزرق حتى الحافة، وأخذ توميوكا يغسل جسمه بقطعة من الصابون الأجنبي الأبيض، وأحس بالشفقة على زوجته التي بدت هزيلة جداً عند موتها. نظر عبر النافذة الصغيرة إلى الثلج المتساقط وشعر وكأنه يرى عينة كبيرة ومخيفة من المجتمع البشري. كان قلبه تائهاً. وواصل الإبريق غليانه بهدوء.

داعب البخار وجه توميوكا الذي أخذ يحدق في المرآة وهو يحلق ذقنه بشفرة ظن أنها قد تكون لإيبا، لكنه لم يبال بذلك، وواصل تمريرها على وجنتيه محدثاً صوت حك ارتجف له قلبه. فكر توميوكا بأن البشر مخلوقات بسيطة. فالحقيقة تتغير فجأة لأتفه الأسباب، لكن البشر يتقبلون ذلك وسرعان ما يقفون على أقدامهم مبتسمين.

نظرت يوكيكو إلى الساعة وفرحت لأن مدبرة المنزل لم تعد بسرعة. لقد اعتادت أن تتأخر في جولاتها، وها هي اليوم تتأخر من جديد. كان على يوكيكو أن تذهب إلى المعبد لتأخذ مكان أوتسو شيمو في المكتب، وقررت أن تسرق

جميع الأموال من الخزنة اليوم.

في غرفة نوم المؤسس ناريميون سينزو كان هناك خزنة كبيرة يودع فيها كل ما يملكه المعبد، لكن يوجد دوماً مبلغ مائتي أو ثلاثمائة ألف ين في خزنة صغيرة في مكتب موظف الاستقبال. وكانت ديانة الشروق العظيم تزدهر أكثر وأكثر في هذه الأيام وأخذت التبرعات تتدفق إليها من كل صوب إلى جانب ما كانت تجنيه من رسوم التبرئة والتطهير. وكذلك تراكمت التقدمات، مثل لفافات القماش والفواكه والخضراوات الموسمية، في أكوام عند المذبح.

عندما خرج توميوكا من الحمام، كانت يوكيكو قد أعدت وجبة الغداء ووضعت زجاجة ويسكي سانتوري خاصة بإبيا. راقب توميوكا نوبة النشاط المفاجئ التي أصابت يوكيكو واستغربها، وشعر وكأنه لص يسترق هذه السعادة التي تم التحضير لها خفية من أجلهما فقط. كان الكلب لايزال ينبح محدثاً جلبة في الطابق العلوي، وتحت غطاء الكوتاتسو الدافئ شعر توميوكا بدوخة خفيفة بعد أن شرب كأسين أو ثلاثة من الويسكي. لقد سرى شراب الويسكي في كامل جسمه وأحدث تحسناً طفيفاً في مزاجه.

وأخيراً عادت مدبرة المنزل. ارتبكت في البداية لرؤية الزائر الغريب، ولكنها استطاعت أن تخمن من دلال يوكيكو له بأنه هو الرجل صاحب تلك المقالة عن الورنيش. أخذت يوكيكو عشرين ألف ين من أدراج الخزانة دون أي أسف، ولفت الأوارق المالية بورقة صحيفة، ودفعت بها أسفل حافة الوسادة التي يجلس عليها توميوكا وهي تشعر بنشوة العطاء، فرمقها توميوكا بنظرة شكر.

عند الساعة الواحدة، غادر توميوكا بصحبة يوكيكو التي كانت بطريقها إلى المعبد، فسارت إلى جانبه ببطء وسألته: «ماذا تنوي أن تفعل بعد هذا؟»

«ماذا أنوي أن أفعل؟ كما ترين، ليس هناك ما يجدي. حتى هذا المال ليس هناك أمل في إعادته لك قريباً، هل من مشكلة في ذلك؟»

«لا ما من مشكلة. لا مشكلة في هذا الأمر، لكن... أمازلت تقيم في تلك الغرفة في ميجورو؟»

«نعم».

«أود لقاءك ثانية، أنت تعرف، لكن»...

لم تشعر يوكيكو بألم الفراق في تلك اللحظات، بل ظنت أن بإمكانها الآن، وبعد موت كونيكو، أن تعيش مع توميوكا دون أن تخشى أحداً. لكن كان عليها الامتناع عن محاولة التحدث إلى توميوكا بموضوع عيشهما معاً وهو في طريقه لشراء تابوت لزوجته المتوفاة. فعندما أخبرته أنها ترغب في لقائه ثانية، أدرك توميوكا مشاعر يوكيكو بشكل جيد، لكن كان من الصعب جداً المضي بالحديث إلى هذا الحد، كما أنه لا يستطيع في ظل عجزه الحالي عن العيش بكفاية أن يطلب أي شيء منها.

افترق الاثنان عند محطة دينينشوفو، وكلاهما يشعر بأنه لاتزال هناك أمور لم يتحدثا عنها.

ارتدت يوكيكو حذاء إيبا على الطريق الثلجي، وذهبت إلى المعبد لتحل مكان أوتسو شيمو التي كانت ستذهب ذلك اليوم إلى أتامي مع المؤسس. جلست يوكيكو لفترة على الوسادة ذات التدفئة الكهربائية تحدق مفتونة بمنظر الحديقة المغطاة بالثلوج. كان الثلج قد توقف عن الهطول، وغطت السماء طبقة من الغيوم الرمادية تتخللها فجوات رهيبة بدت السماء من خلالها بلون الكيروسين الوردي. تأسفت على دناءة توميوكا وقل افتتانها به كرجل يمتلك القدرة على الحياة. لقد فكرت سابقاً في سرقة كل النقود الموجودة في الخزنة خلفها والهرب مع توميوكا، لكنها الآن، وبهدوء غريب، ترى أن عليها أن تتريث وتفكر بالأمر لساعتين أو ثلاث. كان النور مضاء في مكتب الاستقبال، وبدا إيبا مشغولاً في المشاركة باحتفال صاخب وماجن مع مجموعة من المؤمنين المقربين في غرفة المؤسس، في حين جلس عشرون مؤمناً من البسطاء السذج على الأرضية الخشبية الباردة في قاعة الاستماع في المعبد يقيمون صلوات المساء.

سرت حرارة الوسادة الدافئة في جسم يوكيكو، فابتسمت وهي تتذكر ما أبداه توميوكا من قوة وصلابة في آخر مرة التقيا فيها معاً، وعرفت أن ذكرى ذلك

اللقاء ستظل حاضرة بقوة في جسدها ووجدانها. لكن مشاعرها تجاه توميوكا ظلت تفتقر إلى الاستقرار والهدوء. حتى أنها أحست بأن حبها له كان عاطفة غريزية فطرية.. شيء يسري في دمها.. لا يمكن الحصول على هذا الحب إلا مع رجل مثل توميوكا. ثم جرفتها موجات أفكارها نحو الخزنة الموجودة وراءها، فمدت يدها كمخلب نسر إليها وتلمست الأموال الكثيرة فيها. أرادت يوكيكو التخلص من هذه الحياة الغريبة المليئة بالمنغصات بكل أشكالها، فقد كانت تقضي أيامها مثقلة بالضجر والتعب. كان البقاء في هذه الزاوية من العالم يثير لديها شعوراً بالوحدة الشديدة.

نظرت يوكيكو فجأة إلى سجل تبرعات ذلك اليوم، ولاحظت وجود مبلغ كبير إلى حد غير عادي. فتحت يوكيكو الخزنة وعثرت فيها على ما يقارب ستمائة ألف ين على شكل حزم من الأوراق النقدية. جرت العادة أن تتجمع مثل هذه المبالغ من التبرعات في الخزنة على مدى أربعة أو خمسة أيام، لكن حصيلة اليوم كانت كبيرة جداً، ومن المؤكد أن أوتسو شيمو قد عدَّت النقود وأبلغت إيبا والمؤسس بقيمتها، ولذا لم يكن من الممكن التلاعب بها. لم تتمكن يوكيكو من إقناع نفسها بأخذ المال من الخزنة ذلك المساء. أما الخزنة الكبيرة المخبأة في غرفة نوم ناريميون فلم تكن تُفتح كل ليلة بل مساء الأحد فقط إذ يقوم إيبا والمؤسس بحساب عائدات الأسبوع بشكل سري. واليوم هو يوم الأحد، لكن هذا المساء سيكون المؤسس غائباً، لذا يحتمل أن يتأجل فتح الخزنة حتى يوم الاثنين، وفي هذه الحالة سيضاف إلى المبلغ عائدات يومين إضافيين.

تخيلت يوكيكو العديد من الأعذار والحجج لتبرير غيابها. لكن من المحتمل أن تقوم مدبرة المنزل بعد هروبها بإخبار إيبا عن حضور رجل غريب إلى المنزل. لقد تعبت من القلق والخوف من هذا الأمر أو ذلك، فذهبت إلى قاعة الاجتماعات حيث كان لهب الشموع يتراقص بمرح فوق المذبح، فيما راح المصلون يؤدون صلواتهم بأصوات مرتفعة.

« ينتاب المرء مزاج خطير في خلال مسيرة حياته، فيجعل كل حدود العالم

تجتمع معاً. «إن أعمال المرء لا تكفي، فهو يظل تائهاً فقط، متجولاً فقط». يسعى إله ديانة الشروق العظيم إلى الحفاظ على البشر من الدخول إلى جهنم. إنه يمنح القدر في هذا العالم. فإن لم تعتمدوا على خلاص الايمان. وإن لم تمتلكوا حقاً روح الفردوس الغربي، ستفقدون كل شيء، نعم، سوف تهلكون في الجحيم... هورينجيكيو... آمين. ليدوم سلطان إله ديانة الشروق العظيم، فيزول الظلام، ويبزغ يوم مشرق. أوه، يا إلهي أرجوك أن توقف متاهات البشر في الظلام»...

جلست يوكيكو على الأرض الخشبية وأخذت تصغي إلى جوقة المؤمنين، وهي تضغط يديها معاً بقسوة محاولة أن تغلق عينيها. لكن مشاعرها كانت مرتبكة ومشوشة، ولم تستطع أن تهدئ نفسها. تراءت أمام عينيها حزم الأوراق النقدية، فتلك الصورة لا تبارحها أبداً، في حين لم تلح لها صورة أي إله فوق رأسها أو أمام عينيها. لم تستطع يوكيكو حتى أن تصلي إلى روح ديانة الشروق العظيم التي تحدث عنها إيبا. لم يكن الإله موجوداً في أي مكان. دخل إيبا إلى القاعة محمرَّ الوجه من الشرب، فجال في أرجائها وتفقد المؤمنين، وقد بدا بمظهره النبيل اللافت رجلاً وسيماً. ثم فتح باب الشرفة الزجاجي المنزلق، وبصق كمية من البلغم في الحديقة، وعاد وأغلق الباب بخشونة من جديد. فرح لرؤية يوكيكو جالسة بالقرب من المدخل، ثم سار بخطوات ثقيلة، واتجه إلى داخل المبنى وهو ينظر إلى المؤمنين كمجموعة من الأطفال المطيعين. بدا مفعماً بالثقة بالنفس وهو يتوارى عن الأنظار. حدقت يوكيكو في الشموع المشتعلة على المذبح، وظنت أن صورة الإله قد تظهر في المرآة التي لمعت خلف الستارة البنفسجية، فثبتت نظرها على المرآة، لكن لم ينعكس فيها أي شيء، ولا حتى أي ظل أو شبح غامض. بدأ الثلج يذوب ويرسم على المرج دوائر وكأنها لوحة من مدرسة كورين الكلاسيكية[1]، فيما كان زجاج الباب يرتعد في إطاره، ربما بسبب هبوب الرياح.

أخذت يوكيكو تفكر بتوميوكا وأحست بحنين لا يحتمل إلى المتعة التي عاشاها هذا الصباح، وشعرت وكأن ثمة شخص ما يقبض قلبها.

---

(1) مدرسة كورين الكلاسيكية مؤسسها الرسام الياباني أوجاتا كورين (1658–1716).

52

بعد إنهاء الطقوس الخاصة بوفاة كونيكو، بقي توميوكا نحو خمسة أيام في أوراوا. فبعد أن انتهت الجنازة أخيراً أحس بالارتياح كما لو أن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن ظهره، كما تخلص من كل شيء يذكره بها حيث باع فراشها وأغراضها الشخصية إلى تاجر أثاث مستعمل. كانت ذكرياته مع سايكو مؤلمة، أما كونيكو فقد ظلت غريبة عنه فترةً من الوقت، ولهذا فإن كل شيء يتعلق بها قد انمحى من وجدانه في نفس الوقت الذي كانت تقام فيه مراسم جنازتها. من المؤكد أن كونيكو عانت الوحدة في حياتها الزوجية، فهي لم تعد تعني له شيئاً منذ أن عاد من الهند الصينية. لم تدم الأوقات السعيدة التي عاشاها بعد أن سرقها من زوجها السابق، وكان صديقاً له، لأكثر من عامين، أي إلى حين ذهابه إلى الهند الصينية للعمل موظفاً مدنياً لدى الجيش. لولا الحرب لكان من المحتمل أن يواصل توميوكا وكونيكو النمط المعتاد من الحياة العائلية لموظف حكومي. لكن المسافة ازدادت بينهما بعد أن غادر وطنه خمس سنوات إلى درجة لم يعد معها بالإمكان فعل شيء للتقريب بينهما، وألقت الحرب بظلالها الثقيلة عليهما. لقد عاشا حياتهما الزوجية في بلاد مقفرة وفقيرة، إن جاز التعبير، يعتمدان على أنصاف الحلول، وربما تكون تلك الحياة قد افتقرت إلى العاطفة اللازمة لدفعهما

للمحاولة من جديد. وفي النهاية رحلت كونيكو عن هذه الدنيا بسرعة كما لو أنها طيف عابر، وأحس توميوكا براحة أكبر عند انتهاء مراسم الوداع في الجنازة، وشعر وكأنه قد تخلص من كل همومه.

قال والدا توميوكا الطاعنان في السن إنهما يودان قضاء ما تبقى من حياتهما يقومان بأعمال الزراعة في ماتسويدا في مسقط رأسيهما في جونما. لذا باع توميوكا منزل العائلة في أوراوا، الذي كان مجرد كوخ متواضع، بمبلغ مائة وأربعين ألف ين تقريباً إلى موظف في شركة خطوط سكة الحديد الوطنية، وأعطى المال لوالديه الكبيرين، وقرر إرسالهما إلى مسقط رأسيهما، حيث يمكنهما العيش في السقيفة التي يملكها عمه الأصغر، الذي يعمل مزارعاً في ماتسويدا، والتي كان قد أجّرها من قبل إلى أحد النازحين.

عاد توميوكا إلى طوكيو في يوم كانت فيه السماء مشرقة وصافية. عندما دخل إلى غرفته وجد فيها الفتاة التي تعمل في الحانة الصغيرة القريبة من المحطة متدثرة بلحافه تقرأ مجلة. كانت تستلقي هناك براحة تامة كما لو أنها في منزلها. عندما دخل توميوكا قابلته بابتسامة عريضة. إنها لم تأت لزيارته منذ أن جاءت للعبث معه في نهاية العام.. لكنها باتت أحياناً تجعد شعرها وتضع مساحيق التجميل. وفي إحدى المرات قبّلها توميوكا فجأة وهو يلهو ثملاً، وقد جاءت الفتاة ثانية معتمدة على تلك العلاقة الهزيلة.

«صحيح، لقد جاءت إلى هنا سيدة جميلة وأنا أبعدتها»..

لم يعرف توميوكا للحظة من هي تلك السيدة الجميلة التي جاءت إليه، ثم أدرك أنها يوكيكو.

«كيف كان شكل السيدة؟»

«بدت شخصية مهمة بالفعل. كانت ترتدي معطفاً مخططاً راقياً وجوارب من النايلون، وتحمل في يدها حقيبة سوداء لامعة. لقد دخنت سيجارة هنا».

«ماذا قالت؟»

«سألتني، كيف تعرفت أنت وتوميوكا على بعضكما، فأخبرتها بأنني على

علاقة طيبة معك، فضحكت ونظرت بازدراء إلي. لذا غضبت وبسطت فراشي ونمت فيه».

«ألم تترك رسالة؟»

«قالت إنها ستعود ثانية. لكن ظلت تنظر في أرجاء الغرفة وسألتني إذا كنت أقيم هنا بشكل دائم فأجبتها، «نعم» فبدت على وجهها تعابير غريبة. أنا فعلاً لم أحببها. أعتقد أنها باردة جداً. ربما لن تأتي ثانية. هل أخطأت التصرف؟»

«أنت فظيعة».

«أوه، هل كانت إحدى صديقاتك؟»

«إنها زوجتي».

«هذا كذب. هناك إشاعة بأن زوجتك قد ماتت. أنا أعرف كل شيء عن الأمر».

نهضت الفتاة وهي تنظر إلى توميوكا بابتسامة بغيضة. كانت ترتدي سترة فقط دون تنورة وبدت ركبتاها مكتنزتين تحت حافة قميصها القصير المتسخ. حوّل توميوكا بصره عنها، وأشعل الموقد الكهربائي المحمول. لكنه لم يستطع أن يريح بدنه بسبب برودة الجو وعدم توافر مكان ليستلقي فيه. عندما جلس إلى طاولة الكتابة وجد علبة تجميل الفتاة ملقاة وآثار المساحيق منتشرة هناك. كما وجد قلم أحمر شفاه رخيصاً وجافاً ومشطاً أحمر قد تكسرت بعض أسنانه. ابتسم توميوكا بينه وبين نفسه بمرارة، وفكر أن يوكيكو عندما شاهدت هذه الحالة ربما تكون قد قالت لنفسها: «مازال توميوكا خائناً كما كان في الماضي».

«هاي، لدى والدك عمل يقوم به، لذا اخرجي من هنا وعودي إليه».

«لا، ليس لدي أي مكان أعود إليه الآن. كنت حتى يوم الأمس أذهب إلى مركز الشباب في ساجينوميا، لكنني هربت وجئت إلى هنا. لم يكن المكان مسلياً على الإطلاق، فكل ما كانوا يقومون به هو إلصاق ظروف الرسائل البريدية، ولهذا تشققت يداي هكذا. عندها تذكرت السيد والدي وهربت. لو عدت إلى المنزل للاحقني من جديد. هذا هو المكان الوحيد الذي يمكنني اللجوء إليه».

«ما هو مركز الشباب؟»

«إنه المكان الذي يذهب إليه الأحداث الجانحون مثلي. يقومون بإلصاق خطوط حمراء وزرقاء على أطراف ظروف الرسائل. بدت الخطوط لي في البداية جميلة وظننت أن العمل فيها أمر ممتع، لكنني ضجرت، وانطبع نمطها في عيني مثل بقع الأوساخ، وأصبحت أخشى أن أصاب بعمى الألوان».

أحس توميوكا بألم في رأسه، قد يكون من الصواب القول إنه تعب من كل شيء في حياته، وبات يحن إلى حياة الموظف. باتت حياة الماضي التي رفضها لأنها مملة في نظره الآن أجمل فترات حياته. كانت هناك مخاوف متعددة حتى في حياة الموظف الجامدة، لكن مخاوف تلك الفترة لم تكن قذرة كمخاوفه الحالية. على الرغم من أن حياته بدت من الخارج عفنة وفاسدة، إلا أن توميوكا كان يراقب بعينين متفحصتين خيارات الأشخاص الآخرين الذين تعلقوا به والذين كانوا أنفسهم فاسدين. نظر توميوكا إلى جسم هذه الطفلة المشاكسة العنيدة وهي مستلقية. كان زغب شعرها الطفولي يبرز عبر طبقة المساحيق السميكة على وجهها. شعر توميوكا وكأنه يرى ألوان زاوية محددة من المجتمع المنهزم في حقبة ما بعد الحرب. فحتى تلك الفتاة باتت تعاني من الإنهاك والضجر، وهي الآن تمثل مصدر إزعاج بالنسبة إليه.

«هاي، سأعيدك، ما رأيك لو أعدتك إلى المنزل؟»

«لا، أريد أن أظل هنا».

«لماذا لا تريدين الذهاب؟»

«هاي، دعني وشأني. الطقس بارد في الخارج اليوم، لذا أفضل البقاء هنا على الذهاب إلى المحطة. لن أزعجك، لذا لا بأس ببقائي، أليس كذلك؟»

«لا، ليس كذلك. سيأتي والدك لاصطحابك، لذا عليك العودة إلى المنزل اليوم».

تحدث توميوكا بفظاظة، في حين جلست الفتاة صامتة لفترة، ثم نهضت فجأة، وارتدت تنورتها المرمية بجانب الوسادة بصمت، وحملت حزمة أغراضها

الملفوفة بمنديل وخرجت إلى الرواق، وأغلقت الباب بضربة قوية مخلفة وراءها أجواء من الكآبة. نظر توميوكا من حوله ووقف ينتابه اليأس وساوره شعور بأن الفتاة قد تتعرض للخطر بسبب صغر سنها. فهي وحيدة.. جاهلة.. عصبية من الدرجة الأولى وعرضة للإصابة بنوبات هستيرية. لم يتمكن توميوكا من فهمها قط. ما الذي كانت تفكر فيه؟ أكانت تفكر في الهروب من المنزل والتجول في الطرقات؟ في هذه الظروف، حتى هذه الفتاة الشابة يمكن أن يؤول مصيرها إلى السجن أو الانتحار. شعر بالقرف وركل اللحاف الذي تركته الفتاة على الأرض.

فجأة تذكر توميوكا جثمان كونيكو وقد بدا هشاً مثل كعك الأرز وهم يحاولون وضعه في التابوت، عندها ركل اللحاف وشعر بالأسى على ذكرياته مع كونيكو لدرجة فاقت تصوره. فقد رحلت مثل دمية قماش محشوة وبالية دون أن تعرف طعم السعادة ولو لمرة. وأخيراً بدأ يشعر بالأسى والحزن عند تخيل لحظات الفراق والوداع الأخير عندما وضعوا جثمانها في الصندوق ودقوا المسامير لإغلاقه.

53

غادرت يوكيكو المنزل حاملة معها أغراضها الشخصية الخفيفة فقط دون أن تخبر مدبرة المنزل بأي شيء. لم تكن تنوي العودة إلى ذلك المنزل ثانية. شعرت وكأنها تقتلع حياتها من الجذور. أوقفت سيارة أجرة وطلبت منها الانتظار ثم ذهبت إلى غرفة توميوكا. لكنها غيرت رأيها عندما قابلت هناك فتاة شابة غريبة بدت مجنونة تقريباً، فغادرت المكان وعادت إلى سيارة الأجرة، وتوجهت إلى محطة شيناجاوا. من هناك أخذت قطاراً متوجهاً إلى شيزوكا. لم يكن في بالها مكان محدد تقصده، لكنها دون تفكير اشترت تذكرة يمكن أن توصلها إلى مكان بعيد مثل شيزوكا. انتابتها مشاعر غامضة كما لو أنها كانت في نزهة غريبة. نظرت يوكيكو من نافذة القطار إلى غسق الشتاء. فكرت بالعودة إلى شيزوكا لزيارة أقاربها، لكن الفكرة لم ترق لها تماماً. شعرت بأنه من المتعب أن تلتقي بأناس تعرفهم. وصلت إلى ميشيما في حوالي الساعة الثامنة، وأخذت من هناك الحافلة الكهربائية إلى شوزينجي. قرأت يوكيكو أسماء الفنادق المدرجة على لوحات إعلانات المحطة وقررت أن تنزل في مكان يدعى ناجاوكا. أنزلت أغراضها من رف الأمتعة وترجلت من القطار. كان المكان عادياً، وشعرت بأنها تمشي في إحدى ضواحي طوكيو، ربما لأنها وصلت في وقت متأخر من الليل. ثم أرشدها

رجل كبير في السن يدير فندقاً إلى نزل صغير يدعى فيلا الوردة الصفراء. كان النزل جديداً نسبياً مبنياً من خشب رديء، لكنها لم تأبه لذلك. كتبت يوكيكو برقية وأرسلتها إلى عنوان توميوكا قبل حتى أن تخلع معطفها الخارجي. كان النزل هادئاً، ولم يبد أن فيه الكثير من النزلاء. وضعت يوكيكو الحقيبة المقفلة في حجيرة قريبة من السقف تعلو مجموعة من الرفوف المائلة، وبدلت ملابسها وارتدت كيمونو مبطناً استعارته من النزل وذهبت للاستحمام. لكنها لم تهدأ على الإطلاق. على الرغم من شعورها بالذنب بعد أن هربت بمبلغ ستمائة ألف ين، إلا أنها لم تكن خائفة من إيبا أو من ناريمون. لقد فرحت بالتأكيد لامتلاك ستمائة ألف ين، إلا أن السعادة لا يمكن تعويضها بمبلغ كهذا. شعرت أن الأوان قد فات، فعادت من الحمام وجلست إلى صينية العشاء الخاصة بها. لم يكن هناك من وسيلة لإرضاء قلبها المفعم بالحرمان. خرجت إلى المدينة، وسارت في الشوارع المظلمة والرياح الباردة تلفحها. ثم اشترت بعض المندرين من متجر الفاكهة وعادت إلى النزل. كانت تتحرق شوقاً لعودة توميوكا، فكتبت برقية أخرى، وعهدت بها إلى الخادمة، وأخذت تتحدث بجذل عن انتظارها لحبيبها غير آبهة بنظرة الناس في النزل إلى الأمر. وظنت أنها ستستطيع بعد حصولها على هذه الثروة الطائلة أن تبدأ حياة جديدة مع توميوكا. لكن في الوقت الحالي حتى سعادة امتلاك المال لم تستطع أن تنقذها من مشاعر الوحدة المفاجئة.

أصبح الوقت متأخراً ولم تتمكن يوكيكو من الاستسلام للنوم، وظلت مستلقية بين الملاءات التي كانت تعبق برائحة النشاء تصغي إلى صفير رياح الشتاء. ازداد شوقها إلى توميوكا تأججاً. استيقظت مرتين أو ثلاثاً في هدأة الليل لتفتح باب خزانة السقف وتطمئن بأن الحقيبة الصغيرة لاتزال في مكانها. كان نومها متقطعاً حيث قضت ليلها بين نوم ويقظة إلى أن بزغ الفجر. بعد برقيتها الرابعة جاء توميوكا أخيراً ووصل إلى نزل فيلا الوردة الصفراء في ناجاوكا عندما كانت تتناول العشاء.

«لديك زائر». وفي نفس اللحظة التي أعلن فيها موظف النزل عن قدوم الزائر

ظهر توميوكا وراءه مباشرة مبللاً يرتدي معطفه القديم دون أن يضع قبعة على رأسه. بدا عليه الغضب. وما إن جلس حتى قال: «كان من الجنون أن ترسلي لي برقية تقولين فيها إنك ستموتين إن لم آت». فرحت يوكيكو لقدوم توميوكا بناء على طلبها فقد أرادته أن يشاركها مشقة اليومين الماضيين، ثم طلبت في الحال بعض الساكي، وأحست باستهتار وهي تنفق المال، وانتظرت بتشوق عودة توميوكا من الحمام. كانت الخادمة تحاول ممازحتها وظلت يوكيكو تضحك حتى على الأشياء التي لم تجدها مضحكة.

عاد توميوكا من الحمام وجلس ثم سأل: «إذاً متى جئت إلى هنا؟»

«الليلة الماضية. لا بد أنك فوجئت بوصول برقيتي الليلة الماضية!»

«نعم، والمرأة في الغرفة المجاورة فوجئت أيضاً».

«رغبت كثيراً في قدومك، فلدي الكثير من الأشياء أريد أن نتحدث عنها. لقد غادرت منزل إيبا».

«كيف حدث ذلك؟»

«ماذا تعني؟ لم أستطع تحمل الأمر، لذا غادرت. والحقيقة أنني قمت بفعلة شنيعة».

أخبرت يوكيكو توميوكا بأنها سرقت ستمائة ألف ين من المعبد وهربت، وبدت مثل طفل طائش أخطأ التصرف.

«ألن يقوم السيد إيبا بإبلاغ الشرطة؟»

«لا يمكنه الإبلاغ. فكل ما يقوم به مريب، لأن المعبد يهدف إلى تحقيق الأرباح. وسيفتضح أمرهم إن سلموني إلى الشرطة. لن يخاطروا بإثارة أفعى في جحرها. مبلغ ستمائة ألف ين بالنسبة إلى ذلك الرجل لا يبدو أكثر من لو أنه حطم سيارة... إنها نقود غير نظيفة جمعت دون إنفاق أي رأس مال»...

«ستنالين عقاباً على هذا العمل يوماً ما».

«لست متأكدة من ذلك عندما يتعلق الأمر بديانة الشروق العظيم، إذ لا يوجد هناك في الحقيقة أي آلهة لهذه الديانة. فهذا المبلغ لا يعني شيئاً حتى بالنسبة لإيبا

الذي اشترى لي منزلاً أيضاً».

«حسناً، هذا كلام منطقي. الذين يستطيع القيام بالأمور الكبيرة».

احتسى توميوكا كأسين أو ثلاثاً من الساكي وبدأ يفقد توازنه. وكانت هناك رغبة لدى يوكيكو بالاستخفاف بما فعلته مع ناريميون وإيبا المعروفين بانتقاداتهما اللاذعة. أما توميوكا فقد بدأ يفكر بعلاقته الطويلة مع يوكيكو على أنها قدره، فسايكو وكونيكو قد رحلتا، ويوكيكو هي وحدها المتبقية وقد أظهرت إرادة هائلة لمواصلة الحياة. شعر توميوكا بأن هذه المرحلة قد لاحقته هذه المرة وحشرته في زاوية صعبة.

شعرت يوكيكو بالتهور واللامبالاة، وتذكرت الصلاة التي تقول: «إن أعمال المرء لا تكفي، فهو يظل تائهاً فقط، متجولاً فقط»، وفكرت أنه حتى لو ألقى إيبا القبض عليها غداً، فإن متعة هروبها اليوم تستحق العناء. انتهت من تناول الطعام، فأخذت الخادمة صينية العشاء، ثم طلبت منها يوكيكو إحضار العديد من زجاجات الساكي الصغيرة الإضافية.

«لقد تمكن كل منا من العيش لفترة طويلة بعد ما حدث في إيكاهو».

«لكن منذئذ، نبدو وكأننا نكرر نفسينا فقط».

«حسناً، ربما، لكن بالتأكيد كانت حياتك مليئة بالأحداث، ماذا عن السيدة سايكو والجميع؟»

لم يجب توميوكا بكلمة.

«لو لم تمت بتلك الطريقة، لكنت أكثر سعادة. عندما أنظر إلى وجهك، يبدو لي أنها مازالت تطاردك. لا أستطيع تحمل هذا. أنا لا أقول هذا تحت تأثير الخمر، بل كنت أرغب في قوله من قبل. إنني أكرهها، وحتى الآن أرى أنها كانت امرأة بغيضة».

«هل استدعيتني إلى هنا لتسمعيني هذا الكلام عنها؟»

«لا، أبداً. لكن في اللحظة التي رأيتك فيها شعرت بأن شبح تلك المرأة مازال يطاردك ويستوطن مكاناً ما خلف وجهك المعتم. لماذا لم نتمكن من الموت بسعادة

في إيكاهو؟»

«هل أنت مستعدة للموت الآن؟»

«حسناً، نعم، لكن ماذا عنك؟»

«أنا لست كذلك، لا أستطيع أن أفعل ذلك».

«نعم، أعرف ما تعنيه. بدأت أشعر بأنه ليس بإمكاني أن أموت أيضاً».

«ليس هناك داعٍ لنموت معاً الآن. لقد تغير الأمر مع الزمن، ولدينا سجل نظيف الآن».

«ماذا تعني؟»

«أعني ما قلته. ليس فيه أي معنى خفي».

«هل تعني أنه بإمكاننا العيش معاً إذا شئنا ذلك؟»

«معاً؟ بالتأكيد. لكنني لست متأكداً بأن هناك أي سبب يدفعنا لذلك. جئت إلى هنا على نية العودة غداً».

فقدت يوكيكو في الحال الوضوح والتركيز في الرؤية، وسألت: «لماذا؟ ألا ترغب في البقاء معي؟»، وبدأت دموعها تنهمر الواحدة تلو الأخرى.

«في النهاية، لم أفدك بشيء سوى جلب المشاكل. ولكن إذا سألتني بشكل صريح وواضح عن سبب عدم رغبتي في البقاء معك دوماً، حسناً، أجيبك بأنه ليس هناك سبب حقيقي لذلك. هذه هي الحقيقة فقط. استغربت عندما سمعت بأنك قد سرقت أموال المعبد، لكن كل ما أفكر فيه أنني حالياً لست بحاجة إلى زوجة ولا حتى إلى أية امرأة. بدأت للتو أفكر بجدية في عملي الخاص. لقد اعتدت على صعوبة الحياة. سأنتقل من تلك الغرفة قريباً أيضاً. لم لا نفترق برضا ليذهب كل منا في طريقه؟»

انتاب يوكيكو إحساس بالجزع وكأن الأوراق النقدية تشكل حملاً ثقيلاً قد سقط عليها من مكان شديد الارتفاع.

54

نظرت يوكيكو بقسوة إلى وجه توميوكا، ورأت أنه لم يكن هناك حاجة إلى التعبير له عن المشاعر التي حملتها كلماته بأنه ليس بحاجة إلى زوجة أو حتى إلى امرأة، وظلت صامتة لفترة.

أصبح توميوكا فيما بعد ثملاً تماماً، وأخذ ينظر إلى يوكيكو واضعاً كوعيه على الطاولة والكأس على شفتيه. بدت وجنتاه غائرتين وعيناه محمرتي الأطراف وجامدتين لا حياة فيهما، وأخذ يقتلع شعرة في كل مرة يمرر فيها أصابعه عبر شعره المسدل على جبينه. ظنت يوكيكو أن برودة تعابير عينيه، التي لم تبدُ عليه من قبل، كانت أمراً طبيعياً بالنسبة له. فتح توميوكا أطراف الكيمونو المبطن من الأمام وأخذ يربت على صدره البرونزي المحمر بطريقة جعلت يوكيكو ترى فيه أشياء لم تكن تراها من قبل. شعرت بأنها تراه لأول مرة، نظرت إليه بانتباه، واستشعرت الرائحة الكريهة الخانقة التي تجذب إليه النساء، وظنت أن رائحة نجاحه مع الجنس اللطيف هي التي تجذب النساء إليه، فحملت كأساً فارغة إلى توميوكا. وكانت هي الأخرى قد بدأت تثمل أيضاً.

رغبت يوكيكو في الوصول إلى أقصى درجات الثمل إذ أحست أن كل الأفكار التي راودتها هذا الصباح كانت تافهة وغبية طالما أنها لم تستطع أن

تشاركه متعة سرقتها للمال وقدومها إلى هنا. لم تظن بكل الأحول أن أمورهما ستسير بشكل جيد على الرغم من لقائهما، لكنها لم تستطع أن تقنع نفسها بفكرة السماح برحيله.

بدأ ثملها يتفاقم، وأخذت تشعر برغبة ملحة في إخباره عن رأيها فيه مستخدمة أحط مفردات اللغة. وسرعان ما وجدت نفسها تتحدث من جديد عن ذكرياتها في الهند الصينية كما تفعل في كل مرة تثمل فيها.

«حسناً، أنا لم أفقد الأمل مثلك. سأريك كيف أستطيع أن أواصل حياتي. يمكنك الحصول على كل ما ترغب فيه من نساء. في المعسكر في هانوي، قرأت قصة قصيرة بعنوان «بيل آمي» لموباسان[1]. أنت تشبه بطل تلك القصة، فهو جوال ليس لديه سقف يؤويه ويستخدم النساء سلماً ليرفع نفسه في هذا العالم. وأنت كذلك تستخدم النساء درجات سلم، لكنك فقط لا تقوم بذلك لتواصل حياتك بالضبط».

لم يكن توميوكا قد قرأ القصة، لكن لم يرق له أن تتهمه يوكيكو بأنه يستخدم النساء مثل سلم، فأمسكها من ذراعها، وشدها نحوه، وقال: «ألهذا السبب استدعيتني إلى هنا، لتقولي لي أشياء كهذه؟ حتى لو جئت إلى هنا حاملة عشرة ملايين ين، فأنا لست من الرجال الذين يغريهم المال. سرقت أموال المعبد وتبدين راضية النفس كما لو أنك أنجزت عملاً بطولياً. على كلٍّ، لو كنت عزيزاً على قلبك، لماذا ذهبت إلى إيبا؟»

«عمَّ تتحدث؟ أنت نفسك لم تبدر منك سوى التصرفات الأنانية، مرة بعد أخرى».

ترك توميوكا ذراع يوكيكو وقال: «ربما يجدر بك أن تحاولي استخدام الرجال سلماً أيضاً».

انقلب توميوكا على جانبه وأغلق عينيه. وساقته أفكاره إلى تذكر ذلك اليوم الذي أقام فيه في جراند هوتيل بالقرب من جسر كليمينكو عند وصوله إلى هيو،

(1) غي دو موباسان (1893–1950) كاتب وروائي فرنسي وأحد آباء القصة القصيرة.

حيث أمضى عدة أيام من أجل زيارة السيد ماركو في مكتب الغابات. وكان توميوكا قد ذهب إلى هيو ليطلب رسمياً نقل البذور. على الرغم من أنه كان يتجول متباهياً في أرجاء الفندق في ذلك الوقت، إلا أنه الآن رجل مهزوم، ليس فيه أي سمة من شخصيته الماضية، ويعتمد سراً على مبلغ ستمائة ألف ين سرقتها امرأة من أجله. ابتسم توميوكا ابتسامة ساخرة، فيوكيكو قد قالت إنه يستخدم النساء سلماً، وربما يكون الأمر كذلك فعلاً.

سئل توميوكا مؤخراً، وبمساعدة زميل سابق له في وزارة الزراعة والغابات، إذا كان يرغب في الذهاب إلى جزيرة ياكوشيما في أقصى الجنوب الياباني، وهي أرض جبلية معروفة بغابات الأرز القديمة الواسعة. لم يكن متحمساً جداً للعودة إلى عمله السابق موظفاً حكومياً، لكن ليس أمامه من سبيل للرفض طالما لم يكن لديه خيار آخر. لقد عرضت عليه في الواقع وظيفتان، إحداهما فني في مختبر أبحاث الغابات في تايكاك في ولاية واكاياما. لكن توميوكا فضل الذهاب إلى محطة الغابات في جزيرة ياكوشيما المنعزلة الواقعة على أقصى الحدود الجنوبية للبلاد. وقد أخبره صديقه أنه إذا لم تعجبه الوظيفة في كوتشي، فهناك وظيفة أخرى في محطة الغابات في كوويا بمدينة كودوسان التابعة لمقاطعة إيتو بولاية واكاياما أيضاً. وتابع صديقه حديثه قائلاً: «على أيّة حال، إن لم يكن ذلك مناسباً لك، سأحاول أن أبحث لك عن فرص أخرى». وعندها افترق الصديقان. رأى توميوكا أن عليه اتخاذ القرار والتوجه إلى الجبال من جديد لأن ذلك أفضل له من التسكع في طوكيو، فلم يعد هناك ما يجبره على البقاء في طوكيو بعد وفاة كونيكو وانتقال والديه للعيش في ماتسويدا. وكان يتوقع أن يعطيه صديقه خطاب تعيينه الخطي في وقت قريب قد لا يتجاوز يوم غد لكي يذهب إلى جزيرة ياكوشيما.

كانت معرفة توميوكا بياكوشيما قليلة، فهو يعلم فقط أن غاباتها تشتهر بأشجار الأرز، وكان لديه شعور بأن الجزيرة مهجورة كلياً وليس فيها سوى محطة أبحاث فقط. وقال له صديقه: «عادات الناس بسيطة وصادقة، ويهطل المطر بغزارة لمدة شهر كامل، أمستعد أنت لتحمل ذلك؟» اعتقد توميوكا أنه إذا

كان عليه العودة إلى عمله السابق، فعليه أن يرى شيئاً جديداً كلياً وغير مألوف مثل ياكوشيما. عندما نظر إلى الخريطة رأى أن ياكوشيما جزيرة دائرية الشكل ليست ببعيدة عن تانجاشيما، فأغمض عينيه وأخذ يفكر بالجزيرة النائية لفترة، فيما زحفت يوكيكو إلى أن اقتربت منه وأخذت تدمدم شيئاً ما، لكن توميوكا وجد صعوبة في مغالبة النعاس. قالت يوكيكو: «لماذا ابتعد قلبك إلى هذه الدرجة عني؟ لماذا تولدت لديك فجأة هذه البرودة تجاهي؟ هل غضبت لأني ذهبت إلى إيبا يا سيد توميوكا؟»

استطاع توميوكا أن يجيبها: «لا، أنا لست غاضباً ولست راضياً. منذ نهاية الحرب، وكغيري من الناس، فقدت القوة على اتخاذ قراراتي. هذه الأيام يتصرف كل منا ضمن الحدود التي يتيحها له المجتمع. حتى إذا حاولنا أنا وأنت أن نسعى لتحقيق أحلام الماضي والعيش بالأموال التي حصلت عليها لفترة من الزمن، فإن ذلك لن يجدي نفعاً. نحن مثل بذور عائمة ليس لها جذور. لا أظن أن الأمور ستكون ملائمة لنا»...

«علينا أن نموت إذاً. طالما أننا لم نستطع الموت عندما كان ينبغي لنا ذلك في إيكاهو، فيجب علينا أن نموت عندما ينفد منا المال. ألم تكن ترجوني لأموت؟»

«لكن الموت مؤلم».

تأمل توميوكا في أساليب الانتحار التي تناولها دوستويفسكي في مسرحية «الشياطين». إذا سقطت صخرة كبيرة بحجم منزل على رأس أحدهم، أسيكون ذلك مؤلماً أم لا؟ تخيل توميوكا تلك الصخرة الكبيرة وانتابه شعور بالخوف من أن الوقوف تحتها والانسحاق تحت ثقلها سيكون مؤلماً حقاً. ليس هناك عذاب وألم في مواجهة الصخرة نفسها، بل في الخوف منها. أحس توميوكا بأنه سيشعر بنفس الخوف من أي وسيلة انتحار أخرى.

«الموت مؤلم بالتأكيد».

«لكن إذا اختار المرء الموت، فإنه لن يكون مؤلماً جداً، صحيح؟»

«لا، إذا كان بإمكانك الموت بمهارة فلا بأس بذلك. لكن إن لم تكوني بارعة

في الموت، فذلك سيكون مؤلماً».

«أستطيع أن أحتمل ألم الموت، لكن ما لا أستطيع احتماله عدم حبك لي».

أمسكت يوكيكو بياقة كيمونو توميوكا المبطن وهزتها كما لو كانت تريد اقتلاعها.

«لا أكرهك، أنا أحبك، ولهذا أتحدث عن تغيير أساليب حياتنا. عليك أن تعودي إلى إيبا وأن تشغلي نفسك بعمل ما بواسطة هذا المال. لقد تغير العالم كثيراً يا سيدة يوكيكو. لقد اختفى حبنا الرومانسي مع نهاية الحرب، وسيكون من الجيد لو استطعت وأنت في مثل هذا السن التخلي عما يراودك من أحلام الفتيات. حتى أنا، عندما أكون بعيداً عنك، أحلم بك أحياناً وأشعر بالنشوة. هذه هي حال البشر. الآن التفتي إلي، دعينا نمضي الليل نستمتع بالحديث عن الأمور. لا يرغب أي منا في الافتراق بطريقة مزعجة. لا أود أن أفترق عنك وأنا أكرهك، لو كنت أكرهك لما جئت إلى هنا، صحيح؟»

جلس توميوكا وسكب لنفسه كأساً صغيرة من زجاجة الساكي الباردة. وفجأة دخلت الخادمة لتبسط الفرش، فطلب منها توميوكا إحضار بعض الساكي الدافئ. فيما كانت الخادمة تبسط الفرش، جلس الاثنان على كرسيين على الشرفة. كان الرواق المسقوف المفتوح على الهواء الطلق بارداً جداً.

وبينما كانت الخادمة منشغلة في الداخل، جلس الاثنان بصمت إلى طاولة قبالة بعضهما. وقد أصبحت كامل مساحة أرضية الغرفة تقريباً مغطاة بالفرش فيما وضع الموقد وطاولة الشاي جانباً في الكوة المزخرفة، وهناك أعدت الترتيبات من أجل الساكي، فقد زود الموقد بالفحم وأخذ يرسل لهبه الأزرق. جلس الاثنان والموقد بينهما.

«أرجو أن تشعر بحرية للتحدث بما تشاء».

«لكن ليس لدي الكثير من الأمور لأتحدث عنها. علينا أن نتجاوز كل هذا الحديث عن الحياة والموت».

«يا لك من رجل أناني».

«ماذا تعنين؟»

«لا يمكنك السؤال بعفوية هكذا «ماذا تعنين؟»جئت إلى هنا بنية الموت».

«نية الموت؟ لن ينفع ذلك. يقول إنجيل متى: «ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي الى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه». أنا وأنت كلانا مررنا عبر الباب الذي يؤدي إلى الهلاك. لأن الخوف من الصخرة كبير كما قلت من قبل».

«حسناً، إذا سأموت بمفردي».

نظر إليها توميوكا نظرة رفض، وقال بهدوء وسخرية: «افعلي ما تشائين».

55

استيقظ توميوكا ويوكيكو في صباح اليوم التالي وقت الظهيرة تقريباً. ظل توميوكا مستلقياً في فراشه يقرأ الصحيفة التي نشرت تحقيقاً بارزاً عن إضراب سينظمه الاتحاد الوطني للسكك الحديدية في بداية فبراير. لكنه فقد اهتمامه بالتحقيق فجأة، فوضع الصحيفة إلى جانب وسادته وتثاءب بقوة. ثبتت يوكيكو نظرها على بقعة وسخة على الستائر البيضاء، وشعرت بالبؤس والكآبة عندما فكرت في أن توميوكا سيعود إلى تلك الغرفة في حين ليس لديها هي أي مكان تذهب إليه. جلست تحتضنها أشعة شمس الصباح الذهبية، فسحبت يدها من تحت اللحاف ونظرت إليها، في حين انقلب توميوكا على بطنه وأخذ سيجارة من علبة سجائر وأشعلها.

سألت يوكيكو: «متى سنرحل من هنا؟»

«هناك حافلة تغادر عند الساعة الثانية تقريباً».

«هل عليك العودة؟»

«وأنت؟»

«إلى أين أعود؟ ليس لدي مكان أعود إليه، أليس كذلك؟»

نفخ توميوكا على سيجارته، وراقب بانتباه الدخان وهو يتصاعد منها. لم تشأ

يوكيكو أن تعود إلى منزل إيبا، فهي لم تغادره على أمل العودة إليه في أي وقت، وإلا لما كانت بحاجة إلى التعلق بتوميوكا على هذا النحو. وإذا كان بإمكانها العودة إلى إيبا في الحال، فأفضل ما يمكن أن يقال عنها إنها تافهة تدعي الرزانة. فكرت ملياً بنفسها. فهي لا تشعر برغبة في الانتحار، ولا في العودة إلى إيبا أيضاً. لم تكن لديها الرغبة في التحدث في أي أمر، وكل ما أرادته هو البقاء هنا ليوم آخر على الأقل. لكنها قد يئست في داخلها من توميوكا، وبدأت بالطبع تبكي عندما فكرت في أن وداع اليوم فراق حقيقي لهما.

عرف توميوكا أن يوكيكو كانت تبكي، لكنه ادعى أنه لم يلحظ ذلك. أثرت مشاعرها العاطفية في نفسيته أيضاً، فأطفأ سيجارته في المنفضة واقترب منها وأخذها بين ذراعيه. في الليلة الماضية كانا ثملين جداً، ولذا فقد أمضيا الليل بطوله يتحدثان. لكن مع ذلك فقد سيطر عليهما الزهد بسبب عدم قدرتهما على الافتراق بشكل نهائي وحازم.

«إننا نتعانق الآن هكذا، لكن في غضون ساعتين أو ثلاث سيكون أمامنا وداع صعب، وداعنا أصعب من وداع الغرباء».

قالت يوكيكو هذه الكلمات بنبرة مليئة بمشاعر الوحدة وهي تضع وجهها على صدر توميوكا. كان الاثنان بائسين يعانيان نوبات غثيان كمن أصابهما دوار البحر.

«أنت أيضاً افعلي ما في وسعك».

«نعم».

«ظننت أنني لن أخبرك، لكني عائد إلى العمل».

«حقاً!»

«في غضون أسبوع تقريباً سألتحق بمكان عملي».

«مكان عملك؟ أين؟»

«على بعد مسافة بالسفينة من كاجوشيما. مكان يدعى جزيرة ياكوشيما، ويقع في أقصى الطرف الجنوبي من البلاد».

«جزيرة ياكوشيما؟ ما نوع العمل؟»

«هناك وظيفة في محطة الغابات. أعتزم الذهاب إلى هناك لأعيش في الغابات لمدة خمس أو ست سنوات، أو ربما لبقية حياتي...»

صرخت يوكيكو وهي تمسك بكتف توميوكا: «لا أحب أن تذهب إلى مكان بعيد كهذا. حسناً، إذاً خذني معك».

«لا يمكن ذلك. إنها جزيرة منعزلة. أهم ما في الأمر أنك لست من النوع الذي يمكنه العيش في مكان مثل ذلك لخمس أو ست سنوات. ربما أستطيع الحضور إلى طوكيو مرة كل عام، وعندها يمكن أن نلتقي. لا أستطيع أن أعرف حالياً إذا كان ذلك بمقدوري ذلك أم لا، لكنني أرغب في العودة إلى الجبال».

لم تعرف يوكيكو أين تتوجه بتفكيرها، لكنها وجدت أنه من الأسهل لها أن تتخيل نفسها تلحق بتوميوكا إلى جزيرة ياكوشيما، ثم سألت فجأة:

«أراهن أنك ستكون مع تلك الفتاة التي كانت في غرفتك، صحيح؟»

«فتاة؟»

«نعم، كانت هناك فتاة حسناء في غرفتك، بل في سريرك».

«أوه، تلك الفتاة، إنها ابنة صاحب حانة قريبة. إنها من الأحداث الجانحين».

«ألست مهتماً بها مثلما كنت مع السيدة سايكو؟»

«لا، إنها مجرد طفلة».

«ستذهب بمفردك إلى ذاك المكان البعيد. لا أستطيع أن أتخيلك تقوم بذلك».

«أنا ذاهب وحدي، ذاهب بمفردي».

«بمفردك. لكن هذا حسن بالنسبة لك. ماذا يقول المثل؟ يجد الرجل دوماً مكاناً يقيم فيه، وتعجز المرأة عن إيجاد مكان لها في العوالم الثلاثة».

«عودي إلى منزل إيبا».

«أتعتقد أن ذلك أفضل لي؟»

«هل من خيار آخر أمامك؟»

«بالتأكيد لن أعود إلى منزل إيبا. لو ذهبت إلى هناك لغدا تصرفي تافهاً، أليس كذلك؟ أرجوك لا تسخر مني. ألم يكن قراري بالهروب إلى هنا بسبب شعورك بالوحدة ولأنني ظننت بأننا سنستطيع أخيراً في هذه المرة أن نتزوج؟ منذ رجوعنا إلى اليابان، صادف كل منا جميع أنواع العقبات في طريقه. تصرفنا بيأس.. وفعلنا أشياء ما كان ينبغي لنا فعلها.. لكننا اقترفنا الجريمة ذاتها. إذا كنا بعد كل هذه المشقة قد دخلنا من الباب الواسع، فلا ينبغي لنا أن نفترق، بل يجب أن نحاول ونعمل معاً للدخول عبر الباب الضيق. على الرغم من أنك تقول إنه لا ينبغي لي أن أركز على ذكريات الماضي العزيزة على قلبي، إلا أنك تحلم بي عندما أكون بعيدة عنك. ألا يعني ذلك أنك أنت أيضاً رجل رومانسي لا يستطيع نسيان ذكريات الماضي؟ لا أفهم لماذا تتركني بعد أن أصبحتَ وحيداً الآن؟ إذا كنت لا تحبني، قل لي ذلك بوضوح، وعلى ذاك الأساس قد أعود إلى إيبا، حسب اقتراحك، وقد لا أعود. لكنني مازلت لا أفهم السبب الذي يمنعنا من الزواج».

ظل توميوكا صامتاً، ولم يستطع أن يقول بصراحة إن قضية سايكو مازالت تشغل قلبه. عندما سيذهب إلى جزيرة ياكوشيما سيقتطع نصف راتبه ليرسله إلى المحامي الموكل عن زوج سايكو. فكر في الأمر ملياً ورأى أن سايكو قد ذهبت ضحية علاقته مع يوكيكو، وأدرك أنه لو شرح الحال بهذا الوضوح سيثير غضب يوكيكو. وهكذا لم يكن أمامه من سبيل آخر سوى أن يدع مشاعره تتوه في غياهب الغموض.

بعد ذلك استحم الاثنان ثم جلسا لتناول فطور متأخر. لقد مر عام بالضبط على رحلتهما إلى إيكاهو. مشط توميوكا شعره أمام المرآة وهو يجلس القرفصاء، والتقت عيناه بعيني يوكيكو الصارمتين تنظران إليه من الخلف.

«تبدو سعيداً».

«آه، نعم».

«قطع علاقتك معي سيجعلك إنساناً حراً طليقاً، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح».

«لطالما كنت إنساناً بارد المشاعر».

«أنا؟»

«نعم، أنت. الآن وقد وصلت الأمور إلى هذا الحد، أشعر بالأسى على السيد كانو».

«لا بد أنه عزيز على قلبك».

«نعم، إنه عزيز على قلبي. أتساءل لماذا رحل من هذه الدنيا. يا للخسارة!»

«لهذا السبب من الأفضل للمرء أن يعيش، حتى وإن كانت الحياة صعبة».

«لقد فات الأوان للدخول من الباب الضيق».

«لم يفت الأوان كثيراً».

«ماذا عن المال؟ ألديك مائة ألف ين؟»

«هل ستعطيني مائة ألف ين؟»

«أليس هذا مبلغاً صغيراً؟»

«لا، لا بأس به».

«أستطيع أن أعطيك مائتي ألف ين».

«بالطبع ستعطين بسخاء من أموال الغير».

«هذا مجرد مبلغ صغير من قمة جبل من الأموال. هناك الكثير من المؤمنين».

«أيمكن أن يكون هذا رسماً للدخول من الباب الضيق؟»

«هذا صحيح».

عندما سحبت يوكيكو الحقيبة من خزانة السقف، وضع توميوكا المشط على المزينة، وقال: «لست بحاجة إلى أي منه. إذا عملت لن أحتاج إلى شيء. سيكون المال مهماً بالنسبة لك».

«كيف يكون مهماً بالنسبة لي؟ أنا لا أحتاج إلى المال».

«هذا ليس صحيحاً. المال هو أفضل حليف للإنسان».

«أفهم ما تشعر به بالضبط حيال ذهابك إلى جزيرة ياكوشيما وحدك. لا

أعرف إذا كان ذلك سينجح أم لا، لكن هذا هو الوضع بالتأكيد. مازالت علاقتك مع السيدة سايكو تملأ قلبك، أليس كذلك؟ أو ربما أنك غير قادر على التغلب على موت زوجتك؟»

جلس توميوكا وظهره باتجاه الكوة المزخرفة، ثم عادت الخادمة من جديد وأحضرت الشاي الساخن، فأرسلها توميوكا للتأكد من مواعيد رحلات الحافلة.

56

لم تشأ يوكيكو أن تظل وحدها في النزل بعد رحيل توميوكا. غادر الاثنان النزل، واستقلا الحافلة إلى ميشيما حيث ركبا القطار المتوجه إلى طوكيو. لم يستطع توميوكا أن يتخلى هكذا عن يوكيكو التي لم يكن لديها مكان تقصده، ولم يكن أمامه في الحقيقة من خيار سوى أن يصطحبها إلى غرفته. نزل الاثنان في شيناجاوا. عند رصيف خط يامانوتي، ابتسم كل منهما للآخر، وذهبت يوكيكو إلى غرفة توميوكا. كان البرد في طوكيو ينخر العظم، وأشد حتى من برد إيزو. كانت عاصفة الحياة تهيج بجنون مكدرة مزاج توميوكا ويوكيكو من جديد.

عندما وصلا إلى الغرفة، ارتفعت معنويات توميوكا عندما وجد بطاقة بريدية أرسلتها له المجلة الزراعية لتخبره عن رغبتها في نشر «ذكريات موظف غابات» على شكل سلسلة. كان الموقد الكهربائي معطلاً، لذا وضعت يوكيكو حقائبها، وذهبت إلى مركز قريب لتوزيع مؤن الفحم، واشترت بعض الفحم غالي الثمن. أخرج توميوكا نصه وأخذ يتصفح ورقاته ويقرأ فقرات مختارة. ثم جاءت السيدة من الغرفة المجاورة لتخبره بأن رجلاً يدعى السيد إيبا قد جاء إليه وأعطته بطاقته. أخفى توميوكا البطاقة في جيبه إذ لم يرغب في أن يريها ليوكيكو.

عادت يوكيكو بسرعة، وقد احمر وجهها من البرد، وأحضرت معها أشياء

أخرى إلى جانب الفحم، من بينها زجاجة ساكي كبيرة. ظن توميوكا أن يوكيكو تستحق الشفقة بالفعل. لطالما جعله قلب المرأة المليء بالمتناقضات والمتميز بقدرته على تصديق الأوهام الطفولية يشحب من الخوف. توميوكا نفسه لم يفهم ما كان يجري في قلب المرأة لكنه كان يخدعها بشكل عفوي. كان يدرك أنه يخشى أساليب النساء. كان هذا خوفاً نابعاً من داخله. وقد قاده تفكيره هذا إلى الشعور بالذنب الذي يشعر به المجرمون. المرأة لا تنظر وراءها مهما حدث. إنها تغري الرجل بجدية وبراءة ساذجة. طالما أن إيبا جاء إلى هنا، فهذه الغرفة لم تعد آمنة. ولذا عليه أن يسرع بالإجراءات ليغادر إلى جزيرة ياكوشيما، لكنه لم يكن يعرف كيف يتصرف مع يوكيكو.

«ألا تريدين العودة إلى عملك القديم؟ يمكنني أن أبحث لك عن فرصة لذلك، وعندها تستطيعين استئجار غرفة والتنعم بحياة مريحة. كما يمكنك أن تدرسي أيضاً، وقد تصادفين رجلاً يتزوجك».

حدقت به يوكيكو بعينين متسعتين، وبدت تعابيرها وكأنها تقول له «لا تتحدث عن هذا الموضوع من فضلك». بعد أن أمضت كل الليل في السفر، فقدت يوكيكو إحساسها بالماضي والمستقبل، وباتت تفكر الآن في وضعها الحالي فقط. لقد أصبحت أكثر جرأة بعد أن سرقت ستمائة ألف ين، فالمال يمكنها نوعاً ما من أن تناضل دون قيود تفرضها عليها ظروفها. وإذا ساءت الأمور، ستذهب إلى جزيرة ياكوشيما بمفردها. لم تستطع يوكيكو الآن أن تنأى بنفسها عن رائحة جسد هذا الرجل، فتشبثت كمجنونة بذاك العبق الرجولي الذي لم يكن موجوداً لدى إيبا أو كانو. لو كانت تريد فراق توميوكا، لكان عليها أن تقوم بذلك في محطة شيناجاوا وتتوجه مباشرة إلى منزل إيبا.

أعدت يوكيكو الطعام بشعور من الراحة والألفة تجاه الغرفة كما لو كانت تعيش فيها منذ فترة طويلة. أخرج توميوكا البطاقة من جيبه وأعطاها إلى يوكيكو لأنه شعر أن عليه فعل هذا. فوجئت يوكيكو وقالت: «أوه، هل جاء إيبا إلى هنا؟ متى جاء؟ كيف علم بهذا المكان؟»

«إنه أمر غريب».
«الرب أرشده إلى ذلك».
«لكن، ضع المزاح جانباً، كيف عرف؟ لم أخبر أحداً عن مكان وجودك».
«ألم يعرف أيضاً عندما كانت هناك تلك الجعجعة حول سايكو؟»
«لا، أنا أشك في ذلك. حتى لو كان سمع عن سايكو، من غير المحتمل أن يكون قد اكتشف هذا المكان».

كان ظهور إيبا محيراً بالنسبة ليوكيكو، في حين شعر توميوكا كما لو أنه مطارد.

«على أية حال، أنا قوية جسدياً، ولذا أعتقد أنه بإمكاني العيش في أي مكان. ألا تستطيع أن تصطحبني معك إلى جزيرة ياكوشيما؟ إذا ضجرت منها سأعود وحدي. أرجوك خذني معك لشهر أو شهرين. أعتقد أنني سأكون قادرة على ترويض نفسي إذا أخذتني معك».

على الرغم من أن توميوكا لم يرغب في اصطحاب يوكيكو معه إلى أقاصي الجنوب، إلا أنه فكر أن عليه فعل ذلك لإدراكه أن إيبا كان يبحث عنها. في صباح اليوم التالي ذهب توميوكا فوراً إلى منزل صديقه ليطلب منه المباشرة فوراً ومساعدته في ترتيبات إرساله إلى جزيرة ياكوشيما. وفي طريق عودته أخذ نصه إلى دائرة التحرير في المجلة الزراعية التي كان مقرها في مارونوتشي، وظل هناك مدة ساعة في انتظار مقابلة مراسل يعرفه بالشكل. عندما وصل المراسل كان لديه شيء غريب يقوله إذ أخبر توميوكا أنه في صباح الأمس جاء رجل وطلب عنوان كاتب «مقالة عن الورنيش». عندها أدرك توميوكا ما حدث بالضبط فقد أخبرته يوكيكو أنها اشترت نسخة من المجلة الزراعية التي نشرت فيها المقالة عن الورنيش وقرأتها. من الواضح أن إيبا، بسبب تلك المجلة، قد راودته فكرة الحصول على عنوانه من المجلة.

قررت يوكيكو أن تمضي كل اليوم في الخارج، فحملت حقيبتها وتجولت في الشوارع، وشاهدت فيلمين أو ثلاثة أفلام، وتوقعت أن يأتي إيبا في خلال

غياب توميوكا ويجبرها على العودة معه، وفكرت في أنها إذا ذهبت إلى جزيرة ياكوشيما مع توميوكا، فلن يكون لديها أي شيء يقلقها، خصوصاً وأنها لم تعد تريد شيئاً الآن بعد أن أعطت المال إلى محامي زوج سايكو.

عادت يوكيكو إلى غرفة توميوكا في وقت متأخر من الليل، وفي اليوم التالي حملت حقيبتها وقضت اليوم بأكمله خارج المنزل أيضاً. واستمرت على هذه الحال نحو أسبوع. في خلال تلك الفترة جاءت رسالة بالبريد المسجل من إيبا إلى توميوكا يخبره فيها برغبته في لقائه ويطلب منه أن يحدد مكان اللقاء، وصادف ذلك في نفس اليوم الذي تم فيه تعيين توميوكا. فتح توميوكا الرسالة ورماها، أما يوكيكو فقد قلقت بعض الشيء، لكن قلقها لم يكن بالغاً، فعلى كل حال كان إيبا هو مصدر التهديد. انهمك توميوكا بالعمل على نصه وبالمرور على عدد من العملاء والأصدقاء ليخبرهم رسمياً بخططه، ثم جمع أمتعته وأرسلها قبله وأخلى الغرفة أخيراً بعد أسبوعين من قدومهما من إيزو.

ظل توميوكا يعتقد أنه يحبذ نوعاً ما التخلي عن يوكيكو حتى يوم مغادرته لطوكيو، لكن لم يعد من الممكن تركها وحدها بعد أن سمح لها أن تدفع مبلغ مقدم الأتعاب لمحامي زوج سايكو. لم يكن في وسعه فعل شيء سوى ترك الأمور تأخذ مجراها، وهو أسلوب اعتاد عليه في خلال حياته في الجنوب. فهناك كان حمالو الخشب الماليزيون عند مواجهة أحداث مشؤومة يقولون بلغتهم «Apa bore boatto»، أي «لا يمكن تجنب ذلك»، لكن لم يكن من السهل اتباع هذا الأسلوب في ظروف توميوكا الحالية.

لم يكن مسروراً من الطريقة التي تجري فيها الأمور. صحيح أنه لم يلمس مال يوكيكو بيده قط، لكنه خجل من نفسه لأنه سمح لها أن تدفع كل النفقات. مُنع الإضراب الذي توقعت الصحيفة أن يتم تنظيمه في فبراير، لكن العالم مازال ينحدر نحو المزيد والمزيد من الفوضى، كما ظهرت بعض مؤشرات على احتمال اندلاع حرب عالمية ثالثة. تعلم توميوكا كم من الصعب مواصلة العيش في طوكيو دون أن يكون مسلحاً بشيء سوى وجهة نظر، وفكر بأنه قد يكون من الأسهل

له العيش في مكان آخر غير طوكيو. شعر بالسعادة للانتقال إلى مكان ناء في ظل كل هذه الفوضى التي كانت تسود العالم من حوله، لكنه تمنى فقط لو كانت تلك الخطوة دون يوكيكو التي كانت مثل فطر نما تحت جلده. غادر الاثنان طوكيو في منتصف فبراير على متن قطار منتصف الليل.

57

الجسد موطن الشيطان. أشعر وكأن شيطانا يستوطن جسدي. كانت تلك عبارات استخدمها كانو كثيراً في دالات، وعندما كان يسأل من هو الشيطان كان كانو يشير بفكه إلى يوكيكو.

كانت رحلة القطار طويلة ومتعبة. وقد صعق توميوكا من إفراط يوكيكو بالأكل دون أن تشعر هي بأي ملل على الإطلاق، وعندما وصلا إلى مدينة كيوتو في الصباح، تمنى لو لم تكن يوكيكو بصحبته ليتمكن من قضاء يوم في تلك المدينة. هناك نزلت يوكيكو إلى الرصيف واشترت شيئاً للأكل، ربما لأنها كانت تملك بعض المال. وعندما أخرج توميوكا رأسه من النافذة ونظر إلى شكلها من الخلف وهي ترتدي معطفها الطويل، بدت وكأنها قد تجاوزت ربيع شبابها. لاحظ أنها كانت تشتري له بعض السجائر، وعندما التفتت نحوه للحظة بدا وجهها شاحباً وجافاً لدرجة مرعبة.

اجتاز القطار أوساكا وكوبيه وأخذ يسير بمحاذاة الشاطئ في مايكو فبدت نوافذه بيضاء ناصعة مقارنة بلون البحر الرمادي الباهت. استسلمت يوكيكو لنوم عميق رافعة ياقة معطفها إلى الأعلى. كانت مقصورة الدرجة الثالثة التي يركبانها مزدحمة جداً لدرجة أن بعض المسافرين كانوا يجلسون في الممرات.

امتلأت المقصورة من الداخل بقشور طعام المسافرين ومخلفاته، وعبقت برائحة خانقة، وسادتها أجواء دافئة في وقت الظهيرة على الرغم من افتقارها لوسائل التدفئة. حدَّق توميوكا في وجه يوكيكو وهي تغط بنوم عميق، ولاحظ أنه خلال الأيام الأربعة أو الخمسة التي قضياها معاً بدأت تظهر لديها بعض الهالات السوداء تحت عينيها وشقوق صغيرة امتلأت بأحمر الشفاه المتيبس في شفتيها. كما نما شعر حاجبيها وبدا أنفها لامعاً بسبب الدهون التي تفرزها بشرتها، وبين الفينة والأخرى كان جفناها يرتعشان بعصبية.

كان «الشيطان» نائماً، لكن يوكيكو كانت في الحقيقة مستيقظة وتدرك أنها مراقبة. ندت عنها ابتسامة خفيفة وهي مغمضة العينين، فارتبك توميوكا وأبعد نظره عنها.

فتحت يوكيكو عينيها فجأة بنظرة عارفة وكأنها تسأله إذا كان يريد أن يخبرها بأي شيء، ثم التقطت برتقالة يوسفي وأخذت تقشرها. ساد في الأجواء الخارجية ضجيج إطارات القطار في أثناء مروره بمناطق انتشرت فيها المصانع والمداخن وحقول الشتاء البنية وحقول الأرز والجبال والأنهار، في حين كان البحر يتراجع إلى الوراء.

وصل توميوكا ويوكيكو في وقت متأخر من الليل إلى هاكاتا في شمال جزيرة كيوشو، حيث كان عليهما الانتقال إلى القطار الذي سيأخذهما إلى مدينة كاجوشيما في الجنوب ليتابعا من هناك رحلتهما بالسفينة حتى صباح اليوم التالي. وعلى الرغم من هطول المطر والتعب الذي شعرا به، انتقل الاثنان فوراً إلى القطار التالي، وتمنيا أن يصلا إلى حالة من الإرهاق الكامل والشعور بالخدر والشلل في جسديهما.

وشيئاً فشيئاً، أخذت مشاعر البؤس والكآبة تتسلل إلى يوكيكو. راحت خطوط المطر اللامعة تنساب فوق زجاج النافذة المتسخ. أتى يوكيكو عدد من فتات الأحلام المبعثرة وبدت وكأنها تحس باهتزاز العربة وهي في طريقها من سايجون إلى دالات في مرتفعات رانبين مروراً بجيرين.

أخذت كآبة يوكيكو تتفاقم في كل مرة تستيقظ فيها على حقيقة وجودها في القطار الليلي الذي يشق طريقه وسط المطر، وأحست بأن اليابان أوسع بكثير مما كانت تظن. كان توميوكا يغطُّ بنوم عميق.

إنها رحلة طويلة، فقد أصبحا بعيدين جداً عن طوكيو الآن. شعرت يوكيكو بأن ذكريات حياتها مع إيبا قد تمزقت إلى قطع صغيرة. عند كوماموتو خفَّ هطول المطر قليلاً، وتواصل تغير وجوه المسافرين من حولهما، كما تغيرت اللغة أيضاً وتحولت إلى اللهجة السائدة في كيوشو، واختفت كل الأشياء التي شعرا بالارتباط بها. حشرت يوكيكو ساقيها المتعبتين بين ساقي توميوكا وأغلقت عينيها، وعندما كانت تفكر بأنه لم يعد هناك ما يخيفها، انتابتها أفكار مضحكة حول وجه إيبا الغاضب، فهو لم يعد قادراً على جرها معه. شعرت برغبة في أن تخبر إيبا بأنها ستصلي من أجل ازدهار ديانة الشروق العظيم. أما بالنسبة إلى أوتسو شيمو، فمن المؤكد أنها ستواصل جلوسها أمام الخزنة كل يوم وهي تضع طبقات سميكة من مساحيق التجميل. أخذت يوكيكو تتفقد حقيبة بوسطن على رف الأمتعة بين الحين والآخر، فهي كل ما تعتمد عليه في الوقت الحالي.

وصل توميوكا ويوكيكو إلى كاجوشيما عند الصباح، وكان المطر يهطل بغزارة. استقلا عربة ثلاثية العجلات، وتوجه بهما السائق نحو منطقة سنجوكو القريبة من المرفأ حيث أقاما هناك في فندق صغير.

دخلا غرفتهما في الطابق الثاني، ونظرا خارج النافذه حيث شاهدا بركان ساكوراجيما العملاق يلوح في الأفق بلونه المائل إلى البنفسجي.

مددت يوكيكو ساقيها المرهقتين فوق الحصيرة التي كانت تعبق برائحة البحر.

سأل توميوكا الخادمة عن مواعيد مغادرة السفينة إلى جزيرة ياكوشيما، فأجابته بأنه من المحتمل ألا تغادر السفينة لعدة أيام بسبب الأحوال الجوية العاصفة. ثم طلب منها التأكد من جدول المواعيد، وتمدد على حصيرة التاتامي وهو لايزال متدثراً بمعطفه. وبينما كان مستلقياً، شاهد ساكوراجيما والبحر أسفله يضيء بلون

يشبه لون اللّيلك الأزرق ومجموعة متنوعة من القوارب الصغيرة تتدافع على طول الأرصفة. أحضرت لهما الخادمة الشاي، فطلب منها توميوكا بعض الجعة.

«جئنا إلى مكان بعيد جداً، ومن هنا مازالت أمامنا رحلة بالسفينة حتى الصباح. كما لو أننا ذاهبان إلى منفى. ما كنت لأستطيع أن أقطع كل هذه المسافة وحدي».

«سنعيش هنا لأربع أو خمس سنوات».

«إنه أمر»...

«ما رأيك بذلك؟ إذا شئت العودة، فهذه فرصة مناسبة لتعودي أدراجك».

«أمازلت تتحدث عن ذاك الأمر؟»

«لأنك قلت للتو بأنك ما كنت لتستطيعين المجيء إلى هنا وحدك».

«نعم، هذا صحيح، ولذا جئت معك، أليس كذلك؟ أليس عندك شفقة أبداً؟»

«لا أستطيع احتمال أن تلقي اللوم علي».

وبالقرب منهما سُمع صوت مذياع يعمل بضجة مصدراً أزيز تشويش. خلعت يوكيكو معطفها ومدت الكيمونو المبطن الذي أخذته من النزل على كتفيها ونظرت إلى الشرفة تراقب المطر المتساقط في الخارج.

«أنا لا ألومك. لا أمتلك ذاك النوع من مشاعر الشفقة. لكن حتى بالنسبة لك، أليس ذلك أفضل من بقائي وحيدة؟ حتى لو كنت لا أستطيع العيش في جزيرة ياكوشيما لرغبت في القدوم والعمل نادلةً في مطعم هنا على أية حال. هذا هو حال النساء. حتى إذا رميتني، فقد كنت سأختار أن أسلك هذا الطريق بجميع الأحوال».

«لم أقل إنني سأرميك».

جاءت الخادمة وأحضرت لهما الجعة، فتجرع توميوكا الشراب ورغوته دفعة واحدة، وبدا وكأنه قد عاد للحياة لأول مرة. أخبرتهم الخادمة بأن السفينة لن تغادر قبل يومين. كانت فكرة بقاء يومين أخرين في هذا المكان مروعة، لكن لم

يكن بمقدروهما فعل أي شيء. خرج توميوكا إلى الشرفة ونظر إلى البحر تحت السماء الماطرة. سألت يوكيكو:

«هل أخبرت المجلة بأنك ذاهب إلى جزيرة ياكوشيما؟»

«آه».

«لا بد أن يكون إيبا ثائراً من الغضب».

«هل سيطاردك؟»

«لا بالتأكيد. فهو ليس بذاك المبلغ الكبير».

«لا، إنه مجرد القليل من المال. من الممكن أن يقوم فقط بإبلاغ الشرطة».

«لا بأس بذلك».

عادت يوكيكو إلى الغرفة وشربت بعض الجعة وحدها وشعرت بالجعة الباردة تغوص في جوف معدتها، لكن مزاجها قد تعكر نوعاً ما.

«هل ستأخذين حمامك أيتها السيدة؟»

كانت الخادمة قد جاءت لتخبرهما عن الحمام. عندما خاطبتها الخادمة بالسيدة، كما لو كانت زوجة توميوكا، نظرت يوكيكو بتركيز إلى توميوكا بعينين مذهولتين.

قال توميوكا بسخرية: «أرجوك أن تسبقيني وتستحمي قبلي أيتها السيدة».

كان منهكاً تماماً، ولم يرغب في الاستحمام على الإطلاق، وقال إنه سيذهب إلى مكتب شركة الشحن للاستفسار عن موعد مغادرة السفينة وشراء التذاكر. استعار من النزل مظلة من الورق الزيتي الخشن وخرج بعد أن أخبره الناس في النزل عن موقع شركة الشحن، ومشى في زقاق ضيق موحش يؤدي إلى البحر. شعر في البداية بأنه قد تخلص من كل همومه، ربما لأنه كان وحيداً. فلو أخبروه بأن السفينة كانت ستغادر في الحال، لرغب في أن يسافر بها وحده. عندما وصل إلى مبنى مكتب شركة الشحن البسيط المطلي بالأزرق، أخبروه، كما قالوا له في النزل، إن السفينة لن تغادر قبل أن تنتهي العاصفة، ومن المحتمل أن يكون ذلك بعد غد، فقام عندها بشراء تذكرتين من الدرجة الثانية إلى ياكوشيما ودوّن اسم

يوكيكو في قائمة المسافرين على أنها زوجته.

في طريق عودته اشترى توميوكا بعض الويسكي من أحد الشوارع المكتظة، وعاد إلى النزل ليجد يوكيكو مستلقية في الفراش وكان وجهها شاحباً وجسمها ينتفض بشدة.

«ما الأمر؟»

«أشعر بالبرد، لا أستطيع أن أتوقف عن الارتجاف. ألا يمكنك استدعاء طبيب؟»

أمسكت يوكيكو بذراع توميوكا. كانت رعشات خفيفة تسري في جسدها. لم يكن وضعها سيئاً جداً، بل يبدو أنها قد أصيبت بنوبة برد فقط. لكن توميوكا لاحظ بعض الدم على شفتيها، ووضع يده على جبينها لكنها لم تكن تعاني من الحمى بالتحديد. ورأى أنه ليس من المناسب أن تقع طريحة الفراش في هذا النزل، لذا طلب من الموظفين إحضار طبيب. ألقى فوقها ثلاثة لحف، ومع ذلك ظلت تقول إنها تشعر بالبرد، وواصلت ارتجافها، فخرج لشراء بعض الأدوية لعلاج البرد لأن الطبيب قد تأخر قليلاً.

أعطاها توميوكا جرعة من دواء البرد وحاول أن يقدم لها بعض الشاي الساخن، لكن الارتجاف لم يتوقف. بعد نحو ساعة وصل الطبيب الشاب أخيراً. ساعدته الخادمة في نزع ثياب يوكيكو، ثم قام بفحصها ووصف لها حقن الكافور وفيتامينات، وقال إنها إذا ارتاحت ستتعافى خلال يومين. ظن توميوكا أن ذلك سيريحه، لكنه شعر إلى حد ما بأن حالة يوكيكو تشبه حالة زوجته كونيكو، فقد لاحظ نفس المؤشرات على وجهها.

أخذت يوكيكو مسكناً واستسلمت لنوم خفيف يشبه الغيبوبة. بدأ توميوكا يشعر بالأحداث من حوله وكأنها سلسلة من الأبواب الصلبة الثقيلة التي تغلق الواحد تلو الآخر في وجه قدره. فعندما رقدت كونيكو في الفراش، قال الأطباء إنها ستتعافى خلال يومين أو ثلاثة، لكن ذلك لم يحدث. تضمن النزل الذي يقيمان فيه خمس غرف فقط، ومن المستغرب أنها كانت جميعها مشغولة،

وكان من الواضح أن ترميمه قد جرى بسرعة بعد القصف. أخذ النزلاء في الغرفة المجاورة يضحكون بصخب، فيما خيم الصمت والكآبة على الغرفة التي يقيم فيها مع يوكيكو.

جلس توميوكا بجانب وسادة يوكيكو حتى دون أن يغير ملابسه ليرتدي الكيمونو المبطن، وأزال سدادة زجاجة الويسكي وتناول بعض الشراب منها. ازدادت شدة هطول المطر وقوة الرياح التي أخذت تهز المبنى بين الحين والآخر. ظلت الكهرباء مقطوعة حتى المساء، وساد الغرفة ظلام داكن. بدأت ساكوراجيما تلوح في الأفق بشكلها الضخم من النافذة، وبدت أجواء الغرفة خانقة، كما لو أن بركاناً على وشك أن ينفجر من نافذتها.

58

آلت أمورهما إلى هذه المرحلة دون أن يفكرا بها، وشعر توميوكا بصدمة كبيرة من مرض يوكيكو. في اليوم التالي كان الجو جميلاً، إذ توقف المطر وهبت رياح خفيفة. جاءت الخادمة عند الفجر لتحضر الفحم إلى الموقد وأخبرتهما بأن هناك سفينة تدعى تيروكوني ستغادر ذلك الصباح في تمام الساعة التاسعة. غير أنَّ حال يوكيكو الصحية لم تتحسن، إذ كانت لاتزال تسعل وهي تغط في نوم عميق. عندما سمع توميوكا ذاك السعال، شعر بألم كما لو كان جلده ينسلخ عن لحمه.

لم تعد ساكوراجيما مرئية من النافذة إذ تاهت وسط اللون الوردي لسماء الفجر البارد. واصطفت على طول شاطئ البحر مباني المخازن الخشبية المتهالكة تعلوها شبكة معقدة من صواري السفن. كانت مصابيح الشوارع لاتزال مضاءة. حدق توميوكا بعناية في المرفأ عند الفجر حيث كان كل شيء هادئاً، وظن أنه من الصعب المغادرة ذاك الصباح والأوضاع على هذه الحال. لذا قرر أن يؤجل الرحيل. دنا من الموقد القريب من الوسادة وجلس القرفصاء وأشعل سيجارة. فتحت يوكيكو عينيها.

«كيف تشعرين؟»

حاولت يوكيكو أن تبتسم، لكنها لم تستطع، ففتحت عينيها باتساع ونظرت

إلى وجه توميوكا الذي وضع يده على جبينها ووجده بارداً على غير المتوقع، ونظر إلى عينيها المفتوحتين ورأى فيهما تعبيراً لم يعهده من قبل، تعبيراً عن وحدة لا يمكن وصفها. وفي نوبة من الشفقة المفاجئة، ركع توميوكا وقرب وجهه من وجهها.

«أجلت رحيلنا إلى أن تتحسن الأمور. سأغير التذاكر، لذا ارتاحي ولا تقلقي على أي شيء. ليس هناك ما يزعج، صحيح؟ لقد أثّر فيك التعب فقط، هذا كل ما في الأمر. ما كان عليك أن تعرضي نفسك للمطر».

تحدث توميوكا ببطء وبكلمات متقطعة، وهزت يوكيكو رأسها بإذعان وعيناها مازالتا مفتوحتين. أخذ توميوكا يدها ووضعها على صدره، وأحس أنه يرى في عينيها تلك النظرة نفسها التي رآها عندما كان بجوار سريرها في المستشفى الفرنسي الذي أجرت فيه العملية بعد الجرح الذي سببه لها كانو. آلمته ذكريات الماضي. تذكر كيف عانى الذعر والغثيان عندما حدق من المستشفى في سماء الفجر فوق البحيرة، وفكر في ما تكبداه معاً من إرهاق وضجر السفر. اعترف توميوكا لنفسه بأن الأمور قد جرت بهذه الطريقة لأنه التقى يوكيكو بالصدفة في بلاد الغربة. لكنه فكر بأسف بأن علاقته العابرة مع الخادمة الأنامية كانت هي الأخرى بسبب ضجر السفر أيضاً. أشعلت صورة وجه نيو الحنطي الساذج والواثق النار في صدر توميوكا، فأصبحت تلك المرأة عزيزة على قلبه مثل سايكو، وذلك ببساطة لأنه لن يتمكن من لقائها مجدداً. فكر بالأمر ثانية وأدرك أن حياته في الهند الصينية لم تكن رحلة موحشة مبنية على شيء بسيط واحد. انتابه إحساس شديد بالوحدة والرقة تجاه الآخرين، كما لو كان مداناً حتى الموت، وهذا ما جعله يثمن مشاعر الآخرين ويقدرها.

فكر توميوكا أن سلطة الجيش الهرمية المتزمتة لم تكن تسمح حتى بحرية الشعور بالوحدة، لذا فقد سعى لاستخدام أنانيته الشخصية لإخماد عطش روحه عن طريق جسد يوكيكو، وهذا ما أوصل الأمور إلى هنا. أمسك توميوكا بيد يوكيكو بإحكام رغبة منه في تعويضها عن ذاك، فسألته بوهن:

«ألن تسافر بالسفينة وحدك؟»

«أيتها الغبية! هل ظننت أنني سأذهب دونك؟»

هزت يوكيكو كتفيها قليلاً كما تفعل طفلة، ومسح توميوكا الدمعة التي تجمعت في زاوية عينها كما لو أنه فرد من عائلتها، وعصر يدها لمرتين أو ثلاث في محاولة لإشعارها بأن كل شيء على ما يرام، ثم أفلتها، وسأل الخادمة التي جاءت بالشاي عن الساعة. نظرت الخادمة إلى ساعتها وأجابت: «نحو السابعة، أليس كذلك؟» ثم رفعت الساعة إلى أذنها.

عندما نزل توميوكا إلى الطابق السفلي كانت ساعة المدخل قد تجاوزت السابعة بقليل، ثم ذهب إلى شركة الشحن وطلب تبديل التذاكر، وقرر أن يسافر على متن السفينة تيروكونيمارو التي كان ستغادر في نفس الوقت بعد أربعة أيام، وتجول في أثناء وجوده هناك في الميناء لكي يرى تلك السفينة. وهناك شاهد رافعة تحمل الأخشاب على تلك السفينة البيضاء التي كانت تنفث سحب الدخان من مدخنتها الضخمة. انتشرت على رصيف الميناء أكشاك تبيع الفاكهة للمسافرين. أحس توميوكا بمشاعر غريبة حيال مجيئه إلى هنا إلى أطراف كيوشو ورؤية أكوام الفاكهة على الأكشاك. اشترى نحو ثمانية أرطال من التفاح ليوكيكو ووضعها في كيس أخضر. ثم ذهب بمحاذاة السفينة حيث كان جميع المسافرين يقفون في صف واحد يحمل كل منهم حوضاً زجاجياً من السمك الذهبي. كانت تلك السفينة من نفس نوعية السفن التي اكتظ بها الطريق إلى الهند الصينية. توهم توميوكا أنه لو تمكن من السفر على ظهر هذه السفينة بصحبة يوكيكو هذا الصباح لاستمتعا برحلة رائعة للغاية. لكن سفينة السعادة هذه لا تبحر الآن لأبعد من جزيرة ياكوشيما، فهي لن تستطيع التقدم لمسافة قدم واحدة بعد ذلك ولن تتمكن من مواصلة طريقها إلى بحار الجنوب الصفراء لأن حركتها باتت مقيدة بالحدود التي رسمتها الحرب. تجمهر المسافرون على رصيف الميناء، وكانت بقايا القش والأخشاب وقشور التفاح تنتشر في المكان. حدق توميوكا باستغراب في حبل الرافعة وهو يلتف. انطلقت صفارة بخارية معلنة مغادرة السفينة، ثم

أطلقت صفارة أخرى، وشقت النسوة والأطفال طريقهم عبر الحشد القادم لوداع السفينة وبيع الرايات. اشترى توميوكا لفافة من الرايات المثلثة. تجول محاسب السفينة الذي كان يرتدي زياً من حقبة ما قبل الحرب فوق لوح العبور إلى السفينة ثم نزل إلى الرصيف. بدأ الناس يركبون السفينة، بجانب لوح العبور وقف شرطي وقبطان السفينة بزيه الأبيض، فيما تدافع المسافرون يحملون أمتعتهم الكثيرة لركوب السفينة.

تجاوزت الساعة التاسعة بقليل، وانطلقت صافرة السفينة ثانية، وبدأت تتحرك ببطء للابتعاد عن الرصيف، وقد أحدث الناس الذين بقوا على الرصيف الكثير من الضجة والاهتياج في أثناء وداع المسافرين الذين وضعوا أمتعتهم على ظهر السفينة واصطفوا خطاً واحداً على طول درابزين السفينة. وانطلقت لفافات من الأعلام المثلثة مثل الطيور الصغيرة من الرصيف إلى ظهر السفينة بألوانها الحمراء والبيضاء والزرقاء والصفراء والخضراء، وأخذت تتموج في الرياح مثل طيف قوس قزح مشكلة أقواساً كبيرة. قذف توميوكا شريط أعلامه الحمراء نحو طفل في السابعة أو الثامنة من عمره كان يلوح بيديه إلى الناس على الرصيف، لكن الشريط ارتطم برأس امرأة بدت مثل موظفة مكتب، فالتقطته بيديها ورفعته عالياً كي لا ينقطع. كانت المرأة ترتدي سترة زرقاء باهتة وتنورة سوداء رثة، لكنها كانت جميلة الوجه. ضجر توميوكا من بطء حركة السفينة، فأطلق الشريط من منتصفه، وعاد بمحاذاة الرصيف نحو مكتب شركة الشحن. لم يشعر بأن هناك طريقاً محددةً عليه سلوكها، إذ لم يكن لديه مكان يقصده، ثم استدار فجأة ونظر إلى البحر وبدت له السفينة التي أصبحت على بعد مسافة في البحر صغيرة على غير المتوقع. على الرصيف الذي كان تنتشر عليه الأعلام كان الناس مازالوا يلوحون بأيديهم وقبعاتهم ومناديلهم للسفينة، في حين عامت فوق مياه البحر الهائجة شرائط من الأعلام الحمراء والصفراء، وظلت ألوانها الساطعة مطبوعة في عيني توميوكا.

ذهب توميوكا إلى مكتب البريد بعد أن أرشده أحد المارة إلى مكانه، فأرسل برقية إلى محطة الغابات في جزيرة ياكوشيما، واشترى بطاقة بريدية أرسلها إلى

والديه في ماتسويدا يخبرهما فيها أنه وصل إلى كاجوشيما وأنه بانتظار سفينة أخرى تأخذه إلى الجزيرة. كان مكتب البريد الواسع خاوياً تقريباً. جلس توميوكا براحة إلى طاولة خشبية، وأمسك بالقلم الذي حصل عليه من مكتب البريد، وعندها فقط لاحظ وجود شابة تجلس بجانبه تكتب كلمة «طوكيو» على استمارة برقية. شعر توميوكا بحنين، وبدت له تلك المدينة طوكيو التي كانت الشابة توجه برقيتها إليها بعيدة في آخر الأرض.

كانت طوكيو بالنسبة له موطناً يحن إليه. لولا علاقته بسايكو، لما كان قد وصل إلى أرض اليأس هذه مثل شخص يدير ظهره للعالم، كما لو أنه ينتحر. كان الجو في مكتب البريد النظيف والمرتب في هذه الساعة المبكرة من الصباح هادئاً وساكناً مثل قاع البحر. توجهت المرأة الجالسة بجانبه إلى النافذة لإرسال برقيتها. كان كعبا حذائها متآكلين قليلاً، ومعطفها الأسود رثاً ومجعداً أيضاً. رمى توميوكا بطاقته في صندوق البريد وغادر المكان.

59

وجد توميوكا محل ساعات صغير غير بعيد عن الفندق، فاقترب من نافذة العرض ونظر إلى الساعات لفترة، كانت جميعها نسخاً مقلدة من الساعات السويسرية، ولفتت نظره ساعة تحمل بطاقة سعر كتب عليها مبلغ ثلاثة آلاف وستمائة ين، وأراد أن يحصل على تلك الساعة تذكاراً من جزيرة ياكوشيما، فدخل وطلب من موظف المحل أن يريه إياها. لقد باع توميوكا الساعة التي اشتراها في الهند الصينية إلى زوج سايكو في إيكاهو، ثم ظل بعد ذلك دون ساعة لفترة كان يعاني فيها الفقر، لذا فقد رغب في امتلاك ساعة أخرى. أخذ الساعة وحملها إلى أذنه وأصغى إلى عقرب الثواني وهو يصدر صوت تكات واضحة وثابتة، كما أعجبه قرص الساعة الرقيق المدور، فقرر أن يشتريها.

عندما عاد إلى الفندق وجد يوكيكو وقد ضجرت من انتظاره، وآثار الدموع بادية على وجهها، لكنها ارتاحت عندما رأت كيس التفاح الذي أحضره لها فأخرجت يدها من تحت اللحاف. جلس توميوكا في الحال إلى جانب وسادتها، وأمسك بسكين، وقشر لها تفاحة وقال: «عندما كنت هناك نظرت إلى السفينة، وبدت جميلة جداً. ربما تكون أفضل سفينة على الخط إلى جزيرة ياكوشيما. كان جميع المسافرين على متنها يحملون معهم أحواض السمك الذهبي. ألا يوجد

سمك ذهبي في الجزيرة؟» وتابع حديثه عن السفينة التي رآها وهو يقشر التفاحة قائلاً:

«إنها سفينة بيضاء. وقد غيرت تذكرتينا إلى الدرجة الأولى لأنك مريضة، ربما يكون ذلك أكثر راحة. وعلمت أنهم لا يقدمون الوجبات، لذا علينا أن نأخذ طعاماً يكفينا لوجبتين. كما قالوا إن الأطباء المؤهلين لا يتوافرون إلا في تانجاشيما التي نمر بها في طريقنا إلى الجزيرة، لكن ليس هناك أي منهم في الجزيرة نفسها».

«لا يوجد أطباء؟»

«آه، هذا أمر يثير القلق بعض الشيء».

«إذا بدأت أشعر بالمرض على السفينة أرجوك أن تتركني هناك، في تانجاشيما، وتواصل رحلتك».

«إذا كانت المسألة تتطلب النزول في تانجاشيما، فقد يكون من المناسب أكثر أن يراك الطبيب في كاجوشينا. وإذا لم يمكن الوضع يسمح أبداً بالسفر على متن السفينة التالية، يمكنك زيارة المستشفى هنا وإيجاد فندق صغير تتأني فيه طلباً للشفاء، ثم تلحقين بي. مهما كان، فإن كاجوشيما مدينة وهي مكان مناسب».

راقبت يوكيكو يد توميوكا وهو يقشر التفاحة، ولمعت عيناها لرؤية الساعة بسوارها الجلدي الجديد التي كان يضعها على معصمه.

«هل اشتريت ساعة؟»

«نعم، اشتريتها للتو من متجر قريب من هنا».

«دعني أراها».

عندما مد توميوكا يده، نظرت يوكيكو بتفحص إلى قرص الساعة التي بدت نوعاً ما شبيهة بالساعة التي باعها في إيكاهو وقالت: «إنها جميلة». ولم يذكر توميوكا شيئاً عن سعرها لأنها لم تسأله عن ذلك. كما أنه لم يشعر بالذنب لأنه اشترى الساعة مما تبقى من المال الذي كسبه من الشركة التي تصدر المجلة. لكن يوكيكو بدت منزعجة قليلاً. هل ظنت أن الساعة كانت باهظة الثمن؟

«لو سافرنا في تلك السفينة، لكنا الآن في عرض البحر. هل كانت الأمواج عاتية؟»

«كانت الرياح شديدة، لكن البحر هادئ. بدا الأمر أشبه بمغادرة سفينة أجنبية، وأخذ الناس يرمون بأشرطة طويلة على بعضهم».

«حقاً؟ لا بد أن ذلك كان رائعاً».

«لا، كان غريباً بعض الشيء. من الغريب ألا يسمح للسفينة بالسفر إلى بلاد الهند الصينية. شعرت بنوع من الحنين»...

من المستغرب أن يوكيكو لم تستطع تقبل أمر شراء الساعة، فقد اعتقدت أن إقدام توميوكا على شراء ساعة ثمينة في هذه الظروف يشير إلى ضحالة مشاعره وأحاسيسه. تراءت أمام عيني توميوكا أشرطة الرايات التي رأى أنها كانت زينة لما يطلق عليها مشاعر الوحدة والعواطف البشرية، وقشر التفاحة وأعطى نصفها ليوكيكو، فقضمتها وشعرت بألم في اللثة بسبب الطعم الحامض. كانت التفاحة طرية ومذاقها سيئاً على غير المتوقع. وكذلك أخذ توميوكا قضمة من التفاحة وقال: «طعم هذه التفاحة ليس جيداً» وبصق ما تبقى منها في فمه. سمعا صوت ضجيج دجاجة قريب، لا بد أنها للفندق، ثم بدأ المطر ينهمر خفيفاً في الخارج.

في الصباح حضر الطبيب الشاب لإعطاء حقنة ليوكيكو، ففحص صدرها وظهرها وقال لتوميوكا: «من الأفضل إجراء فحص بالأشعة السينية».

شعرت يوكيكو برعشة خوف، فهي لا تستطيع في هذه الظروف احتمال أن تصاب بالمرض في خلال الرحلة بعد أن قطعت كل هذه المسافة الطويلة. فلو كان عليها الافتراق عن توميوكا، لكان من الأفضل لها ببساطة أن تظل في طوكيو. وشعرت بضيق في صدرها وأحست أن مرضها هذه المرة سيكون الأخير. وتمنت لو أنها استسلمت للجرب الذي أصابها خلال فترة نزوحها على أن تجد نفسها تصارع مرضاً عضالاً الآن، كما تمنت أيضاً ألا يكون الطبيب الشاب قد أخبر توميوكا بالكثير من الأمور غير اللازمة.

كانت الأيام القليلة القادمة صعبة جداً على توميوكا ويوكيكو. في خلال هذه الأيام الأربعة التي قضوها بعيداً عن الوطن، أصبح الطبيب الشاب اللطيف جداً

شخصاً مقرباً منهما، وعرفا أنه خدم طبيباً في الجيش خلال الحرب مع الصين. ومن الغريب أنه كان قريباً من توميوكا في السن، لكنه مازال عازباً يساعد في العمل في مستشفى والده. ربما كانت عزوبيته سبباً في أنه بدا أصغر من سنه بكثير. عرف توميوكا من الخادمة أن ذاك الطبيب، الذي يُدعى هيكا والمنحدر من عائلة أصلها من جزر ريوكيو، هو خريج إحدى كليات الطب في فودوكا، وأنه يحب الموسيقى ويمارس هواية جمع الأسطوانات للفونوغراف الكهربائي الذي قام بتجميعه بنفسه. في أحد الأيام، وبينما كانوا يصغون لصوت مذياع يصدح في مكان قريب، قال هيكا بتركيز: «أحب هذه المقطوعة الموسيقية»، وأطبق عينيه منتشياً. اعتقد توميوكا أنه قد سبق وسمع هذه المقطوعة في مكان ما، فأصغى إليها بانتباه. وكذلك أصغت إليها يوكيكو بعناية وهي تمسد جسمها من فوق الغطاء بعد الحقنة. لكن لم يستطع توميوكا ولا يوكيكو معرفة تلك المقطوعة الموسيقية، فسألت يوكيكو: «أي سيمفونية هذه؟»

«إنها سيمفونية (العالم الجديد) لدفوراك[1]».

تحدث الطبيب بمتعة وهو يبعد جهاز الحقن ويغسل يديه في المغسلة، وحسده توميوكا على تذوقه للموسيقى، ورأى أنها لمصادفة سعيدة أن يلتقي بطبيب جيد هنا في هذه الأطراف النائية من كيوشو. كان هيكا قصير القامة متين الجسم، ولا تبدو عليه هيئة الطبيب بالتحديد، لكن كان ذا عينين ضيقتين لطيفتين وصف من الأسنان ناصعة البياض. قال توميوكا إنه في طريقه لتسلم عمله في محطة أبحاث الغابات في جزيرة ياكوشيما وأمضى بعض الوقت يتحدث عن الفترة التي عمل فيها في وزارة الزراعة لحساب الجيش في الهند الصينية. زادت مودة الطبيب عندما علم بوظيفة توميوكا في محطة أبحاث الغابات، فاسترسل بالحديث عن نيته السابقة في دخول الجامعة الامبراطورية في هوكايدو وعن تصوراته في مرحلة الشباب.

(1) أنتونين دفوراك مؤلف موسيقي تشيكي قدم الكثير من أعمال الكورال والأوبرا والسيمفونيات والرقصات.

أعرب توميوكا عن قلقه من عدم وجود أطباء في ياكوشيما، وسأل الطبيب إذا كان بإمكانه الحضور إلى الجزيرة لفحص يوكيكو إذا أرسلوا له برقية في الحالات الطارئة، فأجابه بأنه سيأتي إليهم تحت أي ظروف.

«وأنا أيضاً سمعت أن ليس هناك أطباء في جزيرة ياكوشيما. ربما يكون هناك طبيب ذو صلة بمحطة الغابات في الجبال. أنا نفسي فكرت في فتح عيادة هناك، لكنني خفت قليلاً من المكان إذ علمت أن الكهرباء غير متوافرة والأمطار تهطل فيه على مدار السنة. فأنا أشعر بالوحدة إن لم أستطع الاستماع إلى أسطواناتي. يبدو أن الكهرباء متوافرة الآن في محطة الغابات مرة كل بضعة أيام. يعتقد الناس أن الأطباء كرماء إيثاريون، لكن في الحقيقة يبدو لي من المستحيل أن أحتمل العيش على جزيرة منفية لا أستطيع فيها أن أستمع إلى أسطوانة واحدة.

«سأبحث عن فرصة للذهاب لزيارتكما. لكن، وبصراحة، كيف تتوقع أن يكون تأثير مكان كئيب كهذا على صحة زوجتك؟ إذا كان عملك يقتضي ذلك، فأظن أنه ليس باليد حيلة، لكن إذا كان بمقدوركما فعليكما اختيار العيش في مكان في أعالي الجبال، كما عليكما اتباع نظام صحي في حياتكما اليومية. على أيّة حال، ليس هناك وقت كاف لأجري لها فحصاً دقيقاً، لكن عندما تصلان إلى هناك أرجو منكما إبلاغي عن حالتها الصحية يوماً بيوم. يكفي أن ترسلا لي بطاقة بريدية».

حدد هيكا نصائحه ضمن هذا النطاق فقط كي لا يزعج المريضة. على الرغم من أن يوكيكو قد نسيت نغم سيمفونية دفوراك «العالم الجديد»، إلا أن صدى اسم السيمفونية ظل حاضراً بقوة في وجدانها، وشعرت به وكأنه تنبؤ بمغادرتهما في رحلة جديدة، وأحست بالاحترام والإعجاب تجاه سلوك هيكا الذي اتسم بالبساطة والعفوية.

تذكر توميوكا كلمات دوستويفسكي[1] في رواية «الجريمة والعقاب» بأن

---

(1) فيودور دوستويفسكي (1821–1881) واحد من أهم الكتاب الروس وأشهر كتاب العالم، وكان لأعماله أثر بارز في أدب القرن العشرين.

الإنسان لا يستطيع العيش دون مشاعر التعاطف من الآخرين، وصنف الطبيب على أنه من نمط الشخصيات الروسية في حقبة ما قبل الثورة. حصل توميوكا ويوكيكو على مجموعة من أدوية الطوارئ والحقن، وانطلقا في صباح اليوم الرابع بسيارة أجرة إلى تيروكوني مارو، وفوجئا بمجيء هيكا مسرعاً دون معطف أو قبعة لوداعهما. تأثر توميوكا ويوكيكو بتلك المفاجأة، فليس لديهما أحد ليرمي إليهما شريط رايات، ولم يتوقعا أن يحظيا بوداع من قبل الطبيب الشاب الذي صعد معهما إلى السفينة أيضاً.

كانت قمرة الدرجة الأولى قاعة فاخرة واسعة جميلة تتسع لنحو أربع حصائر ونصف وفيها سرير من طابقين وبطانيات بيضاء جديدة وأريكة أمامها طاولة وكرسي ومرآة معلقة على الجدار وجرة ماء موضوعة في فتحة في الجدار. استلقت يوكيكو على السرير السفلي، فأخذ هيكا حقنة ومسح إبرتها بالكحول وأعطاها جرعة من الفيتامينات في ذراعها. لم تنس يوكيكو أبداً لمسة يد الطبيب الباردة تلك، وكاد أن يغمى عليها كما لو أنه أول حب لها.

لم تكن يوكيكو قادرة على الصعود إلى سطح السفينة، لكن توميوكا غادر القمرة ليودع هيكا، ولم يعد إليها حتى بعد أن بدأت السفينة بالتحرك، بل ظل على سطح السفينة في منطقة الدرجة الأولى يحمل شريطاً أخضر قذفه إليه هيكا. ابتعدت السفينة عن الرصيف الذي انتشرت فيه الفوضى وأصبح مثل صندوق ألعاب قلب رأساً على عقب وأفرغت محتوياته، في حين ظل توميوكا يحمل فوق رأسه الجزء المنقطع من الشريط. وقف هيكا في نهاية الرصيف يلوح بمنديل أبيض، ثم غادر الرصيف بخطوات كبيرة وهو مطأطئ الرأس. كان شكله من الخلف وهو يلوح بحقيبته جيئة وذهاباً يثير في النفس الراحة والثقة.

بعد أن سارت السفينة مسافةً في البحر بدت ساكوراجيما صغيرة بشكل مذهل وسط أشعة شمس الصباح الواهنة. وهكذا كما لو أن ستاراً قد أسدل على المشهد، فساكوراجيما التي شاهداها من نافذة الفندق كانت ضخمة، لكنها تبدو الآن من وسط البحر كقطعة فنية تصلح لأن تعلق في كوة مزخرفة. كان

ركاب الدرجة الثالثة يتسللون من قمراتهم الشبيهة بالزنزانات، ويصعدون إلى الأعلى لأخذ حمام شمسي فوق الكراسي الخشبية على سطح السفينة الواسع الذي انتشرت فيه هنا وهناك أحواض السمك الذهبي التي اشتراها المسافرون كهدايا تذكارية، وكانت تلمع في كل منها واحدة من هذه الأسماك.

ساد البحر هدوء كما لو أنه تحت تأثير طائر القاوند[1]. وفي أماكن الظل كانت الرياح تهب باردة تنخر العظام، في حين كانت الأماكن الأخرى تنعم بدفء أشعة الشمس. من المدخنة الضخمة في الأعلى تصاعدت سحب الدخان متجهة نحو الغرب. نشر توميوكا الشريط الأخضر الذي كان يحمله في يده فوق مياه البحر التي لمعت بلون أبيض تحت أشعة الشمس. كان الهواء في المحيط المفتوح منعشاً، وبدا وكأنه يفك قيود القدر التي كانت تكبل يديه وقدميه منذ مدة. تأمل توميوكا سكون البحر، وتذكر المثل القائل إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وفكر في أن المثل ذاته يمكن أن يقال وسط المحيط أو على اليابسة.

استمتعت يوكيكو بالاهتزاز الذي ولدته حركة السفينة في جسدها، وكان هذا الإحساس بالاستسلام كلياً للسفينة في أثناء مضيها قدماً في مسيرها شبيهاً بالضبط بما أحست به في أثناء عودتها من الهند الصينية. لم تستطع نسيان لطف الطبيب في كل ما قاله وما فعله، وكذلك رائحة الأدوية التي تفوح من جسده. لقد ذكّرها وجهه بوجه كانو، واسترسلت لفترة طويلة تتخيل لقاء عاطفياً يجمعها بهيكا وسط جبال جزيرة ياكوشيما. وكررت ذلك المشهد في مخيلتها بسعادة لمرات ومرات على الرغم من أنها لم تكن مرتاحة لهذا الاضطراب الدائم في مشاعرها.

(1) القاوند طائر تزعم الأسطورة أنه يهدئ، في دور حضانته، أمواج البحر.

60

وصلا إلى تانجاشيما عند الساعة الثانية تقريباً، وفجأة أصبحت الجزيرة الصفراء المسطحة مرئية من النافذة. حدق توميوكا وهو يدخن سيجارة في الجزيرة الطويلة المنعزلة، في حين كانت يوكيكو تغط بنوم عميق، وأخذ يفكر بالمسافة التي قطعتها السفينة حتى تصل إلى هذا المكان.

رأى توميوكا مجموعة من السفن ترسو بشكل عشوائي في الميناء الصغير على بعد مسافة لا بأس بها، وبدا له منظر السقوف البيضاء والسوداء للمنازل المنتشرة على الشاطئ مثل تصاميم ورقية مقصوصة، إنه لا يشبه أي شيء آخر رآه من قبل.

دخلت السفينة إلى الميناء الخارجي الغربي في تانجاشيما بتروٍّ، وكان عليها أن ترسو هناك حتى الساعة التاسعة من تلك الليلة. علم توميوكا بهذا الأمر من أحد أفراد الطاقم، وظن أن ذلك سيكون مضجراً للغاية، فقد كان يفضل الإسراع في الوصول إلى المقصد النهائي عوضاً عن الانتظار هناك دون شيء يفعله.

بدت تانجاشيما من بعيد جزيرةً صحراويةً، لكن توميوكا سمع أنها الوحيدة من أرخبيل جزر بحر أوسومي التي تمتلك حضارة خاصة بها. عندما فكر بأنه ذاهب إلى جزيرة أكثر عزلة من هذه الجزيرة، حدق بغموض في الميناء في أثناء

اقتراب السفينة منها. كانت الجزيرة تشبه قمة جبل جرداء قاحلة، وبدت، على الرغم من اتساعها الهائل باتجاهي الطول والعرض، وكأنها على وشك الغرق في البحر في أي لحظة، ربما لأنه لم يكن فيها أي هضاب مرتفعة.

قالت يوكيكو وهي تحرك وسادتها مصدرة صوتاً منخفضاً منها: «إذاً هل وصلنا إلى مكان ما؟» فأجابها توميوكا وهو لايزال يضع خده على فتحة الجدار: «وصلنا إلى تانجاشيما».

«هل الميناء جميل؟»

«نعم إنه مكان صغير ومُنسَّق. أتودين النهوض لرؤيته؟»

«لست بحاجة حقاً لذلك. ألا تبدو كل الموانئ متشابهة على كل حال؟»

«إنه مفعم بالنشاط لدرجة مذهلة. هناك الكثير من السفن الصغيرة، إنه يشبه قرية ساحلية رأيتها مرة من قبل ربما في مكان ما من الهند الصينية».

«هل تشبه الهند الصينية؟»

«لا، لا تشبهها، لكنني أشعر بأن هناك قرية من نفس النمط هناك أيضاً. تبدو جميع الموانئ التي بناها اليابانيون، أينما كانت، منعزلة وكئيبة».

ألقت السفينة مرساتها محدثة صوت ضجيج صاخب، في حين تجمهرت حشود الناس كالنمل على حاجز الميناء الذي تنيره أشعة الشمس، وافترض توميوكا أنهم جاؤوا لاستقبال السفينة. ومع اقتراب السفينة من الرصيف أصبح بالإمكان رؤية جميع من جاء لاستقبال السفينة بوضوح. كانت ملابسهم شبيهة بملابس سكان طوكيو أو كاجوشيما، فقد ارتدت بعض الشابات ستراً حمراء من الطراز الرائج في ذلك الوقت، وتميزت جميعهن بتجعيد الشعر، فيما تباهى الشبان بتسريحة بومبادور[1] وكان الشعر المدهون بالزيت يلمع تحت الشمس.

أُنزل لوح العبور بسرعة، وأخذ ركاب الدرجة المتدنية ينطلقون نحو الشاطئ يحملون معهم التفاح وأحواض السمك الذهبي. كانت الأمواج تهز رصيف الميناء الذي تدافع عليه المسافرون مسرعين. خرج توميوكا إلى سطح السفينة

(1) بومبادرو تسريحة للرجال يُرفع فيها الشعر عن الجبين ويرد إلى الوراء.

في منطقة الدرجة الأولى وهو يربط سترته فوق كتفيه، ونظر من حوله فشاهد حشوداً من الناس تتوجه بالتدريج نحو المدينة الواقعة على ربوة. كان الطريق المفروش بالرمل الأبيض يلمع حينها تحت أشعة الشمس الغاربة، واصطفت على طول كاسر الأمواج بمجموعة من المباني المتنوعة، منها بناء خشبي يبدو مثل مكتب ومقر شركة شحن ومبنى مائل لفندق من ثلاثة طوابق وبعض الحانات.

تساءل توميوكا عن السبب الذي يدفع السفينة لتلقي بمرساتها في مكان كهذا لعدة ساعات، فلا يبدو أنها توقفت في هذه المحطة لتحميل الشحن، إذ لم يكن هناك الكثير من الصناديق والحقائب على الرصيف.

لم يغادر توميوكا ويوكيكو إلى الشاطئ، بل أمضيا الوقت على متن السفينة حتى حل الليل. عندها اشتعلت أضواء السفينة وكان هناك مكبر صوت يبث أغاني شائعة للمسافرين المحتشدين، فيما سُمعت من سطح السفينة والأروقة أصوات ضحكات النساء العذبة تنبعث من الحانات مصحوبة بصوت خفيف لطرطقة أحذيتهن. وفي أكثر من مرة فتحت واحدة من تلك النسوة باب غرفة توميوكا ويوكيكو لتنظر إلى الداخل. فوجئ الاثنان من سلوكهن السيئ، فسألت يوكيكو بتعاسة: «هل ياكوشيما هكذا أيضاً؟» واختبأت تحت البطانية، فيما ظلت تتكرر على ظهر السفينة نفس الأغنية الكئيبة التي تتحدث عن التخلي عن عواطف القلب.

في حوالي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي بدأت جزيرة ياكوشيما تتراءى عبر الأفق.

وصلت السفينة بالقرب من ميناء أنبو الذي سينزل فيه توميوكا ويوكيكو. كانت الأمواج قوية على الساحل، وقد رست السفينة بعيداً عن اليابسة لأن الميناء كان صغيراً جداً، فيما نقل قارب صغير المسافرين إلى الشاطئ. لما رأى توميوكا الجزيرة المنعزلة والمغطاة بالغابات الكثيفة، بدت له مثل شامة في أطراف أرخبيل أوسومي، وفكر في نفسه قائلاً: «إذاً هذا هو المكان الذي قصدته من مسافة بعيدة وأثار في نفسي الكثير من المشاعر».

من البحر الأزرق الممتد على مدى النظر بدت الجبال ذات الارتفاع الشاهق، والمغطاة بالغابات الخضراء الكثيفة المظلمة المخملية، تعانق السماء الصافية. تقع الجزيرة على بعد اثنين وثلاثين ميلاً بحرياً إلى الجنوب الغربي من تانجاشيما، وتمتد على مساحة خمسمائة كيلومتر مربع، وهي دائرية الشكل وليس لها تقريباً أي منفذ على مستوى البحر، وترتفع في وسطها أعلى قمة في كيوشو، وهي قمة ميانورا البالغ ارتفاعها ألفاً وتسعمائة وخمسة وثلاثين متراً. إلى جانب ذلك هناك قمم ناجاتا وكورومي وغيرها من الجبال التي تشكل معاً ما يسمى بسلسلة قمم ياي. وقد زخرت الجزيرة بتنوع من التضاريس الأفقية، في حين نمت أشجار أرز ياكو على الارتفاعات التي تتراوح بين خمسمائة وألف متر عن سطح البحر.

كتب توميوكا في دفتر ملاحظاته الصغير وصفاً بسيطاً لجزيرة ياكوشيما ذكر فيه أنها جزيرة مظلمة دائرية الشكل تختلف عن تانجاشيما كلياً. ابتهج لرؤية جزيرة بمثل هذا اللون الأخضر القاتم بعد كل هذا الوقت الطويل، ولم يراوده أدنى إحساس بأنه قد نفي إلى جزيرة منعزلة. بل على العكس تماماً، لقد فتنه جمال الجزيرة الساحر وطهَّر جسده وروحه. صعد توميوكا إلى سطح السفينة، وأحس برياح المحيط الباردة تلسع جسمه، وحدق بتعطش إلى الجزيرة التي برزت الآن أمام عينيه. كانت جزيرة تانجاشيما ممتدة أفقياً، أما جزيرة ياكوشيما فقد اندفعت إلى الأعلى من أعماق البحر. إنها لتجربة غريبة أن يصل الزائر لملاقاة هذه الجزيرة في البحر المعتم عند بزوغ الفجر. فوجود هذه الجزيرة المغطاة بالغابات الكثيفة وسط البحر الأزرق الصافي العميق يعد لغزاً من ألغاز الطبيعة المحيرة. أُلقي المركب ذو القاع المسطح من السفينة، وعادت محركاتها تعمل من جديد محدثة ضجيجاً. كانت الأمواج تتدافع بشدة معتدلة وسط البحر، فأخذ المركب يترنح فوقها مثل ورقة شجر، لكنه واصل يشق طريقه نحو شاطئ ميانورا المنعزل.

نهضت يوكيكو ببطء وبحالة من الاستسلام، وأخذت تمشط شعرها وحاولت أن ترتبه قليلاً، وأحست أنه لم يعد متألقاً ولامعاً، فاضطرت إلى رفعه بكعكة خلف

رأسها وربطته بمنديل. ثم أسندت علبة التجميل إلى طية البطانية ووضعت الكريم على وجهها، وأخذت الأضواء المنعكسة من البحر عبر النافذة تتراقص وتتمايل على الجدار الأبيض كأنها السراب.

رفضت يوكيكو بعناد النظر من النافذة إلى جزيرة ياكوشيما التي أخذت تبرز أمامها، كما أنها لم تنظر من قبل إلى تانجاشيما أيضاً، فهي لم تكترث بالمكان الذي ستطأه قدمها. أوشك القارب على الوصول، لكنها لم تشعر بحماس للاستعداد للنزول، واعتقد توميوكا أن تكاسل يوكيكو كان بسبب مرضها. وصلت السفينة نحو الساعة العاشرة إلى القرب من أنبو في ياكوشيما، وأقبل مركب صغير تتقاذفه أمواج البحر نحو السفينة، وبعد قليل بدأ هطول زخات من المطر الخفيف. نزل توميوكا على لوح العبور الشديد الانحدار وهو يضع يديه حول كتفي يوكيكو، ووقف أحد أفراد طاقم السفينة بسترته البيضاء في الأسفل استعداداً لتلقيها. كان اللوح خطراً للغاية إذ أخذ يرتفع عالياً في الهواء ثم يغوص في جوف الأمواج كما لو كانت ستبتلعه، لذا أمسكت يوكيكو بيد الرجل بعد أن أدركت أنه لا مفر لها من النزول، وانزلقت إلى القارب الصغير، وقرفصت فيه وسط الحزم والأكوام الملفوفة بالقش. وفجأة ظهرت من بين الرزم أمامها الجزيرة الصغيرة ذات الغابات الكثة تندفع من أعماق المياه مثل وحش البحر. حدقت يوكيكو بعينيها المتسعتين لفترة، ودمدمت في نفسها وقالت إن الجزيرة تبدو مثل مكان مهجور غير مأهول.

بعد ذلك ركب القارب موجة كبيرة، وابتعد فجأة عن جانب السفينة، وأخذ يتأرجح ويتمايل بطريقة مقيتة. وتحول المطر من ضبابي خفيف إلى غزير وجارف، فتبللت ملابس المسافرين على متن القارب بشكل كامل. كانت يوكيكو ترتدي معطف توميوكا وترفعه على رأسها، لكن ساقيها من أسفل الركبتين كانتا باردتين جداً، وأخذت تسعل بشدة من تحت المعطف الداكن الذي استظلت به.

وما إن انحدر القارب نحو خليج ضيق حتى هدأ تمايله وترنحه. وبدا الحاجز الرملي أبيض كما لو أن المطر قد غسله. داخل الخليج كانت المياه خضراء صافية

تماماً لدرجة ظهرت فيها الصخور والأعشاب وحتى العبوات المعدنية المنتشرة في القاع واضحة كلياً. يبدو أن هناك جدول ماء يتدفق على حاجز الرمل الأبيض. كما شوهد جسر معلق ميكانيكي كبير ينحني على شكل قوس فوق سد طويل.

جاء أربعة أو خمسة أشخاص إلى الشاطئ لاستقبال المركب، اثنان منهما موظفان من محطة أبحاث الغابات قدما للترحيب بتوميوكا، حمل أحدهما بيده مظلة من الورق الزيتي الخشن فيما رفع الآخر معطفه فوق رأسه. دفع توميوكا أجرة القارب وقفز إلى الرمل الأبيض، ثم حمل يوكيكو والمعطف والأشياء الأخرى من القارب ووضعها على الرمل. عندها ركض نحوه الرجلان اللذان جاءا من أجله من محطة أبحاث الغابات، يسحقان رمل الشاطئ الكثيف تحت أقدامهما.

«هل أنتما متعبان؟ هل أنت مريضة سيدتي؟ يؤسفني ذلك».

حمل موظف الغابات مظلته فوق رأس يوكيكو، وكان رجلاً في منتصف العمر تبدو على وجهه ملامح الصدق والثقة ويختلف تماماً عن نمط سكان المدينة. سار الجميع على الطريق المفروش بالرمل حتى أعلى السد. حل التعب بيوكيكو، فتوقفت لأكثر من مرة على الرمل لالتقاط أنفاسها. كانت تعاني من مشكلة في التنفس، وقد اتقد جسمها بأكمله بحرارة الحمى. بات الضباب الأبيض يحيط بالجبال الوعرة التي شمخت فوق الجسر المعلق. وبعد الصعود إلى أعلى السد واجتياز الجسر المعلق الطويل، اصطُحب توميوكا ويوكيكو إلى أحد فنادق أنبو الذي تم الإعلان له بلوحة كتب عليها اسم «لوك آوت بافيليون»، وكان يقع على هضبة صغيرة. انتشرت على طول الطريق الإسمنتي المنحدر دعامات من الخرسانة المسلحة التي كانت تحمل الحبال السميكة للجسر المعلق. لم يبد الفندق فندقاً حقيقياً، بل كان أشبه بمتجر مظلم وكئيب إذ كان يستخدم أيضاً مركزاً لتوزيع الأرز ووكالة شحن.

خلع الجميع أحذيتهم في الممر المظلم وصعدوا السلم الخشبي اللزج بسبب المطر ثم دخلوا إلى قاعة استقبال في الطابق الثاني. كانت جميع الجدران دون

أي كساء داخلي، لم يكن المكان بمجمله أكثر من ملجأ متواضع لعابري السبيل مبني من ألواح الخشب فقط. استدعى توميوكا الخادمة الشابة، وطلب منها أن تجهز الفراش فوراً ليوكيكو. أصبح المطر غزيراً لدرجة بدا معها وكأن قنوات من المياه كانت تتدفق من السماء. عند النظر من الشرفة، بدت الجبال والبحر مختفية خلف حجاب من الضباب. لقد كان جداراً كثيفاً لا يمكن اختراقه من الضباب الأبيض.

بعد تجهيز الفراش، تبادل توميوكا بطاقات العمل مع مستقبليه في الزاوية المضيئة من الغرفة، ثم قدم لهم الشاي الدافئ والحلويات المصنوعة من السكر البني. أشعل توميوكا سيجارة وسحب الموقد النحاسي بصندوقه الخشبي نحوه وقال: «يقولون إن هناك الكثير من المطر هنا»، فأجاب الرجل الذي يرتدي المعطف المطري: «نعم، لم يحدث أي شيء هنا منذ شهر تقريباً سوى المطر. يقال إن السماء في جزيرة ياكوشيما تمطر لمدة خمسة وثلاثين يوماً في الشهر»، ثم خلع معطفه وبدا شبيهاً بعالِم صغير السن.

61

كان الرجل الذي يرتدي المعطف المطري يدعى تاتسوكي، في حين كان الرجل صاحب المظلة المصنوعة من الورق الزيتي يدعى نوبوريتو، وكلاهما يعملان في المكتب وليس في الجبال التي يتم تفقدها يومياً من خلال جولتين بواسطة عربة خفيفة مسطحة بأربعة دواليب تسير على سكة الحديد بحركة يدوية. لم يكن من المتوقع أن يكون السكن الرسمي الذي جُهز لتوميوكا مريحاً بالنسبة ليوكيكو نظراً لظروف مرضها. لذا كان من الأفضل لها أن تبقى في الفندق لمدة خمسة أو ستة أيام أخرى. وافق توميوكا على هذا القرار، لكنه ظن أن ذلك سيشعرها بالوحدة.

استمر هطول المطر غزيراً وشكل حاجزاً سميكاً وخانقاً. بعد مغادرة الرجلين، استحم توميوكا بالمياه الوسخة التي كانت تملأ حوض الاستحمام القديم، وغرق في الفراش لفترة إذ كان مرهقاً للغاية. احمر وجه يوكيكو بسبب نوبات السعال المتشنجة. فتحت عينيها في الغرفة المظلمة، وشربت دواء السعال، وشعرت بأن نفيهما إلى هنا جاء نوعاً من العقاب، وكان لديها إحساس داخلي بأن هذا هو المكان الذي ستموت فيه. إذا كان الموت محتماً عليها، تمنت أن يحدث ذلك بسرعة وببساطة، فهي لا تستطيع أن تتحمل الحياة على هذه الجزيرة التي تظل

فيها السماء تمطر طيلة الأيام. عندما أصغت بعناية سمعت صوت هطول المطر يطن داخل أذنيها.

لم يكن في الغرفة باب زجاجي، بل فقط باب ورقي منزلق وشفاف متهالك الإطار. وكان لكل منهما لحاف واحد ووسادة قاسية كقرمة شجرة، وقد فاحت من بعض أجزاء الفراش رائحة أعشاب البحر. كان الماء في إبريق الألمنيوم المائل إلى الخلف يغلي على الموقد وتخرج منه الفقاعات، في حين لم ينبعث من الفحم أي صوت أو دخان، ربما لأنه كان صلباً مثل الحجر. راقبت يوكيكو البخار المتصاعد من الإبريق، وجالت بنظرها في الغرفة كما لو كانت تحاول امتصاص وحدتها. في الكوة المزخرفة، وضعت زهرة تشبه زهرة الأقحوان، وتدلت من الأعلى ثلاثة مصابيح. سادت الغرفة تعاسة تثير لدى المرء الإحساس بالعودة إلى حياة الماضي الفارغة. كان توميوكا يغط بنوم عميق فحسدته يوكيكو على راحة باله.

لم يكن لدى يوكيكو أي مكان آخر تقصده أو تعود إليه، لذا أطلقت تنهيدة اختفت وسط ضجيج هطول المطر. فكل شيء هنا ميؤوس منه حتى ولو كانت بكامل قوتها. حتى لو ذهبت إلى طوكيو، ليس لها من أمل ترجوه هناك.

عندما جاء الليل أضيئت المصابيح وجاءت الخادمة بالعشاء الذي تضمن السلطعون الأحمر المسلوق دون أي خضار. سرعان ما تبللت يوكيكو بالعرق بسبب درجة حرارتها التي بلغت أربعين درجة مئوية، فطلبت من إدارة الفندق إحضار كيمونو لتبديل ملابسها لأنه ليس لديها أي بديل آخر. أعطى توميوكا حقنة ليوكيكو بطريقة خلت من الخبرة والبراعة، ثم جلس ولأول مرة براحة إلى جانبها وشرب بعض الساكي. لم يكن في العشاء ما ينفع أن يتناوله المرء كمقبلات إذ لم يكن هناك سوى زبدية مطلية بالورنيش مليئة بكومة أرز برزت من تحت الغطاء. استغرب توميوكا ذلك لأن جزيرة ياكوشيما لم تكن غنية بالأرز، وابتسم بامتعاض.

كان الساكي رديئاً ومصنوعاً من تخمير البطاطا الحلوة تفوح منه رائحة لاذعة، وقد وضعت زجاجتان منه في إبريق الشاي قبل أن يلاحظ توميوكا نوعيته

الرديئة. عندها سأل الخادمة إذا كان لديهم ساكي الأرز الأبيض العادي، فأجابته بأن ذلك غير متوفر أبداً على الجزيرة. وهكذا كان عليه أن يتحمل الشراب السيئ طالما أنه لا يوجد سواه، وأخذ يشرب حتى وصل إلى مرحلة سبات. وتخيل أنه سيتمكن من مواصلة العيش في هذا المكان إذا استمر بالشرب حتى ينسى كل ما حدث حتى يوم أمس. هطل المطر بشدة وبقوة عاصفة. وأخذ صوت المطر الجامح يتدفق عبر المزاريب مثل صوت آلات النقر. هنا لا يحتاج الإنسان إلى التفكير. شرب توميوكا الساكي وهو يشعر بأنه جاء إلى هذا المكان لا لفعل شيء سوى العيش دون التفكير في أي شيء. كل شيء في هذا العالم يحدث بمشيئة الله، حتى هطول المطر أو هبوب الرياح لا يحدثان إلا بمشيئته. فتحت هذا المطر الهاطل عاش سكان الجزيرة وكافحوا في حياتهم البسيطة، ولو هزمهم المطر لما استمرت حياتهم. ولكن، ومع هذا، يا له من مطر! كان صوته عالياً يخترق القلب. رغا الزبد عند فم يوكيكو التي كانت تعاني من الحمى. إنه عالم المشاعر الباردة والعبودية القاسية، لكن المرء لا يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يُهزم على يد تلك القوة. الآن، وبعد أن ساقه القدر وأوصله إلى هذه الزاوية البعيدة، سيكون هذا المكان أفضل كل الاحتمالات المتاحة لتوميوكا. الآن، وبعد أن قطع كل هذه المسافة، لن تكون هناك معجزة. لكن من المحتمل أن تواجه هذه المرأة الموت هنا.

فكر توميوكا بكل الصعاب التي واجهها ردحاً من الزمن، وأحس بالدموع تسير من زاويتي عينيه وهو ثمل. هل كان هناك امرأة في العالم تعطي رجلاً مثله حباً صادقاً كالحب الذي منحته إياه هذه المرأة؟ فسايكو، التي كانت تمتع نفسها، سعت وراء الموت بإرداتها. ونيو لم تتبعه بإخلاص. وكونيكو استسلمت للفقر. أما يوكيكو، فهي وحدها التي شاركته الرحلة إلى هذا المكان البعيد حتى وهي تصارع المرض. كان موظفا الغابة اللذان استقبلاه على الرصيف يخاطبان يوكيكو بلقب «سيدة». تذكر توميوكا فجأة الفترة الطويلة من حياته الأسرية السعيدة عندما كان موظفاً حكومياً. وفجأة، وفي هذه الساعة المتأخرة، بدأ يحن إلى وجه

ذاك الطفل الذي أجهضته يوكيكو بإرادتها، وكأن في ذلك عقاب له.

كانت يوكيكو تذكر اسم الطبيب بين الحين والآخر تحت تأثير بعض الكوابيس التي كانت تطاردها. لم يستطع توميوكا فعل شيء سوى أن يقلب المنشفة المبللة فوق جبينها، وفكر في أن ينتظر حتى الغد، وإذا ظلت حالتها خطيرة فسيرسل برقية إلى هيكا. بدا كل شيء في المكان باعثاً على الشؤم، حصائر التاتامي الرطبة والدبقة والجدار الخشبي الذي انبعثت منه الرطوبة.

توقف المطر في اليوم التالي، لكن الصباح كان مظلماً ومعتماً مثل أي صباح شتوي. ذهب توميوكا إلى مكتب الغابات ليسجل حضوره رسمياً ويستلم مهام عمله الجديد، فعلم أن رئيس المكتب قد خرج في مهمة مسح في ميازاكي، لذا قام نوبوريتو بإطلاعه على المخططات البيانية والوثائق، واصطحبه إلى مقر سكنه الرسمي القريب من مدرسة ابتدائية. كان السكن عبارة عن منزل صغير من طابق واحد يتكون مخططه من أربعة غرف شبيهة بالحرف الياباني الذي يرمز إلى حقل الأرز.

田

في الحديقة كانت هناك شجرة تين تسدل أغصانها مثل نهود متدلية، ذات جذع ضخم جداً يستطيع أن يلتف حوله الكثير من الناس وهم يشبكون أيديهم الممدودة معاً، بالإضافة إلى أشجار موز تحمل حبات الفاكهة الخضراء الصغيرة. لم تكن الخضرة الغناء المحيطة بالحديقة تمت لفصل الشتاء بصلة. عاد توميوكا إلى الفندق وقت الظهيرة بعد أن قام بالترتيبات للاستعداد لرحلة إلى الجبال في الغد، وطلب من نوبوريتو إرسال برقية إلى كاجوشيما.

استمرت الحمى لدى يوكيكو، ولذا حاول توميوكا أن يعطيها حقنة من البنسلين كما علمه هيكا. تحسنت حالة يوكيكو النفسية وبدت نشيطة، فقالت بمزاح: «لو مت بالقرب منك، فاعلم أن هذا هو ما أطمح إليه منذ زمن طويل

بكل الأحوال».

«الموت ليس شيئاً مهماً. يمكن للمرء أن يموت في أي وقت. أمازلت تتذمرين بعد أن قطعت كل هذه المسافة؟»

«هذا المطر مضجر».

«نعم، لقد عادت زخات المطر تهطل من جديد».

«أود أن أرى السماء زرقاء صافية ولو لمرة واحدة فقط».

عبر الباب الورقي المنزلق المعتم سُمعت أصوات أربعة أو خمسة أشخاص من الغرفة المجاورة، وكأنهم كانوا يقيمون حفلاً هناك. بدت سلسلة الجبال مرئية بوضوح شاهقة شامخة مثل صخور منحوتة عبر زخات المطر. كان توميوكا ينصدم في كل مرة يزيل فيها المنشفة عن جبين يوكيكو بسبب سخونتها الشديدة. اقترح الآخرون في الفندق أن يعد لصقة خردل ويضعها على صدر يوكيكو، فطلب توميوكا من الخادمة الخروج لإحضار بعض بذور الخردل فحلها بعد ذلك بالماء ونشرها على قطعة ورق ووضعها على صدر يوكيكو، وأزالها عقب بضع دقائق، ولاحظ أن جلد يوكيكو قد أصبح أحمر اللون. قرب توميوكا وجهه من يوكيكو وأخذ يبتهل إلى الله: «أرجوك أن تمنحنا فرصة أخرى لنولد من جديد».

62

أمسك توميوكا بيد يوكيكو المتعرقة وأخذ يضع وجهه على التاتامي في كل مرة تسحب فيها نفسها المتعب محاولاً عد أنفاسها. «لكن الله قال له، أيها الجاهل، هذه الليلة ستُطلب روحك منك، وعندها لمن ستكون كل هذه الأشياء التي تمتلكها؟» تذكر توميوكا فجأة نصاً بهذا المعنى كما لو كان يصلي. انتابه شعور سيئ. لقد خطرت تلك السطور الآن على باله فجأة على الرغم من أنه نسي أين قرأ ذلك النص، وأخذ يردد اسم يوكيكو التي كانت تفتح عينيها المضطربتين بين الفينة والأخرى وتنظر بوهن داخل الغرفة. حاول توميوكا أن يضع أذنه على قلبها الذي كان ينبض بقوة، وقام بقياس نبضها عبر شريان معصمها. كانت علاقتهما غريبة. شعر توميوكا بأنه قد فقد إنسانيته في مكان ما في خلال السنوات العديدة الماضية من هذه الحرب العالمية وأصبح شخصاً آخر يحمل نفس الاسم ولكنه يملك قلباً خاوياً. فعلى الرغم من أنه قد يبدو إنساناً حياً، غير أنه في الحقيقة لا يقوم بشيء سوى الإيماءات.

بعد المساء غرقت يوكيكو في نوم عميق، وخفَّت الحمى التي تعانيها قليلاً، ربما لأن حقنة البنسلين التي كانت تعطى لها كل أربع ساعات قد بدأت تأخذ مفعولها. فرح توميوكا لأن الدواء أفاد يوكيكو كثيراً. كان منهكاً جداً. عندما

حل الليل شرب لمرة أخرى بعض الساكي الرديء وهو جالس إلى جوار وسادتها. أصبح منظر يوكيكو المهمل وهي مستلقية نائمة فاغرة فاهها يبدو مقززاً بالنسبة له بعد أن أسرف في الشرب وثمل. وفكر في أن كل ما حدث لهما والظروف التي ساقتهما إلى هذه الزاوية من العالم كما لو أنهما فاران ما هو إلا ضرب من الطيش والتهور. كانت تلك المرأة تعتز بذكرياتها دائماً ودائماً أيضاً تخلط بين الذكريات والقدر.

شرب توميوكا كميات كبيرة من ساكي البطاطا الحلوة الرديء ذي الرائحة الكريهة، وأصبح أكثر حيوية من المعتاد. وعندما سألت الخادمة عن حاله، أجابها أنه بخير، وقد ساعده الثمل على نسيان كل شيء يتعلق بالأمور غير المحددة مثل الذاكرة والقدر.

قال في نفسه: «ربما ما كان علي أن آتي إلى مكان كهذا، لكنني لم أشأ أن أظل أتسكع في طوكيو مثل متسول. يقال إن الفن ينقذ الروح، لكن هل كان بإمكاني أن أتوغل في الجبال وأصبح ناسكاً حكيماً؟ لو كانت يوكيكو قد راحت في حال سبيلها، لأصبحت ممثلاً صغيراً في ذكرياتها التي لا تنتهي. حتى النقود التي هربت بها يمكن أن يكون لها سحر معين. على أية حال، إنها أموال الآلهة، لذا فإنها ستزداد دون شك بعشرات الأضعاف. الإله عادل إلى حد القسوة. واصل توميوكا شرب الساكي طوال الليل وهو يصغي إلى صوت المطر يتدفق من المزراب. بدأ يفكر وهو يصف زجاجات الساكي السبعة أو الثمانية في الكوة المزخرفة بقلب خلي من أي هموم أن قدرته على حب النساء قد تلاشت كلياً، كما لو أنه أردك للتو الإزعاج التافه الذي تسببه النساء. تمدد وهو مرهق على حافة فراش يوكيكو. ثم استيقظ في وقت متأخر من الليل وهو يشعر بالظمأ كما لو أن ناراً اشتعلت في حلقه، وظن أنه يعاني من نزيف في الأنف أيضاً. تلمس طريقه في الظلام، وأخذ إبريق الماء بعد أن برد على الموقد ووضعه على فمه. تضاءل هطول المطر وأصبح صوته كصوت سقوط قطرات الماء.

نظر توميوكا إلى ساعته وكانت تقترب من الرابعة تقريباً، فأشعل سيجارة

رطبة، وأخرج إبرة حقنة، ثم أحس بدوار في رأسه. أصبحت هذه عادة لديه. ظن توميوكا أن تلك هي نفسية الممرضات في كل العالم، فهن ينهضن بحكم العادة في منتصف الليل دون اكتراث حقيقي بالمريض بطريقة أو بأخرى. هذا كل ما في الأمر. لكن على الرغم من ذلك كانت يوكيكو في كل مرة تعبس بانزعاج أو تبدي تعبيراً ساخراً.

«كيف تشعرين؟»

«أنا بخير».

«توقف المطر».

«كيف يمكنها أن تمطر بهذه الغزارة؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك».

«نعم، يبدو أن المطر لا يتوقف».

«ذلك يشبه ولعك بالذكريات».

«أظن ذلك».

قالت يوكيكو بابتسامة: «إننا نشبه أرنبين قد سلخ جلداهما».

جهز توميوكا الحقنة، وأشعل سيجارته الرطبة، وسحب منها دون أن يبدي الكثير من المتعة، ومد يده ليمسك بالزجاجات الفارغة في الكوة المزخرفة، وعندها تراءى له شبح سايكو أمام عينيه، فوضع فمه على الزجاجات الفارغة الواحدة تلو الأخرى.

«هل أنت بحاجة ماسة للشراب؟»

«نعم، أريد أن أشرب».

«أنا أيضاً أريد ذلك لولا أنني مريضة. لماذا رغبنا في القدوم إلى هنا؟»

«لقد حصلت على عمل هنا، لذا كان علي المجيء».

«لم كان عليك أن تقبل وظيفة في مكان ناء كهذا؟»

«لأننا لم نستطع أن نطعم أنفسنا في طوكيو. إذا تحسنت صحتك قليلاً ارجعي إلى طوكيو، أسمعت؟»

«ماذا سأفعل إذا عدت إلى هناك؟»

«لا أعرف ماذا ستفعلين».

أغلقت يوكيكو عينيها وأحست كأن الحديث قد لامس جرحاً أليماً، وشعرت بأنها تعاني من مرض فريد. لقد ألح عليها هيكا بشدة أن تجري فحصاً بالأشعة السينية، لكنها لم تسمح له بذلك. كان سبب اقتراحه وجود جهاز محمول للفحص بالأشعة السينية، غير أنها لم تشأ فحص ما في داخل صدرها.

«كم الساعة؟»

«إنه الفجر، الساعة قد بلغت الخامسة. أتمطر هكذا على مدار اليوم طيلة السنة؟»

«نعم، هذا محتمل».

«ليس هناك فعلاً من خيار لي هنا سوى الخروج والعمل في الجبال. ألقيت البارحة نظرة على السكن، لكن هل ستستطيعين حقاً البقاء هنا بمفردك؟ إذا خرجت للجبال، سأغيب لمدة قد تصل إلى أسبوع».

«هل يمكنني الصعود إلى الجبال أيضاً؟»

«من الصعب جداً الذهاب إلى هناك، لا أعتقد أن ذلك ممكن».

«قد تكون محقاً. أظن أن هذا المكان سيكون جميلاً جداً لولا المطر الكثير. لا يمكن أن تمطر هكذا يومياً... في أوقات كهذه، أتمنى لو كان السيد كانو هنا».

«هل ستستدعينه من حادس[1]؟»

«لو ذهبت لدعوته ولم أرجع لارتحتَ أنتَ. أليس كذلك؟»

«سأرتاح، لأن هناك نساء في كل مكان».

«ها. هكذا ينظر الرجال إلى النساء، يعتقدون أنه بإمكانهم استبدال أي امرأة مهما كانت رائعة. السبب في ذلك الاختلاف الكبير بين النساء والرجال. من المحزن أن أسمعك تقول هذا».

«إذا كان يحزنك هذا، فعليك إذاً أن تتماثلي للشفاء بسرعة. تعافي وواجهيني بأعتى أسلحة المرأة».

(1) حادس هي مثوى الأموات في الميثولوجيا اليونانية.

«ها قد عدت مجدداً لقول أشياء مقيتة. لطالما كان لسانك يقطر سماً. لكن لو سمعتك امرأة من أعضاء الاتحاد النسائي لغضبت منك كثيراً».

«عضواً في الاتحاد النسائي؟ لا أعتقد أن أعضاء الاتحاد النسائي هم من النساء بالتحديد. لقد نسيت وجود أناس مثل هؤلاء».

أيقنت يوكيكو بأن توميوكا ينظر إلى المسألة على هذا النحو وغضبت جداً، لكنها مدت يدها من صدرها محاولة الإمساك بيد توميوكا.

63

لم يكن بإمكانهما البقاء في الفندق إلى الأبد، ولذا أُخذت يوكيكو على نقالة إلى السكن الرسمي في فترة صحو من اليوم الرابع، ووقف سكان الجزيرة يحدقون بالنقالة المحمولة تمر بهم متسائلين عما كان يحدث. وعندها رأت يوكيكو الشمس ترسل أشعتها من أعالي السماء الزرقاء بعد غياب طويل، ونظرت إلى قطرات المطر تلمع تحت أشعتها على الأشجار والنباتات الكثيفة على الجانبين. كان ضوء الشمس مبهراً جداً لدرجة يستحيل عندها النظر إليه مباشرة، وبدا لون السماء أزرق دافئاً ولا يوحي أبداً بسماء الشتاء.

حُملت النقالة عبر طريق متعرج، في أثناء ذلك فتحت يوكيكو عينيها في مكان لم يكن فيه حس أنس، وشاهدت دجاجة تقرقر بصوت خشن وتهرب إلى داخل كوخ. كانت المنازل قليلة وبالكاد تكفي لتشكيل ما يمكن أن يسمى بالقرية وتميزت جميعها بوجود مظلات مطر مفتوحة قليلاً فقط. كان ذلك يشبه تماماً القرى الأنامية في الهند الصينية. جالت يوكيكو بنظرها من حولها محركة رأسها إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة أخرى... جميع مظلات المطر مغلقة الآن. وصلوا أخيراً إلى ممر من الأشجار الكبيرة التي تشبه أشجار التين، وعندها سمع صوت توميوكا ينادي: «أوه، شكراً جزيلاً لكم». انفتح باب المدخل محدثاً

صوت صرير، وأدخل الحمالون النقالة إلى المنزل متعثرين بخطاهم. كانت البقع تملأ ألواح السقف، فيما تم حشو الصدوع في الجدران الخشبية بأوراق الجرائد. فتحت يوكيكو عينيها متساءلة، هل هذا هو السكن الرسمي؟

كانت الأرضية مغطاة بحصر تاتامي هزيلة ممزقة لا حواشي لها، ووضع عليها فراش قطني مخطط جميل، من أين حصلوا عليه؟ ومُدَّت البطانية التي اشترياها من كاجوشيما على الجزء السفلي من الفراش، فيما أخذ إبريق شاي جديد من الألمنيوم ينفث سحب البخار وهو يغلي على الموقد المحمول.

كان توميوكا سيغادر في ظهيرة ذلك اليوم إلى الجبال في عربة خفيفة لينام هناك ويعود في مساء الغد. ولذا فقد طلب من أرملة توفي زوجها في الحرب ولها طفل واحد أن تعمل لديهم مدبرة منزل، وبهذا تعتني بيوكيكو في أثناء غيابه.

تناول توميوكا وجبة الغداء التي أحضرت من الفندق، وارتدى حذاءه استعداداً للانطلاق إلى الجبال، وغادر المنزل وهو يرتدي قبعته المطرية ومعطفه المتسخ ويضع حقيبة متجعدة على ظهره، وبدا أنه من موظفي الغابات الخبراء بمثل هذه الاستعدادات. ثم جاء نوبوريتو لاصطحابه مرتدياً ثياب تزلج ومتخذاً كل الاحتياطات التي تحميه من عوامل الطقس. غادر توميوكا مع نوبوريتو بعد أن أعطى تعليماته إلى مدبرة المنزل. كان الطقس رائعاً على غير العادة تماماً.

«يندر أن تمر علينا أيام جميلة مثل اليوم. الجو ينعش الروح. سيدتي هناك البعض من عصيدة الأرز، أتودين الحصول على القليل منها؟»

كان لون مدبرة المنزل شاحباً، وعيناها متوعكتين غير صافيتين، ربما كانت تعاني من ديدان في الأمعاء. كان اسمها تواوي نوبو، وقالت إن زوجها قد استشهد في الحرب قبل تسع سنوات.

لم تكن لدى يوكيكو أي شهية لتناول الطعام. نظرت إلى السماء الزرقاء عبر شقوق المظلة المطرية، وساورها الاكتئاب بسبب دعابة توميوكا عندما قال إن النساء موجودات في كل مكان، وأيقنت داخلياً أن ذاك الرجل يستطيع أن ينساها ويعيش دونها بسهولة. لكن حتى هي نفسها لن تعيش لسنوات عديدة. سمعت

صوت هديل يمامة على الجبل القريب، ونظرت عبر شقوق المظلة المطرية وبدا لها سفح الجبل الأرجواني المحفور مثل سطح صخرة منحوتة.

سألت يوكيكو: «هل تبعد كوسوجيتاني كثيراً من هنا؟»، فأجابتها نوبو: «نعم، تحتاج المسافة إلى هناك لساعتين ونصف، وإلى جبل تاشو لساعة واحدة فقط. لكن يقال إن هناك الكثير من الثلج في كوسوجيتاني الآن، قد يشعر زوجك بالبرد هناك».

وكوسوجيتاني هي منطقة حصاد غابات تقع على ارتفاع سبعمائة متر عن سطح البحر تقريباً تنخفض فيها درجات الحرارة لتصل إلى ست عشرة درجة مئوية وتظل مغطاة بالثلوج خلال الفترة الممتدة بين ديسمبر ومارس.

تتكون المنطقة من سلسلة من الجبال الشاهقة الوعرة التي تتناوب عليها في خلال اليوم موجات من الطقس المعتدل والغائم والماطر، وهي تقع في مسار الأعاصير، وكانت الأمطار الغزيرة تهطل على جزيرة ياكوشيما على مدار العام. ولذا فقد خيم الفقر والعوز على اقتصاد القرية بسبب عدم التمكن من مواصلة ممارسة الأعمال والأنشطة على الشواطئ، وظلت مصادر الدخل الرئيسية للجزيرة تأتي من الغابات وصيد السمك الطائر الذي يتوافر في مايو وزراعة البطاطا الحلوة وقصب السكر.

على الرغم من شهرة ياكوشيما بأشجار أرز الياكو، إلا أنه لم يكن ممكناً استخدام الأنهار لنقل الأخشاب إلى المصبات، بل كانت جميعها تنقل بواسطة العربات الخفيفة على السكة الحديدية. لم تكن أخشاب أشجار الأرز المشبعة بالمطر والضباب على مدار العام تطفو على الماء أبداً، ربما بسبب سنوات عمرها الطويل. فلو سقطت قطعة منها في البحر في أثناء تحميلها على القارب، تظل جاثمة في قاع المياه بثقلها الذي لا تستطيع أية قوة أن تزحزحه.

«الطقس دافئ هنا. هل يهطل الثلج كثيراً؟»

«نعم. في كوسوجيتاني يمكنك ممارسة التزلج حتى شهر مارس».

«هل ذهبت إلى هناك؟»

«لا، وصلت فقط إلى جبل تاتشو».

فجأة أصبحت السماء داكنة ولف الضباب قمة الجبل. شعرت يوكيكو بكآبة لا توصف وهي تراقب هذا التحول، فذلك ليس بالمنظر الذي يستطيع إنسان مثلها أن يحتمله طوال الوقت. وكذلك بدا لها منظر البقع المنتشرة على السقف وشقوق الجدار الخشبي المحشوة بورق الجرائد مزعجاً، خصوصاً بعد أن اعتادت على حياة الرفاهية لفترة. وفكرت أنها لو عادت إلى طوكيو، لاستطاعت العودة إلى كل مزايا الحضارة. لكن ماذا عن حياتها في سقيفة التخزين في إيكبوكورو؟ ثم تذكرت الموعد الأخير مع جو، الجندي الأميركي.

حبيبتي الغالية، لقد ذبلت الوردة

لكن تلك الوردة التي كانت يوم أمس

تشرق وتتألق بلونها اللازودي

أصبحت اليوم ذكرى جميلة

تعيد إلي أيامي الماضية معك.

كان المذياع الذي اشتراه لها جو يبث هذه الأغنية، وعندها حدق توميوكا فيه وطلب منها أن تدعه يستمع إلى الموسيقى الراقصة، لكنها أدارت قرص المذياع عمداً إلى برنامج محاكم جرائم الحرب، وسمعا المترجم يقول فيه:

«ما هي الأفكار التي راودتك في ذلك الوقت؟»

كان المترجم الأميركي ذو الأصل الياباني يصوغ جمله بلطف وأدب بلغة يابانية تشوبها لكنة الأميركية. لكن عندما تدفق الكلام من المذياع، شعر توميوكا بألم يعتصر قلبه، وأزعج يوكيكو بطلب الاستماع إلى موسيقى الجاز الأميركية، فقالت بغضب: «أنا وأنت معنيان أيضاً بهذه المحاكمات. وأنا كذلك لا أريد الاستماع إليها. لكن عندما أفكر أن هناك أشخاص تجري محاكمتهم فعلاً، أشعر أن علي أن أصغي إلى الحقائق المتعلقة بالحرب».

شعرت يوكيكو وكأن عشر سنوات قد مرت على معرفتها بجو، وظنت أنه يمكن أن يكون قد عاد إلى وطنه الآن. لم تكن كلماتهما كافية، لكن جسديهما

أدركا حقيقة ما يدور في خلديهما من مشاعر. عندما علق توميوكا على علاقتها مع جو بسخرية، ردت عليه يوكيكو بقولها: «أنت أحببت نيو في الهند الصينية».

لقد ألهبت هذه الأفكار حنين يوكيكو إلى الماضي. كانت علاقتها مع جو محاطة ببريق لا يضطر معه كل منهما للبحث في نفس الآخر. تذكرت أن تلك العلاقة تميزت بارتياح نفسي كان تشتته أحياناً جدية اللغو حول المسؤوليات ورسميته.

64

ركب توميوكا العربة إلى جانب المهندس، وأحس بجسمه وكأنه معلق في الهواء. انطلقت العربة على السكة الحديدية الضيقة في طريقها إلى أعلى الجبال محدثة صوت هدير هائل، وفي الأسفل تدفقت مياه نهر آبو الزرقاء الصافية الرقراقة نحو أعماق الغابات الكثيفة. انزعج توميوكا من بطاقات العمل المحشوة بجيب قميصه بعد أن طبعت اليوم وكتب عليها منصبه على أنه مسؤول فني. نظر المهندس إلى توميوكا ببعض الاستغراب وقال: «أليس لديك سجائر؟»

في الأسفل كان هناك جرف منحدر تكثر فيه نباتات تشبه السراخس لم يألفها توميوكا ويطلق عليها اسم هيجو. لقد انتشرت في المناطق الداخلية من دالات نباتات مماثلة شبيهة بالسراخس، وكانت تبدو مثل سراخس الشيطان التي تنمو في اليابان. أشعل توميوكا سيجارة ونقلها إلى أصابع المهندس الذي كان يمسك بقبضة التحكم بدفع العربة.

على الضفة اليمينية للنهر كانت قرية آوا التي أخذت تتوارى خلف الأشجار شيئاً فشيئاً. بدت عربات السكة الحديدية وكأنها تتسلل عبر الهواء. جرت القاطرة أربع عربات مكشوفة محملة بأكوام من أكياس الأرز والخضار والبريد وسمك البركودا المملح، وجلس فوقها خمسة أو ستة من الرجال الذين يعملون

بقطع الأخشاب في وزارة الزراعة في جزيرة ياكوشيما، وقد بدا عليهم الشعور بالبرد. وكذلك ركب معهم في الخلف نوبوريتو وراح يتحدث إليهم بصوت مرتفع. بلغت مساحة الأراضي التي تقع تحت سلطة مكتب الغابات نحو عشرين ألف هيكتار، كلها أراضي غابات حكومية، وهي مساحة صغيرة لا تساوي مساحة الأراضي الخاصة التي يملكها أشخاص بمفردهم في الهند الصينية. لكن حتى هذه المساحة الضئيلة من الغابات على الجزيرة الصغيرة كانت تمثل ثروة ثمينة بالنسبة إلى اليابان في ظروفها الحالية بعد خسارة أراضيها. ففي هزيمتها في الحرب خسرت اليابان كوريا وتايوان وجزر ريوكيو وساخالين ومنشوريا، وقد تراجعت أراضيها لتشمل الجزر الأربع الرئيسية فيها، وبات عليها حالياً إطعام عدد كبير من السكان باستغلال كل شبر من أراضيها، إن جاز التعبير.

«قد يكون الجو بارداً في الجبال».

«سمعت أن جميع أنحاء البلاد قد شهدت هطول كميات كبيرة من الثلوج هذا العام. لكن الجبال بالتحديد قد حظيت بثلوج كثيرة. الجميع يقولون إن هذا أمر غير عادي».

«جئتَ مستعداً للشتاء».

«على المرء أن يرتدي الملابس المناسبة عندما يذهب إلى الجبال».

«كم يبلغ امتداد الجزيرة بين الشرق والغرب؟»

أجاب المهندس بلهجة عسكرية: «حسناً، يقال إنها تمتد على مسافة خمسة عشر ميلاً بين الشرق والغرب، ونحو سبعة أميال ونصف بين الشمال والجنوب. تبعد الجزيرة عن كاجوشيما بمسافة سبعة وتسعين ميلاً. الطقس دافئ في قرية آوا، لكنه بارد جداً في الجبال».

بدأت بقع التربة الحمراء الواسعة المنتشرة على السلسلة الجبلية إلى اليسار تغيب عن النظر، في حين أخذ رتل العربات يشق طريقه بصعوبة نحو قمة الجبل. وكان هواء الزفير ينطلق من الأفواه أبيض اللون.

عند قمة الجبل بدأت غيمة مطرية سوداء داكنة تلف الجبل كغطاء متدلي

الأطراف، وبدأت قطرات المطر الكبيرة تهطل. عندها نظر توميوكا إلى الوراء ورأى المسافرين في العربات المكشوفة يرتدون معاطفهم المطرية ويفتحون مظلاتهم. ثم وصلوا إلى قمة تاتشو، فتوقف القطار وكان المطر يهطل بغزارة، ولذا كان عليهم تغطية العربات بالقماش المشمع. عندها أصبحت برودة الطقس قاسية جداً. لما جاؤوا إلى كوسوجيتاني عند المساء كان المطر يهطل ممزوجاً بالثلج. بدا الجبل مظلماً تنمو فيه أشجار الأرز الفارعة بكثافة، وانتشرت فيه مجموعة من الأكواخ في منطقة قطع الأشجار.

أسرع توميوكا بالدخول إلى مكتب الغابات وتدفأ عند الموقد. كان هناك فانوس معلق في السقف، ولسوء الحظ علموا أن هناك انقطاعاً في الكهرباء في ذلك اليوم. قدمه نوبوريتو إلى الموظفين هناك، فقال رئيس المكتب ساكاي، وهو رجل كبير في السن أشيب الرأس: «في الماضي كان جميع العاملين تقريباً كوريين، لكنهم الآن جميعاً يابانيون ممن عادوا من مانشوريا وكوريا. كانت تصلنا إلى هنا خمس نسخ من الصحيفة الشيوعية «العلم الأحمر». حتى على هذه الجزيرة أصبحت هناك ديمقراطية نوعاً ما. لقد أصبحت الظروف صعبة. فالعالم قد تغير، تغير تماماً. إنه الآن أكثر حيوية ونشاطاً. فالجميع يتحدثون بأعلى أصواتهم. لم يعد هناك حاجة إلى وجودنا نحن المسنين في هذا الجبل. حتى أنت يا توميوكا لا ينبغي لك أن تقوم بقطع الأشجار، عليك أن تصبح خطيباً سياسياً».

قال ساكي المسن هذا وابتسم، ثم أخذ سيجارة من توميوكا وأشعلها من الموقد. ازدادت العتمة وراء الباب الزجاجي وتدلت الكتل الجليدية من الحواف الناتئة المنخفضة.

65

وصل الطريق المغادر من وسط سايغون إلى منطقة تدعى كيادن يتمركز فيها الكثير من الجنود اليابانيين. عند السفر من كيادن إلى بينهوا يجتاز المرء حقول قصب السكر وبساتين الفاكهة وجوز الهند ونخيل القوفل المتألقة إلى جانب العديد من القرى الصغيرة. كما يمر الطريق فوق جسرين حديديين طويلين يمتدان فوق نهر دوناي، ثم يجتاز منطقة بينهوا الجميلة. في تلك المنطقة التي كانت قد تعرضت مؤخراً لغارة جوية دمرت خلالها محطة الطاقة أمضى توميوكا وكانو ويوكيكو ليلة في فندق فرنسي صغير يدعى «ميزون بواسون» يحمل لافتة عليها صورة لذيل سمكة كبير فقط. كما نزل في الفندق أيضاً مجموعة من الجنود اليابانيين. تناول الثلاثة عشاءهم وهم يصغون لتغريد طائر بري غريب في الحديقة المظللة ذات الأرضية الخضراء الرطبة التي أزهرت فيها أشجار اللهب وفاح فيها عبق الزهور. في أثناء ذلك أخذت يوكيكو تداعب قدم توميوكا بطرف حذائها الأبيض تحت الطاولة الخشبية. في تلك الليلة الخانقة كان من الصعب على المرء النوم وسط صدى نقيق الضفادع الغريب المنبعث من مسافة بعيدة.

سمعت يوكيكو صوت مفتاح يدار خلسة خارج غرفتها التي سادها صمت مطبق. ثم انفتح الباب، وشاهدت شبح توميوكا الطويل قرب الضوء في الخارج،

ثم اختفى بعد ذلك في الظلام. أصدرت يوكيكو عن عمد صوت أزيز خفيف بمروحتها من داخل الشبكة التي كانت تحميها من البعوض. وكان فما يوكيكو وتوميوكا يعبقان برائحة الخمر التي شرباها سابقاً في الحديقة. نظرا إلى بعضهما في الظلمة بصمت دون أن ينطقا بكلمة واحدة، ولمعت في عينيهما رغبة شهوانية جامحة، فعبرا عن حبهما السري ببلاغة وصمت بعيداً عن أجواء الحرب. ثم أجفلهما سماع صوت سقوط فاكهة من الشجرة خارج النافذة للحظة. لقد غزت ذكريات تلك الليلة الهادئة في الفندق الذي تحتضنه جبال بينهوا أحلام يوكيكو، وأخذت تشعر وكأنها تهوي إلى أسفل بئر. فهي مازالت حتى الآن تتذكر، عندما تركز قليلاً، إحساسها بشعر توميوكا الكث ورائحة عطره في راحة يدها.

في صباح اليوم التالي، انطلق الاثنان وبكل براءة برحلة وعرة من دوجياي عبر تقاطعات الطرق في جيرين مسافة أربعين كيلومتراً على الطريق الضيق. جلست يوكيكو مع كانو في الخلف، في حين جلس توميوكا في المقعد المجاور لكرسي السائق الأنامي. كان مزاج كانو معكراً. شقت السيارة طريقها مسرعة إلى أعلى جبال جيرين عبر بساتين أشجار المطاط القديمة التي شكلت نفقاً أخضر تخترقه أشعة الشمس القوية والحارة. توقفت السيارة فترة قصيرة عند محطة لأبحاث الغابات في تورانجوبومو، ودخل توميوكا وكانو للقيام بمهمة عمل، ثم واصلت السيارة طريقها مسرعة على الطريق المتعرج في منطقة غابات غريبة وخطيرة تنمو فيها أشجار التين مكونة تجمعات مظلمة. وتحدث السائق الأنامي عن احتمال التعرض لهجوم الفيلة التي تخرج من وسط الأجمة في تلك المنطقة.

ابتسمت يوكيكو في منامها ابتسامة ساخرة وواصلت أحلامها. فمرحلة ربيع العمر تلك لن تعود إليها مجدداً. لا تستطيع الأشياء أن تعود كما كانت من قبل. فها هي قد جاءت مع توميوكا إلى جزيرة ياكوشيما الواقعة في أقصى الجنوب، لكنهما أصبحا الآن أكبر سناً. أصغت يوكيكو إلى صوت خشخشة المطر يطن في أذنيها كصوت هبوب رياح وسط بحر من الغابات. شعرت كما لو أنها كانت في

طوفان نوح، وكما لو أن المنزل نفسه قد غرق. أغلقت عينيها واستطاعت سماع صوت نبض قلبها بوضوح يسري في عضلاتها وأعصابها وجلدها. كان النبض يتوقف لفترة قصيرة بين الحين والآخر ثم يعود من جديد. عندما وضعت أذنها على الوسادة، تردد صوت دقات قلبها مثل صوت وقع أقدام.

كان المطر مزعجاً جداً وغزيراً لدرجة يشعر معها المرء برغبة في محاربته بالسيف. مددت يوكيكو ساقيها وذراعيها قدر استطاعتها، وتساءلت عن حجم الكفن الذي ستحتاجه. ثم حاولت في سرها تكريس طاقة جسدها كاملة لانتظار عودة توميوكا الذي غادر إلى الجبل قبل يوم.

لم يتكرم هيكا بالمجيء لزيارتها. ولسبب ما شعرت يوكيكو برغبة في إرسال رسالة إلى شيزوكا، ففكرت في البداية بكتابة رسالة إلى زوجة أبيها، لكنها غيرت رأيها بسرعة. لم تبد مدبرة المنزل تاواي نوبو على استعداد لتكلف نفسها عناء إعداد الطعام ليوكيكو، وكانت أقصى حصيلة لجهودها تسفر عن تقديم عصيدة أعشاب البحر سيئة المذاق وحبة واحدة من الخوخ المخلل ومن حين إلى آخر بيضة نيئة تترقرق فوق طبق. سيطرت على يوكيكو فكرة أن يكون توميوكا متواطئاً مع تاواي نوبو هذه، وشعرت أن عليها التخلص من هذه المرأة وساورها إحساس بأنها قد تقتلها.

كانت يوكيكو ترفع نظرها بين الحين والآخر لترمق تاواي نوبو التي كانت منكبة على قراءة كتاب في يدها، وقد بدت بشرتها في منطقة الصدر والفكين جميلة ولامعة وجذابة. لا بد أن تكون تاواي امرأة قوية الإرادة إذ تمكنت بعد أن فقدت زوجها في الحرب من مواصلة حياة الوحدة مدة تسع سنوات. تساءلت يوكيكو عن الكتاب الذي كانت تقرأه تاواي، وأرادت بالفعل أن تسألها عن عنوانه، لكنها لم تمتلك الطاقة الكافية لتتكلم. أرخت يوكيكو يديها فوق البطانية وأخذت تحدق بهما، وفي أثناء ذلك راودها شعور بأنها ستدرك نهاية حياتها وهي على هذه الحال. وضعت تاواي نوبو الكتاب من يدها وتوجهت إلى المدخل. كان الكتاب دليلاً قديماً عن الطب المنزلي كان توميوكا قد استعاره من الفندق في

آبو. سادت أجواء الرطوبة والمطر في ذلك اليوم فحجبت جبل ياي عن الأنظار. لفت بياض كعبي قدم تاواي نوبو الحافيتين في أثناء خروجها إلى المدخل انتباه يوكيكو. جميع النساء في تلك المنطقة يمشين حافيات الأرجل وتتميز كعوب أقدامهن بالجمال الفائق، ربما يكون ذلك بسبب كثرة مشيهن على الرمل الناعم. حتى أنهن لا يزعجن أنفسهن بغسل اقدامهن أولاً قبل الدخول إلى المنزل، بل يدخلن مباشرة بما هي عليه حالهن.

ظنت يوكيكو أنها إذا ماتت بهذه الطريقة فإن توميوكا سيتزوج تاواي نوبو ويستقر هنا. كان لديها حدس بأن هذا ما سيحدث في المستقبل. وبينما كانت تتخيل الطريقة التي سيجتمع فيها الاثنان معاً، سعلت بشدة وأخرجت كتلة لزجة من أعماق صدرها، ثم تقلبت في الفراش وهي تشعر بآلام صدر تقطع أنفاسها. وضعت يديها على فمها وأنفها، لكن سيلان القيء اللزج لم يتوقف.. ولم تتمكن من التنفس.. ولم تستطع الصراخ.. وتلطخت البطانية والجزء السفلي من الفراش والوسادة بالدم المتخثر.

ظنت يوكيكو أنها ستموت وهي على تلك الحال. وجلست الذات الأخرى الباردة المنفصلة إلى جانب يوكيكو متشبثة بكل قوتها بإله الموت. كان إله الموت يقف أمامها يرقص رقصة الانتصار، فكل شيء بدأ يغادر جسد تلك المرأة. وسط الأفكار التي كانت تراودها، شعرت يوكيكو أنها كانت تسمع كانو يناديها بصوت ضعيف، فهزت رأسها بوهن. لم تشعر بأسف وندم على شيء واحد في حياتها. وحتى لو كان توميوكا يجلس بجوارها فإنه لن يتمكن من إيقاف القطار الذي كانت هي المسافرة الوحيدة على متنه وهو ينطلق مسرعاً بها نحو العالم السفلي. من أين جاء فناء الجسد السريع هذا الذي أخذ يجتاح جسدها الآن محدثاً هدير الدمار؟ أرادات يوكيكو أن تعرف موعد بدء موتها بالتحديد. أخذت تلهث بألم ورغبت في الحصول على بعض الماء. تراءت في مخيلتها ذكريات عشوائية من رحلتها الطويلة عندما كانت بصحة جيدة، ثم شعرت وكأن دمها قد أصبح لزجاً وأخذ يتدفق إلى رئتيها. كان هناك شخص ما، شبح ما يومض

إلى جانب وسادتها، انزعجت يوكيكو ورفعت وجهها الملطخ بالدماء في محاولة لتجنبه، لكن الشبح ظل يومض مصحوباً بتوهج ضوء قاتم عبر جبينها.

كان الحكم الإلهي الذي نزل على نوح ولوط يقترب مجلجلاً مع صوت المطر، ووسط هديره الغائر، رأت يوكيكو صورة امرأة حزينة ضيعت حياتها دون أن تحظى بحب أحد. لم يكن هناك من سبيل الآن لإصلاح جانب الفشل هذا في ذاتها. ما الذي أسفرت عنه تلك الذات؟ كانت يوكيكو مرهقة جداً إلى درجة لم تعد تستطيع معها حتى استعادة ذكريات الهند الصينية، فدفعت بكتل الدم اللزجة في حلقها وأخذت تئن أنين إنسان يدفن حياً... أريد أن أعيش. لم تشأ أن تموت، كان فكرها صافياً وبارداً كالثلج، لكن جسمها أصبح خارج نطاق سيطرتها.

66

هطل المطر غزيراً لدرجة غير طبيعية في أعالي الجبل، لذا أجل توميوكا عودته إلى البلدة ليوم آخر، فجلس في المكتب يتدفأ بالقرب من الموقد ويشرب بعض الساكي المصنوع من البطاطا الحمراء برفقة خمسة أو ستة من العاملين هناك. لم تكن لديه الشجاعة للعودة إلى سكنه في البلدة، وأقنع نفسه بأنه ليس هناك ما يثير القلق فيما يتعلق بحال يوكيكو. استمر في شرب الساكي، فثمل، وتمكن من التخلص من همومه.

اعتقد توميوكا أن شكل هذا الجبل يشبه شكل المعبد البوذي في وسط أنجكور توم في الهند الصينية، وأخذ يتحدث للآخرين عن تلك الفترة، وقال:

«هناك برج شاهق يجسد وجه إنسان على صخور الجبل. لقد بدأت أعمدة الغرف الحجرية تنحني كما أخذت الدعامات الحجرية تتهاوى. وفي الساحات الأمامية لهذه الآثار الجبلية، تحظى الجدران المتبقية الآيلة للسقوط بدعم الأشجار الكبيرة التي تشبه إلى حد كبير أحافير أشجار الأرز هنا. كما تقام في القصر الملكي طقوس تدعى «لينجا» أو ما شابه ذلك يتم فيها تقديس الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية في وضع الجماع بوصفها رمزاً للإله سيفا[1]... إن الحضارة تتطور

(1) سيفا هو إله الدمار والانبعاث عند الهندوس.

باستمرار وبطرق عديدة، لكن هذه الطبيعة المقدسة التي يتمتع بها سيفا هي أقصى ما يمكن أن تصل إليه حضارة البشر. من المحتمل حتى أن تكون القنبلة الذرية قد أنتجت بفضل أسرار هذا الكائن السامي، سيفا»...

انجذب جميع العاملين للحديث، واستمروا في إحضار زجاجات الساكي من الإبريق الذي يغلي على الموقد في أثناء إصغائهم لذكريات توميوكا.

أصبح توميوكا الآن معتاداً على رائحة ساكي خمير البطاطا الحلوة الذي بدا طيب المذاق على غير المتوقع، كما لم يكن تأثيره يصل إلى الرأس، وذلك خلافاً للكحول الرديء الذي كان يشربه في طوكيو. وقد تحول الحديث بعد ذلك إلى النساء. ضحكت المرأة العجوز والفتيات الشابات اللواتي كن يخدمنهم وهن يقطعن الحبار إلى شرائح ويسكبن صلصة الصويا على السمك الجاف. شعر توميوكا بالثمل ولم يعد قادراً على سماع تكات عقرب الثواني عندما يضع ساعته على أذنه. كما أنه لم يعد قادراً على تحمل مشاعره دون ثمل. إنها مشاعر الجسد وليست مشاعر الروح تلك التي لم يعد يحتملها. لمعت عيناه لدى رؤية اللحم الأبيض المكتنز عند معصم الخادمة القصيرة. لم يكن توميوكا قد لمس جسد امرأة منذ فترة لا بأس بها، ولذا فقد دغدغ قلبه منظر رقبة الفتاة الثخينة ووركاها الممتلئين وكاحلاها وكعبا قدميها وأصابعهما ذات اللون المائل إلى البنفسجي. كانت الفتاة ترتدي بنطالاً واسعاً كحلياً مع تمشيحات بيضاء وسترة خضراء. تباطأ هطول الثلج على الجبال، وأصبح برد المطر المتجمد يلسع وجنتي المرء عند خروجه للعراء. في تلك الظروف الجبلية الباردة كانت الفتيات يركضن مسرعات في رحلاتهن القصيرة بين الأكواخ حافيات دون أن يرتدين حتى جوارب في أقدامهن. أثار جسم الفتاة المتزن والحيوي الألم في نفس توميوكا، وتمنى لو لم يكن هناك أحد حتى يدفع ساقيه نحو ساقيها ويثبتها على الأرض. لم يساوره هذا الشعور منذ زمن بعيد. كان وجه الفتاة يشبه وجه سايكو تقريباً. فكر توميوكا بأن الماضي قد تحول إلى رماد بعد أن قطع كل هذه المسافة الطويلة ليصل إلى هنا. تسلق إلى سريره في السقيفة وكان مكوناً من ثلاثة طوابق ويشبه تماماً الرفوف التي

تستخدم عادة لتربية دود القز، فخلع سترته الجلدية واستلقى على البطانية. وظل صوت ضحكة الفتاة اللعوب يطن في أذنيه باستمرار.

استيقظ توميوكا نحو الساعة الخامسة متمنياً لو تمكن من الحصول على بضع ساعات نوم إضافية، ثم لاحظ أن أحدهم قد أضاء الفانوس، وسمع صوتاً يناديه من الطابق السفلي. نظر توميوكا عبر الدرابزين، فأخبروه أن هناك مكالمة هاتفية له من البلدة، وأن زوجته في حالة خطيرة. ارتدى توميوكا سترته ونزل درجات السلم، ثم انتعل الحذاء الجبلي الذي كان بالقرب من الموقد.

«هل هناك عربة متوجهة نحو الأسفل؟»

قال المشرف الكبير في السن: «نعم، عليك النزول بسرعة. سيقلك أحدهم بالعربة».

في الخارج كان الظلام مطبقاً، والفوانيس تضيء في جميع أكواخ الجبل. تحول المطر في مرحلة ما إلى ثلج. وضع توميوكا وشاحاً أعطته إياه الفتاة فوق قبعته المطرية ولفه حول خديه ورقبته أيضاً، ثم ركب العربة التي كانت بطول حصيرة تاتامي وعرضها. جلس توميوكا القرفصاء في العربة بين طالب كان يتوجه إلى البلدة بهدف العودة إلى كاجوشيما على متن سفينة ستصل إلى الجزيرة في اليوم التالي وحطاب شاب أخذ يتولى التحكم بالعربة. وفي الوسط تناوب توميوكا والطالب على حمل المصباح اليدوي المعدني الذي كان يضيء للحطاب حتى يتمكن من تشغيل أزرار التحكم.

أسرعت العربة على الطريق الجبلي المنحدر مصدرة صوتاً كهدير الرعد، وأخذت ترتفع بين الحين والآخر عن خط السكة الحديدية. خفض الحطاب الشاب من سرعته وقال محذراً رفيقيه: «إن المسار هنا منحدر جداً». انتشر ضوء المصباح اليدوي المعدني على طول السكة الحديدية في الوادي المظلم. كانت الرؤية معدومة كلياً، وفي بلدة آوا واجههم مطر عاصف.

وصل توميوكا إلى منزله في الساعة العاشرة، وهناك علم أن يوكيكو قد توفيت، وأن سبعة أو ثمانية أشخاص غير معروفين له أو ليوكيكو قد شهدوا

اللحظات الأخيرة في حياتها. حيا توميوكا الحاضرين، وجلس بجانب وسادة يوكيكو، وأخذ يحدق بوجهها تحت ضوء الفانوس. طلب أحد الحضور من توميوكا أن يخلع سترته المبللة بالمطر. لم تكن يدا يوكيكو مردودتين على صدرها. لذا قام هو بردهما معاً بهدوء، تماماً كما فعل لزوجته كونيكو. كانت يداها قد بدأتا تتصلبان وقد تلطختا بالدم الجاف. يبدو أن مدبرة المنزل قامت بتنظيف الوجه فقط. امتلأت عينا توميوكا فجأة بالدموع وهو يحدق بالدم على يدي يوكيكو. لقد عاش تجربة موت سايكو، ثم موت كونيكو، وها هو يشهد الآن موت يوكيكو. وفجأة أخذ يهز جسدها بعنف، لكن دون فائدة. عندها غادر العديد من الحضور، وسمعهم في الخارج تحت النافذة يفتحون مظلات الورق الزيتي وينطلقون عائدين إلى منازلهم.

«متى بدأت حالها تسوء؟»

لا تعرف تاواي نوبو بالضبط متى بدأت حال يوكيكو تسوء. ففي ذلك الوقت كانت منهمكة بقراءة الدليل الطبي، لكنها لا تتذكر أي فصل منه بالتحديد. فقد بدأت يوكيكو فجأة تحدق بتاواي نوبو وفي عينيها تعابير غريبة تشير إلى أنها كانت تدرك حقيقة كل الأشياء. كانت تاواي نوبو حاملاً، ولكنها لم ترغب في إنجاب الطفل، وهكذا أخذت بالصدفة الدليل الطبي الذي وجدته بالقرب من وسادة يوكيكو، وكان يصف عدة طرق قانونية للإجهاض. كانت مستغرقة في التفكير وحساب تكاليف الذهاب إلى كاجوشيما لرؤية ذلك الطبيب. وعندما نظرت ثانية إلى يوكيكو فوجئت بحالة وجهها المرعبة. كانت مذهولة وخائفة، فالمرأة على السرير لا تشبه يوكيكو، لذا ركضت هاربة تحت المطر الغزير إلى منزلها.

حاولت تاواي نوبو أن تقدم قصة معقولة يمكن تصديقها، لكن توميوكا أدرك أنها ملفقة، غير أنه استسلم للأمر لإدراكه بأنه لم يعد باليد حيلة بعد أن وصلت الأمور إلى هذه المرحلة. كأن يوكيكو قد جاءت إلى هذه الجزيرة لتموت. طلب توميوكا من الجميع مغادرة الغرفة، وأراد أن تبقى نوبو فقط. لكن نوبو بدت غير مرتاحة لبقائها، لذا تركها تذهب في حال سبيلها.

كان من الواضح أن يوكيكو قد عانت الكثير، فبقع الدماء المنتشرة على جسمها لفتت نظر توميوكا الذي كان منهكاً تماماً، فقام بحمل بعض الماء الذي كان يغلي على الموقد في الغرفة الأخرى إلى حوض معدني وغمس فيه منشفة مسح بها وجه يوكيكو. ثم أخذ قلم أحمر شفاه من حقيبة اليد التي كانت ملقاة دوماً بالقرب من وسادتها، وحاول أن يضع القليل منه على شفتي يوكيكو لكن الأمر كان صعباً بسبب جفافهما. عندما مسح محيط الحاجبين بالمنشفة، انفتح جفناها بالصدفة، وأحس بأن شفتيها تتحركان وكأنهما تقولان له «اتركني وشأني». كان المطر يضرب على السقف الخشبي بشدة إلى حَدّ أحس معه أنه بالكاد يستطيع أن يتنفس. ماذا عليه يا ترى أن يفعل الآن؟ شعر توميوكا بأن صوت المطر يطارده. كانت عينا يوكيكو تلمعان مثل عيني كائن حي، قرب توميوكا المصباح منهما وحدق بهما بثبات فرأى فيهما تعابير التوسل والاحتجاج. أخذ توميوكا مشطاً من حقيبة اليد وسرح شعر يوكيكو الكثيف وجمعه في كعكة. في هذه المرحلة لا تطلب يوكيكو أي رأي من الأحياء، فقد انتهى أمرها وهي على هذه الحال، هذا كل ما في الأمر.

أشارت ساعة توميوكا إلى الثانية عشرة، لم يتباطأ هطول المطر ولا للحظة، وقد ملأ صوته أجواء الليل. أصيب توميوكا بإسهال حاد، فجلس القرفصاء في المرحاض الصغير ذي الرائحة الكريهة وخبأ وجهه بيديه وبدأ يبكي كطفل صغير. ماذا يعني الكائن البشري بأية حال؟ من هو؟ تظل الكائنات البشرية تختفي فجأة من هذا العالم. هل هو من سلسلة أبناء الله أم من نسل الشيطان ورفاقه؟

تدافعت قطرات المطر تطرش عبر نافذة المرحاض المغطاة بشبك معدني فقط. انزعج توميوكا من ألم البطن ورائحة المرحاض النتنة، وشعر وكأنه في الجحيم الأرضي، وأحس وكأنه يريد أن يخرج من جلده.

فكر توميوكا بأن عقابه يكمن في تعذر حياته، هذا الإطار الذي لم يستطع أن يأخذ خطوة واحدة بعيداً عنه، تعذر قاده إلى أرض العذاب. كان موت يوكيكو حادثاً عرضياً، لكنه كان غاية بالنسبة لها، وأحس فجأة بأن تلك الغاية كانت

كئيبة ومثيرة للشفقة. ليس هناك فرق بين موتها هكذا وبين موتها إثر التعرض لحادث اصطدام بسيارة في طوكيو. لكن موتها بعد صراع طويل مع المرض يتيح للمرء فرصة الحلم بشجاعتها في مواجهة الألم. أمسك توميوكا ببطنه وأقفل عائداً إلى الغرفة فلف بطانية حول خصره. لم يكن يعرف حتى ما هو اتجاه الشمال بالنسبة إلى رأس الميت، لكن وسادة يوكيكو قد وضعت بشكل مستو بجانب الجدار، كما وضع فوق اللحاف الجديد مقص مصنوع في تانجاشيما.

على الرغم من أن توميوكا ويوكيكو لم يكن لهما أصحاب على الجزيرة، إلا أن عدداً من الناس الذين تعرفوا إليهم منذ وصولهما قد تكرموا بالاهتمام بموت يوكيكو في أثناء غياب توميوكا. شعر توميوكا باستغراب حيال هذا الموقف. يعاني الناس في أي مكان من العالم من هذا النوع من الكوارث، والمصائب بنظر هؤلاء الأشخاص الذين وقفوا يشهدون مصابه هي جزء من لغز هذا العالم. أحضر توميوكا الساكي الرديء الذي طلب من مدبرة المنزل تاواي نوبو شراءه هذا المساء وسخنه في الزجاجة وشربه بمفرده ويوكيكو مسجاة في الغرفة المجاورة، وهذا ما منحه إحساساً بالبهجة وبنوع من الراحة دينياً.

سيأتي يوم ويؤول به الأمر هو نفسه إلى هذا المصير. لكنه لم يشأ أن يموت مع يوكيكو. بدأت مشاعره تزداد جموحاً مع الشرب، وبدت هذه الهمجية العاطفية نوعاً من الخلاص بالنسبة له. فقد سيطر الثمل على جسمه، وشعر بسعادة لاكتشافه أمراً واحداً يكون شاكراً لأجله في حياته. أحس أن شبح يوكيكو كان يومض بين الحين والآخر في الأجواء الخاوية، فنظر بقسوة إلى الفراش حيث كانت يوكيكو مسجاة صامتة، هامدة تماماً. شعر توميوكا أن يوكيكو كانت هي الوحيدة التي تبعته بإخلاص من النساء الثلاث في حياته. لكنها الآن أصبحت مجرد جثة باردة لا حراك فيها.

مرت ذكرياتهما الماضية في ذهن توميوكا الذي اشتد به الثمل، فقد ظل يشرب الساكي الساخن إلى أن شعر بحرقة في معدته. وقد سرى الشراب بسرعة في جسده لأنه لم يكن لديه ما يأكله، فأخذ يتحدث إلى نفسه.

هبت الرياح القوية، وانطفأت الشمعة التي وضعت بجانب وسادة يوكيكو. فترنح توميوكا وأضاء شمعة جديدة وذهب ليضعها بحانب الوسادة. بدا وجه يوكيكو قناعاً خالياً من أي تعبير، وكأنه نفي بعيداً إلى الوحدة. لم يعد توميوكا يرغب في النظر إلى وجهها، لذا حاول أن يغطيه بيده حتى الجبين. لكن سرعان ما بدا جسد المتوفاة الهامد وكأنه يصد يده. لم يكن لدى توميوكا منشفة جديدة أو شاش، لذا أخذ لفافة من ورق الأرز المعروف، وفتحها لتشكل ستاراً يغطي به وجه يوكيكو.

67

مر شهر على وفاة يوكيكو. أخذ توميوكا إجازة لمدة أسبوع، وذهب إلى كاجوشيما التي بدت عالماً مختلفاً تماماً في بداية فصل الربيع حيث يكون الطقس جافاً تقل فيه كميات الأمطار. في البداية وصل توميوكا إلى الفندق الذي أقام فيه من قبل. في خلال فترة قصيرة فقط تغير جميع أفراد طاقم الخادمات والنادلات في الفندق. أرشدته إحدى الخادمات إلى نفس الغرفة الأمامية التي أقام فيها مع يوكيكو، وبدت له تلك مصادفة غريبة. أراد توميوكا أن يصلح ساعته التي تعطلت بسبب المطر، لذا توجه إلى نفس المتجر التي اشتراها منه، وهناك علم أن صاحب المتجر قد آذى نفسه وأنه يلازم الفراش، وهكذا كان عليه أن يحاول البحث عن مكان آخر. وفي طريق عودته زار عيادة الدكتور هيكا. كان الدكتور هيكا موجوداً في العيادة، وتذكر توميوكا واصطحبه إلى الغرفة التي تعبق برائحة الأدوية. أبلغه توميوكا بوفاة يوكيكو، ومن جانبه قال هيكا أن مرضها قد أثار قلقه وأنه أراد أن يجري فحصاً بالأشعة السينية لصدرها.

لم يشعر توميوكا بالارتياح للقاء الطبيب دون وجود يوكيكو. لقد أُشبع تماماً بالكحول في خلال الشهر الأخير، وأدرك أن وجهه قد تغير كثيراً لدرجة بدا معها وكأنه شخص آخر مختلف. واصل توميوكا تدخين السجائر الواحدة تلو

الأخرى، فعبقت الغرفة بسحب الدخان. أُحضرت القهوة، حمل توميوكا فنجان القهوة المعطرة إلى شفتيه وشعر أنه قد رجع أخيراً إلى الحضارة بعد طول غياب. قال الطبيب: «سأشغل أسطوانة سيمفونية «العالم الجديد» لدفوراك التي كانت زوجتك تحبها كثيراً»، ثم وضع الأسطوانة على جهاز الفونوغراف الذي صنعه بنفسه.

في أثناء استماعهما إلى السيمفونية تساءل الطبيب إذا ما كانت يوكيكو قد دمرت صحتها منذ زمن بعيد دون أن تدري، ثم ابتسم وقال:

«ماذا عنك؟ هل أفحصك أنت أيضاً؟ كنت تكثر من الشراب، أليس كذلك؟»

شعر توميوكا بأن الموسيقى تهدئ نفسه. كان هيكا منشغلاً بمناسبة اجتماعية ذلك المساء، فوعده توميوكا بأن يعود ثانية وغادر العيادة. لكن لم يكن لديه مكان يذهب إليه. حتى حنينه في تلك الجزيرة النائية تجاه هيكا كرجل يسلك طريقاً خاصاً بالحياة وينسج زخرفة لا يطيق أن يتدخل أحد فيها قد برد قليلاً الآن. إنه طبيب شريف ومنظم. ليس هناك حدود لاهتمام المرء بنفسه. اقترب من مكتبة تبيع الكتب المستعملة وشعر برغبة في شراء رواية ليعود ويقرأها. فكر في الحصول على رواية لزولا[1]. تذكر أن موظفة الطباعة المختلطة الأعراق التي كانت تعمل في مكتب الغابات في دالات قد أعارته مرة رواية The Tavern لزولا. تجول توميوكا في الشوارع المعتمة إلى أن وصل شارع تنمونكان المزدحم، فتجول فيه ونظر إلى دور السينما داراً تلو الأخرى. على طول الطريق الضيق احتشد وتدفق سيل غزير من الناس مختلطي الأعراق. شعر توميوكا في تلك اللحظة أن ذاك النوع من الحضارة مرهق بالنسبة له. أصبحت أجواء الليل الجافة منعشة بعد أن توقف المطر أخيراً. ثم وصل إلى شارع خلفي، ودخل إلى مطعم توجد فيه نساء يضعن مساحيق تجميل لامعة. أحب توميوكا امرأة قدمت له الجعة وكانت ترتدي ثوب سهرة أحمر اللون بدا متسخاً تحت الأضواء الملونة. لم يكن يعلم أن الجعة يمكن أن

(1) إميل زولا (1840– 1902) روائي فرنسي يمثل المدرسة الأدبية التي تتبع المذهب الطبيعي.

تكون بهذه اللذة. لقد أحب يدي المرأة البيضاوين وعينيها الجذابتين وهما تلمعان بتألق تحت جفنيها الرقيقين الهزيلين كالخيط. ثم ظهر عازف الجيتار في المدخل المزدحم مرتدياً منديلاً أحمر اللون حول رقبته.

أرسلت المرأة التي كانت تتحدث بلهجة محلية سريعة تشبه لهجة يوكيكو عبوة لعازف الجيتار. أضاءت صورة وجه يوكيكو وهي توارى الأرض المبللة بالمطر في مخيلة توميوكا. لكن تلك المرأة القوية قد هلكت، وها هو يحس هنا، مرة أخرى، بمشاعر فتنة جديدة تنمو في داخله. آدم لا يتعلم أبداً من تجربته ويظل مفتوناً دوماً بسحر الجنس. فالله يزرع عدداً لا حصر له من البذور، ثم يؤتي الحصاد ثماره بمشيئته الخاصة. هذا كل ما في الأمر.

رمى توميوكا ست زجاجات من الجعة، الواحدة تلو الأخرى، قبل أن تسحبه المرأة إلى الطابق العلوي.

عاد توميوكا إلى الفندق في وقت متأخر من الليل. يبدو أن المرأة كانت نزيهة على غير المتوقع. فقد ترك معظم المال في خزانة الأمانات في الفندق، لكن المال الذي كان يحمله في محفظته ظل هناك. إنه المال الذي تركته له يوكيكو. آوى توميوكا إلى فراشه الجاف بثياب الخروج، وأخذ يلاحق أفكاره التي أصبحت ثقيلة كالحجارة.

لم تكن لديه الطاقة أو الرغبة في العودة إلى جزيرة ياكوشيما، لكنه أيضاً لم يستطع أن يحتمل فكرة ترك يوكيكو مدفونة هناك وحدها. وما الذي ينتظره في طوكيو على أية حال؟ أدرك توميوكا أنه لم يكن سوى غيمة تائهة، مجرد غيمة تائهة تظهر وتختفي، ثم تعود للظهور من جديد في أي مكان وزمان.

غيوم تائهة

تستعرض «غيوم تائهة» للكاتبة اليابانية فوميكو هاياشي حكاية شابة يابانية تدعى كودا يوكيكو وعلاقة الحب التي تجمعها بشاب تلتقيه أثناء عملهما معاً في مستعمرة الهند الصينية التي كانت ترزح تحت سيطرة الجيش الياباني. وتصور الرواية التغيرات التي شهدتها اليابان بعد هزيمتها في الحرب على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية كافة وتصف حالات اليأس والإحباط التي خيمت على المجتمع الياباني نتيجة لذلك.

تتميز الرواية بأسلوبها الأدبي الراقي وتصويرها الواضح للمشاعر والأحاسيس الإنسانية والوصف المسهب للمناطق التي تجري فيها الأحداث.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ISBN 978-9933-407-05-6
9 789933 407056